أفندار

رواية

أفندار

رواية

تأليف :

محمد فوزي عبد الرحيم

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/13599

الترقيم الدولي: 978-977-820-040-9

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلةِ القانونية.

أفندار

محمد فوزي عبد الرحيم

رواية

إلى أبي..

من كنت غائبًا في حضوره، وصار حاضرًا في غيابه..

***

«إلى منبت أحلامي.. وقراري المكين..

إلى أمي»

«الأقدار.. ما هي إلا أفعال قمنا بها في زمن يسبق ظهورنا للوجود»

رالف والدو إمرسون

فيلسوف وشاعر أمريكي

-١-

عزيز بِك قاسم

١٩٤٩

- انظر إلى عينيها بثبات ولا تلتفت.. وبذلك فقط ستجدها تومئ لك بالطاعة!

قالتها وهي تبتسم نصف ابتسامة تلمع بطبقة من الدموع الهادئة، مسحت بكفها الرقيق على وجهي الصغير، وكأنها تزيد بتلك اللمسة الدافئة من جرعة طاعتي لمطلبها. أدارت جسدي بعيدًا عنها بحركة هادئة.. وأشارت بإصبع يرتعش في بكاء مكتوم إلى تلك اللوحة الجدارية العتيقة، وما عليها من رسم أنيق لإحدى أميرات أسرة محمد علي باشا.

وعندها كررت مطلبها مرة أخرى «انظر إلى عينيْ الأميرة.. ولا تلتفت مهما حدث!»، وأقسمت بحياة وليدها الغائب «صالح» بأن الحياة ستدب في جسد الأميرة إن أطلت التحديق بها.. ولسوف تومئ لي باسمةً.. فقط عليّ ألا ألتفت مهما حدث!

كانت الرؤية ضبابية بعض الشيء لإضاءة الغرفة الخافتة، فلم أر من رسم تلك الأميرة الفاتنة سوى عينيها التي غزتها الأتربة، وما أن بدأت في التحديق بهما حتى أسرت بنظرتها المهيبة روحي، وتعلقت مشدوهًا بها، ولم أتمكن من الالتفات حقًا.. رغم الألم الذي كان يعتصر أصابعي الصغيرة بين يدي أمي الباكية.

توقف الزمن لدقائق.. أو ربما لساعات.. لم أعد أذكر، حتى تحررت من تلك النظرات الباردة، وقد علمت أن الأميرة قد خانت العهد ولن تومئ لطفل ساذج مثلي لا بالطاعة ولا العصيان!

نكّست رأسي في حزن، واستدرت بجسدي الضئيل تجاه جلسة أمي مرة أخرى، التي لم ألحظ تراخي قبضتها الدافئة من على أصابعي، شاكيًا لها

إخفـاقي في جـذب اهتمـام الأمـيرة، ومـا أن وقـع بـصري عليهـا حـتى هاجـم جسـدي صقيـع قـاسٍ كاد أن يصيبـني بالتجمـد!

جـرح غليـظ توسّـط عنـق أمـي السـمراء.. نصـل حديـدي اسـتقر بـين يديهـا المدممتـين.. صـدر توقـف عـن حركتـه المعتـادة بالأنفـاس.. ودمـوع أوشـكت أن تجـف مـن عـلى وجنتيهـا الهادئتـين!

تجمـدت حقًـا لثـوانٍ قبـل أن تتهـاوى قدمـاي أرضًـا في صدمـة، همسـت في رعـب مناديًـا «أمـي».. فلـم تجـب..

كـررت النـداء واحتضنـت بكفّـي يديهـا الباردتـين.. ولكنهـا لـم تعـد تشـعر بلمسـاتي..

وحينهـا فقـط.. آثـرت أن أفعـل معهـا مـا أمرتـني بـه تجـاه الأمـيرة الرخاميـة.. «تعلقـت بعينيهـا ولـم ألتفـت.. حـتى تومـئ!» ولكنهـا أيضًـا لـم تفعـل..

مـرت لحظـات تعالـت فيهـا طرقـات الخـدم عـلى البـاب، بينمـا أنـا كالأسـير خلفـه، لـم أنتبـه ولـم يطـرف جفـني ولـو لطرقـة واحـدة، حـتى عندمـا كـسروا البـاب وانفلـق إلى نصفـين واندفعـت حِـزم الضـوء المتراقـص، الـتي ترسـلها القناديـل الفضيـة الـتي يحملونهـا تهاجـم الظـلام بأيـدٍ مرتعشـة، لـم أنتبـه حقًـا.. ولـم ألتفـت كمـا تعهّـدت!

سـقطت سـحابة الضـوء عـلى ذلـك المشـهد القـاسي، الطفـل الـذي يحتضـن يـدًا ميتـة لجثـة مدممـة.. اعتـاد أن يطلـق عليهـا في يـوم مـن الأيـام «أمـي!». تعالـت صرخـات الخادمـات وتداخلـت عبـارات الاسـتغفار مـن الجنايـني المسـن عـم سـالم، والسـفرجي الشـاب عـم مصطفـى.. بينمـا ألجمـت الصدمـة لسـان أبي.. وتشـاركوا جميعًـا في مشـاعر الهلـع ممـا تـراه عيونهـم..

عندهـا تحـرك الكـون بنصـف سرعتـه، فحملـني عـم سـالم منطلقًـا في ابتعـاد وقـد أطبـق بكفّـه الطينيـة عـلى عيـنيّ، ولمحـت مـن بـين أصابعـه الخشـنة انقضـاض أبي عـلى جسـد زوجتـه الراحلـة، يضمهـا إلى صـدره في بـكاء محمـوم!

اسـتغرق الأمـر عشريـن عامًـا لأفهـم حقًـا مـا الـذي حـدث في تلـك الليلـة المشـئومة، لمـاذا قـررت أمـي أن تنهـي حياتهـا بتلـك الطريقـة البائسـة؟ ولمـاذا

وصمت ذاكـرتي إلى الأبـد بتلـك الحادثـة اللعينـة.. لتطـاردني بمطرقـة الذنـب حـتى نهايـة أيامـي؟

ولیتني ما فهمت!

شردت كثـيرًا في تلـك الليلـة، ولكـن.. لـم يكـن اليـوم مناسـبًا لذلـك الـشرود المتكـرر.. فاليـوم هـو الأهـم في حيـاتي.. وفيـه كنـت قـد تمكنـت أخـيرًا مـن تحقيـق حلمـي المؤجـل.

فقـد انتهيـت أخـيرًا مـن تجهـيز مكتـبي الفاخـر الـذي تنازلـت عـن ثمانيـة قراريـط مـن مـيراثي بـأرض المزرعـة لوالـد زوجـتي كامـل باشـا مـن أجـل شراء أثاثـه مـن إيطاليـا، واسـتغرقت أسـبوعًا كامـلًا بمسـاعدة عـم سـالم -سرًا ودون علـم والـدي- في ترتيـب محتوياتـه، حيـث المكتبـة العـاج الـتي بـرزت حـروف اسـمي الأولى عـلى قائمهـا، والـتي امتـلأت عـن آخرهـا بـكل مـا قرأتـه يومًـا أو اقتنيتـه مـن كتـب تمنيـت مطالعتهـا، وذلـك «الجرامافـون» الـذي أرسلته زوجـتي ليـلى هديـة مكتـبي الجديـد في محاولـة أخـرى لاسـتقطاب مشـاعري نحوهـا، وكذلـك المقعـد القطـني الفاخـر الـذي رقـد أسـفل النافـذة المزخرفـة. وتـولى عـم سـالم تنظيـف وتجهـيز السـجاد الإيـراني الأسـود.. بينمـا انهمكـت أنـا في تنفيـذ المهمـة الأكـثر ثقـلًا عـلى قلـبي.. وهـي تثبيـت الصـور الفوتوغرافيـة لمـن اضطـررت إلى نِفاقهـم رغمًـا عـني للاسـتمرار في عمـلي المحـرّم..

صورة ملك مصر والسودان وسيد النوبة فاروق الأول..

وصورة أبي قاسم باشا فريد..

وصورة حموّي كامل باشا الحداد..

ومارست عادتي القديمة في محو أي أثر لذكرى أمي حتى ولو بصورة باهتة!

وأخـيرًا.. أزلـت الأتربـة عـن اليافطـة الرخاميـة الـتي زينـت جبهـة بـاب المكتـب البـني.. وقرأتهـا في أمـل وتطلّـع إلى مسـتقبل عـاش أسـيرًا لمـاضٍ مكلـوم..

«عزيز بك قاسم.. طبيب نفسي»..

راقبـت اليافطـة وأنـا أعيـد تذكـير نفسـي بتلـك المهمـة المقدسـة الـتي ارتضيـت حمـل أثقالهـا عـلى كاهـلي. «مسـاعدة كل مـن يلجـأ إليـك مـن مظلمـي النفـس

يـا عزيـز مهمـا كلـف الأمـر». وكأني اخـترت تلـك المهنـة دونًـا عـن كل مـا اعتـاد الصغـار عـلى تصـوّره بإجابـة عـلى أسـئلة ذويهـم «مـاذا تتمـنى أن تكـون عندمـا تكـبر»، فقـط لأكفّـر عـن فشـلي في مهمـة إنقـاذ روح أمـي بعـد المأسـاة الـتي دفعتهـا للانتحـار بتلـك الطريقـة القاسـية.

جلسـت في هـدوء تمرنـت عليـه كثـيرًا، واضعًـا قدمًـا فـوق الأخـرى في أناقـة وثقـة، متخـذًا مـن تلـك الأرجـل المتعانقـة مجلسًـا لمفكـرتي الورقيـة الصغـيرة كمـا تعلمـت مـن أسـتاذي «مسـيو أدريـان»، واسـتمعت في اهتمـام إلى الفاتنـة «آمبورسـين» أو «سـين هانـم»، كمـا اعتـاد زوجهـا «محمـود بـك فتـح اللـه» أن يناديهـا لصعوبـة نطـق اسـمها بالفرنسـية..

كانـت «سـين» هانـم امـرأة ذات جمـال فطـري، بوجـه بـه اسـتطالة متصبـغ بقطنيـة الثلـج الأبيـض، وعينـان واسـعتان كبلـور أخـضر مزخـرف.. وأنـف صغـير مدبـب ينتصـف وجنتـين ملسـاءتين لا يعـترض سـطحهما سـوى خصلـة ذهبيـة من شـعر اختفـى معظمـه تحـت قبعتهـا الورديـة الصغـيرة، الـتي صُنعـت خصيصًـا لتناسـب رداءهـا القرمـزي شـديد الاتسـاع..

اعتدلـت في جلسـتي باحـترام بالـغ في حـضرة ذلـك الجمـال الأسـطوري، وهمسـت في ابتسـامة هادئـة:

- لقـد اتخـذتِ الخطـوة الأصعـب بقدومـك إلى مجلسـي.. ومـا عليـكِ الآن إلا أن تتحـدثي دون خـوف أو قلـق.

رفعت خصلتها الذهبية في قلق وهي تنظر أرضًا في شرود ساحر:

- أخبرني يا عزيز بك.. هل تذكر أكثر اللحظات بؤسًا في حياتك؟

ابتسمت في سخرية:

- لقـد تبادلنـا الأدوار مبكـرًا.. فأنـا مـن عليـه أن يسـأل.. وأنـتِ مـن عليـه أن يُجيـب..

رفعت عينيها بنظرة استعطاف تنهدت لها:

- تحمّلـني مـن فضلـك.. فلسـت امـرأة طليقـة اللسـان.. ولـن أتمكـن مـن البـوح لـك بمشـاعري إلا إذا بادلتـني مشـاعرك..

أغلقت مفكرتي الصغيرة، وأومأت في موافقة:

- حسنًا.. كما تريدين..

ابتسمَت في بؤس:

- هل عليّ أن أكرر السؤال؟

شردتُ مرة أخرى في تلك الليلة المظلمة وتعاقبت في ذهني ومضات قاسية من نظرات الأميرة الرخامية وقبضات يديّ أمي على أصابعي وهي تنحر عنقها في ألم وغفلة مني، وكفّا عم سالم وهما تغطيان وجهي، فطرقت تلك الومضات جفوني تجاه إغلاق قوي لاحظته «سين»..

نطقتُ بأعين مغلقة:

- أجل.. أذكر..

قالت في خجل وقد لاحظت حالتي الهادئة:

- من أين بدأَتْ؟

- من حيث ينتهي كل شيء.. بابتسامة..

- كيف لابتسامة أن تكون جزءًا من لحظة بائسة؟!

- عندما نعلم أنها ستكون الأخيرة..

- أكانت لحبيب؟!

فتحت عيني في ضيق من تذكر الأمر، وقد لمعت عيني بغلاف رقيق من دمعة محبوسة:

- تمنيت لو لم يكن..

افترس الحرج وجهها وتصبغ بلون قرمزي كردائها الطويل بمجرد أن لمحت دمعتي:

- «باردون» عزيز بك.. لم أقصد أن...

ابتسمْت مقاطعًا اعتذارها المضطرب:

- لا عليكِ.. ها وقد صارحتك ببعض مشاعري.. دورك الآن.. أخبريني بما

يؤرقـك.

استسلمتْ أخيرًا وتعلّقت بعيني:

- ربما يؤرقنى ما يؤرقك.. تلك الابتسامة!

- ابتسامة أخيرة؟!

- لـم تصبـح ذلـك بعـد.. (تنهَّـدَت في انكسـار) بالرغـم مـن أنـك لـم تكمـل شـهرين في المحروسـة فإنـه مـن المؤكـد أن الخـبر قـد وصـل إلى مسـامعك.. باسـتهجان البعـض وتعاطـف البعـض الآخـر.. سـين زوجـة محمـود بـك.. امـرأة عاقـر!

- أجل.. ولكن ما أعرفه أن محمود بك لا يبالي.

- إنـه فقـط يصطنـع ذلـك! يجلـدني في كل يـوم وليلـة بتلـك الابتسـامة الهادئـة، الـتي يظـن أنهـا سـتخفي حسرتـه.. ولكـني.. ولكـني أعلـم أنهـا قـد تكـون الأخـيرة في يـوم مـا.. مهمـا ظـن أن عشـقي بقلبـه سـوف يُكفيـه.. لكنـه لـن يتمكـن في النهايـة مـن التنـازل عمـا يأمـل..

اعتدلت مرة أخرى وفتحت مفكرتي:

- هـل مـا يعتـصرك.. هـو الخـوف مـن رحيلـه عنـك؟.. أم (وقـد علمـت أن هـذا هـو الاحتمـال الصحيـح) شـعورك بالذنـب والتقصـير تجـاه مـن تحبـين؟!

انفجرت في حزن:

- بـل الكراهيـة يـا عزيـز بِـك! الكراهيـة تجـاه نفـسي وذاتي.. لـم أعـد أطيـق النظـر في المـرآة.. لـم أعـد أرغـب في رؤيـة تلـك البلهـاء الـتي تتسـبب في كل لحظـة بالألـم لمـن تحـب..

اسـتقبلت انفجارهـا في ثبـات، بينمـا صمتـت هـي في خجـل بعـد خروجهـا عـن آداب المـرأة الراقيـة. قلّبـت عينيهـا أرضًـا في حـركات دائريـة.. ثـم اعتدلـت اسـتعدادًا للرحيـل في شـعور بالعـار..

- ربما كانت فكرة ساذجة.. اسمح لي بالانصراف..

نهضت في احترام لموقفها:

- علـى العكـس.. بـل كانـت فكـرة تسـتحق الإعجـاب.. منـذ أن جئـت إلى المحروسـة.. لـم يجـرؤ أحدهـم عـلى طـرق بـاب طبيـب نفـسي كمـا فعلـتِ.. فالجميـع يعتبرهـا وصمـة قـد تلطـخ ألقابهـم بعـار الجنـون..

أكملت نهوضها وتحركت خطوة:

- لن أوصيك بالحفاظ على سريّة لقائنا..

وأثنـت ركبتهـا هبوطًـا في تحيـة راقيـة وتحركـت للرحيـل، فأومـأت لهـا في احـترام ونـزولًا لرغبتهـا، ومـا أن اختفـت حـتى ألقيـت بجسـدي في إرهـاق عـلى ذلـك المقعـد الفاخـر، الـذي لـم تنجـح بطانتـه القطنيـة في تخفيـف حـدة التعـب الـذي أصـاب نفـسي قبـل أعضـائي.

كنـت أعلـم منـذ أن اخـترت دراسـة الطـب النفـسي بفرنسـا أنـه لـن يلقـى رواجًـا بـين سـكان المحروسـة، فهـم يعتـبرون الطبيـب النفـسي سـفيرًا للجنـون ويفترقـون عـن لقائـه –لـو اسـتطاعوا– فـراق المـشرق والمغـرب.

ولـولا أن «سـين هانـم» سـيدة فرنسـية لـم تُمسـخ معتقداتهـا بعـد بمخـاوف المصريـين، لظللـت بـلا عمـل لشـهرين آخريـن، ولواظـب كامـل باشـا عـلى عادتـه اليوميـة في تزيـين مسـتهل أحاديثـه معـي أو عـني بالسـخرية ممـا أفعـل!

وبالرغـم مـن محـاولات زوجـتي الفاتنـة «ليـلى هانـم» سـليلة الحسـب والنسـب إرضـائى بدعمهـا الزائـف لعاهـتي الوحيـدة، لكنهـا لـم تنجـح إلى الآن في الولـوج إلى قلـبي ولـو خطـوة واحـدة، وتختـار –مثـلي تمامًـا– أن تتجاهـل الحقيقـة المؤلمـة بـأني لـم أتزوجهـا إلا بإجبـار مـن أبي شريـك أبيهـا بمصنـع النسـيج.

وكالعـادة، اخترقـت خطـواتي البوابـة الفاخـرة لقـصر كامـل باشـا متجاهـلًا وجـوده بالحديقـة الخـضراء يجلـس متجرعًـا قهوتـه العصريـة اليوميـة.. يتلقـى ظهـري كلماتـه الضاحكـة في سـخافة واضحـة:

- قـد أعيـد لـك القراريـط الثمانيـة في مقابـل ذلـك المكتـب المقفـر.. فـلا حاجـة لـك بـه دون عمـل! وقـد أسـتفيد بـه في مقابـلاتي القريبـة مـن ميـدان التحريـر.

وصلـت إلى غرفـتي لحظيًـا، وقـد أسـقطت زمـن مـروري ببهـو وسـلالم القـصر الفاخـر، وارتميـت عـلى فـراشي في إرهـاق بالـغ. أغمضـت عيـني مصطنعًـا نعاسًـا

مفاجئًا. مـرت ثـوانٍ رجوتهـا أن تمنحـني نعاسًـا حقيقيًـا يقـذف بي خـارج أسـوار ذلـك الواقـع المرهـق. ولكـن.. التقطـت أذنـاي صريـر أنفـاس شـيطانية كانـت تقـترب رويـدًا مـن مأمـني.

كانـت زوجـتي البائسـة. استمعت لصمتهـا فأدركـت مراقبتهـا لاصطنـاعـي التافـه للنـوم. بـدت أنهـا لـم تـرد الاستسـلام لتلـك الخدعـة السـاذجة، فارتمـت خلـف نومـتي كصقـر ينقـض عـلى سـمكة صغـيرة تربّـت عـلى أن الخـروج مـن المـاء ليـس نجـاة مـن الغـرق، وإنمـا مـوت بطـيء. أخرجتـني مـن المـاء وقـد ألصقـت نهديهـا بظهـري، وكأنهـا تحـاول أن تعالـج في حنـان –واسـتقطاب لشـهوة– مـا أصابـه مـن كلمـات أبيهـا مـن كدمـات أليمـة.

همست في أذني:

- لـن أواسـيك اليـوم يـا عمـري.. بـل سـأعطيك مـا سـتقطع بـه لسـان ذلـك الأحمـق!

ارتعشـت عينـاي المغلقتـان في تـردد، مـا بـين الاسـتجابة لغوايـة حديثهـا، والاسـتمرار في نومـي الـكاذب. فمـرت لحظـات قصـيرة مـن الصمـت قطعهـا زفـير لحظـي انطلـق مـن أنفهـا في إشـارة إلى ابتسـامة هادئـة.. وكأنهـا اكتشـفت فعلـتي الطفوليـة..

- عندما تستيقظ.. فقط تذكر ذلك الاسم.. «جلنار طوسون»!

اعتدلـتُ في لحظتهـا مواجهًـا إياهـا في تعجـب مـن ذلـك الاسـم، وعندهـا أطلقـت ضحكـة أنثويـة عاليـة لـم تُـثر فيَّ إلا الحنـق:

- وما علاقتك بتلك المرأة اللعوب؟!

واصلتْ مزاحها المستفز:

- صُـن لسـانك يـا عمـري.. ألا تعـرف عقوبـة الخـوض في عفـة أمـيرات الأسرة الحاكمـة؟

انتفضت في غضب وأمسكت بذراعيها بقوة:

- كفي عن ذلك المزاح!

اهـتزت بـين قبضـتي الغليظتـين الـتي لـم تتناسـب مـع مـا قالـت، ولكنهـا بـدت متنفِّسًـا لشـحنة الغضـب الـذي احتبسـته بـين ضلوعـي لفـترة طويلـة.. ولـم أتمكـن مـن إطلاقـه لضآلـة قـدري..

بينما ضمت هي كتفيها إلى صدرها في ابتسامة حنين:

- آااه.. لـو أعلـم أن غضبتـك سـتقطع تلـك الهدنـة الطويلـة بـين أصابعـك وجسـدي لأغضبتـك في كل يـوم تـشرق فيـه الشـمس عـلى جبهتـك يـا عمـري!

تسـمرت نظـراتي بغوايتهـا للحظـات، ولكـن لـم ألبـث حـتى اندفعـت مبتعـدًا عنهـا زافـرًا في ضيـق، مشـيحًا بوجهـي عنهـا.. فاتبعتـني في تنهيـدة أحرقـت قلبهـا، وكأنهـا تبتلـع حزنهـا مـن انـصرافي عـن مشـاعرها في يـأس..

- اطمـئن يـا عزيـز.. فمجالسـة الغـواني وإن كـن أمـيرات.. ليسـت مـن هوايـات ليـلى هانـم الحـداد..

- فما القصة إذًا؟

- كمـا أخبرتـك.. ذلـك الأحمـق الـذي أصر القـدر عـلى أن يكـون والـدي.. لا أطيـق صـبرًا حـتى أطيـح بـه إلى الأبـد.. مـن أجلـك!

اصطنعت الرفض:

- ومن أخبركِ أني أتمنى الإطاحة به؟

تجاهلت كذبتي الباهتة وأكملت:

- ولا سبيل لنا في ذلك.. إلا جُلنار طوسون..

ران الصمـت بيننـا للحظـات، دون أن أعقّـب بالرفـض، فابتسـمت وقـد اعتـبرت صمـتي بمثابـة موافقـة صريحـة باسـتكمالها الحديـث.. وأكملـت، ولكنهـا هـذه المـرة كانـت تشـتعل بحمـاس اللصـوص:

- كنـت أشـك لفـترة طويلـة بعلاقـة آثمـة بينهمـا.. ولكـن غـاب عـني الدليـل.. حـتى تمكنـت عائشـة مـن إيقـاع إحـدى وصيفـات جلنـار في حديـث سرّي.. وأخبرتها أنهمـا يتلاقيـان كل ثـلاث ليـالٍ..

حصلت أخيرًا على ما أبرر به استنكاري لما قالت:

- عائشة؟ الخادمة؟ أترسلين الخادمة في أثر أبيكِ؟!

أجابت في ثقة حازمة:

- لم يكن دورك قد حان بعد!

انتبهت لها متعجبًا:

- أي دور؟

ابتسمت في ثبات وشيطانية:

- الانتخابات على الأبواب يا عمري.. وكامل باشا الحداد يعتبر من أهم مرشحي الوفد هذه المرة.. ومن المستحيل أن نسمح بفوزه..

- طالما تعجبت من حقيقة أن تكوني أول من يدعم السعديين ووالدكِ من رجال الوفد!

- لا ذنب لى في أنه اختار حصانًا خاسرًا..

- لم تعد لي هواية منذ عودتي من باريس سوى مطالعة الصحف يا ليلى.. لا تخدعي نفسك.. فضائح وزارة السعديين السابقة.. تلطخ جبين الحزب بالعار.. فربما تمتطين أنتِ ذلك الحصان ولكن لا تشعرين..

أطلقت ضحكة عالية وراقبتني في دهشة:

- عزيز يتحدث بالسياسة؟! أكاد لا أصدق..

تنهّدتُ من سخريتها:

- قررت فقط أن أطالع الصحف!

تجهمت في تعالٍ:

- تلك الصحف نحن من يكتبها يا عمري.. فلا تعتلي أذني بما لا تفهم من حديث تافه..

استشعرت حنقها من إهانة حزبها الحبيب فشعرت بنشوة دفعتني لاستفزازها:

- ذلك الحديث التافه استقر بقناعة الكثيرين من سكان المحروسة..

قرأت محاولتي الطفولية وابتسمت نصف ابتسامة:

- هـا قـد فهمـت مـا لـم تفهمـه.. أتسـتنكر الضغـط عـلى كامـل باشـا بفضيحـة أخلاقيـة؟ ذلـك هـو الملعـب الآن.. والوفـد هـو مـن بـدأ برصفـه.. بعدمـا شـن تلـك الحـرب القـذرة بالتأثـير عـلى أصـوات الناخبـين بالـضرب في سـمعتنا.. ومـن غـير صحيفـتي النـداء وصـوت الأمـة وغيرهمـا مـن حلفائـه ليكونـوا لـه خـير معـين في ذلـك؟ البـادئ بالقـذارة هـو الأظلـم يـا عمـري..

احتقرت مبدأها:

- تلـك المقـالات عـن تعذيـب السـجناء واسـتغلال النفـوذ لـم تكـن افـتراءً وأنتِ تعلمـين ذلـك.. وإلا لـم يكـن لإبراهيـم عبدالهـادى رئيـس وزرائكـم أن يعـترف بذلـك ويـبرره أيضًـا.

اقتربت مني في تحدٍ:

- حسنًا.. وعلاقة كامل بجلنار ليست افتراءً هي الأخرى.. فما الفارق؟

سـكتُّ للحظـات. ولـم أعلـم حينهـا سـببًا لذلـك السـكوت. ربمـا ضقـت ذرعًـا مـن التفافهـا حـول دفاعـي عمّـا أؤمـن بـه لتثبـت صحـة مـا تؤمـن بـه. وربمـا لرغبـة خفيـة اسـتقرت بقلـبي. رغبـة الهزيمـة أمـام حجتهـا فقـط لأشـارك في الإطاحـة بكامـل باشـا الحـداد. فبالرغـم مـن اسـتنكاري لأسـاليبها في الإطاحـة بأعدائهـا، لكـن عدوهـا الآن هـو عـدوي.

تظاهرت بمواصلة رفضي لرغبتها واكتفائي من كلماتها، فتجهمت في ضيق:

- حسنًا حسنًا.. وما علاقتي أنا بذلك الهراء السياسي كله؟

ابتسمت في غواية مرة أخرى وأراحت كفها على وجهي في إغراء وثبات:

- لـو علـم زوج جلنـار بالعلاقـة بينهـا وبـين الحـداد.. لانتهـى الأمـر بكلمـة واحـدة..

راقبتهـا بعينـين ضـاق جفناهـا، وكأنمـا أطبّـق عليهـا كل مـا تعلمـت مـن أسـاليب الفراسة:

- حسـين قاديـن لـن يصـدق كلمـة واحـدة تـسيء إلى جُلنـار.. وإن صـدّق.. فلـن

يفعـل شيـئًا.. فسيرتها العطـرة تهاجـم أذنيـه منـذ سـنوات.. ولـم يتخـذ إلى الآن خطـوة واحـدة تجـاه معاقبتهـا أو معاقبـة عاشـقيها..

- لم يكن يملك الدليل.. و...

قاطعتها بخطوة للوراء وقد فهمت ما كانت تحاول أن تقول:

- أسيكون دوري هو إخبار قادين بالأمر؟

تنهدت من سذاجتي التي لا ترق لمستوى فكرها الإبليسي:

- كلا بالطبع.. فلن يصدقك.. إلا إذا...

- إلا إذا ماذا؟!

- قدمت له الدليل.

- وكيف سأفعل ذلك؟!

ابتسـمت في رضـا مـن استسـلامي للأمـر ومجـاراتي لهـا، وقـد فضحـت رغبـتي في الإطاحـة بأبيهـا بالرغـم مـن محـاولاتي السـابقة في اصطنـاع الـشرف والمـروءة:

- ما دامت كلفت نفسك عناء السؤال.. فلسوف توافق!

انتفضت في غضب:

- أوافق على ماذا؟ كفي عن تلك الألاعيب!

أجابت في حزم قاطع:

- لسـت أول طبيـب نفـسي بالمحروسـة يـا عمـري.. بـل سـبقك أمـين بـك عبدالمنعـم.. وهـو الرجـل الـذي لا تتأخـر جُلنـار في مقابلتـه سرًّا أمـلًا في القضـاء عـلى نوبـات فزعهـا الليليـة!

سألت في ريبة:

- وما علاقة الطب النفسي بالدليل الذي تريدينه؟

جلسـت في هـدوء واضعـة إحـدى قدميهـا فـوق الأخـرى في ثقـة كسياسـية مُحنكـة:

- أوصيـت وزيـر الداخليـة بالإطاحـة بأمـين بـك.. وسـيتم اقتيـاده إلى السـجن

بتهمـة انضمامـه لجماعـة الإخـوان المسـلمين.. لقـد صـدر قـرار بحلّهـا بعـد النقـراشي إن كانـت الأخبـار لـم تصـل إلى باريـس..

قاطعتها:

- أجل، ولكن أمين بك ليس إخوانيًا!

زفرت في ملل من بطء فهمي:

- حتى ولو لم يكن.. لن يكون من الصعب تلفيق ذلك..

راقبتها في ضيق:

- أتلقين برجل مسن ضعيف إلى السجن بتهمة باطلة.. من أجل ماذا؟

اقتربت مني في شغف غير مفهوم:

- هـذا هـو السـؤال حقًـا.. لأخـلي لـك الطريـق يـا عمـري.. سـأقدمك إلى جُلنـار بديـلًا عنـه و...

قاطعتها في غضب:

- توقفي! لن أفعل ذلك!

قاطعتـني في حـزم مخيـف: بـل سـتفعل! سـتحصل عـلى ثقـة جُلنـار.. وتُفـضي إليـك بكامـل اعترافاتهـا.. وستسـتخدم الجرامافـون الـذي وصـل إلى مكتبـك صبـاح اليـوم لتسـجيل اعترافاتهـا.. وتسـوقها إلينـا..

وقبـل أن أهاجمهـا بقـول آخـر، نهضـت في هـدوء باسـم، وطبعـت قبلـة بـاردة عـلى وجنـتي السـاخنة، واتجهـت للرحيـل مذيلّـة رحيلهـا بجملـة ألجمـت لسـاني:

- ولكـن احـذر يـا عمـري.. فـ«جلنـار» امـرأة ذات جـرأة وثبـات.. قـد تتلاعـب بـك طويـلًا إن شـعرت بخـواء نفسـك.. وسـبيلك الوحيـد هـو أن تتبـع نصيحـتي..

ثـم أردفـت كشـيطان تناقـل بـين الأزمـان.. وعلـم مـن الحديـث مـا يطـرق بـه عـلى القلـوب ليُصمتهـا:

- انظـر إلى عينيهـا بثبـات ولا تلتفـت.. وبذلـك فقـط سـتجدها تومـئ لـك بالطاعـة!

مـرت الأيـام دون أن أحسـب لهـا عـددًا، قضيتهـا في محاولـة عَجْـم مـا حـدث

مـع تلـك «الليلـة الحدّاديـة».. وبعـد تفكـير مضنٍ بـدأت الصـورة تتجـلي أمـام عيـني، فأنـا لـم أتـزوج حقًـا مـن فتـاة جميلـة هادئـة تـذوب عشـقًا في شـخصي السـاذج، أجـبرني أبي عـلى الـزواج منهـا بضغـط مـن أبيهـا، وإنمـا تزوجـت مـن امـرأة شـيطانية تتلاعـب بأقـدار العبـاد وقلوبهـم.. وربمـا هـي مـن أجـبرت أباهـا عـلى إجبـاره لأبي ليجـبرني عـلى الـزواج بهـا.. سلسـلة بائسـة مـن الإجبـار فقـط لأنهـا تحبـني وترغـب في امتـلاكي!

خرجـت عـن شرودي كالعـادة عـلى صـوت عـم سـالم الـذي اقتحـم جلسـتي بمكتـبي الفاخـر، معلنًـا عـن حضـور آلهـة الشـهوة في مـصر الحديثـة «جُلنـار طوسـون»..

انتصبـت في ثبـات بمنتصـف الغرفـة الواسـعة مراقبًـا درفـتي البـاب، اللتـين زينتـا دخـول تلـك الفاتنـة بظهـور درامـي، ومـا أن اقـترب ظلهـا مـن عتبـات الغرفـة حـتى أضـاءت بوهـج لـم أعلـم مصـدره، فقـط ترامـى ضياؤهـا عـلى الجـدران وزحـف عـلى قطـع الأثـاث زحفًـا.. حـتى وقفـت أمـام عيـني المنكـسرة أرضًـا..

رفعـت بـصري في بـطء بالـغ.. وتسـلقت نظـراتي كل إنـشٍ مـن جسـدها.. بدايـة مـن ذلـك الحـذاء المـاسي عـالي الكعبـين، مـرورًا بخصرهـا المخروطـي العائـم ونهديهـا الممتلئـين، وحـتى عينيهـا الواسـعتين المظللتـين بأهـداب منفرجـة حالكـة السـواد.. وهـي تنظـر إليّ في جـرأة وبريـق يخطـف الأبصـار..

ربمـا لـن أتمكـن مـن إنصـاف هيئتهـا بحـق الوصـف، فهـي حقًـا تُمثـل أكـثر خيـالات الرجـال تطرفًـا.. وأفتـك مـا قتـل النسـاء غيظًـا!

وقفـت أمامهـا مشـدوهًا وكأني عـدت إلى شرودي مـرة أخـرى، فتـوارب فمهـا بنصـف ابتسـامة قاتمـة وأثقلـت جفنيهـا في يـأس، وكأنهـا تعجـز عـن إتمـام تلـك المهمـة الباسـمة حـتى النهايـة. ومـا إن فعلـت حـتى غـادر عزيـز الذكـر الأهـوج، وأجلـس محلـه عزيـز بـك قاسـم الحكيـم المحنـك، الـذي علـم أن مـا وراء تلـك الأنـثى الكاملـة بـئرًا سـوداء غائـرة مـن اليـأس والحـزن..

عدَّلـتُ مـن وقفـتي وأشرت لهـا بالجلـوس، ومـا أن فعلـتْ حـتى جلسـتُ أمامهـا في ثقـة الحكمـاء، وكالعـادة.. أسـندت مفكـرتي الورقيـة عـلى سـاقيّ المتعانقتـين في

ثبـات.. وشرعـت في تعريـف نفسي أمـام حضرتهـا..

لكنها قاطعتني في هدوء بالغ وصوت متقطع الأوصال:

- أعرف كل شيء عن زوجتك وأبيها وخطتها في استغلالي للإطاحة به!

أظلمـت كلماتهـا الغرفـة وشـعرت بثقـل يخيـم عـلى رأسي، فانعقـد لسـاني.. وهاجـم الصقيـع شـعيرات ذراعـي فانتصبـت. راقبـت حالـتي في هـدوء، فأومـأت بتأكيـد الأمـر..

كان تلـك هـي المـرة الأولى الـتي أنظـر فيهـا إلى عـين امـرأة ولا ألتفـت.. لتومـئ لي بتلـك السرعـة!

ودون مقدمـات انهمـرت دموعهـا كقطـرات سـيل عـارم أطـاح بالنوبـة، وجـرّد ملكنـا العظيـم مـن لقـب سـيدها، وأطبقـت عـلى يـدي في هلـع:

- لـم آتِ إليـك مـن أجـل مـا خططـت لـه مـع زوجتـك.. وإنمـا جئـت لـك في أمـر أهـم مـن ذلـك بكثـير..

تبـادر إلى ذهـني أن أنفـي تهمتهـا، لكـني لـم أفعـل، بـل نهضـت في مـروءة لـم أشـعر بهـا مـن قبـل، واتجهـت إلى الجرامافـون وأطحـت بأسـطوانته الـتي كانـت تسجّل لقاءنـا.. وعـدت إليهـا وقـد وقَّعـت مـرة أخـرى عـلى ميثـاق شرف المهنـة، واقتربـت منهـا في صـدق بالـغ..

همست إليّ بشفتين مرتعشتين:

- لـ.. لماذا عليّ أن أثق بك؟

ابتسمت لها في تقدير لاتهامها:

- لأني أقسمت على مساعدة من يحتاج..

راقبتني في دموع وريبة:

- ومن ساعدت قبلي؟

نظرت أرضًا في صمت وتذكرت أمي:

- لا أحد!

صرخت فجأة وكأن الوقت يضيق بها:

- لمـاذا إذًا؟! أخـبرني بسـبب واحـد لتختـارك أنـت دونًـا عـن الجميـع لترسـلني إليـك..

ظننت أنها تتحدث عن زوجتي:

- مَن.. ليلى؟!

امتعضت من خطأي الفادح:

- كلا بالطبع!

- من إذًا؟

- ألم تخبرك؟!

- بالله من تقصدين يا سمو الأميرة؟!

صرخت في هجوم:

- كف عن التلاعب بي أيها الأحمق!

تعجبت من صرختها وهيستيريتها الملحوظة:

- حسنًا حسنًا.. فقط اهدئي! هل ااا....

قاطعتني في جنون:

- إنها هنا!

اقتربت منها في ريبة وهدوء متحفزًا لانفجار آخر منها:

- حسنًا.. أين؟!

تلفّتت يمينًا ويسارًا وتحدثت هامسة في رعب بالغ:

- تـ.. تلك الفتاة.. إنها.. إنها تطاردني! في كل مكان! تريد ااا..

جلست أرضًا أمام قدميها في محاولة للسيطرة على خوفها:

- أنـا لا أرى أحـدًا.. إن كانـت بالخـارج فسأرسـل إليهـا عـم سـالم ويـأتي بهـا.. اطمئـني..

انتفضت ناهضة في قوة:

- إنها أمامك أيها الأبله.. كيف لا تراها؟!

اقتربت منها في حذر، فانطلقت راكضة في هلع إلى المكتب وأطاحت بأوراقه ومحتوياته أرضًا.. وقد علقت عينها على باب الدخول!

صرعتها غاضبًا:

- اهدئي يا سيدتي! من هي تلك الفتاة؟! ما اسمها؟!

قبضت على يدي في قوة وخوف، وأشارت للباب:

- فـ.. فقط راقب الباب.. ولا تلتفت قبل أن تأتي!

أمسكت بها في قوة محاولًا تهدئتها.. لكنها قبضت على يدي بقبضة غليظة.. وحدّقت بعيني في لحظة توقف فيها الزمن كما لم يفعل من قبل.. وكأنها أرادت أن تخبرني أمرًا ألجم الخوف لسانها عنه!

وما أن عاد الزمن إلى حركته الطبيعية حتى انحرفت حدقتها بعيدًا عن عيني تجاه باب المكتب خلفي وجحظت عيناها..

التفتُ تجاه مهبط بصرها ويدي تحت قبضتها.. فلم أجد شيئًا.. ولم يقترب أحدهم من الباب حقًا.. وعندها.. شعرت بقبضتها تعتصر أصابعي، اتسعت حدقة عيني لذلك الشعور فقد شعرت به سابقًا!

أدرت رقبتي تجاهها في قوة! وحينها فقط.. تجمدت طفلًا مرة أخرى..

فقد نحرت جُلنار عنقها بفاتحة الأظرف، وارتطم جسدها أرضًا دون حراك!

-٢-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

«لا تنظري إلى عينها.. حتى تتجاهلَكِ تمامًا»..

قالها وهو يشير بسبابته إليّ في ثبات، حاولت تنفيذ أوامره في صعوبة بالغة وقد اختفى وجهه خلف جسد تلك الكاميرا الرقمية التي اشتراها لتوّه بكل ما ادخر من أموال، والتي بالرغم من صغر حجمها فإنها نجحت في إخفاء رأسه الصغير خلفها.. حتى شعرت وكأن عدسة الكاميرا التي استبدلت ملامحه هي التي تتحدث وتنطق في برود.

«عين الكاميرا لا ترى من ينظر إليها.. فقط تعشق من يتجاهلها»..

أردف بتأكيد على تلك الملاحظة خلال جلسة التصوير الأولى لي وربما المائة له، وبالرغم من جرأتي المعهودة، فإني شعرت بالتوتر للمرة الأولى.. الذي لم يكن «عمرو» سببًا فيه، وإنما بسبب تحديق تلك العدسة الزجاجية بوجهي وبريق قوسها القزحي الذي لمع كلما انعكست عليها إضاءة الغرفة.

ضرب البرق اللحظي أرجاء الغرفة بمجرد أن ضغط على زر التصوير، وحينها لم أتمكن من مقاومة النظر مباشرة إلى تلك العدسة «النّداهة» في نظرة خاطفة، اعتدل عمرو في إرهاق وخيبة أمل متنهدًا، ناظرًا إليّ في عتاب مازح.. بينما اكتفيت أنا بمد كتفي للأعلى في بلاهة.

«لم أتمكن من المقاومة»..

تحرك تجاه مصباح الإضاءة الوهّاج وأغلقه أثناء حديثه: كنت مخطئًا عندما قررت أن تنالي شرف الصورة الأولى لتلك الكاميرا المقدسة.. الآن سيظن الجميع أني أبعد ما يكون عن المصور الاحترافي..

تحركت إليه وربت على كتفه في استهزاء مازح ناسب فرق السن بيني وبينه وكذلك فرق الطول: لا تتفاخر هكذا.. أهناك من يرى هراءك البصري غيري؟

ابتسم في دفاع طفولي وهو يسحب الملاءة السوداء التي حبست ضوء النهار خارج نافذته. فاندفعت أشعة الشمس تغزو القاعة الواسعة: هكذا الحال الآن ولكن انتظري حتى يصل «إيميل» المنظمة العالمية..

تجرعت بعضًا من كوب العسل المغلي الذي طلبته خصيصًا: ألا تعلم ما يقال في تلك المواقف؟

نظر إليّ في اهتمام لأردف قبل أن أطلق ضحكة عالية: موت يا حمار!

أومأ بعنقه وهو ينظر أرضًا في ابتسامة اختلطت بخوفه من أن يصيب مزاحي من الحق حقًا، وعندها اقتربت منه في لطف: فقط أمزح معك أيها الأبله.. لا أحتاج أن أردد لك في كل مرة نتقابل فيها صدق إيماني بموهبتك الفريدة.. وآمالي الكبرى في رؤيتك كأفضل مصور فوتوغرافي عرفته البشرية..

ابتسم في امتنان وهو يجلس على مكتبه الصغير ناقلًا محتويات كارت الذاكرة من الكاميرا إلى اللاب توب الخاص به استعدادًا لإدراجها داخل برنامج تعديل الصور لتنقيحها: ألا تشعرين في بعض الأحيان بذلك الـ...؟

تنهد واصطنع التحديق بشاشة اللاب توب في تجنب لمواجهتي خجلًا من شعوره: ذلك.. ذلك الشعور القاسي.. أنك ربما تكونين على خطأ.. متوهمة فيما تظنينه بنفسك.. أموهوبة أنا حقًا؟ هل أسعى في الطريق الصحيح؟ هل سأحقق يومًا ما يظن الجميع أني لست قادرة عليه؟

نطقت في لحظية وتنهيدة حزينة: في كل لحظة تتبع استيقاظي.. وحتى تلك التي تسبق نومي!

نظر إليّ في دعم وكأننا اتحدنا في تلك المشاعر المؤلمة من التشكك في أحلامنا التي ركضنا خلفها وحيدين، فأدرت وجهي في تهرّب من تلك اللحظة، وتأملت في تعجب زائف ذلك المخزن الواسع الذي اتخذه عمرو بمثابة بيت واستوديو له. راقبت فراشه المعدني الصغير الذي انتصف المكان، وكذلك الطاولة الحديدية التي ازدحمت عن آخرها بالعديد من العدسات الرقمية

وأدوات تنظيـف الكاميرا وضبـط إعداداتهـا، وعلّقـت في تغيـير للموضـوع عـلى تلـك الحيـاة البوهيميـة الـتي يحياهـا بمشـقة متعمـدًا.. والـتي حسـدته عليهـا سرًّا..

- عليـك حقًـا أن تعـثر عـلى غرفـة حـتى ولـو ببضـع مئـات مـن الجنيهـات شـهريًا بدلا مـن.....

- ولـم أفعـل؟ فلـديّ كل مـا أحتـاج.. بالاسـتوديو أصـور مـا أشـاء ومـن أشـاء، وبتلـك الطاولـة أطبـخ مـا أريـد، وعـلى ذلـك الفـراش أضاجـع مـن أشـتهي..

ضربتـه عـلى رأسـه ضاحكـة: تـأدب أيهـا الأهـوج.. (هممـت بالرحيـل) فقـط لا تنـسى ميعـاد الديفيليـه الليلـة.. فأنـت لا تعلـم حقًـا كـم حاربـت تلـك العجـوز «إيمـان» لتتـولى أنـت تصويـره للشركـة..

وقبـل أن يجيـب في تأكيـد عـلى مجيئـه، قطـع صـوت طـرق خفيـف عـلى أرضيـة الاسـتوديو الخشـبية أولى كلماتـه، كانـت حبيبتـه الفاتنـة.. واحـدة من تلـك الموديلز الـتي تشـاركه ذلـك الفـراش اللعـين الـذي أشـار إليـه سـابقًا..

راقبتهـا في مشـاعر مختلطـة مـن الحسـد الأنثـوي عـلى جمالهـا الـذي ينضـح خلـف ملابسـها القصـيرة والـتي تظهـر العديـد مـن مفاتـن المـرأة المتفجـرة بالحيـاة، ومـن اصطنـاع الضيـق مـن نفـس تلـك الهيئـة كامـرأة محافظـة خالطـت الأوسـاط الارسـتقراطية رغمًـا عنهـا لسـت سـنوات..

نهض في لهفة إليها وقدمني لها: فيروز.. تلك هي سالي التي حدثتك عنها.

سلّمت عليهـا بأطـراف أصابعـي في ترفّـع وإهانـة غـير متعمـدة: لا أذكـر حقًـا.. فقـد حدثتـني عـن الكثـير (الآن أصبحـت الإهانـة متعمـدة).. اعذريـني يـا حبيبـتي.. فهـو يبـدل فتياتـه كمـا يبـدّل أصابعـه عـلى زر التصويـر..

ابتلعـت الأنـثى الفاتنـة إهانـتي في ابتسـامة بسـيطة: اسـمك جميـل.. فـيروز.. (ردت الإهانـة في احترافيـة) ربمـا هـو أجمـل مـا فيـكِ!

ضحكـت ضحكـة متوتـرة بينمـا زحـف الحـرج عـلى وجـه عمـرو وجذبـني بعيـدًا عنهـا: ااا.. حسـنًا.. لقـد تأخـرتِ حقًـا.. أراكِ الليلـة..

جذبـت حقيبـتي في ثقـة زائفـة، وتجاهلـت نظـرة الانتصـار الـتي فرجـت شـفتيها في ابتسـامة مسـتفزة، وهممـت بالرحيـل هامسـة لـه: فقـط احـذر أن يمـضي بـك

العمر راكضًا خلف شهوتك.. واتعظ مما حدث لأبيك!

واجهني في لطف وهو يعلم أن جملته القادمة ستثير حنقي: سألني عنكِ البارحة!

عشت بحقيبتي واصطنعت تنظيمها في توتر نجحت في إخفائه: الآن تضيع وقتك في التحدث مع الأموات!

أراح كفه على معصمي في تأثر: فيروز.. (نظرت إليه في حنق وصاح الصمت بيننا بضجيج مزعج قبل أن ينطق في استعطاف) لقد ضاق صدري عن احتمال الفراق بين أعز من لديّ في تلك الحياة البائسة.. أبي.. وأختي..

اتجهت للرحيل بجملة ختامية: فقط اعتنِ بنفسك.. ولا تتأخر الليلة.. فأنا لا أحابي أحدًا في العمل حتى وإن كان أخي!

ورحلت في صمت، بينما أحرقت ظهري تنهيدة ساخنة أطلقها في يأس وعجز عن إقناعي بإدخال البهجة إلى حياته، باجتماعي أنا وأبي في لقاء حتى ولو كان قصيرًا بعد انقطاع دام لخمسة عشر عامًا..

انطلقت أطوي الطرقات أسفل عجلات سيارتي المرسيدس الفاخرة، التي ربما تكون أحد السببين الوحيدين اللذين يُجبران عاملي وموظفي شركة «هيلين أوف تروي» لتصميم الأزياء على احترامي ولاسيما صاحبتها «إيمان راغب»، وهما عمل زوجي «عاصم» مديرًا بمكتب وزير الخارجية.. وتلك السيارة التي اشتراها لي بنفسه أملًا في تحسين علاقتنا الفاترة منذ فترة.

اقتحمت الرواق الفاخر في ثقة وأناقة مصطنعتين، وكأن شعوري بالدونية أمام جمال وأنوثة تلك اللعينة «سالي» لا زال يتردد صداه داخل نفسي لينضح على هيئتي بمحاولات الظهور بمظهر الأنثى الفاتنة، ليحييني الجميع احترامًا.. بداية من الفرّاش وحتى أفضل مصممي الشركة.. لكن الظهور المفاجئ لصديقتي المقرّبة «نورا» وانتصابها أمام خطواتي عرقل تلك الخطوات الواثقة، فسقطت حتى أوشك وجهي على أن يلامس الأرض في ارتطام يثير السخرية..

تجاهلت ضحكات المحيطين المكتومة وخلعت إحدى فردتي حذائي بعد أن

انكسر كعبها، واحتددت في همس على نورا: ما الخطب؟!

همست إليّ في قلق: إيمان تنتظرك منذ ساعة، وحاولت الاتصال بك مرارًا، ولكن محمولك كان مغلقًا وكذلك الواتسآب و...

قاطعتها بخلع الفردة الأخرى من حذائي في سرعة ورميته على مكتب زميلي البدين «صادق» ليقطع ارتطام الحذاء ضحكته المكتومة وألقيت له بمحمولي ليعهد بشحنه، وعندها خلعت نورا حذاءها الأنيق وسلمتني إياه وقد فهمت مطلبي، ارتديته سريعًا رغم صغر حجمه وتحركت في خطوات متعرجة تجاه مكتب تلك العنقاء الأسطورية، يتمايل جسدي، ولم أعرف حقًا أكان ذلك بسبب هلعي من تلك المقابلة المصيرية أم بسبب ذلك الألم الذي يعتصر أصابعي داخل ذلك الحذاء الصغير.

جلست في ألم وصمت في انتظار طويل لتلك المرأة، شتت ذهني عن ألم أصابعي تأملي الدائم لمكتبها الفاخر الذي غطى جدرانه العديد من اللوحات الفنية لنساء أنيقات وارى التراب أجسادهن منذ قرون.. وكذلك طاولتها الهندسية التي تستخدمها أحيانًا في رسم تصميماتها الخاصة كهواية قديمة لم تتمكن من التخلص منها حتى بعدما أصبحت توظف من المصممين من يريح ظهرها عن انحناءة ذلك العمل الشاق.

ثوانٍ مرت في صمت قطعه صوت اندفاع المياه بحمامها الخاص معلنًا عن انتهائها من قضاء حاجتها المتكررة، لتخرج في هيبة وهي تجفف يديها دون أن تنظر إليّ، انتصبت في احترام أصاب قدميّ بألم كتمته لوقوفي المفاجئ.. وراقبت خطواتها البطيئة التي تناسب سنها التي تخطت العِقد الخامس منذ أسابيع، وتفحصت وجهها الذي أغرقته بمساحيق التجميل باهظة الثمن لتُخفي علامات ذلك العِقد الذي لا شك أنها تلعن إتمامها له كلما نظرت إلى انعكاسها في المرآة في صباح كل يوم..

وبالرغم من ذلك.. فإنها بدت في رقيّ بملابسها الرجولية الهادئة، حيث أعادت ارتداء سترتها السوداء وأحكمت غلقها على قميصها الحريري بلونه الوردي وجلست في إرهاق حاولت إخفاءه.. ومدت يدها إلى أحد أدراج المكتب العريض وأخرجت منه دواءها اليومي.

لـم تتحـدث حـتى انتهـت مـن تجـرع كـوب المـاء تبعًـا لإحـدى حبـوب الـدواء وكأنهـا كانـت تحقنـي بالمزيـد مـن سـائل التوتـر اللـزج.

تنحنحــت لإصــلاح بحــة الخــوف: عــليّ أن أحــذرك يــا مــدام مــن مخاطــر الضغـط المنخفـض.. عليـكِ أن تقاومي نوبـات قضـاء الحاجـة حـتى ينجـح ذلـك الـدواء في إتمـام مفعولـه..

أعـادت الـدواء إلى مكانـه دون أن تنظـر إليّ: بـل عليـكِ أن تدخـري تحذيراتـك الدائمـة تجـاه الجميـع لنفسـك.. فالوقـت يمـضي والخطـر قـارب أن ينـال مـن مسـتقبلك.

نجحــت كلماتهــا الغليظــة في صرف اهتمامــي عــن آلام قدمــي: آه.. لــم ينــل تصميمــي إعجابــك إذًا!

رفعت عينها في برود: لو لم ينل إعجابي لما نلتِ سخطي!

تنهدت في ضيق من غموضها: لا أفهم..

اعتدلـت وقـد أشـعلت سـيجارة رفيعـة: فـيروز.. قـد يظـن جميـع المصممـين بتلـك الشركـة أن السـبب الوحيـد خلـف اسـتمرار عملـك بينهـم.. هـو وسـاطة زوجـك.. وإلا لـمَ لا تزالـين بينهـم وتشـغلين مكانـا قـد يناسـب مـن هـم أكفـأ منـكِ دون أن يُنفَّـذ لـكِ تصميـم واحـد؟

خلعــت حــذائي بطرقــات صامتــة مــن قدمــي وقــد تحــررت مــن الألــم الــذي أحـل الحنـق مكانـه في نفـسي: أظـن أني كنـت شـديدة الوضـوح عندمـا أردت أن تفصـل كفـاءتي في قـرار اسـتمراري.. ولتذهـب وسـاطة زوجـي إلى جحيـم الكفـرة!

راقبــت حنقــي المفاجــئ للحظــات ثــم ابتســمت نصــف ابتســامة: ذلــك هــو السـبب حقًـا! (اعتدلـت في صـدق) لا أهتـم حقًـا بوسـاطة زوجـك.. وإنمـا ذلـك الشـغف المتعـالي الـذي يـأكل روحـك في كل لحظـة تفصـل بينـك وبـين تحقيـق أحلامـك..

تنهدت في تعب: بالله.. كفى غموضًا..

- تصميمك أعجبني.. ولكن لن أنفذه هذه المرة أيضًا..

أشحت بوجهي في غضب الأطفال: لطالما كان التناقض هوايتك الثانية..

قاطعتـني في حـزم: اسـتعمي إليّ.. لقـد كنـت مثلـك في يـوم مـن الأيـام، أشـعر بالموهبـة وهـي تجـري مـن جسـدي مجـرى الـدم.. ولكـن الموهبـة وحدهـا لا تكفـي.. كان عـليّ.. والآن هـو لزامـا عليـكِ أن تعـثري عـلى مـا يمـيزك عـن غـيرك..

كان الصمـت هـو أبلـغ رد عـلى مـا قالـت، ليـس في حنـق ولكـن في عجـز حقيقـي عـن مواجهـة حديثهـا بمـا أثارتـه مـن تسـاؤل.. مـا الـذي يمـيزني حقًـا عـن أيـة بلهـاء تسـتطيع رسـم امـرأة بـزي فاخـر؟!

أخرجَـت التصميـم الـذي عكفـت عـلى رسـمه ليـالي طويلـة أحرقـت فيهـا صـدر زوجـي وملأتـه بالحنـق الصامـت لامتناعـي عـن إجابـة حقـه الزوجـي في معـاشرتي، وبـدأت في فحـص كل خـط فيـه..

- تميلـين إلى الكلاسـيكية في تصميماتـك.. ولكـن ليـس بدرجـة كافيـة.. فـلا تـزال روح العـصر الحـالي تشـوبها بالعديـد مـن المرجعيـات الحديثـة..

- كلي آذان صاغية..

- عليـكِ أن تتخطـي ذلـك الخـط الفاصـل بـين الهوايـة والاحـتراف.. تخلّـصي مـن محـاولات غـيرك في مـزج العصـور المتراكمـة حـتى وإن علـت أسـماؤهم في سـماء الموضـة.. بـل اصنعـى لنفسـك اتجاهـا خاصـا.. وأنصحـك بالمزيـد مـن البحـث خلـف التصميمـات الكلاسـيكية فهـي مـا تبرعـين فيـه حقًـا!

أومـأت لهـا في غـير اقتنـاع لاحظتْـه متنهـدة، وحينهـا اعتدلَـت في خيبـة أمـل مـن تمـردي عـلى نصيحتهـا، لتغلـق ملـف الرسـومات الصغـير وتراقبـني في ثبـات وجمـود: لـم يكـن النجـاح يومًـا في نشـوة المديـح.. وإنمـا في تقبـل النقـد..

أردفت في مراهقة واضحة: اختلاف الآراء لا يُعد نقدًا..

ابتسـمت في ختـام لتلـك المقابلـة الـتي بـدا أني أفسـدتها عـن غـير عمـد.. أو عمـد، فلـم أعـد أهتـم: أمامـك فرصـة أخـيرة، وإلا سـأضطر إلى تنفيـذ مطلبـك الأهـوج رغمًـا عـنى.. (سـلمتني التصميمـات في تأكيـد) سأرسـل وسـاطة زوجـك إلى جحيـم الكفـرة حقًـا!

نهضـت في حنـق تاركـة يدهـا معلقـة بالملـف الـورقي في رفـض لاسـتلامه، وبحركـة أثـارت عنقهـا بإيمـاءة اسـتنكار باسـمة لعنـادي الطفـولي، أمسـكت بذلـك

الحـذاء الصغـير وأجلسـته تحـت إبطـي وانطلقـت إلى الرحيـل في خطـوات سريعـة عاريـة القدمـين!

ومـا لبثـت أن صفعـت بـاب مكتبهـا خلفـي، حـتى واجهـني صـادق بالمحمـول أمـام وجهـي في لهفـة أثـارت غضـبى..

- مـا لكـم تتناوبـون اليـوم عـلى الظهـور فجـأة دون سـابق إنـذار أيهـا القـوم؟! أتزوجـت مـن نـورا سرًا؟!

- لقد ضج محمولك بالرنين و...

قاطعته في هلع: كم الساعة؟

- إنها الرابعة والنصف!

لـم أجـد إلا الحائـط الغليـظ حـتى ألقـي بـرأسي في مواجهتـه في تنهيـدة طويلـة وقـد تذكـرت مـا نسـيت. سـلّمني صـادق المحمـول وتحـرّك مسرعًـا إلى مكتبـه مـرة أخـرى، بينمـا انهمكـت في طـرق الحائـط بـرأسي عـدة مـرات في هـدوء واستسـلام وقـد توقعـت الكارثـة.

أضـاءت أيقونـة الواتسـآب ببالونـة حمـراء تشـير إلى رقـم ١٢، أي اثنـتى عـشرة رسـالة، ضغطـت عليهـا وأنـا أعلـم –للأسـف– هويـة ذلـك الراسـل، أسـندت المحمـول عـلى الحائـط في تلـك المسـافة الـتي فرقـت بينـه وبـين جسـدي الـذي يقـترب ويبتعـد عنـه بطـرقي المتكـرر بـرأسي عـلى سـطحه.. وكأني تحولـت إلى أحـد أحبـار اليهـود.. يتلـو صـلاة بتمايـل مخمـور أمـلًا في ألا تقـع الكارثـة..

وقد وقعت!

عاصم: فـيروز! لا تنـسي ميعـاد الطبيـب.. سـأنتهي مـن عمـلي وألحـق بـك.. بـل ربمـا أسـبقك إليـه..

عاصم: فيروز! لقد وصلت، أين أنتِ؟

عاصـم: فـيروز! قـد أجّلنـا ذلـك الميعـاد مـرارًا.. أرجـوكِ لابـد أن نراجـع الطبيـب..

عاصم: لا عليكِ.. يبدو أن الأمـر لا يحتـاج إلى الأطبـاء، بـل أنـتِ فقـط مـن لا

يريد الإنجاب..

عاصم: إنه لأمر مهين.. لماذا تفعلين ذلك؟!

عاصم: لا حاجة لي في امرأة عاقر.. حتى إن كان ذلك بإرادتها..

أغمضت عيني وشعرت بابتلال وجنتي بدمعة قاتلت كثيرًا لمنعها، وشردت في أحقية ذلك الرجل في الابتعاد عن تلك المرأة الميتة، فهو يعلم أني تزوجته فقط من أجل استغلال منصبه وثرائه في الانفصال عن حياتي التي ساءت بانفصالي عن الجميع.

ربما كان قبل ذلك اليوم، مصدّقًا حقًا أن هناك سببًا طبيًا وراء تأخر إنجابنا لوليد تمناه طوال ست سنوات. ولكن بات الأمر واضحًا. لقد علم أني أتعمّد ذلك. فهل يرحل عني؟ أتمنى لو يفعل.

كانت كل طرقة من رأسي بذلك الحائط، وضربة من أصابعي الحافية على تلك الأرض اللينة التي ذابت تحت وقفتي بعد رسالة عاصم الأخيرة، تومض داخل عيني بلحظات سوداء من تلك السنوات السابقة وما كلفتني من متاعب أتحملها من أخطاء الآخرين، ففساد أبي كان اختياره، ورحيل أمي كان اختيارها، وعشق عاصم لنسمات عطري رغم علمه بخواء قلبي من حبه، كان اختياره.

إلا لحظة امتدت لأعوام لم أشعر بمرورها.. كانت حقًا من اختياري.. «حلمي الأثير بتحقيق ذاتي»، وعندها لعنت حلمي وقطعت آخر ما تبقى من احترامي لنفسي.. فقد دفعت بالرجل الذي تحمّل جنوني إلى حافة جنونه.. وفوق كل ذلك.. لم أصل إلى عتبات ذلك الحلم حقًا..

كانت صفقة خاسرة! اشتريت بحب زوجي وهنائي كغيري.. حلمًا استيقظت منه متأخرة!

تزاحمت الأفكار في رأسي حتى تمنيت الموت، لكن دقة موسيقية أخرى صدرت من محمولي تدافعت بين تلك الأفكار القاتمة وأضاءت وجهي.. ليس فقط بضوء الشاشة الوهاج.. وإنما بما ساقته إلى عيني من رسالة أخرى أرسلها عاصم..

عاصم: أرجوكِ! تجاهلي تلك الرسالة السابقة.. فأنا لم أقصد.. كنت فقط غاضبًا..

ثم أتبعها برسالة أخرى: أحبك!

تمنيت لو أجبته بـ «أحبك أيضًا» امتنانًا له، لكنها كانت ستخرج كاذبة، ولا يستحق ذلك الملاك أن ألوّث قلبه بمشاعر حب زائفة، فامتنعت عن الرد في شرف وبطولة.. وقد وعيت أن صمتي سيزيد من ألمه باستجداء مشاعري في ذل دون رد!

جلست أرضًا بطريقة لاحظها الجميع وأنا أتقلب بين نارين، الكذب بحب مصطنع.. والصدق بصمت موجع!

لم أجد ملجأً لنفسي بين متاهات تلك المشاعر القاسية، سوى مكاني المفضل الذي لجأت إليه، وقد حكمت الظروف ألا أرى عاصم لبقية اليوم حتى لا أتألم بابتسامته التي تخرج دومًا في ذل وإهانة. وصلت باكرًا وجلست على مقعدي الذي أوشك مسئولو المسرح على أن يحفروا اسمي على بطانته الحمراء من كثرة جلوسي عليه. راقبت وصول الحضور القليل وتناثرهم على المقاعد الفارغة في انتظار العرض المسرحي الجديد لتلك الفرقة المسرحية البائسة، التي بالرغم من كبر سن أعضائها.. وغياب معجبيها، لكنهم تمسكوا بحلمهم وعشقهم للتمثيل.. واستعدوا لعرض آخر أمام ما يقل عن عشرة أفراد.

انتهى العرض بعد أن نجح في رسم البسمة على وجهي عدة مرات، من تعثر الممثلين في بعض الجُمَل، بل وقوع أحدهم أرضًا من فرط الضحكات، التي انتقلت بينهم لأخطاء في الحركة، بسبب الإرهاق الجسدي الذي نال منهم جميعًا بعد مشقة أعمالهم النهارية قبل العرض، وكذلك تلقى أكبرهم مكالمة قطعت تمثيله لشخصية غليظة من زوجته المتسلطة تأمره فيها بشراء العيش والزبادي عند عودته.. تحت صرخات الضحك أمام انسحاقه أمامها كالطفل.

بدوا كمجموعة من الأصدقاء يستمتعون بوقتهم في تحقيق حلم شغفهم

جميعًـا وضاقـت عليهـم الدنيـا دون تحقيقـه، ودفعتهـم الظـروف إلى أعمـال أخـرى كموظفـين بسـطاء بعـدد مـن الهيئـات الحكوميـة نهـارًا والـتي لـم تمنعهـم مـن الانطـلاق في عفويـة ليـلًا..

أُسـدلت السـتائر في فوضويـة معتـادة. لمحـت مـن خلفهـا بـروزًا لحركـة بطيئـة لشـخص مسـن كنـت أعلـم هويتـه رغـم اختفائـه. بـدا مـن طرقـات يـده عـلى السـتارة مسـتندًا عليهـا أنـه يحـاول أن يصـل إلى منتصفهـا خروجًـا منهـا بحثًـا عـن شـخص مـا بـين الحضـور.

ورغـم تـوقي الـسري لرؤيتـه لكـني نهضـت في سرعـة ورحلـت قبـل أن يلمـح خطـواتي المتباعـدة، وشـققت طريقـي في لهفـة حـتى وصلـت إلى الطريـق المظلـم.. وعندهـا فقـط.. أغلقـت عيـني وتنهـدت في شـوق إلى حائـط آخـر أطـرق عليـه رأسي في حـزن ممـا أفعـل.

تحرّكـت في الطرقـات المزدحمـة وقـد كنـت بهـا وحيـدة رغـم ذلـك. وصلـت إلى ذلـك السـور الحديـدي الـذي يفصـل مسـجد السـيدة زينـب عـن أسـفلت الطريـق المزدحـم بالسـيارات المتداخلـة. خـرج عـم فرغـلي مـن فجـوة بـاب المسجد باحثًـا عـن «بُلغتـه» البسـيطة وقـد انتهـى مـن صـلاة العشـاء. تقدمـت منـه متخطيـة كفـوف السـيدات المسـنات منهـن والصغـيرات الـلاتي تطلبن حسـنة ماليـة تناسـب هيئـتي الفاخـرة.

وصلـت إليـه متعـثرة في رجـل أشـاح بوجهـه مسـتغفرًا مـن أنوثـتي الـتي بـدت لـه طاغيـة لتلصـق عينـه رغمًـا عنـه بمؤخـرة ابنـة إحـدى سـيدات السـاحة، وعباءتهـا المشـدودة عـلى خصرهـا المتفجـر بالشـهوة، وهـي تلـح عـلى المصلـين بقاسـم مـن رزقهـم، ليقابلـني عـم «فرغـلي» بضحكـة صافيـة اعتـادت أن تجلـو بعضًـا مـن أحـزاني:

- أما والله.. لقد فسدت صلاته.. وتحمّلتِ ذنبه..

ابتسـمت وأجلسـت ذراعـه بتجويـف ذراعـي في مسـاعدة لـه عـلى الحركـة: الإيمـان عـلى المحـك يـا مولانـا.. إن لـم تُخلـق الجميـلات مـن أمثـالي.. فكيـف سـيُثاب عـلى غـض بـصره؟!

ضحك واستسلم لنظراته أرضًا لفرق طول قامتي عن قامته القصيرة أثناء سيره المتعرج: وأي شيطان أرسل الجميلة إلى أحضان العابد هذه المرة، رواية جديدة؟

خرجنا من الساحة وسلكنا الطريق إلى حارته الصغيرة: بل بحث لا يقدر عليه سواك..

أعطاني مفتاحه الصغير لأتولى عنه فتح قفل البدروم العميق من البيت القديم الذي يسكنه، وقد خجل من رعشة يده التي أصابت حركته بالعجز الملحوظ، ودخلنا القبو الضخم لتثير هيئته صدري بشهقة لم أعتد على التحكم بها في كل مرة أدلف فيها إليه، فتلك الكتب والأوراق البنية القديمة تتناثر في فوضى بديعة بأرجاء المكان.. وكأنه لم يُخلق كتاب إلا سقط بين جنبات ذلك البدروم العتيق..

أسال من إبريقه الأزرق الصغير عمودًا من سائل الشاي الأحمر في ضيافة لطالما امتعتني: ولم الحاجة إلى عجوز مثلي في هذا الأمر، ألم يستغن جيلكم بذاك الـ... الـ.. «الترتن نت» في أبحاثه؟!

ابتسمت من إخفاقه في النطق وأنا أرشف من الكوب الدافئ: الإنترنت مليء بالعديد من التصميمات الكلاسيكية حقًا، ولكنها جميعًا تختص بالموضة العالمية.. ما أريده هو تصميمات قديمة لنساء مصريات.. أرجوك.. مستقبلي يتوقف على ذلك البحث.

جلس في إرهاق وقد أغلق السبرتاية: حسنًا.. لديّ أحد الأصدقاء يعمل بدار الهلال سأقصده صباحًا للبحث عن بعض المجلات القديمة، فربما تجدين فيها ما تريدين.

تنهدت في خيبة أمل: راجعتها كلها، وما وجدت إلا صورًا فوتوغرافية لبعض النساء الارستقراطيات من عهد ما قبل الثورة.. أريد تصميمات يا عم فرغلي، تصميمات حقيقية، رسومات تفصيلية..

سكت للحظات في عجز عن إجابة مطلبي المستحيل، لكنه قطع الصمت فجأة بالتواءة بعنقه وقد تذكر شيئًا، وعندها استند على كتفي للنهوض مرة

أخـرى: أمـا واللـه إن رزقـك في رجليْـكِ.. لقـد أصر الدكـش البارحـة فقـط عـلى أن يبيعـني تلـك الكتـب القديمـة، وأظـن أن بعضًـا منهـا بـه عـدد مـن الرسـومات لسـيدات ااا...

- ألا يعمل عم الدكش في روبابيكيا الخردة؟!

- بـلى.. ولكـن زوجتـه مريضـة، وأراد ثمـن كشـف المسـتوصف.. فباعـني مـا وجـده أمامـه..

- فلتقرضه المال أيها البخيل..

- حقا؟ الدكش يقبل مالًا لم يبتل بعرقه؟!

ابتسـمت لعبـث وجـودي: إذًا هـي الصدفـة.. الـتي سـاقت إليّ مـا أريـد قبـل أن أريـده بيـوم واحـد..

أخرج حقيبة الكتب القديمة: بل القدر يا ابنتي..

أحببـت مناكفتـه في عقيدتـه: حسـنًا إذًا.. لعـل القـدر أمـرض زوجـة عـم الدكـش، وأذهـب مـا تبقـى مـن رزقـه بالخـردة، فأخـرج إليـك مـا يحفـظ مـن أوراق تافهـة لا يعمـل بتجارتهـا.. فقـط مـن أجـل أن أنتهـي مـن بحـثي التافـه.. أليـس كذلـك؟!

ابتسم من عنادي الطفولي: لا يوجد بالأقدار ما هو تافه يا فيروز!

راقبتـه دون رد. طالـت نظراتنـا الصامتـة حـتى حـل السـكوت ضيفًـا وأفسـد حـرارة مـا تبقـى مـن كـوب الشـاي السـاخن. كان حديثًـا سـاذجًا ولكنـه وقـع مـني ومنـه موقـع الحـيرة. ولكـن سرعـان مـا ابتسـمت لـه سـاخرة ممـا شـعرنا.

«تنجـح دومًـا في إصبـاغ كل مزحـة تافهـة بصبغـة الدرامـا الإغريقيـة يـا عـم فرغـلي»..

ابتسـم وعـاد إلى تـلال الأوراق البنيـة يفـرغ تلـك الحقيبـة مـن محتوياتهـا ويبحـث بـين أوراقهـا عـن تلـك الرسـومات، هممـت أن أسـاعده، لـولا أن انتفضـت عـلى دقـة موسـيقية أخـرى لمحمـولي..

رسالة أخرى من نورا: أين أنتِ.. الدفيليه أوشك على أن يبدأ!

انتصبت كعادتي في عجالة صارخة: لماذا عليّ أن أكون دائمًا في عجلة؟!

تحـرك إليّ مخترقًـا تلـك الأنقـاض الورقيـة متحدثًـا بحكمتـه المعهـودة وهـو يحمـل مفكـرة قديمـة بيـده: اليـوم أقـصر مـن أن يتسـع لـكل مـا يشـتهيه المـرء يـا ابنـتي.

خطفـت منـه المفكـرة وتحركـت في عجالـة: سـأعود إليـك قريبـا يـا حكيـم زمانـك..

صـاح بي عندمـا اقتربـت مـن البـاب متعجبًـا: انتظـري! فلـم أطّلـع عـلى تلـك المفكـرة مـن الأسـاس، انتظـري لثـوانٍ فقـد أجـد مـا تريديـن!

اندفعـت قدمـاي رغمًـا عـني للخـارج دون أن أتمكـن حـتى مـن أن ألمـح كُنـه مـا كان في يـدي واسـتقر بحقيبـتي في اللاوقـت: سـأعود إليـك لاحقًـا!

وصلـت إلى الدفيليـه في سرعـة مسـتحيلة، اقتحمـت الكواليـس وكالعـادة ظهـرت نـورا أمـام وجهـي في اسـتكمال لمسلسـل إفزاعـي!

عليّ حقًا أن أقطع علاقتي بتلك الفتاة!

لهثـت في أنفـاس متقطعـة: لقـد ضقـت ذرعًـا بالتعامـل مـع تلـك المتعجرفـة «مايـا».. لقـد قاربـت عـلى الخـروج.. وتـصر عـلى زيـادة أجرهـا في مقابـل الموافقة..

أكملت طريقي في حزم: فلتتخلصي منها فورًا.. و...

قاطعتـني مـرة أخـرى: مسـتحيل! هـي الوحيـدة الـتي تناسـب ذلـك التصميـم، ولا يمكـن تأجيلـه.. فهـو مـن تصميـم مـدام إيمـان نفسـها!

وجـدت نفسي دون تفكـير مقتحمـة غرفـة الماكيـاج، لمحتـني مايـا وهـي تجلـس في ثقـة بملابسـها الداخليـة وإحـدى قدميهـا فـوق الأخـرى تدخـن تلـك السـيجارة بطعـم الشـيكولاتة ذات الدخـان المنفّـر، بينمـا انزعجـت بقيـة الفتيـات وعامـلات الغرفـة مـن دخـولي المفاجـئ..

اقتربـت مـن مايـا الـتي تجلـس في هـدوء مسـتفز وغـرور طـاغٍ: خمـس دقائـق فقـط.. لـن أنطـق بكلمـة أخـرى!

طرقـت بظافرهـا الملـون بالأحمـر الفاقـع عـلى رأس السـيجارة لتنـثر طافيتهـا أرضًـا: هكـذا أفضـل.. فـرأسي ضـج بالصـداع مـن صوتـك أنـتِ وأمثالـك!

بسـطت عضـلات وجهـي في بلاهــة وأومــأت لهــا في موافقــة بــاردة وأمسـكت بمحمـولي وفي سرعـة هادئـة اخـترت اسـمًا غـاب بـين زحـام دليـل الهاتـف الخـاص بي: رامـي! مـن فضلـك لا تسـمح لتوفيـق الـنردي بالدخـول.. حـتى وإن أظهـر لـك كارت الدعـوة.. فقـط افعـل مـا تؤمـر وإلا سـتلحق بـه!

وأغلقــت المحمــول في بــرود وتحركــت للخــروج، لكــن انســياب تيــار هــواء التكييــف المركــزي قــد انقطــع عــن ظهــري، وعندهــا علمــت أنهــا انتصبــت مــن وقفتهــا والتصقــت بحركــتي للحــاق بي: انتظــري!

استدرت لها متنهدة بعين اغتربت في ملل: ارتدي ملابسك للرحيل!

قاومــت كبرياءهــا فاختلــط بــه رجاؤهــا، بــدت وكأنهــا في حالــة مؤقتــة مــن متلازمــة داون: لا.. لا يمكنــك فعــل ذلــك.. فأنــا.. ااا..

أجلسـت يـدي عـلى كتفهـا كأرملـة فقـدت زوجهـا واحتاجـت إلى عـزاء مصطنـع: أنــتِ تعتمديــن عــلى مراقبتــه لقســمات جســدك حــتى تشــتعل الشــهوة داخــل صـدره.. ويعلـم اللـه أيـن ستشـتعل أيضًـا.. وعندهـا تصبحـين رفيقتـه.

نظـرت أرضًـا في خجـل وحـيرة مـن معرفـتي بالأمـر: حـتى وإن وافقـتِ عـلى نصـف الأجـر.. فليسـت «هيلـين أوف تـروى» بيـت قـوادة تُعـرض فيهـا النسـاء مـن أجـل المتعـة.. (أشرت إلى الفتيـات خلفـي) انظـري جيـدًا إلى زميلاتـك، كلهـن مكافحـات.. لا تصبـو أي منهـن إلا لعـرض كموديـل في إعـلان تليفزيـوني، أو دور صامـت بفيلـم صيفـي.. أمـا أنـتِ...

اقتربــت مــن وجههــا في إهانــة: فســاقطة لا ترغــب إلا في عــدة أصفــار بجــوار رقـم خائـب مقابـل بضـع دقائـق بـين أحضـان رجـل كهـل، فـلا تترفعـي عـلى أسـيادك، وعـودي إلى حيـث تنتمـين.. طرقـات الحكومـة وقماماتهـا!

وتحركـت في اصطنـاع للحـزم للرحيـل دون أن ألتفـت مـرة أخـرى وقـد علمـت خطوتهـا القادمـة!

انطلقــت كالعــادة إلى الكواليــس لأمــارس مهنــتي الأصليــة في تنظيــم الحــدث الأضخـم منـذ شـهور متناسـية للحظـات حلمـي القديـم والحـالي والمسـتقبلي بالتصميـم الـذي طالمـا طـاردني كلمـا تخيلـت إحـدى تلـك العارضـات وهـي

تتمايـل في ثقـة أمـام الحضـور وتطـرق بقدمهـا أذيـال ردائهـا الفاخـر الـذي نجحـت في تصميمـه وأبهـرت بـه الجميـع.. وأولهـم «إيمـان راغـب «.. قـدوتي، وعـدوتي، وشـاغلة جميـع الأدوار في مسرحيـة مشـاعري المختلطـة تجاههـا..

وعـلى ذكـر الشيطان.. تحـترق الأجـواء باقترابـه، حيـث اقتربـت إيمـان في بـطء مـن وقفـتي، فتحفـزت استعدادًا لنقـد آخـر سيطال سـوء إدارتي للحـدث.. ولكـن..

«أشـكرك عـلى مجهـودك خـلال الأيـام السـابقة.. فلـولاكِ لمـا خـرج ذلـك الحـدث إلى النـور بتلـك الصـورة المشرفـة».

تعجبـت مـن شـكرها وابتسـمت في توتـر وقـد لاحظـت إرهاقهـا: دعيـني أسـتكمل إذًا الليلـة حـتى يحـين خروجـك إلى الحضـور.. تبديـن في إرهـاق بالـغ..

تقدمـت تجـاه السـتارة الـتي تفصـل الكواليـس عـن المـسرح وفرجـت منهـا ثقبًـا صغـيرًا تراقـب منـه المدعويـن، وهـي تتحـدث دون أن تنظـر إليّ: سـقطت اليـوم مغشـيًا عـليّ بعـد رحيلـك!

تعجبـت في قلـق مـن تلـك المعلومـة الـتي قالتهـا وهـي تراقـب الشـخصيات المهمـة مـن خلـف ثقبهـا الصغـير، وكأنهـا تحافـظ عـلى هيبتهـا الـتي لابـد أن تسـقط بعـد مـا قالتـه: مـاذا؟! حــ.. حسـنًا.. أخبريـني مـاذا حـدث؟!

أكملـت حديثهـا مـن نفـس الوضعيـة: نوبـة سـكر.. (نظـرت إليّ في ابتسـامة هادئـة) يبـدو أن الأجـل قـد اقـترب!

وقبـل أن أجيبهـا في لهفـة واسـتنكار لمـا قالـت حـتى فاجأتـني بملاحظـة أخـرى راقـت لهـا بـين الحضـور: هـا قـد جـاء الهُمـام..

تنهـدت في عجالـة للـرد لأعـود إلى موضـوع مرضهـا مـرة أخـرى: أجـل.. لقـد أكـدت عليـه أن يحـضر في ميعـاده.. ومارسـت عليـه دور الأخـت الكـبرى كمـا أردتِ.. و..

التفتـت إليّ وزادت مـن فتحـة السـتارة في دعـوة هادئـة لمشـاركتها النظـر: لـم أقصـد أخـاكِ عمـرو.. بـل زوجـك عاصـم!

لطمـت تلـك العبـارة أذني، ومـا أن رأيتـه جالسًـا في بـراءة تصبـو إلى لقـائي أمـلًا في الاعتـذار عـلى مـا أرسـله إليّ اليـوم، حـتى هـرب الـدم مـن وجهـي وتلـون

بزرقـة بـاردة مـن الصدمـة، ولكنـه لـم يلبـث أن تصبـغ باللـون الأحمـر مـرة أخـرى عندمـا اقتحـم الـدم شرايينـه غضبًـا مـن نفـسي.. فذلـك الرجـل يصنـع مـن أجـلي مـا لا تسـتحقه قبيلـة مـن النسـاء خُلقـن عـلى شـاكلتي.

أومـأت إليّ بالذهـاب إليـه، ولكـني نجحـت في التهـرب من تلـك الرغبـة وقاطعتها بتغيـير موضـوع النقـاش بعيـدًا عـن مرضهـا.. وجنحـت بالحديـث عـن مـرضي: لقـد حصلـت عـلى مرجـع مهـم للتصميمـات الكلاسـيكية في مـصر بأوائـل القـرن العشريـن، لعـلي أنـول بعـض الرضـا.

أدارت عنقهـا عـدة مـرات يمينًـا ويسـارًا في بـطء ويـأس مـن تهـربي المتعمـد مـن لقـاء زوجـي خـارج البيـت كمـا أتجنـب لقـاءه داخلـه، وأشـارت إليّ أن أريهـا إيـاه.. وعندهـا خـرج ذلـك المرجـع مـن الحقيبـة ليُعلـن عـن نفسـه بهيئتـه العتيقـة السـاحرة..

قـرأت بصوتهـا الرقيـق مـا هـو مكتـوب بمـاء الذهـب عـلى غلافـه المهتـك: مفكـرة.. عزيـز بـك قاسـم!

نظـرت إليّ في تعجـب مـن علاقـة ذلـك العنـوان الغريـب بتصميمـات احترافيـة لأزيـاء آمـل أن أسـتقي منهـا مـا يطـور موهبـتي، لأتـولى مهمـة الدفـاع عـن اتهـام لـم تطلقـه بعـد: لقـد أكـد لي الرجـل أنـه سـيكون عونًـا كبـيرًا حـتى وإن بـدا غـير ذلـك..

أعطـتني المرجـع في غـير اهتمـام ورحلـت في صمـت وقـد لـوَّت شـفتيها. وعندها انتفضـت للخلـف فجـأة عندمـا فُتِـح السـتار وتدفقـت أحزمـة الإضـاءة الوهاجـة تجاهـي.. فتواريـت بعيـدًا كالممسوسـة.. ليـس فقـط خوفًـا مـن أن يـرانى الحضـور، وإنمـا هربًـا مـن نظـرة كان مقـدرًا لهـا أن تقتلـني إن لمحـني عاصـم.. زوجـي المعـذب!

تدفقـت الفتيـات عـلى مـدار دقائـق تجـاه المسـرح في عـرض مثـالي لتصميمـات «هيلـين أوف تـروي»، بينمـا تسربـت تلـك الدقائـق مـني دون أن أشـعر وأنـا أقلّـب في صفحـات تلـك المفكـرة الـتي امتـلأت عـن آخرهـا بكلمـات خطهـا مـا يبـدو أنـه ذلـك الرجـل عزيـز بـك قاسـم..

لـم أتعمـق في القـراءة حقًـا.. حيـث بـدت تلـك الكلمـات للوهلـة الأولى وكأنهـا حـوار مكتـوب بينـه وبـين شـخصيات أخـرى.. ظننتهـا في أول الأمـر مسرحيـة أو قصـة قصـيرة سـاقها إليّ عـم فرغـلي بالخطـأ، وعندهـا اشـتعلت غضبًـا مـن خـواء تلـك الصفحـات مـن رسـم واحـد يخـص الأزيـاء مـن قريـب أو بعيـد..

رفعـت رأسي عـلى اقـتراب انتهـاء مايـا اللعينـة مـن آخـر خـروج لهـا، وأومـأت لنـورا أن ترسـل في طلـب مـدام إيمـان لتشـارك الفتيـات دخولهـن النهـائي.. ومـا إن هممـت بوضـع تلـك المفكـرة داخـل حقيبـتي مـرة أخـرى حـتى لمحـت رسـمًا بصفحاتهـا الأخـيرة، انشـغلت في سـذاجة عـن تنظيـم دخـول مـدام إيمـان وتسـارعت أصابعـي تجـاه تلـك الأوراق الخلفيـة.. وعندهـا وقعـت الكارثـة!

تعمـدت مايـا دفعـي أثنـاء دخولهـا الأخـير حـتى تعـثرت خطـواتي وطـار جسـدي اندفاعًـا تجـاه المسرح!

ارتميـت عـلى وجهـي بصـوت أثـار ضجـة التفتـت إليهـا الرقـاب، وزحفـت بجسـدي لعـدة أمتـار أمـام سـيل نظراتهـم. فتكومـت بمنتصـف المـسرح المكتـظ عـن آخـره. تسـمرت مـدام إيمـان عـلى مشـهد رقـودي أرضًـا أمـام جميـع المدعويـن وارتبـك دخـول الفتيـات في صفيهمـا المخطـط لـه.. وسـادت حالـة مـن الفـوضى بـين الجميـع.. لـم يقطعهـا سـوى اندفـاع عاصـم مـن بـين الحضـور تجـاه وقعـتي!

لـم أشـعر بالـدم وهـو يسـيل مـن فمـي بعـد اصطـدام فـكي بالمعـدن الأرضي الحـاد، ومـا إن وصـل عاصـم إلى المـسرح وشـب بقدميـه ليطـال ارتفاعـه، حـتى نظـرت إليـه في صمـت وخجـل..

همس إليّ: انهضي معى!

تهربـت مـن نظرتـه. فسـقطت عيـني عـلى المفكـرة المتناثـرة تحـت أصابعـي.. ومـا أن حـاول عاصـم وعـدد مـن رجـال الأمـن إنهـاضي.. حـتى تسـمّرت عـلى أغـرب مـا رأتـه عيـني عـلى الإطـلاق!

رسـم شـديد الدقـة لشـخصي بـل بملابـسي الحديثـة.. يرقـد بإحـدى صفحـات تلـك المفكـرة العتيقـة والـتي ترجـع إلى عـام ١٩٤٩!

وسـهم صغـير يخـرج مـن ذلـك الرسـم مكتـوب عليـه: تلـك هـي الفتـاة.. قاتلـة جُلنـار طوسـون!

-٣-

عزيز بك قاســم

١٩٤٩

«كان من الأفضل لك.. أن تلحق بها»

قالها والـدي قاسـم باشـا في حنـق هامـس وهـو يـضرب الأرض بقدمـه اليـسرى في توتـر سـاد جلسـتنا، الـتي اسـتمرت لسـاعة ونصـف دون حـراك داخـل الصالـون الأبيـض مـن قـصر عابديـن الملـكي، حيـث ألصـق عينيـه أرضًـا دون أن يجـرؤ عـلى رفعهمـا ليـس فقـط في إجـلال ورهبـة لقدسـية ذلـك المـكان المهيـب.. وإنمـا في رعـب ظاهـر عـلى قسـمات وجهـه مـن لقائنـا المرتقـب مـع الملـك فـاروق الأول شـخصيًا بعـد أن قُتلـت إحـدى أمـيرات قـصره بمكتـبي المتواضـع!

«نعم نعم.. كان من الأفضل لك حقًا أن تلحق بها»..

كررهـا مـرة أخـرى وهـو يسـند رأسـه عـلى كفيـه المتعانقتـين فـوق عصـاه الفاخـرة، الـتي انتصبـت بـين قدميـه واحتملـت انحنـاءة جسـده الممتـلئ عليهـا في شرود، ربمـا كان تكرارهـا تسـبيحًا ظـن أنـه قـد يُذهـب عنـه رعـب اللحظـة القادمـة، وربمـا رغـب في لطـم رأسي بهـا مـرة أخـرى حـتى يسـتفزني لتعليـق غاضـب يـبرر لـه انفجـاره الـذي كان يتـوق إليـه..

وقد فعلت!

اعتدلت له في هدوء:

- حاولـت حقًـا أن ألحـق بهـا يـا والـدي.. ولكـن.. كان ملـك المـوت أسرع إليهـا مـني.. لـم يكـن ذنـبي أنهـا اختـارت محـل عمـلي لتقـدم عـلى تلـك الفعلـة الجنونيـة.

التفت إليّ في غضب مكتوم وهـو يضبـط طربوشـه في هيسـتيريا حـاول التحكم

بها وكأنه أوشك على ضربي:

- أتظن أني أقصد جلنار هانم أيها الأحمق؟

تنهدت من غضبته:

- ومن تقصد إذا؟!

أشاح بوجهه بعيدًا في شرود وهو يدير عصاه على محور ثابت في دوائر لا نهاية لها وكأنها ملعقة تستدير في صحن خيالي، اجتمع فيه الغضب والحسرة وخيبة الأمل في انتظار ذوبانهم لحساء واحد من القسوة غير المبررة:

- بل كان عليك أن تلحق بأمك!

انتفض جفني برعشة مؤلمة ونظرت إليه في صدمة وعندها عاد وحدق بوجهي الملتهب من الغضب وأكد في همس مستفز:

- كان عليك أن تلحق بها فور أن ماتت.. فما كان لابن امرأة مجنونة أن يحيا حياة تسوق العزة والشرف لأبيه.. (نطق في غلٍ غير مفهوم) كانت سببًا في بؤسي لسنوات طويلة.. وها أنت تكمل عنها المسيرة.

انعقد لساني عن الرد ولكن لم ينقطع نظري إليه، بل ظللت محدقًا به حتى عندما عاد إلى شروده وكأنه أفرغ شحنة غضبه في تلك الكلمات وفرغ بؤسه مرة أخرى، لكن المعركة لم تنته بعد كما ظن.

تأملت لحيته البيضاء الكثيفة لجانب وجهه، وخرجت كلماتي بصوت غليظ هادئ لم أعهده قبلًا:

- ربما كان عليك أنت التخلص مني كما فعلت مع صالح!

نفرت عروق عنقه لحظيًا من هول ما قلت، ولمع جبينه بغلاف من العرق أوشك أن يفسد أطراف طربوشه الفاخر بالبلل، وبعد ثوانٍ من الصمت والشرود، نطق دون أن يجرؤ على النظر إليّ:

- عمن تتحدث؟

ارتفعت وجنتي اليسرى سنتيمترات للأعلى في نصف ابتسامة ساخرة:

- أخي.. ألا تذكره؟!

أطال صمتـه متجاهـلا مـا أقـول معلقًـا عينـه عـلى الجانـب الآخـر مـن جلسـتي فلـم أر سـوى خلـف رأسـه، لكـن طرقـات خاتمـه الغليـظ عـلى عصـاه كانـت تفضـح الكثـير مـن توتـره، اقتربـت مـن أذنـه كشـيطان طـرد لتـوه مـن الجنـة ووسوسـت لـه:

- أذكـر تمامًـا تلـك الليلـة السـوداء.. أذكـر جـرح سـاعدك الأيمـن عندمـا تعلقـت بـه أظافـر صالـح توسـلًا إليـك ألا تفعـل.. أذكـر بنطالـك الـذي غطـاه الـتراب مـن جلوسـك أرضًـا أمـام حفـرة أحرقـت أنفاسـك في زيـادة عمقهـا.

لاحظـت إغـلاق عينيـه في ألـم ورعشـة أعـرف أنهـا تسـبق انفجـارًا فأكملـت في شر:

- وأذكـر تلـك النظـرة الجامـدة الـتي أجبـت بهـا عـلى سـؤال أمـي.. «مـا الـذي فعلتـه.. أيـن ولـدى؟!».. (همسـت في قـوة) لقـد دفنتـه حيًـا!

التفت إليّ في بطء بالغ، فأكملت تحديقي بعينيه في ثبات:

- لـم تنتحـر أمـي لجنـون أصابهـا.. ولـم أرث عنهـا عاهـة قـد جلبـت لـك العار.. بـل قتلتهـا بدفـن وليدهـا حيًـا.. وهـا أنـا أجلـس بجـوار قاتـل أمـي محتمـلًا أنفاسـه البـاردة.. فمـن منا أحـق بالتذمـر الآن؟!

ودون مقدمـات، هجـم بقبضتـه الغليظـة عـلى رقبـتي ودفعـني بقـوة تجـاه الحائـط حـتى ظننـت أني أفرغتـه بهـوة تناسـب حجـم رأسي، واهـتز جسـده حـتى سـقطت عصـاه وأصـدرت صوتًـا تـرددت أصـداؤه بجـدران القاعـة الضخمـة، ظننـت حينهـا أنـه سـيتبع فعلتـه بسـباب مهـين، إلا أنـه اكتفـى بجحـوظ عينيـه لملامـح وجهـي وكأنـه لا يُصـدق أن تلـك الكلمـات القاسـية قـد خرجـت مـن فـم ابنـه الوحيـد، ومـتى؟ الآن.. بعـد كل تلـك السـنوات، علـم أنـه عـارٍ تمامـا أمـام ولـده، وأن محاولاتـه إخفـاء جريمتـه لـم تفلـح قـط، ومـا إن قفـزت دمعتـه إلى غـلاف عينيـه الملتهـب حـتى انتفـض عـلى صـوت غليـظ رج أرجـاء الصالـون:

- «قاسِم باشا!».

انتفـض أبي في قـوة مبتعـدًا عـني محـاولًا الاعتـدال للوقـوف احترامًـا لذلـك الشـخص المبجـل فتعـثرت خطوتـه لامتـلاء جسـده وسـقط طربوشـه وانكشـف

رأسـه، وعندهـا لـم أشـعر إلا وذراعـي تحمـل إبطيـه في لهفـة في محاولـة لإنقـاذه مـن السـقوط، وعندهـا تلاقـت عيوننـا في نظـرة صامتـة قالـت الكثـير.. لا أدري حملـت الاعتـذار ممـن وإلى مـن.. ولـم أهتـم أكانـت نظرتـه إليّ عتابًـا عـلى مـا قلـت؟ أم خجـلًا مـن ضعفـه وكهولتـه الـتي ألجأتـه إلى مسـاعدة مـن طعـن بشرفـه منـذ قليـل.

لـم أفهـم قـط كيـف هاجمتـه بتلـك الطريقـة، ولمـاذا الآن؟ فقـد كنـت طـوال حيـاتي هادئًـا منسـحقًا تحـت إرادتـه، كاتمًـا مـا علمـت مـن قتلـه لأخـي غـير الشـقيق رضيعًـا دون أن أنطـق بـه ولـو همسًـا بيـني وبـين نفـسي، ربمـا أعـاد مشـهد انتحـار جلنـار ذكـرى مـا حـدث لأمـي بسـبب فعلتـه، وسـيطرت عـليّ حالـة مـن التمـرد الـذي تأخـر كثـيرًا منـذ الطفولـة.

تسـاءلت في تعجـب مـن ذلـك الشـخص الـذي أصبحـت عليـه في يـوم وليلـة.. إلى أيـن سـيأخذني انتحـار جلنـار طوسـون أبعـد مـن ذلـك.. إلى أيـن؟

تقـدم الرجـل المبجـل في خطـوات بطيئـة نجحـت خلالهـا في إحـكام طربـوش والـدي عـلى رأسـه حفاظًـا عـلى هيبتـه، وعندهـا تنهـد تنهيـدة قصـيرة مـن فعلـتي الـتي ناقضـت قـولي السـابق، وأتبعهـا بانحنـاءة مؤلمـة أمـام عمـر فتحـي باشـا كبـير اليـاوران بطلَّتـه المهيبـة..

انحنيـت كمـا انحـنى أبي فخـرج صـوت معـالي الباشـا حازمًـا يمـر فـوق ظهورنـا الأفقيـة:

- قاسـم باشـا.. كـفَّ عمـا تفعـل يـا رجـل، فـإن انحنيـت لصديقـك القديـم، فكيـف سـتفعل أمـام جلالـة الملـك ذاتـه؟

اعتدل أبي في ابتسامة هادئة وذل واضح:

- لازلت أتوق إلى ذلك الشرف يا صاحب السعادة.

نظر صاحب السعادة إليّ في جمود يناقض ترحيبه لأبي:

- وها قد ساقه إليك عزيز بك..

أدرت وجهـي بعيـدًا في ضعـف وخجـل مـن تلميحـه الحـاد، فتحـرك أبي في تخـلٍ عـن الرسـمية وجـذب ذراع عمـر باشـا في هـدوء إلى أحـد أركان الصالـون، وكأنـه

يستغل حقًا عبارة صديق قديم حتى يطمئن لتوقعات لقائه المرتقب مع جلالة الملك.

كنت بالطبع منبوذًا عن تلك الجلسة الثنائية، ولكن لم أقاوم مراقبتها حتى وإن كنت بعيدًا، فتوسلات أبي في سؤال صديقه عن الخطوة القادمة كانت واضحة تمامًا، بينما كانت إيماءات عمر باشا الرزينة والتي أرفقها باشارات متكررة من كفه يمينًا ويسارًا لأبي في رفق أفادت بأنه يحمل إليه علامات الاطمئنان، وما إن هدأ أبي واعتدل من انحناءته وتنهد في انفراجة نفسية.. حتى تحركا معًا خروجًا من القاعة، وكما ظننت أنه عليّ أن أفعل.. تحركت خلفهما في خطوات سريعة للحاق بهما.

لكن نفس الكف الضخم اعترض حركتي، ولكن في حزم هذه المرة:

- ابق مكانك.. فمقابلة جلالته مقصورة على أبيك فقط..

سألته في حيرة طفولية كمن تركه أباه وحيدًا بميدان مزدحم:

- وأنا! أين سأذهب؟!

أجاب في حزم:

- فقط ابق مكانك!

دب الرعب في قلبي، وتحرك أبي خلف عمر باشا في خنوع بعد أن رمقني بنظرة انكسار، وكأنها نظرة وداع أخيرة زادت من صدق شعوري باقتراب الكارثة، وما إن غابا عن ناظري خروجًا من ذلك الصالون الأبيض اللعين حتى ارتميت على المقعد المُذهب في خوف من اللحظة القادمة.

مرت دقائق بدت كسنوات قضيتها غريقًا بين أمواج اللون الأبيض، الذي غزا جدران تلك الحجرة الواسعة، وعلمت حينها سبب تسميته بالصالون الأبيض.. ولكن، تبرأت السكينة حقًا من ذلك اللون، فكلما وقعت عيني على شيء تصبغ ببياضه.. حتى زاد توتري وانتفخ صدري بهواء متسارع.

لمحت ولّاعة ذهبية على طاولة قصيرة انتصفت المكان، وغليونًا ضخمًا استند في أناقة على حامل من العاج الأسود، تذكرت محاولات صديقي دانيل جوستاف خلال دراستي بباريس في إقناعي بتدخين الغليون أسوة بإله

علـم النفـس فرويـد، نعتّـه كثـيرًا بالتافـه الأبلـة.. فمـا كان التدخـين لـه إلا وسـيلة لجـذب الفتيـات إلى هيبتـه عندمـا كان يقـضي أوقـات فراغـه بالكازينوهـات الليلـة، غـير مصـدق دفاعـه الدائـم عـن ذلـك بأنهـا وسـيلة لإفـراغ التوتـر، الـذي يـكاد أن يشـيب شـعره الأشـقر القصـير، ولكـن.. مـا إن اجتمعـت والتوتـر والغليـون في مـكان واحـد حـتى آمنـت بديانـة دانيـل وبـدأت في تعلـم أول طقوسـها.

غـاب أبي في لقـاء جلالـة الملـك لمـدة ليسـت بالقصـيرة، وغـاب الهـواء النقـي عـن رئـتيّ لنفـس تلـك المـدة، فقـد استنشـقت مـن التبـغ الملـكي مـا ظلـل جلسـتي بغيمـة رماديـة مـن دخانـه الكثيـف، وعندهـا شردت بـين خطـوط الدخـان المتعرجـة في حالـة مـن الصفـاء الذهـني حاولـت فيهـا جاهـدًا عجـم غمـوض مـا حـدث مـن جلنـار طوسـون وفعلتهـا وتلـك الفتـاة الـتي ظنـت أنهـا تحـاول قتلهـا، وشـيئًا فشـيئًا وتحـت تأثـير التبـغ الـذي اصطـدم بوعـيي للمـرة الأولى بتلـك الغـزارة، بـدأت صـورة جلنـار تُنسج أمامـي مـن حبـات دقيقـة متطايـرة مـن التبـغ المحـترق، حـتى رأيتهـا تحـدق بي في نظـرة تعجـب غاضبـة!

ظننت حقًا أني فقدت عقلي ولكن..

انتصبـت في نبضـة لحظيـة واقفًـا عندمـا تبـين لي أن ذلـك الوجـه هـو حقًـا لامـرأة حيـة، لـم تكـن جلنـار طوسـون، وإنمـا كانـت لمـن هـي أكـثر خطـورة منهـا!

أشـارت بإصبعهـا لشـخص أخفـى الدخـان وجهـه، فطعنـت ذراعـه بأمـواج الدخـان لتفرقتهـا، فرأيـت وجـه عمـر باشـا متصلبًـا في حنـق مـن إجبـاري الأمـيرة عـلى تنشـق غبـار توتـري، ومـا كان مـني إلا أن ألقيـت الغليـون في مراهقـة وتفرغـت للاسـتحمام بمـاء عـرقي مـن الخجـل.

عـبر عمـر جسـد الأمـيرة الضئيـل وواجهـني في حـزم: لـم نرسـل إليـك لمقابلـة جلالـة الملـك.. بـل كان ذلـك بنـاءً عـلى مطلـب الأمـيرة إمتثـال هانـم!

اهـتزت الأرض مـن تحـت قدمـي للحظـة مـن هـول الموقـف، فأنـا أمـام الأمـيرة إمتثـال نفسـها، انحنيـت لهـا احترامًـا وسـلطت عيـني أرضًـا خوفًـا مـن أن يُفهـم تحديقـي الفضـولي بوجههـا أني أتجـرأ عـلى مفاتـن ملكيـة لا حـق لأمثـالي في التمتـع بهـا، بينمـا لمحـت ظلهـا أرضًـا وهـي تشـير بيدهـا لليسـار، ثـم غابـت قدمـا عمـر

باشا تمامًا وما رفع رأسي إلا همسها الهادئ.

«اعتدل عزيز بك.. فليس لدينا الكثير من الوقت»..

اعتدلتُ في هدوء محاولا مقاومة سعلة أصابت حلقي بحكاك قاسٍ من فرط التدخين، وما أن جلست حتى جلست إلى جوارها كما أشارت، ولم تزل عيني معلقة بخيوط سجاد الصالون البديعة..

تنهدت للحظة ثم نطقت أخيرًا: قبل أن نبدأ حديثنا.. عليك أن تحذر.. فجلستنا اليوم سرية للغاية حتى جلالة الملك نفسه لا يعرف عنها مقدار حرف!

أومأت لها موافقًا في أدب بالغ: السمع والطاعة!

شعرت بتوتر حزين في صوتها ولم أنظر إليها بعد: في البداية أقدم خالص اعتذاري عن التجربة التي مررت بها مع الحبيبة جل..

اختنق صوتها لبكاء عز على هيبتها أن تطلقه: جلنار هانم.. وعليك أن تعلم أن أحدًا من القصر لا يتهمك بالتسبب فيما حدث.. فلقد كنت أتوقع ذلك!

وعندها فقط.. رفعت رأسي في حيرة ونظرت إلى عينيها في جمود بنظرة الحكيم المتمرس وليس الشاب البسيط الذي أهاب جلسة الأميرة، ولم يكن صعبًا التحديق بوجهها دون الالتفات إلى جمالها، فلم تكن كجلنار امرأة مثيرة أو فاتنة الجمال بل كانت هادئة الملامح أقرب إلى ملامح الكثير من نساء المحروسة البسطاء.

مال عنقي يمينًا في تعجب مما قالت: ماذا تقصدين بأنك كنتِ تتوقعين ذلك؟

أومأت في موافقة وكأنها تجبر نفسها على الاعتراف: قبل أن أجيب سؤالك.. أرجو أن تصف لى تحديدًا حالتها في تلك اللحظات الأخيرة.. وكذلك إن قالت شيئًا قد أثار انتباهك؟

- كانت هادئة في أول الأمر وبدا عليها بعض علامات الحزن الغامض، ولكن ما لبثت أن تحولت إلى هيستيريا غير مفهومة وصرخت بأن فتاة ما

تطاردهـا وتحـاول قتلهـا..

- إذًا أنت تعرف؟

- أعرف ماذا؟

- أمر تلك الفتاة!

- كلا.. ولكنها كانت تظن أنها كانت تلاحقها.. وظنت كذلك أنها كانت على وشك اقتحام جلستنا لقتلها.. ولكن لم تظهر على الإطلاق..

- ولن تفعل!

بالرغم من احترافي لفضيلة الصبر كمقوم أساسي لعملي فإن الغموض الذي أحاطت به الأميرة كلماتها أصابني بغضب لم أتمكن من إخفائه: ظننت أنه ليس لدينا الكثير من الوقت.. من فضلك أخبريني بوضوح ما طلبت رؤيتي من أجله..

سكتت للحظات حاولت خلالها أن تتخير أفضل مدخل لما ظنته أغرب الأمور على الإطلاق: منذ عدة أسابيع أخبرتني جلنار أن بعض الرؤى الشيطانية تطاردها من حين لآخر لفتاة شابة ذات هيئة مريبة.. بدأ الأمر بومضات ضبابية تعبر من أمامها جيئةً وذهابًا، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى تجسد حقيقي يتكرر عشرات المرات في اليوم والليلة..

ظننت أني عرفت تشخيص ذلك المرض ولكن: ربما كانت بعض الهلاوس و...

قاطعتني في سرعة: كلا! ظننا ذلك في أول الأمر، ولجأنا إلى أمين بك عبدالمنعم لتفسيره لكنه لم يتمكن وأقر بأن ما تصفه جلنار لم يره من قبل في أي من كتب التحليل النفسي..

اعتدلت في جلستي مستنكرًا: عظيم الاحترام لمقامه، ولكن ما تقولينه يعتبر تعريفًا كلاسيكيًا للهلاوس البصرية حتى وإن كانت نادرة..

تنهدت في يأس: ربما لم تفهم بعد..

اقتربت منها دون خجل في نهم طلاب العلم: إذًا أفهميني!

تحجـرت ملامحهـا لثـوان وكأنهـا تذاكـر مـا عليهـا قولـه، ثـم اعتدلـت في تراجـع هـادئ وقـد حسـمت أمرهـا: لقـد كان قـرارًا خاطئًـا.. أتمـنى أن تنـسى مـا قلتـه اليـوم..

اعتدلت في حنق: ماذا تقصدين؟ أنتِ من أرسل في طلبي!

زفـرت في أسى: ظننـت أنـك مختلـف، ولذلـك لجـأت إليـك جلنـار.. ولكنـك تبـدو كغـيرك.. لا تعلـم خطـورة مـا حـدث حقًـا..

حاولـت السـيطرة عـلى غضـبي: كانـت جلنـار هانـم في حالـة هيسـتيرية لتنطـق بمـا هـو مفهـوم.. وأظـن أنـك لـم تكـونى أقـل غموضًـا منهـا.. فكيـف تتوقعـين أن أبـني تصـورًا عـلى بضـع كلمـات غائمـة؟!

أكـدت في مقاومـة لرغبتهـا الواضحـة في الإفصـاح: كان حقًـا قـرارًا خاطئًـا.. اسـمح لى!

ودون مقدمـات ارتفعـت قامتهـا نهوضًـا وتسـمرت في انتظـار أن أقـف أيضًـا في اسـتعداد لانحنـاءة أخـيرة لمقامهـا قبـل أن ترحـل.. لكـني لـم أفعـل، بـل راقبتهـا في شرود ولا تـزال الحـيرة تحيـط بـرأسي.

تعجبـت في حنـق بسـيط مـن جلـوسي أمـام وقفتهـا، ومـا أن علِمَـت أن تعاليـم اللياقـة قـد غابـت عـن جليسـها حـتى اسـتدارت للرحيـل، وعندهـا أقدمـت عـلى مـا اعتبرتـه كأمـيرة مـن الأسرة العلويـة مـن المحرمـات.

أمسكت بذراعها في لهفة: أنتِ تخفين أمرًا!

التفتـت إليّ في غضـب مـن جـرأتي فأكملـت في تأكيـد: باللـه أخبريـني بالحقيقـة.. فلقـد كنـت طرفًـا فيمـا حـدث.. وأصبحـت شريـكًا فيـه شئتِ أم أبيـتِ!

غلظ صوتها في استنكار بالغ: كيف تجرؤ؟!

وقفـت أمامهـا في مواجهـة متوتـرة وأنـا أعـي هـول مـا أفعـل: لـم أر في حيـاتي خوفًـا كذلـك الـذي أحـاط بقريبتـك.. وأعلـم جيـدًا أنهـا لـم تكـن مجـرد هـلاوس.. وإلا كان أمـين بـك قـد أقـر بهـا.. أخبريـني بالحقيقـة.. مـن هـي تلـك الفتـاة؟

تعلقت عينها بعيني في أسى وكأن ما قلته عن جلنار وحالتها البائسة قد أصاب قلبها فانفطر، وما أن انفرجت شفتاها لكلمة حاولت منعها، حتى شعرتُ بحمل ثقيل على كتفي يجذبني للخلف في عنف، وما إن استدرت لاستبيانه حتى وجدت صادق باشا في مواجهتي بوجه غاضب:

«ما الذي تفعله أيها الأهوج؟!».

تراجعت صاغرًا في حنق متجاهلا نظرة عمر باشا التي كادت أن تثقب وجهي، وعندها استغلت الأميرة تدخل حارسها الأمين وتحركت في رحيل سريع، راقبت رحيلها في حنق حتى قطع كبير الياوران نظراتي بوقوفه أمامي..

- يبدو أن المشكلات تتعلق بأعقابك أيها الشاب.. أتعي خطورة ما فعلت؟

واجهته في ضيق: يا صاحب السعادة.. الأمر جد خطير.. الأميرة تخفي شيئًا له علاقة بانتحار جلنار هانم و...

قاطعني في جمود هادئ: ومن قال إن جلنار هانم انتحرت؟

ابتعدت عنه خطوة للوراء في تعجب: حقًا؟!

أشار إلى بإصبع آمر: سمعة القصر لا يمكن أن تلطخ بخبر كهذا.. أنت لم تقابل جلنار هانم في حياتك، ولم تنل شرف الدخول إلى الصالون الأبيض، ولم تجالس الأميرة إمتثال، حتى أنك لم تنحن أمامي على الإطلاق.. وما تعلمه حقًا كغيرك.. هو أن جلنار ماتت بالحمى..

تقدمت منه مرة أخرى في غضب: من قال ذلك؟

احتد في حزم وعين جحظت في تهديد: جلالة الملك فاروق الأول نفسه!

ألجمت نبرته لساني، وغاصت قدماي بموضع وقفتي الباهتة، التي افتقرت لأي محاولة من مقاومة نفوذه ونفوذ من تحدث باسمه، فما كان مني إلا أن راقبته في استسلام، وما أن تأكد أن نظراته الصامتة التي أعقبت جملته الأخيرة كانت كفيلة بإقناعي بالتزام الصمت.. حتى استعد للرحيل معلقًا بجملة أخيرة:

«رحل أبوك إلى قصره منذ دقائق بعد أن أغدق عليه جلالة الملك بهدية صمته عما حدث.. فالحق به.. قولًا وفعلًا!».

طويت الطريق الفاصل بين قصر عابدين وقصر اللعين كامل باشا الحداد سيرًا بطيئًا لساعات قضيتها في محاولة يائسة لفهم ما حدث حقًا، وما أن وصلت إلى غرفة النوم دون أن أتذكر حتى إن كنت قد قابلت حموّي وقهوته العصرية أم لا؟ أألقيت عليه التحية أم تجاهلته، حتى وجدت ليلى في انتظاري!

وبحركة لا إرادية استدرت مجددًا للرحيل في ضيق نزولًا إلى بهو القصر دون تردد، ولكن ما إن لمست قدمي أرضية البهو حتى صفع رأسي ضجيج ضربات قدميها على السلالم، فتوقفت في استعداد لحوار عبثي آخر..

دارت حول جسدي وانتصبت أمامي في تحفز: من بين الجميع.. لم أتصور قط أنك ستكون أول من يخذلني..

رددت في استسلام وإرهاق: الحياة مليئة بالمفاجآت.. وها قد قابلتِ أولها..

مال عنقها في حنق: ألا تدري حقًا ما فعلت؟! لقد أفسدت الأمر كله.. أرسلنا المرأة إليك بعدة كوابيس ليلية.. وما إن خطت بقدميها داخل مكتبك حتى قتلت نفسها؟ أي طبيب أنت؟

- من فقد عقله.. وقبل أن يتزوج بكِ..

- لا ترهق نفسك في محاولاتك الطفولية لإهانتي.. فما ينتظرك من خطر أكبر بكثير..

- فلنعجل به إذًا!

ملأت صدرها بشهيق طويل زفرته في بطء، وكأنها تحاول أن تهدأ رغمًا عنها، وبعد ثوان من الصمت أشاحت بوجهها بعيدًا وأشارت بإصبعها تجاه باب القصر في نبرة هادئة: فقط غادر الآن.. حتى أصلح ما أفسدته.. وحتى لا يشوب حبي لك الكثير والكثير من الكراهية التي أكنها لك في تلك اللحظة..

انحنيت لها في برود انحناءة أخيرة كنت قد أرجأتها منذ لقائي والأميرة إمتثال، وكأن الآن هو وقتها المناسب، وتحركت للرحيل في طاعة لأمرها دون أن ألتفت ولو حتى لنظرة خاطفة أتبين فيها ملامح وجهها الساخن..

عدت إلى الطرقات مرة أخرى، وهمت على وجهي دون هدى حتى أطبق

الليـل، فمـا لي أن أعـود إلى قـصر أبي بعـد مـا جـرى بيننـا، ولـم يعـد قـصر كامـل باشـا يحتمـل تبـادل الأنفـاس بيـني وبـين زوجـتي الغاضبـة، وعندهـا.. لـم أجـد سـوى مكتـبي المتواضـع لأفـترش أثاثـه اسـتعدادًا لنـوم هـادئ.

مـرت ثـوان أو ظننتهـا كذلـك، وضرب ضـوء الشـمس عيـني في إجبـار عـلى اسـتيقاظ مبكـر، ومـا إن فرجـت جفـني في صعوبـة، وتـسرب الألـم لظهـري تدريجيًـا مـن نومـتي الأرضيـة، حـتى رأيتـه واقفًـا فـوق رأسي ناظـرًا إليّ في صمـت.

نطقت في حيرة من وجوده في هذا المكان بالذات: كامل باشا؟!

كان الحـزن باديًـا عـلى وجهـه ولـم أغفـل عـن آثـار بـكاء حفـرت تجويفًـا بسـيطًا عـلى وجنتـه البيضـاء، اعتدلـت في تعجـب وحاولـت أن أصلـح مـن هندامـي في عجالـة: مـا جـاء بـك إلى هنـا؟! أحـدث أمـر لــ..

أشـار إليّ في هـدوء ونَفْـيٍ لمـا جـال بخاطـري مـن قلـق زائـف عـلى زوجـتي، وجلـس عـلى المقعـد الـذي أدفأتـه جلنـار سـابقًا: أردت أن أحدثـك في أمـر هـام.. فاسـتفق!

استفقت لحظيًا وشاركته جلسته: ما الذي يحدث؟!

تحـدث في خجـل محـاولًا تجنـب النظـر إليّ: علمـت كمـا علـم الجميـع بوفـاة جلنـار هانـم بالحمـى..

أومأت في كذب أُجبرت عليه: هذا صحيح!

قاطعـني في حنـق: كذبـت! لقـد أخبرتـني بنفسـها أنهـا قادمـة إليـك.. قبـل سـاعة مـن لقائكمـا.. وكانـت بصحـة جيـدة!

تهربـت في توتـر ملحـوظ: كامـل باشـا.. لا أظـن أني أسـتطيع مساعدتك في هـذا الأمـر..

نهض في ثورة: كف عما تفعل! جلنار لم تنتحر.. جلنار قتلت!

أغمضـت عيـني في إرهـاق وقـد كرهـت حقًـا ذلـك الاسـم: لقـد شـهدت انتحارها بنفـسي بحـق اللـه!! (نهضـت في غضـب) هـا قـد أخبرتـك بمـا قـد يـودي بنـا إلى الهـلاك معًـا إن وصـل إلى القـصر..

نطق بها في هدوء: بل قتلتها الفتاة!

رفعت عيني وقطبت جبهتي في جمود: ماذا قلت؟

تنهد في إرهاق: لقد سمعت جيدًا ماذا قلت!

اقتربت من وجهه: وما الذي تعرفه عن تلك الفتاة؟

هز عنقه في أسى: كل شيء!

وضعت يدي على كتفيه وأجلسته في هدوء كمن يهدهد طفلا صغيرا: أخبرني!

ترقرقت عيناه بالدمع: اسمها فيروز! وأستطيع حقًّا أن أصفها لك..

جذبت مفكرتي الورقية من جيب سترتي الملقاة على مقعدي القطني في سرعة دون وعي مني، وتجاوزت صفحاتها البيضاء التي لم أشغل منها سوى بضع وريقات.. واستعددت أن أرسم في صفحتها الأخيرة ما سينقله إليّ ذلك العجوز من أوصاف..

لكنه، وبمجرد أن لامس القلم صفحات المفكرة حتى انتبهت إلى شيء غريب غفلت عنه في خضم «لا إرادية» فعلتي..

أسكتّه بإشارة من إصبعي في استنكار وغير تصديق: توقف توقف! كـ.. كـ.. كيف ستصفها ليّ؟ لقد كانت هلاوسها الشخصية أو كما قالت إمتثال هانم خيالات شيطانية ولا يمكن لأحد غير جلنار أن...

التفت إليّ في برود ولطمني بعبارته الأخيرة: لقد رأيتها أيضًا!

-٤-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

«لم يرك أحد.. اطمئني»..

قالها زوجي المكلوم عاصم، وأتبع كلمته بمسحة من كفه الهادئ على رأسي المضطرب في حنان يائس، معلقًا على عبوس وجهي من تلك المهانة التي لاقيتها بين الجميع بسقوطي الساذج بينهم، وقد أفسدت حفل ختام عرض الأزياء الذي انتظرناه لشهور.. أشفقت على ملامحه البائسة التي تستجدي من ملامحي المتحجرة ابتسامة امتنان تثلج صدره على ما فعله الليلة من أجلي، حيث أصر على اصطحابي لواحد من أكبر المستشفيات في القاهرة لتطبيب جرح فمي البسيط في مبالغة بالرعاية، وما أن وصلنا إلى الفيلا حتى استنكر رغبتي في صعود الدرج إلى غرفة النوم، وحملني بذراعيه حتى الفراش الذي تناسيت ترتيبه قبل أن أغادر في ذلك الصباح..

فعل كل ذلك في مقابل ابتسامة، إلا أنني كالعادة لم أقايض حنانه الزائد عليها.. فقط أومأت له في صمت، واستدرت في نومتي على الجانب الآخر، وعندها شعرت بتنهيدة متقطعة أطلقها وراء ظهري، وأحسست بضغطته على قوائم الفراش استعدادًا للنهوض في بطء من جلسته الأرضية.. في طريقه إلى الرحيل.

ارتجفت شفتي في تردد، أردت أن أشكره في حرارة على ما فعله من أجلي، حاولت حقًا أن أفعل.. لولا أن ساد الظلام الغرفة بضغطة من أصابعه وأغلق الباب وقد اختفت أنفاسه من حولي.

نهضت معتدلة في حنق مما فعلت، أو بالأحرى مما لم أفعل، ولكن بات ذلك الشعور القاسي بالذنب عاديًا من كثرة ما خالط قلبي حتى تحول إلى

واحـدة مـن نبضاتـه اليوميـة، وعندهـا نجحـت في تجاهلـه وتفرغـت لذلك الشـعور الآخـر الـذي غمـرني منـذ سـاعات.. وأصـاب رأسي بـدوار ربمـا يبـدو أكـثر قسـوة مـن ذاك الـذي نتـج عـن اصطدامـي بقائـم المـسرح الحـاد.

لن أتمكن من وصف ذلك الشعور الغريب.. فما اختبرته قط إلا الليلة!

أخرجـت تلـك المفكـرة العتيقـة مـن حقيبـتي في رجفـة لـم أفهـم سـببها، وضغطـت زر إضـاءة الأباجـورة، وقلبـت بـين صفحاتهـا مـرة أخـرى لأتأكـد مـن حقيقـة مـا رأيتـه بـين وريقاتهـا... فربمـا اختلـط عـليّ الأمـر مـن أثـر الصدمـة.

ولكـن مـا إن وصلـت إلى تلـك الصفحـة حـتى هاجـم الصقيـع جسـدي مـرة أخـرى، كان حقًـا رسـمًا تفصيليًـا لشـخصي وبهيئـتي الحاليـة، دققـت النظـر أكـثر واقتربـت بوجهـي مـن ذلـك الرسـم التفصيـلي.. وعندهـا رأيـت مـا ضرب رأسي للخلـف في عنـف وكأنهـا سـقطة أخـرى مؤلمـة.

الرسم يحتوي على ضمادة طبية حول شفتي المصابة!

كيـف ذلـك؟ وهـل كان ذلـك موجـودًا عندمـا رأيـت الرسـم للمـرة الأولى؟ هـل قفـز إلى الرسـم بمجـرد أن صمـم زوجـي عـلى تطبيـب جرحـي البسـيط بتلـك الضمـادة الملحوظـة؟

سـألت نفـسي مـرارًا حـتى أصابتـني غرابـة الأسـئلة بحالـة مـن الاسـتنكار لمـا أقـول وكأني تقبلـت سريعًـا حقيقـة وجـود رسـم لشـخصي بمفكـرة مـضى عليهـا سـبعون عامـا.. ومـا يقلقـني فقـط هـو أحـد تفاصيلهـا!

همسـت لنفـسي: لقـد جننـت حقًـا.. فمـا أرى ليـس إلا جـزءًا مـن خيـال غـير مقبـول.. عـلى الإطـلاق!

لـم أهتـم لموضـع العقـارب مـن السـاعة، ولا مـن كتفـيّ اللذيـن أعراهمـا رداء السـهرة الـذي ارتديتـه في عجالـة بـدورة ميـاه الشركـة قبـل الديفيلـه، فقـط انطلقـت تجـاه سـلالم الفيـلا ركضًـا للأسـفل دون أن يشـعر بي زوجـي الغافـل، الـذي ربمـا قـضى مـا تبقـى مـن ليلتـه نائمًـا بغرفـة مكتبـه المظلمـة. ومـا إن وصلـت إلى البـاب حـتى فطنـت إلى غيـاب مـا يحمـي قدمـي مـن بـرودة الأسـفلت، ففتحـت دولاب الأحذيـة في عجالـة والتقطـت دون أن أرى حـذاء زوجـي الريـاضي،

وهرعت إلى الطريق وقد صرعني نداء أذان الفجر حتى كدت أن أسقط مرة أخرى.

أصدرت عجلات سيارتي المرسيدس صوتًا غليظًا عندما احتكت بالأسفلت في فرملة حمقاء أفسدت على رواد مسجد السيدة زينب استمتاعهم بهمساتهم التسبيحية التي أعقبت انتهاءهم من الصلاة، وانطلقت ركضًا تجاه الساحة وقد التقطت أعينهم في تعجب هيئتي الغريبة «رداء ليلي.. وحذاء رياضي أبيض».

بحثت بعيني بين الأعداد القليلة التي تخرج من المسجد عن عم فرغلي. خرج أخيرًا فاندفعت نحوه دون أن أترك له مجالًا لارتداء فردة حذائه الأخرى..

انتفض في فزع من رؤيتي: فيروز؟!

وضعت فردة حذائه الأخرى أمام قدمه كطفلة بارة ترعى انحناءة ظهر أبيها: أريدك في أمر بالغ الخطورة..

خلع عباءته البالية وغطى بها ما ظهر من مفاتني في لهفة متلفتًا تجاه نظرات المصلين إلى جسدي: أيًّا كان ذلك الأمر.. فلا يجوز يا ابنتي أن تقتحمي بيت الله بتلك الهيئة!

جذبته دون اهتمام: فلنستغفره في طريقنا إلى بيتك!

التقطت أذنا عامل المسجد تلك العبارة فاستنكرها في تنهيدة غاضبة، وقد ظن أن بيت عم فرغلي على وشك أن يشهد علاقة جنسية بين العجوز والمنحرفة بدلًا من ركعتي الضحى، إلا أن انطلاقي بذراع عم فرغلي في سرعة منع الأخير من محاولة تبرئة نفسه من ذلك الذنب المستقبلي..

قطعت المسافة القصيرة من المسجد وحتى بيته القديم في إزحام رأسه بعبارات هيستيرية تشرح له ما حدث، لكنه لم يفهم..

أعطاني مفتاح مزلاج باب البيت كالعادة: فقط دعينا ندخل ونحتسي كوبًا من الشاي الدافئ.. وعندها ستهدأين وربما تنطقين بما هو مفهوم..

ضرب المفتاح استدارة القفل عدة مرات دون فائدة من فتحه، فبدت يدي

مرتعشة مثل يده تماما: فقط أخبرني من أين لك بتلك المفكرة الشيطانية؟

أخذ المفتاح وفتح عني الباب ودخل في هدوء بينما تبعته في غضب: انطق بالله عليك.

التفت إليّ في عجز عن تهدئتي: أخبرتك أنها من الدكش.. لا إله إلا الله.. الآن اجلسي لتقصي عليّ الأمر في كلمات مفهومة..

فتحت المفكرة على الصفحة الملعونة ودفعتها أمام وجهه: وماذا لو كانت الصورة بألف كلمة!

سحب نظارته الضخمة من على الطاولة التي امتلأت بالعديد من الأطباق المتسخة، وارتداها وقد ألصق الصفحة بوجهه محاولًا تأملها في تركيز، ومرت ثوانٍ دون أن ينطق بكلمة واحدة.

رفع عينه ونظر إليّ من أعلى نظارته التي تدلت على أنفه في صمت فبدا مرعبًا للحظة: كيف ذلك؟

تقدمت منه في لهفة وقد أصبحنا أخيرًا على طريق واحد: ليس هذا فقط.. بل إن تلك الضمادة الطبية مرسومة بالتفصيل.. ولم أصب بفكي سوى الليلة فقط..

امتعض وقد عقد حاجبيه في نفور وكأنه فطن إلى حقيقة الأمر حقًا: هـ... هذا لا يحدث!

قاطعته في غضب: ماذا الذي يحدث؟ تكلم.. ما الذي تعرفه؟

تنهد في ضيق: لا.. ليس ثانية! لقد.. لقد فعلت كل ما.. كل ما..

وغاب في عالم آخر مسبحًا بـ «كل ما.. كل ما» تسبيحًا لا نهائيًا، وعندها تنهدت بدوري، وقد فهمت الحالة التي طالت كامل جوارحه.. قلبًا وعقلًا.

كان عليّ أن أتوقع ذلك، لولا أن غرابة ما مررت به استحوذت على كامل تفكيري، وأسقطت من ذاكرتي كيف بدأت علاقتي بذلك الرجل، الذي عاش أكثر من نصف سنوات عمره ملازمًا للكثير من الظواهر الغريبة.

كان العام ٢٠٠٥، وكنت لا أزال حينها في السنة الثانية من كلية الآداب،

وبالرغـم مـن اشـتراكي وزمـلائي في سـلوك جامعـي معتـاد مـن الامتنـاع عـن حضـور تلـك المحـاضرات المملـة، الـتي تمتـلئ بالكثـير مـن الهـراء التاريخـي، لكـني كنـت أول مـن يخـترق عتبـات البـاب الرئيـسي لجامعـة القاهـرة صباحًـا، وآخـر مـن ينفلـت مـن محيطهـا ليـلًا..

ظـن الجميـع في أول الأمـر أن السـبب هـو انخراطـي بفرقـة كليـة التجـارة المسرحيـة كـ«ستايلسـت» مبتدئـة لشـباب وفتيـات الفرقـة، وتعلقـي حينهـا بأحـد مؤلفيهـا «راجـي عمـر» في علاقـة عاطفيـة لـم يُكتـب لهـا الاسـتمرار، لكـن الأمـر كان حقًـا أكـبر مـن ذلـك.

فالحيـاة بـين جـدران تجمـع كلًا مـن محمـود الصـيرفي وزوجتـه سـعاد خليـل كانـت أقـرب إلى المسـتحيل الخامـس الـذي لـم يذكـره مكتشـفو المسـتحيلات الأربعـة الأخـرى، وعانيـت منـه وحـدي طـوال عشريـن عامًـا. فمـا كان إلا أن أصبحـت سـنوات الجامعـة هـي المخـرج الوحيـد مـن هـذا الجحيـم الأسرى.

ولكـن.. كيـف تمـضي الأيـام دون عنـاء يذكـر؟ وكان الجـواب المنطقـي أنهـا أبـدًا لـن تفعل.

فمـا أن عُـدت في أحـد الأيـام وقـد ظننـت أن تقاطـع خطـوات وصـولي إلى أعتـاب ذلـك البيـت المقفـر مـع خطـوات عقـارب السـاعة الـتي طرقـت علامـة العـاشرة مسـاءً قـد يُذهـب بعضًـا مـن حطـب جحيـم اللقـاء بسـكانه، حـتى خـاب ظـني كالعـادة.. وقـد وصلـت تقريبًـا في اللحظـة المناسـبة مـن عـراك آخـر.. بـدأ -عـلى مـا بـدا- باسـتنكار معتـاد مـن أمـي تجـاه تصرفـات أبي، واسـتمر بمحاولاتـه لتبريـره.. وأوشـك أن ينتهـي بمحـاولات ابـن عمهـا للفصـل بينهمـا.

دخلـت في بـطء تحـت عبـاءة مـن الصمـت لكيـلا يشـعر أي منهـم بوجـودي المحبـط، إلا أن تحيـة مسـائية أثقبـت وجهـي قـذف بهـا ابـن عـم أمـي في محاولـة بائسـة منـه لـصرف انتباههمـا عـن قلاعهمـا الحربيـة وهدمهـا. قبضـت عـلى قدمـي وتسـمّرت في عـدة سـنتيمترات ضيقـة في حالـة مختلطـة مـن السـخط لتحيتـه، والقلـق مـن انتباههـم، والأهـم الكراهيـة المسـننة تجـاه ذلـك اللعـين.. وكأنمـا أردت خـدش وجهـه المبتسـم بأسـنانها الحـادة.

بـدأت أمـي حلقـة جديـدة مـن مسلسـل اسـتعطافي: هـا قـد عـدتِ أخـيرًا.. فلتشـهدي عـلى أبيـكِ ا..

قاطعتهـا في ابتسـامة قصـيرة: شـهدت.. وأقسـمت بيـد يمـنى عـلى قلبي بفسـاده.. فلتعجـلي بإنـزال كلمـة النهايـة عـلى هـذا المسلسـل الممـل يـا أمـي.. (اصطنعـت بـراءة لا تناسـب مـا قلتـه قبـلًا).. مـن فضلـك.

أسـقطت كلمـة «فسـاده» رأس أبي أرضًـا ونطـق في خجـل وعـار: اتجهـي إلى غرفتـك يـا ابنـتي..

اندفعـت تجـاه الغرفـة وقـد تنفسـت الصعـداء في مبالغـة مسرحيـة قصـدت بهـا سـخرية واضحـة: ااه.. ظننـت أن أحـدًا منكـم لـن ينطـق بهـا!

ركضـت لعـدة سـنتيمترات قصـيرة قـد لا تـرق حقًـا لربطهـا بلفـظ «ركضـت»، وتعـثرت مـرة أخـرى لطـرق غريـب عـلى بـاب شـقتنا البائسـة، وكأن ضجيـج الماكينـات ينقصـه نقـرة دبـوس عـلى أرض صلبـة.

تجاهلـت الطـرق العنيـف، وانطلـق ابـن عـم أمـي تجـاه البـاب لخلـع درفتـه فتحًـا مـن القلـق، ومـا أن أعلـن الزائـر عـن هويتـه بسـؤاله عـن وجـودى، حـتى أصمـت الجميـع، وألقـى بحبالـه الخطافيـة لتخـدش أذني قبـل أن ألتفـت إليـه.

«راجي؟!»..

نطقـت بهـا في قلـق لـم أشـعر بـه قبـلًا، ليـس فقـط لاقتحامـه عالمـي المخجـل للمـرة الأولى منـذ بدايـة علاقتنـا السريـة عـن أبـويّ، وإنمـا لانغمـاس وجهه أسـفل محيـط مـن العـرق حـتى أوشـكت أنفاسـه المضطربـة عـلى أن تطلـق مـن بينهـا فقاعـات هوائيـة مهترئـة.

اتجهـت إليـه وعيـني تتراقـص بنظراتهـا بينـه وبـين نظـرات والـدي الـتي تثقـب مؤخـرة رأسي: مـــ.. مـا الـذي جـاء بـك إلى هنـا؟

ودون أن أشـعر التفـت لهمـا قبـل أن أسـمح لـه بإتمـام محاولـة الإجابـة عـن سـؤالى: إنـه راجـي.. زميـلي في الكليـة..

نطق دون تردد: تعالي معي الآن لأمر هام!

شـعرت بتحـركات دائريـة وأخـرى مسـتقيمة لأجسـاد والـديّ اندفعـت تجاهـي،

وكأنهما أرادا استنكار عبارته باقتراب أبوي، فلم أشعر إلا وقد انطلقت معه للخارج وقد أغلقت الباب خلفي.

فلتت من فتحة الباب قبل إغلاقه كلمات صائحة احتوت على اسمي وعدة أحرف من عبارات تمنعني من فعلتي المفاجئة، حتى التحم لسان كالون الباب برفيقه من الحائط فكتم أصواتهما.. ودفعته متعجلة إلى الخارج حتى أوشك أن ينشغل عما أصابه بما أصابني.

مد ذراعه ليوقف حركتي بمجرد أن وصلنا للطريق: فيروز توقفي.. ماذا أصابك؟

تلفتت حولى عدة مرات وأنا أدفع بيدي في جيوب سترتي الشتوية المفتوحة وقد رفعت كتفي في اصطناع للبراءة الطفولية: لا شيء! ألم تقل إن هناك أمرًا مهمًا أردتني بشأنه؟

وكأنه تذكر بعد غفلة، فاتسعت عيناه: وجدته يا فيروز! ولم أطق صبرًا حتى تشاركيني تلك التجربة.

جذبني في آلية ودفعني إلى جواره قفزًا داخل سيارة أجرة كانت في انتظاره، حتى كاد السائق الغاضب أن ينقل إليّ ما استعصى على والدي نقله من لعنات لتسببي في تأخره، ودون أن أفهم كلمة مما قالها.. تسابقنا وحبيبات الأسفلت الصفراء حتى وصلنا إلى أحد الطرق المتعرجة من طرقات حي السيدة زينب.

وصلنا إلى بيت قديم واقتحمنا بناءه شبه المتهدم حتى زادت جدران ممره الضيق من الليل ليلًا آخر، وبخطوات بدت مضطربة ساقني عمقًا حتى وصلنا إلى باب خشبي أضاءت قوائمه بإطار من الضوء الأصفر وكأنه يُخبئ حريقًا شمسيًا داخله.

طرق راجي عدة طرقات خفيفة على حبيبات الباب الخشبية، ثوانٍ وانتفضنا لسعلة غليظة تعالى صوتها تدريجيًا باقتراب صاحبها من الباب، وبصوت حاد دفع ما بدا أنه ترباس عكس حركة جسده الخفية وفتح الباب في قوة انتفضت لها للمرة الثانية وكأن انتفاضة شعيرات ذراعي القصيرة والتي

لـم أهتـم بإزالتهـا منـذ فـترة قـد تحولـت إلى صلاة فرضهـا إلـه ذلـك المحـراب المرعـب.

دلفنـا إلى الداخـل وباغـت عيـني تدريجيًـا مـا حجبـه جسـد الرجـل المسـن صاحـب السـعلة المخاطيـة بعودتـه إلى العمـق، فكلمـا اقتربنـا خطـوة زادت حدقـتي اتسـاعًا، فزحـف بـصري عـلى تلـك الجـدران القاتمـة والـتي كان طلاؤهـا العديـد مـن الأرفـف الورقيـة لكتـب اهـترأت أغلفتهـا. جـذب سـترتي الشـتوية في تعاقـب أوشـك أن يعـزف سـيمفونية مـن الخـدوش.. أسـنان مدببـة لطاولـة نحاسية متسخة تـارة.. ومقعـد خشـبي بمسـامير صدئـة عـلى جوانبـه تـارة أخـرى، ومـا أن نجحـت في جـذب سـترتي ضمًـا إلى جسـدي حـتى أتممـت الركعـة الثالثـة مـن صلـوات الانتفاضـة.. بأنـين مرعـب رج أرجـاء الغرفـة.

وعندهـا فقـط رأيتـه للمـرة الأولى، همـس راجـي في أذني بصـوت كان مناسـبًا لجـو الرعـب الغالـب عـلى الحالـة المزاجيـة لشـخصي الضعيـف: عـم فرغـلي.. مفتـاح اللغـز!

كان اللغـز بالطبـع يخـص إحـدى مسرحياتـه الجديـدة، الـتي كانـت تقـص أحـداث فتـاة خطفهـا جـني سـفلي إلى عالمـه النـاري تحـت الأرض، بـدت فكـرة سـخيفة حقًـا، حـتى علمـت منـه بهمـس مخيـف آخـر أن ذاك المدعـو فرغـلي يدّعـي أن الجـن خطـف زوجتـه إلى تحـت الأرض.

كان يكفيـني مجنـون واحـد حـتى أجـبرني القـدر عـلى مشـاركة اثنـين منهـم الغرفـة، ولاسـيما ثلاثـة رجـال آخـرون يظـن اثنـان منهـم في ملابـس أزهريـة أنهمـا قـادران عـلى تسـخير الجـن، بينمـا اكتفـى الثالـث بمواصلـة سـعلاته المقـززة ومراقبـة الأمـر في قلـق.

اقتربـت منـا إحـدى العمـم الأزهريـة وخاطبـت راجـي بنظـرة وجهتهـا إليّ بنفـس صـوت الهمـس المسـتفز: لابـد أنـك الأسـتاذ راجـي.. أوصـاني عـم جـلال أن تحـضر بنفسـك تلـك الجلسـة.. ولكـن (رفـع إصبعـه المتسـخ محـذرا) إن كنـت أنـت أو تلـك الأبلـة (أوشـكت أن أصفعـه بسـبب ذلـك اللفـظ) تخشـيان مـا وراء ذلـك العالـم المـادي.. فربمـا يكـون وقـت الرحيـل قـد حـان مبكـرًا.

أومأ لـه راجـي بالموافقـة بعـدة طرقـات مـن كفيـه للهـواء في بـطء وإيمـاءات صاحبـت إغـلاق عينـه موافقًـا بـأن يطمـئن، وجذبـني بنظـرة أراد بهـا اطمئنانًـا غاب عـن جوارحـي منـذ أن رأيتـه الليلـة، وتحركنـا لإكمـال تلـك الجلسـة الدائريـة حـول التعيـس فرغـلي.

صرخ فرغـلي بأنـين آخـر أوشـك أن يرفـع جسـدي عـن المقعـد الخشـبي القـذر بمجـرد أن جلسـت عليـه، وانهمـرت دموعـه في نـداء: ســـ.عــ.ا د.. سـعاد!

علمـت أن اسـم زوجتـه هـو سـعاد، وابتسـمت لتطابـق ذلـك الاسـم مـع اسـم أمـي.. فربمـا تتطابـق المصائـر حقًّـا إن صـح ادعـاء العمـة الأزهريـة بأنهـا اختفـت تحـت الأرض.. فليتهـا تختفـي هـي الأخـرى بقبيلـة مـن الجـن السـفلي.

جذبـت العمامـة الأخـرى أعمـدة الشـمع الغليظـة الـتي صبغـت وجوهنـا باللـون الاصفـر، ووضعهـا أمامـه وأمرنـا بخلـع إحـدى فـردتي أحذيتنـا، فتعجـب وتعجـب راجـي ولكـن لـم يكـن لنـا أن نعـترض.. ففعلنـا، وبـدأ الشـيخ المعمـم في تـلاوة بعـض الآيـات القرآنيـة الـتي جـاورت في غرابـة عـددا مـن الألفـاظ الغامضـة مـن لغـة بـدت مبهمـة، وحينهـا ارتفـع أنـين فرغـلي مـرة أخـرى، ليرتفـع صـوت العمامـة في حـزم.. وقـد فهمـت أخـيرًا أن الجـن الخاطـف قـد حـضر وأن تلـك العمامـة تجلـد جسـده النـاري بعبـارات لاذعـة.

لـم أصـدق بالطبـع، وبـدأ ضـوء الشـمع المتراقـص عـلى وجهـي في عملـه الفاضـح بكشـف تعبـيرات السـخرية الـتي رفعـت وجنـتي للأعـلى قليـلًا ورسـمت ابتسـامة اسـتنكار عـلى شـفتيّ الباردتـين.

لاحــظ صاحــب السـعلة الغليظــة لوحــة السـخرية الباهتــة وألوانهــا عــلى وجهـي، فطلـب مـني الانـصراف في غضـب، حـاول راجـي منعـه حقًّـا في رجـاء يناسـب اسمه، لكـن رغبـتي الـتي اتحـدت مـع غضبـه دفعتـني للنهـوض، ومـا أن فعلـت، ومـا أن أوشـكت عـلى التقـدم خطـوة تجـاه البـاب الـذي بـدا بعيـدًا، حتى انتفضـت لركعـة رابعـة مـن صـلاة الانتفـاض عـلى صـوت شـهقة غائـرة صـاح بهـا فرغـلي قبـل أن يسـقط أرضًـا عـلى قدمـي ليعتصرهـا بجسـده الثقيـل!

كان جسـده يرتجـف وكأن ضمـه الصقيـع، وصرخـت العمامتـان بمـا يعـني أنهمـا

وجدا ما يبحثان عنه، بينما راقب راجي ما يحدث في شغف الرضع لصدر أمومي رطب، وكأن الجميع أراد لذلك أن يحدث.. إلا أنا.. فما لاحظته كان مغايرًا لظنونهم بحضور الجني المزعوم، حيث بدت كحالة أخرى من الصرع الذي يباغت أخي الأصغر عمرو بين الحين والآخر.. وعندها لم أشعر إلا وقد ارتميت على جسده في لهفة صرعتهم ومددت يدي داخل فمه بقوة وأسندت بيدي الأخرى رأسه في محاولة بائسة لإخراج ما لم يرونه.

كان لسانه معقودًا للداخل.. وإن كانت قد مرت ثوانٍ أخرى.. لابتلعه دون عناء يُذكر!

حاول صاحب السعلة رفع جسدي الهزيل من عليه، لكني سبقته بضربة من حذائي الثمين على أصابعه فسمعت تفقع عظامها مختلطًا بتأوه طفولي لا يناسب غلظة سعلته، وأنهمكت تحت صيحاتهم في محاولة لإخراج لسان المسكين.. وما أن توقف جسده عن الحركة وأوشكت على الظن بفشل مهمتي.. حتى باغتني القدر بنجاح غير متوقع.. فجذبت لسانه وخرت مقاومة أقداره لقبضتي الرقيقة فاعتدل، بينما دفعتني تلك المحاولة الأخيرة للخلف في عنف أسقطني أرضًا بين رجليه المفرودتين.

تنفس فرغلي الصعداء وفتح عينه في تعجب مما حدث وكأن وعيه كان منقطعًا بين أحداث تلك المباراة الجسدية التي دارت بيني وبينه، وشاركه التعجب حبيبي الساذج وعمامتاه التافهتان وصاحب السعلة القذرة.

استغللت لحظات الصمت التي أحاطت بهم جميعًا وجذبت حذائي الرخيص واتجهت للخروج في سرعة أبطأتها قليلًا عبارة شكر من فرغلي ربتت على رأسي في حنان نادر وصوت عذب أثناء رحيلي «حفظك الله يا ابنتي».

خاصمت وقتها راجي لعدة أيام، ليس لأذى عاطفي أصابني من تلك الليلة اللعينة وإنما في محاولة لإجباره على مراجعة أفكاره التي اختلط بها الكثير من الخرف وقد سمح لخيال وحيه الكتابي بمضاجعة واقعه البائس، ولكن.. لم يمنعني ذلك من فعلة لم أفهم حتى يومنا هذا السبب الحقيقي وراء إقدامي عليها.

اخـترق جسـدي كالعـادة بوابـات الجامعـة خروجًـا، ولكـن في وقـت أبكـر قليـلًا مـن المعتـاد بعدمـا أجبرتـني تظاهـرات الطلبـة لدعـم أحـد مرشـحي الانتخابـات الرئاسـية الأولى في العهـد الحديـث للدولـة المصريـة الطائشـة عـلى الرحيـل باكـرًا، ومـا بـين مخاصمـتي لراجـي وانقطاعـه عـن القـدوم إلى الجامعـة مسـتغرقًا في كتابتـه التافهـة، وبـين رفـضي الفطـري للعـودة إلى البيـت قبـل أن يسـدل الظـلام أسـتاره عـلى أعتـاب بيتنـا الملتهـب.. سـاقتني قدمـاي إلى بيـت عـم فرغـلي مـرة أخـرى، ولكـن هـذه المـرة كنـت وحيـدة.. فأثـاب بصـلاة الانتفـاض بسـت وعشرين درجـة أقـل مـن سابقتها.

نقـرت بأظافـرى المطليـة باللـون الـوردي بابـه الخشـبي الرقيـق وانتظـرت ردًا، ومـا أن طـال الـرد، وتعاقـد حاجبـاي لتعجـب حـل مـكان الخـوف بقلـبي، حـتى انتبهـت لقفـل حديـث أصـاب أحـد جانـبي البـاب بإغـلاق بـدا حديثًـا.

التفـت للرحيـل، فضربـني أذان صـلاة الرعـب مـرة أخـرى، ولكنـه كان بصريًـا هـذه المـرة وقـد فزعـت لوجـه فرغـلي وهـو ملتصـق بوجهـي، ابتسـم ومـال بعنقـه وكأنـه يحـاول أن يتذكـر صاحبـة تلـك التعبـيرات المنقبضـة وهمـس: أنـتِ مـن...

أومـأت لـه بتنهيـدة زفـرت الخـوف مـن داخـلي في عتـاب عـلى إفزاعـه لي: أجـل أجـل.. جئـت فقـط للاطمئنـان عليـك.. كيـف حالـك؟

راقبـني في صمـت وابتسـامة صافيـة ظللـت عينيـه بغـلاف رقيـق مـن عـبرات لامعـة، وكأنـه لـم يظـن أن أحـدًا قـد يكلـف نفسـه عنـاء التحـرك إلى كهفـه المقفـر للاطمئنـان عليـه، ثـم أسـقط رأسـه برفـق للأسـفل وأداره يمينًـا ويسـارًا في بـطء وكأنـه يتعجـب مـن فعلـتي في إعجـاب.. ثـم أومـأ في موافقـة حـتى ظننـت أن هنـاك مـن يحدثـه بصـوت يسـمعه وحـده، بـأن الخـير لا يـزال يختـبئ بـين أروقـة تلـك الدنيـا المزدحمـة.

مـد يـده بمفتـاح قصـير ناسـب قـصر قامـة صاحبـه وفتـح القفـل الجديـد: فلتسـمح إذًا سليلة الأصـل الطيـب لذلـك العجـوز أن يـرد لهـا بعضًـا مـن فضلها!

ابتسـمت ولـم أعلـم سر الابتسـامة، أكانـت بسـخرية لوصفـه إيـاي بسـليلة

الأصل الطيب وهو لا يعلم كيف اجتمع الصيرفي بزوجته؟ أم كانت في خجل من ضيافته الكريمة.. على كل حال لم أهتم.. فقط شعرت بارتياح لم أرغب في تفسيره وتبعته للداخل.

أبعد بيده عدة مجلدات قديمة من على مقعد متسخ، ومد كمه الواسع على سطحه لتنظيفه في همة لا تتوافق مع بطء حركته وأجلسني كأميرة إنجليزية قفزت من صفحات تلك الكتب التي أحاطت به.

أشعل سبرتاية بضوء أصفر لعود كبريت صغير استحال إلى الأزرق بمجرد ملامسته لفتيل السبرتو النحاسي: لقد أنقذت حياتي في ذلك اليوم.. على الرغم من...

سكت وقد أشاح بوجهه بعيدًا في حزن: على الرغم من عدم رغبتي في ذلك..

أجلست قدمًا فوق الأخرى في استمتاع بإتيكيت الأميرات الذي أصبغني به رغمًا عني: ولماذا ترغب في الموت؟

قلّب القليل من الشاي داخل إبريق أزرق صغير دون أن ينظر إليّ: لابد أنك سمعتِ بما حدث لزوجتي..

زفرت هواءً قصيرًا في استنكار: بلى.. ولكن.. لم أصدقه.

التفت إليّ في ابتسامة بسيطة كمن يعلّق بها البالغ على سذاجة الأطفال: لا بأس.. فأنا لم أصدق حتى رأيت بعيني..

صار الحديث مشوقًا بعض الشيء: كيف ذلك؟!

أعطاني كوب الشاي ذا اللون الأحمر الصافي فأدفأت به أصابعي المتجمدة وجلس في إرهاق واضح: لا أعلم حقًا لماذا أقص عليكِ ذلك الأمر.. فليس بيننا من ماض يسمح بذلك.. ولكن أعجز عن كتمان ما جرى فأقصه على الجميع، حتى علمت الحارة بأكملها قصة سعاد وفرغلي، وضاقت بأذنهم سيرتي وقد أصبحت مصدر إزعاج مبرر لهم..

دعمته في لطف لم أعتده: اطمئن.. لديّ ما يكفى من قصص الأزواج لأسخر منه حتى آخر الدهر.. فأنا أعيش أحداث واحدة منها، صدقني.. فلن

تكـون قصتـك أكـثر تعقيـدًا منهـا..

ابتسـم نصـف ابتسـامة تراجـع عنهـا بمجـرد اقـتراب كلماتـه مـن لسـانه: قابلتهـا بإحــدى حــضرات الخميــس الثــاني مــن الشــهر.. كانــت تعــد طعــام الحــضرة لمريــدي ســيدي عبدالصبــور.. وكنــت أقــود المديــح النبــوي..

ابتسـم في حنـين: عـدة مـرات لمحـت فيهـا ظـلًا يختـبئ في حيـاء خلـف الحـد الفاصـل بـين المسـجد ومصـلى السـيدات.. كنـت أحـترق شـوقًا لمعرفـة صاحبـة ذلـك الظـل الغامـض.. (ضحـك في حـزن) حـتى أني كنـت أتعـثر عـدة مـرات في إنشـادي بميـلي لاسـتطلاع هيئتهـا.. ومـا أن خطفـت نظـرة أطلقتهـا في خجـل الملائكـة.. حـتى وقعـت في قلـبي.. واندفعـت للتغـزل في محـراب حضرتهـا..

كان ينتقـي عباراتـه في سـحر غامـض أصـاب ظهـري بانحنـاءة دفعـت يـدي للتربـع أسـفل ذقـني في مراقبـة لـه وهـو يقـص تلـك القصـة العاطفيـة النـادرة: علمـت أن اسـمها سـعاد، وأخبرتـني خالتهـا أنهـا لا تجيـد الطهـي، وأنهـا تـداوم عـلى الحضـور فقـط مـن أجـل الاسـتمتاع بصـوتي العـذب (احمـر خجـلًا مـن وصفـه لصوتـه بالعـذب) في مـدح سـيد الخلـق..

بسـطت حاجـبي في ابتسـامة صادقـة، حـتى أكمـل في حـزن: وبالرغـم مـن عشـقي لهـا فـإن قرابتهـا لتلـك الخالـة كانـت تثـير حفيظـتي.. فأنـا بالـذات أعلـم دونـًا عـن الجميـع، ولاسـيما سـيدي عبدالصبـور باشـتراك تلـك المـرأة مـع أحـد وكلاء الطريقـة في أعمـال فـك السـحر.. الأمـر الـذي اسـتنكرته عـلى الـدوام..

رددت في مراهقـة فتـاة مندفعـة لمشـهد تقليـدي بفيلـم رومانـسي: ومـا علاقتـك أنـت بخالتهـا.. إن كنـت تحبهـا يـا رجـل فلتتزوجهـا.. وإن أردت فلتقطـع علاقتهـا بتلـك الخالـة الغريبـة..

ابتسـم مـن سـذاجتي، فقـد تناسـيت نهايـة القصـة الـتي أعلمهـا بأنهمـا تزوجـا حقًـا، ولكـن بـدوت كمـن تخلصـت مـن أحبـال الزمـن الحـالي وانسـاقت خلـف كلماتـه في معايشـة لأحـداث مـا جـرى، فتراجعـت في ابتسـامة سـخرية مـن حـالي أنـا الأخـرى وقـد فطنـت إلى الحقيقـة، وبحـزن بالـغ أكمـل:

- فعلـت! ولكـن لـم تتخلـص سـعاد مـن بقايـا معاشرتهـا لخالتهـا.. فكانـت

تمـارس بعـض الأعمـال السريـة الـتي مـا أن أخـبرت سـيدي بهـا.. حـتى وصفهـا بالكفـر البـواح.. وأمـرني بتطليقهـا فـورًا..

- أمرك؟! وكيف تسمح لرجل آخر بالتدخل في حياتك و...

- إنه سيدي.. وكانت طاعته فرضًا دينيًا..

تغـيرت نظـرتي لـه في حـسرة وسـألته في نـبرة غليظـة في تحقـير مسـتتر لضعفـه: وهـل طلقتهـا؟

تنهـد في حـزن: كلا! وكانـت المـرة الأولى الـتي أخـون فيهـا عهـدي مـع سـيدي.. فقـد.. فقـد كنـت أعشـقها عشـق ابـن آدم لجنـة الخلـد.. حـتى اسـتنكر زمـلائي ضعفـي ووصفـوا عشـقي لهـا باحتمـالات الـشرك وقـد جـاور عشـقها.. عشـق الخالـق بقلـبي..

همست دون أن يسمع: جهلة!

ربمـا سـمع حقًّـا: بـل كان لديهـم مـن الحـق الكثـير.. فلقـد كنـت أسـيرًا لهـا، عجـزت عـن تركهـا، وعجـزت كذلـك عـن ردهـا عمـا تفعـل مـن أمـور شـيطانية.. حـتى..

وسـكت وقـد كاد البـكاء أن يخنـق صوتـه فجـأة: حـتى أيقظتـني في ليلـة قريبـة بعـين امتـلأت عـن آخرهـا بالسـواد.. واختفـت ملامحهـا الملائكيـة.. وابتسـمت إليّ ابتسـامة إبليسـية وصاحـت «هـي لي الآن!».. وفي غمضـة عـيْن تسـاوت بثنيـات الفـراش واختفـت!

زحفـت عـلى رقبـتي رعشـة بـاردة وقـد خلـب الرعـب جسـدي حقًّـا، ربمـا كان اندماجـي في حكايتـه سـببًا في استسـلام مشـاعري لمـا قـال، ولعنـت قـراري البائس بالقـدوم إلى هـذا المـكان الـذي ضـاق بجدرانـه عـلى رأسي حـتى كاد أن يسـحقها مـن الخـوف..

تجاهـل علامـات الخـوف وندوبهـا عـلى وجهـي وأكمـل في بـكاء: لجـأت إلى سيدي.. وقبـل أن أقـص عليـه مـا حـدث.. أخـبرني بالحقيقـة.. لقـد خطفهـا اللعين إلى عالمـه السـفلي مسـتأثرًا بهـا.. حـتى أنـه أخـبرني باسـمه «ميطـرون»!

نطـق باسـمه وراقبـني منتظـرًا مـني ارتعـادًا أو خوفًـا فربمـا حـضر اللعـين عـلى

ذكـر اسـمه، لكـن ثبـاتي في مراقبتـه انتظـارًا لإكمـال قصتـه كان محفـزًا لـه عـلى الاطمئنـان: وأوكل شـيخين مـن أفضـل تلاميـذه لإعادتهـا إليّ بـشرط تطليقهـا فـور العـودة.. فوافقـت، فـلا أطيـق عالمًـا خـلا مـن سـعاد حـتى وإن ابتعـدت عـن أحضـاني الشرعيـة.. واسـتمر الحـال لأكـثر مـن سـبعة أشـهر حـتى الآن.. وكان آخـر مـا رأيـتِ.. هـو مـا وصلنـا إليـه.

بالرغـم ممـا بـدت عليـه ملامحـي مـن اندمـاج كامـل، فظـن العجـوز أن كلماتـه قـد وقعـت بموضـع الصـدق بـين قلـبي وعقـلي، لكـني حقًـا لـم أقتنـع بكلمـة ممـا قـال.. بـل وصفتهـا في نفسي بإحـدى قصـص الرعـب التافهـة والـتي لا تصـل ميزانيـة إنتاجهـا لأفـلام أمريكيـة لثمـن وجبـة صيفيـة مـن مطعـم ماكدونالـدز الـذي فتـح لتـوه بحينـا المظلـم، ولكـن حرصًـا عـلى مشـاعره وامتنانًـا لاطمئنانـه إلى جلسـتي وأنـا الغريبـة الـتي اقتحمـت عالمـه الهـادئ للهـروب مـن عالمهـا الصخـب.. ارتأيـت أن أناقشـه بالحكمـة..

اقتربـت منـه في لطـف: ربمـا كان مـا رأيتـه في تلـك الليلـة حُلمًـا أو بالأحـرى كابوسًـا استفقت منـه عـلى مغادرتهـا لبيتـك بدفـع مـن سـيدك.. ربمـا أجبرهـا عـلى ذلـك لإرجاعـك إلى عقلـك..

بدوت حقًا أكثر موهبة في نسج الحكاوي من راجي نفسه!

ابتسـم في حـسرة مـن تكذيـبي لـه: أقـدر حقًـا تهوينـك الأمـر عـلى نفسي.. (اعتـدل) أنـا أيضًـا لـم أكـن أصـدق في تلـك الهـراءات الـتي كانـت تقصهـا عـليّ مَن ضاعـت وراءهـا.. ولكـن مـا كان لتلـك الحادثـة مـن مقدمـات دفعـني للاعتقـاد بـل للإيمـان حقًـا.. بـأن مـا حـدث كان حقيقيًـا..

عاد الحديث إلى منعطفات التشويق مرة أخرى: أية مقدمات؟

لطمـت عبـارتي السـابقة أذني وكانـت آخـر مـا مـر بـرأسي مـن ذكريـات علاقـتي بعـم فرغـلي، ربمـا لـم تسـتغرق كل تلـك الأحـداث سـوى بضـع ثـوان عـبرت أمـام عيـني وأنـا أراقبـه ممسـكًا بتلـك المفكـرة القديمـة وهـو لا يـزال يـردد تسـبيحه «كل مـا.. كل مـا».. وقـد سـافرت إلى خمسـة عـشر عامـا سـابقة.. وعـدت في غمضـة عـين.

علمت حينها سر هلعه من ظهور رسمتي في مفكرة عزيز قاسم، فالمقدمات التي سبقت اختفاء زوجته كانت شبيهة بذلك الموقف إلى حد كبير، فقبيل اختفائها، كانت صورتها تطارده في كل كتاب قلّب بين صفحاته قبل أن يتركه أمام نصبة الكتب التي يقتات منها عيشه، وكأن ذلك الجني الغاضب كان يتلاعب به لأيام طويلة قبل أن يخطف زوجته.

وبالرغم من توطد علاقتنا طوال العِقد الزمني السابق منذ تلك الليلة وحتى الآن، وبالرغم من نجاحي في مهمتي الأثيرة بإخراجه من تلك الخرافات وقد علمت قدماه طريق المسجد مرة أخرى باستسلامه للأمر الواقع وقد طرد العشق الإلهي عشقه لامرأته، لكن عزيز بك ومفكرته البالية أعادت في لحظة عم فرغلي العابد الهادئ إلى عم فرغلي الخائف اللاهث وراء طيف زوجته.

حاولت أن أشرح له في لطف أن ذاك الأمر ليس كسابقه، فاقتربت منه كتمرجي احترف السيطرة على نزلاء الخانكة بحنان كاذب: عـ.. عم فرغلي.. ليس الأمر كما تظن وإنما.. اااا..

أنهضني في خوف مفاجئ قطع سيل حرف الألف السابق بترددي: عليكِ أن ترحلي ولسوف أحرقها بنفسي و...

ربتُّ على أصابعه التي كادت أن تصل إلى عروق ذراعي اختراقًا في غضب حاولت كتمه فظهر في هدوء مضطرب ألمع جبهتي بعرق بارد: اهدأ بالله عليك و...

صرخ بوجهي فأطاح بخصلات شعري إلى الوراء في عاصفة من الأنفاس الكريهة: اصمتي! لا تذكري اسم الخالق دون حذر وإلا أثرتي غضب ميطرون!

فاض الكيل حقًا فاندفعت في صيحة زادت محاولات كتمها من نبرتها غلظة: ميطرون؟! استفق يا عم فرغلي! لقد رحلت عنك سعاد للأبد لسبب لا يعلمه أحد ولا تقوى بجبنك على تصديقه.. وليس لجني تافه اختطفها من بين أحضانك!

انتبهت لنطقي بالسر وشعرت بوطأته على رأسه وهو يسمعه للمرة الأولى،

ولكـن فـات أوان التراجـع: أجـل يـا فرغـلي.. لقـد تحدثـت مـع شـيخك.. وأخـبرني أنـه قابلهـا وطلـب منهـا الرحيـل بـل هددهـا مـن أجلـك.. فرضخـت لـه.. واسـتغل كوابيسـك الليلـة لـكي تتقبـل رحيلهـا.. تذكـر جيـدًا.. هـذا بالضبـط مـا ظننتـه عندما أخبرتـني بالأمـر لأول مـرة..

اتسـعت عينـه في حـزن بالـغ وانهمـرت دموعـه دون صـوت وهـو يقلـب عينيـه في صدمـة بـين حدقـتي اللامعتـين بمـا أصابهـا مـن دمـوع هـي الأخـرى وقـد صرخـت بوجهـه بحقيقـة محنتـه، ولكـن مـا لبـث أن عبـس مـرة أخـرى وكأن عظمـات وجهـه انقبضـت وتجمعـت عنـد مركـز جبهتـه في تصميـم عـلى تنفيـذ أمـر مـا: لـن أسـمح لـه أن ينـال مـن رأسـك كمـا نـال مـن جسـدها.. سـأحرق تلـك المفكـرة!

دق القـدر طبـول المعركـة فتحـررت مـن علامـات الأدب وموجبـات احترامـي له: تحـرق مـاذا أيهـا الاحمـق! مـا الـذي حـل بـك؟ أتظـن أن شـيطانًا رسـم صـورتي بتلـك المفكـرة اللعينـة؟ هوايـة امتهنهـا في أوقـات فراغـه مـن وظيفـة الوسـاوس الفارغـة لبـني آدم؟! اسـتفق أيهـا المخبـول!

تغير صوته فبدا وكأن ميطرون تلبسه حقًا: قضي الأمر يا ابنتي!

ابتعـدت عنـه عـدة خطـوات وقـد رأيتـه شـخصًا آخـر، تحـول في نظـري ببضـع كلمـات مـن رجـل لطالمـا أثـار إعجـابي بثقافتـه العاليـة ونبوغـه رغـم بسـاطة حالـه، إلى عجـوز أبلـه خلبـت الخرافـات رأسـه حـتى فقـد عقلـه..

خلعـت عباءتـه في ضيـق هـادئ تحـت نظراتـه الجاحظـة: لقـد ظننتـك أفضـل مـن ذلـك..

تنهـد مـن عـدم تصديقـي لـه وقـد بـرز وجهـه المسـكين مـرة أخـرى: اسـتمعي إليّ يـا ابنـتي..

قاطعتـه كعـادة اكتسـبتها طـوال تلـك الجلسـة: لقـد قلـت مـا يكفـي! أعطـني إياهـا..

مـددت يـدي في محاولـة لأخـذ المفكـرة مـن يـده حـتى أنـه قبـض عليهـا كطفـل صغـير في رفـض طفـولي: لا! بـل ترحلـين دونهـا.. حـتى أنجيـكِ منـه..

سيطر الغضب عليّ ونازعته إياها: ماذا تفعل.. أعطني إياها أيها الخرف!

دفعني بعيدًا حتى كدت أسقط: عليّ أن أحميكِ.. غادري قبل أن...

وقبـل أن يكمـل جملتـه الـتي قطعتهـا دفعتـه الغليظـة، ارتطمـت بالحائـط خلفـي فصرخـت في ألـم. لمحـت ندمـه عـلى فعلتـه في خجـل وعجـز مما عليـه أن يفعـل في الخطـوة القادمـة، وعندهـا اندفعـت نحـوه في قـوة والتحـم جسـدانا في نـزاع حـول تلـك المفكـرة الـتي قبـض عليهـا بيـده: كلا.. كلا!

ودون أن أشـعر ضربـت صـدره في عنـف.. فمـال جسـده الوهِـن للخلـف وسـقط.. وقبـل أن أنـال وقتًـا للنـدم.. انشـق رأسـه بحافـة الطاولـة النحاسـية!

انفجـر الـدم وغطـى ملامـح وجهـه، تسـمرت في هلـع.. وتجمـد الزمـن للحظـات انهمـرت فيهـا الأنهـار الحمـراء حـتى وصلـت إلى حـذائي الريـاضي، اهـتزت ركبتـاي لرعشـة بسـيطة.. تعاظمـت تدريجيًـا مـع مـرور اللحظـات الثقيلـة.. وكأنهـا تزحـف عـلى جلـدي صعـودًا إلى رأسي.. ومـا إن وصلـت حـتى اهـتز جسـدي بأكملـه في فـزع، فأطلقـت صرخـة عاليـة اهـتزت لهـا جـدران البيـت العتيـق.

عـبر بـرأسي مـا عـبر مـن ذكريـات بيـني وبينـه عـلى مـدار أيـام وليـالٍ زادت عـلى محـاولات العـد، فالـدم يقطـر مـن الـرأس الـذي لطالمـا امتـلأ بأحاديـث الباكيـة إليـه، وأنـا أقـص عليـه مأسـاتي مـع أمـي وخيانتهـا لأبي.. وغيـاب الاثنـين عـن حيـاتي، وأغرقـت الأنهـار الحمـراء كفـه الـتي لطالمـا ربتـت عـلى كتفـي بعدمـا رحـل عـني راجـي، وبـدا أن صـدره قـد توقـف عـن الحركـة تمامًـا كمـا كان يفعـل عندمـا يأخـذني بـين أحضانـه باكيـة، خوفًـا أن تقلـق نبضـات شـهيقه وزفـيره رأسي، وأنـا أشـكو إليـه حـالي وطريقـي في الدنيـا الـذي ضللـت..

شـعرت وكأن دفعـة بسـيطة مـن يـديّ الخائرتـين.. قـد محتـه مـن سـجلات فـيروز الصـيرفي وعـادت بـكل منـا إلى حالـة مـا قبـل لقائنـا..

عدت مراهقة ترتعد في خوف مرة أخرى.

ارتميـت عليـه في لهفـة هيسـتيرية: عـم فرغـلي! عـم فرغـلي! اا.. انهـض باللـه عليـك! لـم.. لـم أقصـد.. اا..

فكـرت أن أتصـل بالإسـعاف، لـولا أني نسـيت محمـولي بخروجـي المتعجـل مـن الفيـلا، عندهـا هرعـت إلى الخـارج بحثًـا عـن المسـاعدة.. وكان حقًـا تصرفًـا غايـة

في الحماقـة!

فمـا أن خرجـت مـن البـاب حـتى ارتطمـت بجسـد امـرأة بدينـة تتحـرك في صعوبـة وتحمـل «سـبت» مـن الخـضروات عـلى رأسـها، بـدت إحـدى جاراتـه بجلبابهـا القديـم المتهتـك، سـقط الـ«سـبت» مـن عـلى رأسـها، ومـا أن اسـتدارت في اسـتعداد لإمطـاري بإهانـات شـعبية اعتـادت عليهـا حـتى رأت هيئـتي بذلـك الـرداء العـاري، فتقدمـت مـني في ريبـة واتهـام..

بـدت وكأنهـا رأت سـاقطة فجذبتـني بقـوة شـعري: اللـه اللـه! مـن أي بيـت خرجـتِ أيتهـا السـاقطة؟ أي رجـل نجـس أفقـر عتبتنـا بإحضـارك إليهـا! (صرخـت بقـوة) تكلمـي!

دافعت في غضب غلب ألم قبضتها: ابتعدي يا امرأة! إن عم فرغلي اااا...

رفعـت يديهـا في الهـواء وصاحـت في نـداء صـارخ: اسـتيقظوا يـا أهـل البيـت! تعالـوا وانظـروا! فرغـلي العجـوز يـأتي بالغانيـات إلى بيتـه تحـت أنوفكـم!

أخـذت بمجمـع جلبابهـا في قـوة وصرخـت بهـا: اصمـتي باللـه عليـكِ وسـاعديني! الرجـل عـلى وشـك المـوت!

دفعـت يـدي في اسـتنكار: بالطبـع.. لابـد أنـه قـد أفـرط في تنـاول الحبـة الزرقـاء ليجـاري ااا...

قاطعتهـا بضربـة عـلى صدرهـا وقـد جذبـت ملابسـها بقـوة وسـحبتها خلفـي دخـولا إلى غرفتـه كبهيمـة تعـسّر عـلى صاحبهـا ترويـض غبائهـا لـترى بعينيهـا مـا أقصـد، ومـا أن رأت جسـده المدمـر حـتى شـهقت في هلـع واتجهـت نحـوه في لهفـة، وهبطـت عـلى قدميهـا وحاولـت إفاقتـه: فرغـلي! فرغـلي! (نظـرت إليّ في غضـب) لقـد قتلـتِ الرجـل!

تراجعت في انتباه لاتهامها: كلا.. بل.. لم أقصد.. دفعته فقط و...

سـكتّ فجـأة وقـد انتبهـت لحمـق مـا فعلـت، كان عـليّ أن أهـرب قبـل أن يكتشـف أحدهـم مـا حـدث، ولكـن كيـف كان لي أن أتركـه دون مسـاعدة؟ وهـو أبي وأمـى وكل مـا بخلـت بـه الدنيـا، ومـا أن اسـتدرت نصـف دائـرة في اسـتعداد للهـرب حـتى انقضـت عـليّ في قـوة صارخـة لطلـب النجـدة.

وصلـت إلى سـيارتي بأعجوبـة وألقيـت المفكـرة بجـواري وأدرت المحـرك للرحيـل، لكـن عـددًا مـن أصحـاب المحـلات الـتي أوشـكت عـلى فتـح أبوابهـا مـع بدايـة الصبـاح اعترضـوا طريقـي، وقـد حفزتهـم المـرأة البدينـة عـلى اختطـافي مـن الداخـل!

«لقد قتلت فرغلي! لا تدعوا لها مجالًا للهرب!!».

أغلقـت الأبـواب وزجـاج النوافـذ، فانهـال أحدهـم بعصا غليظـة عـلى الزجـاج الأمامـي للسـيارة، بينمـا حـاول الآخـرون كـسر النافـذة لإخراجـي منهـا.. وحقًّـا فعلـوا!

انتهـت مهمـة الرجـال بمجـرد أن احتـك جسـدي بالأسـفلت، وعندهـا تدخلـت النسـاء تـشرف عليهـن تلـك البدينـة، وتناوبـوا عـلى ضربي وقـد تكومـت أرضًـا كجنـين يبحـث عـن مخـرج ضيـق للحيـاة!

صرخ بهـن أحـد الرجـال بأنـه قـد أبلـغ الحكومـة وأمرهـن بالتحفـظ علـيّ بحـوش البيـت القديم.

شـعرت بجسـدي وهـو يُحمـل ويسـاق إلى الداخـل مـرة أخـرى، وتفرقـت الآلام عـلى كل جـزء مـن جسـدي، وخالـط الـدم لعـابي قبـل أن ينهمـر مـن جـروح شـفتي ووجنـتي، وبـدت الرؤيـة ضبابيـة وقـد أثقلـت الضربـات عيـني فلـم أعـد قـادرة عـلى فتحهمـا.. وعندهـا استسـلمت لإغمـاءة بـدت حتميـة.

***

اسـتفقت وقـد أصبـح جسـدي في وضعيـة الجلـوس. ارتعـش جفنـاي في ألـم قايضـني عـلى فتحهمـا، فرأيـت شـبحًا ليـد تتحـرك يمينًـا ويسـارًا أمـام ناظـري، لتغيـب اليـد للحظـة عـن عيـني وأشـعر بضرباتهـا الخفيفـة عـلى وجنـتي.. ففطنـت إلى أنهـا إجـراءات شـخص أحمـق يحـاول إفاقـتي.

اعتدلت في بطء وإرهاق ونظرت إليه: أين أنا؟

كان رجـلًا مسـنًا مـن رجـال الشرطـة، بـدا مـن هيئتـه أنـه ذو رتبـة بسـيطة:

قسم الشرطة!

لطمتني عبارته فزادت من استفاقتي، وحاولت النهوض بقوة استكمالًا لشعوري بصدمة الخبر، لكن ألمًا مفاجئًا هاجم جسدي فارتميت على المقعد مرة أخرى..

- يبدو أنك من طبقة راقية، ولن تتحملي مشقة السجن.. إن كان لديك من أحد للاتصال به فافعلى قبل أن يصل المأمور.. فقضيتك ليست هينة..

وكأن فقدًا وقتيًا للذاكرة قد أصابني، لكن كلمات من بدا أنه شاويش أعادت إليّ جزءًا منها، وتذكرت عم فرغلي وما حدث له، فسألته في لهفة: وعم فرغلي؟

زفر في ضيق من سؤالي: في المستشفى.. لم يمت بعد.. وإلا لتحولت التهمة إلى جريمة قتل وليس الشروع فيه..

هدأت قليلًا وقد علمت أنه سيكون بخير، وبالرغم من ثقتي أنه سينفي عني قريبا تلك الألفاظ الغريبة «تهمة» و«جريمة» وغيرهما عندما يعود إلى الحياة، إلا أن السؤال الأهم قد باغتني، وشردت في هوية ذلك الشخص الذي صرح لي الشرطي الاتصال به لنجدتي من ذلك الموقف.

عبرت صورة زوجي أمام عيني عدة مرات، لكني حاولت مرارًا تجاهلها، فمن المستحيل أن أقحمه في أمر كهذا، ليس خوفًا على مشاعره وقد خيبت ظنه للمرة العاشرة بعد المائة فحسب، وإنما تجنبًا لنوبة غضب تمكن من حبسها لسنوات عجاف، ويبدو أنها لن تجد لفورانها وقتًا أنسب من تلك اللحظات.

وما أن نجحت في صرف تلك الفكرة عن رأسي، حتى طرقت الأخيرة صورة أخرى لشخص آخر، أملت أن أتمكن من صرف ملامح وجهه وحروف اسمه عن مخيلتي العبثية..

ولكن.. سبق السيف العذل!

ضغطت عدة ضغطات لعينة على لوحة أرقام محمول ذاك الشاويش البسيط، وقد بدا متعاطفًا معي بكفة أرجح من كفة تأمله لمفاتن جسدي

المصـاب، ورغبـةً في تقاطـع أحاديثـه مـع صاحبتـه لفـترة أطـول تُذهـب عنـه خجـل ومعيبـة التحديـق.

قفـز الصـوت إلى أذني بعـد اختراقـه السـماعة المهترئـة للمحمـول القديـم، كنـت أعلـم أن الوقـت لـن يكـون باكـرًا لاتصـال كهـذا.. فاللعينـة لا تـنام تقريبًـا حـتى تسـتيقظ!

همسـت في ترفـع اعتـادت عليـه في الاجابـة عـلى أصحـاب الارقـام المجهولـة: هالـو؟

تنهـدت تنهيـدة طويلـة ثـم دفعـت بالحـروف رغمًـا عـني لـترج أذنيهـا دون تصاعـد في درجـات صـوتي المتقطـع: أنـا في قسـم الشرطـة..

بـدت وكأنهـا علمـت هويـتي فتقطعـت نبرتهـا كمـن اعتدلـت مـن جلسـة مريحة: فـيروز.. مـاذا حدث؟

اهـتزت وجنـتي لابتسـامة مقتضبـة تعجبـت لهـا، ربمـا كانـت لشـعوري بنشـوة بسـيطة لاهتمـام أحدهـم لأمـري:

«أعتـذر عـن الإزعـاج يـا مـدام إيمـان.. ولكـن عليـكِ حقًّـا القـدوم الآن وسـتفهمين كل شيء لاحقًـا».

جلسـت قرابـة نصـف السـاعة في انتظـار مـن ظننـت أن لهفتهـا قـد تدفعهـا للوصـول إلى أسرع مـن ذلـك، راقبـت تصاعـد أصـوات خطـوات سـكان ذلـك القسـم المقفـر بدخولهـم التدريجي إلى ممراتـه، مـا بـين عسـاكر ومخبريـن ومـن تسـاووا مـع مـن أعطـانى قبلـة الحيـاة بصفعتـه في رتبتـه البسـيطة، وأخـيرًا مـن أطلقـوا عليـه المأمـور.. وشردت تحـت تأثـير حالـة السُـكر الـتي أصابـت جـزءًا مـن رأسي في معـنى ذلـك الاسـم «المـأمور».. وحللـت واسـتنبطت كأسـتاذة في علـوم اللغـات مـا ناسـبني مـن اسـمه.. كإهـدار لوقـت الانتظـار.

مأمـور.. هنـاك مـن يأمـره.. فـلا حاجـة لـرد أمـره.. فهـو لا يملـك حقًّـا أن يكـون آمـرًا ليُعـصى.. ومـن منـا ليـس ذلـك؟!

كلمـات غـير مترابطـة تراصّـت بجـوار بعضهـا داخـل رأسي فلـم أهتـم بتنظيمهـا ولا حـتى بمعـاودة تحليلهـا، حـتى أثقلـت جفـني وهبطـت بهمـا للأسـفل ملليمترات

في إرهـاق بالـغ، فبـدوت بعيـني نصـف المغلقـة كحيـوان مفـترس يراقـب فريسـته في بـرود غامـض قبـل أن يطلـق لشراسـته العنـان وينقـض عليهـا..

وهـذا بالضبـط مـا ظنـه ذاك المأمـور، فصرعـني في حـزم: اضبطـي نظراتـك يـا امـرأة!

وكأنـه علـم مـن الشـاويش مـا دار بيـني وبـين فرغـلي وكذلـك باتصـالي بمـن هـم أعـلى منـه شـأنًا وإلا لـكان ترجـم عبارتـه إلى لطمـة مـن يـده اعتـاد منـذ قدومـه أن يحـيي بهـا مـن افترشـوا ممـر القسـم مـن مشـتبه بهـم بسـطاء..

اعتدلت في إرهاق: أفندم؟

تحجـرت نظراتـه واسـتطرد: أيًـا كانـت الواسـطة الـتي تلجأيـن إليهـا.. اعـدلي مـن جلسـتك وإلا...

اسـتفقت نصـف اسـتفاقة في تعجـب مـن غضبـه، ولـم ألحـظ جلسـتي الـتي كانـت تثـير احتقـاره، فقـد كنـت نصـف راقـدة نصـف جالسـة عـلى ذلـك المقعـد القـذر، فبـدوت كمـن تسـترخي في اطمئنـان أمـام هيبـة مـن يرتعـد الرجـال منـه.

اعتدلت في صعوبة: أعتذر سيادة المأمور ولكن...

قاطعني في حزم وقد فرد كفه أمام وجهي: بطاقتك!

تنهدت من تكرار السؤال: لقد سألني عنها الشاويش وأخبرته أني فقدتها..

صاح بقوة أفزعتني: يا شاويش!

دخـل الشـاويش مهـرولًا وضرب الأرض بقدمـه احترامـا، فصرعـه بسـيل مـن الإهانـات: مـن أمـرك أن تبقـي تلـك السـاقطة.. (حقًـا قالهـا!) خـارج الحجـز وهـي متهمـة في قضيـة جنائيـة ودون تحقيـق شـخصية؟

ربمـا اسـتفزتني كلمـة سـاقطة فاعتدلـت في حنـق، وأوشـكت أن أطلـق جـم غضـبي عليـه حـتى بتلـك العظـام المفتتـة، لكـن صوتًـا جهوريًـا سـد الهـواء عـن مؤخـرة رأسي منعـني مـن ذلـك:

«الزم حدود الأدب سيادة المأمور!»..

خشـيت أن يكـون زوجـي وقـد تأثـر جهـاز إدراكي للأصـوات قليـلًا فلـم أعـد

أميز بينها، فالتفتت بجهازي البصري للتعويض عن ذلك.. وعندها رأيته، كان أحد المحامين المسنين من ذوي السيجار المنتفخ والسترات الرسمية الغالية والتي تبدو أكثر أناقة تحت عدسات كاميرات التلفزيون أثناء استضافته كل يومين للتعليق على الأحداث السياسية بالدولة.

وبجواره كانت تقف في شموخ لم ينقص شيئًا من أناقتها ورقيّها..

اتجهت إليها في سرعة ندمت عليها لاحقًا كرضيع اشتاق إلى حضن أمه: مدام إيمان!

احتضنتني وغفلت عن عبوس وجهي على صدرها وقد شعرْت بالغضب من ضعفي أمامها، وأحاطتني بذراعها في حنان محايد افتقد للهفة، وتحدثت برسمية وهي توجه نظراتها الصلبة للمأمور: لا عليكِ.. فقد انتهى الأمر.

ودون الرجوع إلى المأمور الذي هرب الدم من وجهه أشار المحامى المسن إلى مدام إيمان: اصحبيها إلى البيت يا إيمان هانم وسأعتني بالأمر..

التفتَ مكملًا جملته وهو يوجهها للمأمور: وأظن أن سيادة المأمور لن يمانع.. أليس كذلك؟

ساد الصمت فكان الرحيل بين أحضان إيمان أمرًا بديهيًا..

همَسَت بين أصوات محرك السيارة: أي الطرق تؤدي إلى بيتك؟

همهمت في إرهاق: بل إلى الشركة من فضلك..

نظرت إليّ أخيرًا وأنا متكومة على المقعد المجاور لها: ربما عليكِ أن ترتاحي اليوم و...

قاطعتها دون أن أنظر إليها: من فضلك.

كنت أعلم أنها لن تكرر عباراتها، فأومأت في موافقة وقد أسقطت جانبي شفتيها للأسفل حتى رسمت بهما مظلة ذات حدود حمراء من أحمر الشفاه الذي لم تنس وضعه حتى وهي في طريقها إلى قسم الشرطة، وتحركت بالسيارة دون تردد إلى الشركة، ربما بدت قاسية لعدم إلحاحها عليّ بالرحيل إلى البيت، ولكني كنت أعلم جيدًا طباعها التي ربما كانت سببًا في انجذابي إلى شخصيتها.. فكل شخص مسؤول عن نفسه وما عليها إلا النصيحة فقط.

وحقًا فعلت، واخترقنا بوابات الشركة قبل وصول أول الموظفين إليها، وبالرغم من جمودها السابق فإنها وبمجرد أن وصلنا إلى مكتبها حتى أراحت جسدي دون حديث على أريكتها المفضلة وأخرجت من درفة مكتبها السفلية صندوق الإسعافات الأولية الذي كان مقدرًا له أن يخرج من سباته فقط لإسعافها إن باغتتها نوبة أخرى من نوبات السكري.

وفى صمت بالغ بدأت في تضميد جروح وجهي في مهارة هادئة، وكأنها أرادت أن أبدأ بالحديث بدلًا منها، ولكن استغراقي في التفكير فيما أصابني منذ ليلة البارحة وحتى صباح اليوم.. دفعها إلى استطالة صمتي والتخلى عن هيبتها للمرة الأولى..

- لا بأس إن أردتِ إخباري بما حدث..

- مدام إيمان اا...

- ولا بأس أيضًا إن لم تفعلي..

اعتدلت في جلستي ببطء ونظرت إليها كطفل سكب كل ما كلفته بشرائه من لبن: تعاركت مع صديق قديم ولم أقصد إصابته حقًا.. ولكن..

أجلستني بيدها مرة أخرى حتى لامس رأسي إحدى وسائد الأريكة القطنية وتحدثت في صوت عذب: أي عراك هذا الذي يدفع lady راقية أن تتهم بالشروع في القتل؟

غلب الحرج عليّ فاستحال حنقًا من حتمية اعترافي أمامها بما تظنه لا يناسب أفعال الـ Ladies كما وصفت أمثالي، فأشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى وأنا أجيب: أراد أن يستأثر بشيء خاص بي.. مفكرة و..

انتبهت فجأة للمفكرة وقد غابت عن رأسي من كثرة ما انهال عليه من ضربات فانتصبت من نومتي بطريقة أفزعتها وأسقطت زجاجة المطهر من يدها: المفكرة! إنها.. إنها.. في السيارة!

تعجبت تعجبًا هادئًا لم ينجح في الإطاحة بوقارها ونهضت بهدوء: اهدئي.. أي مفكرة؟

حدثتها في هيستيريا: السيارة.. أين سيارتي؟ إنها إمام بيت فرغلي..

أشارت إليّ في لطف: اهدئي بالًا.. سأرسل أحد أتباعي للعثور عليها..

تحركـت تجـاه البـاب في تمـرد وعجالـة، كمـا لـو أني لـم أسـمع كلمـة ممـا قالـت: بـل أذهـب بنفـسي.

اعترضـت طريقـي دون أن ألحـظ حركتهـا، فقـط ظهـرت بيـني وبـين البـاب ونطقـت في جمـود وحـزم: فـيروز!

تسـمّرت في مـكاني وقـد اسـتفقت مـن غمـرة جنـوني، فأخفضـت مـن نبرتهـا، ولكـن في محافظـة عـلى حزمهـا السـابق: قلـت سأرسـل أحـدًا مـن أتباعـي.. اجلـسي لاسـتكمال إسـعافك.. اجلـسي!

عـدت إلى أريكـتي الـتي باتـت كمـنزل مؤقـت في طاعـة تعجبـت لهـا، فبـدوت وكأني أنفـذ أوامرهـا دون تحكـم مـني، ومـا أن فعلـت حـتى عـادت إلى جلسـتها واسـتكملت مهمتهـا في صمـت..

نصـف سـاعة مـرت، انتهيـت فيهـا مـن كـوب الينسـون الـذي أعـده الفـراش لتسـكين آلامـى بنـاءً عـلى طلبهـا، وقـد توافـد الموظفـون إلى الشركـة، ونصـف سـاعة هـي كل مـا احتاجـه ذلـك الــ «أحـد أتباعـي» مـن العـودة بسـيارتي المحطمـة إلى جـراج الشركـة أيضًـا بنـاءً عـلى طلبهـا.

خرجت إيمان بإصبع يحذرني من التحرك وغابت لدقائق، اختلست خلالها نورا النظر إليّ من خلال فتحة صغيرة بباب المكتب، أشرت إليها أن تدخل.. فدخلت في خطوات اللصوص، وهي تحمل بين يديها بنطالًا وقميصًا راقيًا.. -

- ما الذي حدث؟

- ما هذا؟!

- أمرتني مدام إيمان أن أسوق إليك تلك الملابس من البروفة.. فهي ما تناسب مقاسك.. ها.. أخبريني ما الذي حدث؟

شـعرت بنشـوة غريبـة في إحـراق أعصابهـا فضـولًا حـول السـبب الـذي يجعـل مديـرة الشركـة المهيبـة تسـتضيف إحـدى موظفاتهـا في مكتبهـا طـوال تلـك الفـترة، وبالطبـع سـتنتقل عـدوى الفضـول مـن نـورا إلى الجميـع في غضـون ثـوان..

أطلـت صمـتي حـتى بـدا عليهـا الغضـب الطفـولي، وقبـل أن تكمـل وصلـة

أخـرى مـن حفلـة إلحاحهـا عـليّ لمعرفـة مـا دار، تراجعـت عـدة خطـوات إلى الوراء في قلـق، وقـد لمحـت بطـرف عينهـا اقـتراب إيمـان مـن الدخـول، فأحنـت رأسـها أرضًـا وخرجـت دون حـتى أن تتنفـس.

«السيارة بالجراج»..

ومـا أن نطقـت بهـا إيمـان، حـتى انتصبـت مـرة أخـرى في عجالـة تجـاه الجـراج، لكنهـا عرقلـت حركـتي المضطربـة بضربـة مـن المفكـرة عـلى الهـواء المقابـل لوجهـي فالتقطـت الأخـيرة عيـني..

- تلك هي المفكرة.. أليس كذلك؟

قبضـت عليهـا بأصابعـي العـشرة وتنفسـت الصعـداء، شـعرت حينهـا بعينهـا وهـي تراقبـني في تعجـب مـن سر تعلقـي بتلـك المفكـرة الـتي تبـدو باليـة، فأومـأت لهـا في احـترام صـادق لـم أجاهـد اليـوم في إخفائـه..

- أشكرك.. على.. على.. على كل شيء.

- كلا.. لم يأن أوان الشكر بعد.. ربما يحين بعد دقائق!

وأشـارت إلى الملابـس الجديـدة وكأنـه أمـر لارتدائهـا وخرجـت دون مقدمـات، وأغلقـت البـاب خلفهـا تجسـيدًا لرغبـات خصوصيـة لـم أطلبهـا لتغيـير ملابـسي..

خلعـت الـرداء في شرود حـل محـل ألـم عضـلاتي أثنـاء تلـك الحـركات الملتويـة خروجًـا مـن الـرداء، وتسـاءلت مـا الـذي عنتـه عبارتهـا بـأن الشـكر لـن يحـين إلا بعـد دقائـق؟!

ومـا أن صرت نصـف عاريـة تقريبًـا، وقبـل حـتى أن أضبـط ملابـسي الداخليـة اسـتعدادًا لتغطيتهـا بتلـك الخارجيـة، اندفـع جسـدي العـاري في غـير تحكـم مـني بفـزع إلى أحـد الأركان، وقـد انفـرج بـاب المكتـب عـلى مصراعيـه فجـأة!

اختبـأت وراء سـتارة النافـذة العريضـة ونظـرت إلى مقتحـم الجلسـة في خـوف وغضـب لـم أعلـم أيًّـا منهمـا غلـب عـلى الآخـر، وعندهـا علمـت فقـط مـا الـذي عنتـه عبارتهـا الغامضـة.

كان عاصـم! الـذي اندفـع بقـوة مـن بـاب المكتـب ملهوفًـا وقـد نقلـت إليـه إيمـان الخـبر.

ومـا أن رأي تجـردي مـن ملابـسي، حـتى عـاد وأغلـق البـاب في سرعـة وتقـدم مـني في قلـق: فـيروز!

زاد اقترابـه مـن اختبـائي خلـف تلـك السـتارة القاتمـة فعقـد حاجبيـه في تعجـب. كيـف أخجـل منـه وهـو زوجـي؟ فـزاد مـن تقدمـه خطـوة، فـزدت بـدوري مـن ابتعـادي وتغطيـة جسـدي بمبالغـة أخـرى.. وعندهـا فقـط تحـول وجهـه مـن الملهـوف إلى الغاضـب في لحظـة واحـدة.

جلس في ضيـق عـلى الأريكـة وأخـرج سيجارة أمريكيـة وأشـعلها دون أن ينظـر إليّ: أتخجلـين مـن زوجـك ولا تخجلـين ممـا فعلـتِ؟

لـم أجـب بـل انشـغلت بالنظـر إلى الملابـس الـتي جـاورت جلسـته ولـم أتمكـن مـن الوصـول إليهـا، ومـا أن اسـتبطأ وصـول ردي حـتى نظـر إليّ مـرة أخـرى وقـد ظـن أني أنظـر إليـه، لـولا أن رأي لهفـتي عـلى تلـك الملابـس بعيـدة المنـال، فتنهـد في غضـب وقبـض عليهـا في قـوة وألقاهـا بوجهـي بصفعـة بـدت وكأنهـا تفريـغ لشـنحة غضبـه، وعـاد ونظـر أرضًـا مـرة أخـرى.

انهمكـت في ارتـداء ملابـسي دون أن أحـوِّل بـصري عنـه، وكأنهـا مراقبـة لنظراتـه كيـلا يغفـل ويلقـي ببـصره عـلى جسـدي العـاري مـرة أخـرى، لكنـه تحـدث مـن نفـس الوضعيـة في هـدوء حانـق: مـا الذنـب الـذي اقترفتـه بحقـك؟

لـم أجـب، فاسـتطرد: تحملـت مـن أجلـك الكثـير.. افترشـت أقدامـك ذلًا لسـنوات.. فقـط مـن أجـل لحظـة رضـا.. (نظـر إليّ) ومـا كان مقابـل ذلـك كلـه؟ حـب ضائـع.. وإهانـة دائمـة.. والآن عـار لـن يطـال أيًّـا مـن محبيـكِ إلا أنـا!

كنـت قـد انتهيـت مـن ارتـداء البنطـال واصطنعـت الانشـغال عـن الـرد عليـه بإحـكام أزرار ذلـك القميـص الأبيـض في تهـرب مـن مواجهتـه بكلمـات لـن تزيـد الأمـر إلا سـوءًا، فامتـص نفسًـا عميقًـا مـن سـيجارته القصـيرة حـتى توهجـت مقدمتهـا كمـا توهـج صـدره بغبارهـا، وكأنـه كان يصـارع نفسـه مـن أجـل قـرار مـا..

أغلـق عينـه في ضيـق ونطـق في هـدوء: سـأتولى قضيتـك بنفـسي فـلا تقلقـي.. ولكـن.. لقـد.. لقـد حاولـت.. لقـد حاولـت حقًـا أن.. (زفـر هـواءً سـاخنًا) سأرسـل إليـكِ ورقـة طلاقـك قبـل أن تغـرب الشـمس..

ونهـض دون مقدمـات في حـزن أحـنى ظهـره ورسـم بكتفيـه قوسـين خائريـن في حـسرة، حاولـت أن أحـل عقـدة لسـاني بـرد يهـون عليـه فعلـتي.. وليتـني مـا فعلـت!

«ستتراجع عن ذلك القرار والشمس لا تزال بكبد السماء!»..

توقـف دون أن يلتفـت، بينمـا رفعـت نظـري للسـماء في اسـتنكار وغـير تصديـق لمـا قلتـه للتـو، ارتأيتـه وقـد شـعر بعبـارتي وكأنهـا سـهم اخـترق ظهـره حـتى انغمـس بقلبـه فحـال دون التفـات المسـكين لمواجهـتي، وعندهـا نقـرت إيمـان عـدة نقـرات مهذبـة بأصابعهـا عـلى البـاب ودخلـت في اسـتحياء هـادئ ربمـا للاطمئنـان، ومـا أن رآهـا حـتى تقـدم تجاههـا في اسـتعداد لعبـور وقفتهـا إلى الخـارج.. لـولا أن غلبـه الحـزن بعبـارة أخـيرة قالهـا قبـل أن يرحـل:

«فيروز.. أنتِ طالق!».

***

وكأن شـيئًا لـم يحـدث، فمـا أن صفعـني عاصـم بعبارتـه المؤجلـة حـتى عـدت إلى الفيـلا الـتي أكـد أنهـا أصبحـت ملـكي الآن، واسـتغرقت في نـوم عميـق دون أن أشـعر بحـزن يذكـر عـلى مـا حـدث، بـل عـلى العكـس شـعرت بارتيـاح مفاجـئ وقـد تخلصـت مـن شـعوري بالذنـب تجاهـه.

أجـل.. كانـت فرحـتي بتخلصـه مـني أكـبر مـن حـزني عـلى فراقـه، فمـا اعتـدت منـذ الصغـر عـلى الشـعور بالذنـب تجـاه أحدهـم، بـل كان ذلـك مـن نصيـب مـن حـولي.. مـن أتعسـوا أيـام حيـاتي وتعمـدت تأنيبهـم عـلى ذلـك، إلا عاصـم.. ذلـك الشـاب المضيء الـذي انطفـأ بمجـرد أن علقـت أحبـار قلمـه الثمـين بخانـة التوقيـع مـن عقـد قـراني.

اسـتيقظت فجـرًا وقـد غلبـني النـوم لمـا يقـرب مـن عشريـن سـاعة، وكانـت تلـك المفكـرة اللعينـة هـي أول مـا انعكـس عليـه ضـوء الغرفـة أمـام عيـني، وكقـرص مـن الفـوار اعتـادت أمـي عـلى تناولـه يوميًـا في الصبـاح، اهـتز قلـبي وبـدأ

فورانه بهوس غير مفهوم تصاعد سريعًا حتى غلب كامل جوارحي، وعكفت على دراسة تلك المفكرة بكامل تفاصيلها.

قلّبت في أوراقها الأولى وقرأت ما خطه ذلك الرجل عزيز بك من كلمات، كانت معظمها تعبّر عن أحاديث ثنائية بينه وبين عدة نساء وأخرى لما بدا أنها ملاحظات جانبية عن ظاهرة لم يفهمها..

كانت أولاها مع امرأة دعاها «سين هانم» وأخرى لـ «جلنار طوسون»، ولمع الاسم في عيني فعدت إلى الرسم مرة أخرى بنهاية المفكرة، وتأكدت من أنه نفس الاسم المكتوب أعلى السهم الذي خرج من صورتي.. بأني قاتلتها..

عدت مرة أخرى إلى ما كتبه عنها، ولكن ما أن وصلت إلى أولى كلماته حتى صرعني رنين المحمول، وقد غفلت أن النهار قد أشرق الغرفة، أجبت الاتصال وعيني معلقة بصفحات تلك المفكرة.. دون حتى أن أنظر لهوية المتصل.

نطقت بعبارة مقتضبة: تأخرتِ على event مؤسسة الـ.

ضربت رأسي وقد تذكرت ذلك الحفل النهاري اللعين: حسنًا حسنًا.. أنا في الطريق!

فأغلقت دون رد، ولم أعاتبها على ذلك، فبالرغم من أنها شهدت لحظة طلاقي بنفسها لكنها لم تكن تتخذ من الشفقة دينًا يحرّم على رئيس العمل التساهل مع موظفيه، أو ربما رأت في عيني حينها أن عبارة عاصم القصيرة أطلقت أنفاسي فرحًا بدلًا من حبسها حزنًا.

انطلقت بسيارة أجرة إلى تلك الأرض الزراعية الشاسعة التي اتخذتها المؤسسة لتصوير حملتها الدعائية الجديدة، وما أن وصلت حتى اصطدمت بالزحام الفوضوي لمعدات وعمال التصوير وصيحات مساعدي الإخراج ومديري الانتاج، وقبل أن أحتد على أحدهم لرفضه دخولي.. تدخلت يد مألوفة وجذبت كتفي إلى الخلف برفق. التفتت فوجدت أخي عمر الذي وقف بيني وبين ذلك الرجل البغيض.

«إنها بصحبتي يا أستاذ صلاح»..

تنهد المدعو صلاح وفتح الطريق أمامي للعبور، ففعلت ولم أقاوم نظرة سخط فوقية وجهتها إليه، بينما أكمل عمرو حديثه وهو يضبط كاميرته الملتفة حول عنقه: أينما ذهبتِ تتعلق المشكلات بأعقابك..

زفرت في ضيق وهممت بإسراع خطواتي مبتعدة: سأتركك لعملك.. ولتتركني لعملي..

سابقني حتى وقف أمامي في ندم على مزحته السخيفة وتحدث في جدية أخوية: حسنًا حسنًا توقفي.. لم أقصد.. (تنهد وربت على ذراعي) كيف حالك اليوم؟

تجاهلت سؤاله في محاولة لإخفاء ما جرى البارحة: على خير ما يرام..

راقب ما تبقى من جروح بوجهي في استنكار هادئ: حقًّا؟

فشلت في الكذب: آه تقصد تلك الندوب؟ لا شيء.. لقد سقطت من أعلى سلالم الفيلا..

ابتسم في سخرية: آاااه.. أقدم كذبة في تاريخ السينما المصرية بعد سوارس الست أمينة وسي السيد أحمد عبدالجواد.

واجهته: ولماذا تظن أني أكذب؟

واجهني بدوره: وهل عليّ أن أظن ذلك؟

تعجبت من مراوغته وكأنه كان يعلم الحقيقة، ولكن فقط يحاول أن يسمعها على لساني، ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن فلم أخبر أحدًا بما حدث، لا بحادثة القسم وفرغلي.. ولا حتى بطلاقي من عاصم، وما أن ذكرت اسمه برأسي حتى علمت من أين علم عمرو بما يحاول إخفاءه.

عبرت جسده في دخول: لم أعتد من عاصم الشكوى وخاصة لمن هم أصغر منه سنًا..

مالت عنقه في حيرة: شكوى! منكِ؟ لماذا ما الذي حدث بينكما؟

علمت أن الخبر لم يصل إليه، ولكن راودني شعور غريب بأنه يعرف

أمـرًا مـا، فانطلقـت مبتعـدة دون رد وتركتــه غارقًـا في حيرتـه، وزادت خطـواتي سرعـة عندمـا رأيـت إيمـان وهـي تتحـاور مـع مـن بـدا أنـه مخـرج ذلـك الإعـلان الترويجـي.

أشـارت لـه بالرفـض الهـادئ: كلا.. لقـد وفينـا بأزيـاء الفتيـات.. ولكـن مـا وصـل إلينـا مـن عـدد الأطفـال كان أقـل ممـا تدعـي الآن.. فلتتـصرف!

وقبـل أن يجيبهـا بـرد يعـبر عـن غضبـه الـذي رأيتـه عـلى ملامـح وجهـه، جذبتـني مـن ذراعـي وسـاقتني إلى طاولـة صغـيرة وشـاركتني جلسـة ثنائيـة لـم أجـد منهـا مفـرًا..

جلست في قلق: ما الأمر؟ هل تطورت الأمور في القضية؟

أجابــت في حــزم: كلا ولكــن.. تركتــك منــذ البارحــة دون أن أســمح لنفــسي بالتدخـل في شـؤونك.. لكـن الأمـر فـاق التوقعـات.. بـدأت حياتـك في الانيهـار يـا فـيروز.. قضيـة معلقـة واحتمـال بالقبـض عليـكِ يلـوح بالأفـق.. وأخـيرًا.. انفصـال مؤلـم عـن زوجـك.. مـا الـذي يحـدث لـك؟

تنهدت في هجوم بارد: إن كان تركيزي في العمل هو ما يقلقك فلا تـ..

قاطعتـني في نـبرة آمـرة: توقفـي لمـرة في حياتـك عـن ذلـك التمـرد الطفـولي، ولـو عـلى سبيل التغيـير ليـس أكـثر.. وتحـدثي في نضـج يناسـب سـنك! مـا الـذي يحـدث حقًـا؟!

راقبتهـا في جمـود حاولـت اصطناعـه، لكـني عجـزت عـن الاسـتمرار فيـه، وبـدأت دفاعـاتي في التهـاوي شـيئًا فشـيئًا، وقـد تطـورت علاقتنـا دون تصريـح أي منـا إلى علاقـة صداقـة مـن نـوع غريـب، وعندهـا قـررت أن أفـضي عليهـا بمـا يؤرقـني منـذ يومـين، وكأني كنـت أتـوق إلى البـوح بـه لأحدهـم.

أخبرتهـا بقصـة المفكـرة، وعـم فرغـلي، ورسـمتي الـتي ظهـرت بهـا، واتهامـي بقتـل امـرأة منـذ مـا يقـرب مـن سـبعين عامًـا، وكلمـا زادت كلمـاتي قصّـا عليهـا بمـا حـدث تحجـرت تعبيراتهـا في قلـق مـن سلامتي العقليـة، فلـم أجـد بـدًا مـن إخـراج مفكـرة عزيـز وإثبـات الأمـر لهـا بالدليـل القاطـع.

تابعت الرسم في برود: تشبهك حقًا ولكن..

عاد التمرد مرة أخرى: تشبهني فقط؟! إنها أنا!

هدَّأتـني في تراجـع عـن تكذيـبي: حسـنًا حسـنًا ولكـن.. (رفعـت عينهـا في تـردد) فـيروز.. هنـاك الكثـير مـن الأشـخاص حـول العالـم يشـبهون العديـد مـن الشـخصيات الأخـرى مـن الزمـن المنقـضي.. لسـتِ أول مـن...

قاطعتهـا في غضـب: انظـري إلى الرسـمة جيـدًا باللـه عليـك.. انظـري إلى تلـك الضمـادة اللعينـة إنهـا بالمـكان ذاتـه..

وصفعـت جرحـي البسـيط بقـوة مطابقـة إيـاه بمـا رسـمه ذلـك اللعـين عزيـز، ومـا أن ظننـت أني نلـت مـن النقـاش حـتى راقبتـني في شـفقة كرهتهـا: ومـاذا لـو كانـت مجـرد ضربـة طائشـة للقلـم فحسـب؟

ضـاق صـدري بالغضـب فأوشـك أن ينفجـر: باللـه كيـف لا تريـن ذلـك؟ لقـد صـدق فرغـلي بمجـرد أن وقعـت عينـه عـلى الـــ...

قاطعتني في هدوء أخرسني:

- رجـل الخرافـات؟! ألـم تصفيـه مـن قبـل بالخـرف وقـد ظـن أن الجـن خطفـوا زوجته؟

لـم أجـد ردًا لمـا اعتبرتهـا مجـرد حماقـة تفوهـت بهـا، فتنهـدت وعـادت إلى الرسـم مـرة أخـرى:

- حسـنًا.. سـأقارعك الحجـة بالحجـة، ومـن جنـس مـا قلـتِ، أجيـبي عـن هـذا السـؤال.. إن كانـت تلـك الضمـادة تعـبر عـن إصابتـك منـذ يومـين، وأنهـا ربمـا قفـزت إلى الرسـم بمجـرد إصابتـك وفى اللاوقـت كمـا تدعـين...

أومأت لها بالموافقة، فحدَّثت نفسها بصوت مسموع:

- يـا اللـه لا أصـدق أني أخـوض ذلـك النقـاش.. (ثـم اعتدلـت) حسـنًا لمـاذا إذًا لـم تظهـر الجـروح الـتي أصبـت بهـا البارحـة؟! وهـي أكـبر وأكـثر وضوحًـا وقـد مـضى عليهـا يـوم كامـل؟

أصمتتـني كلماتهـا فهـرب الـرد واختبـأ بغصـة أصابـت حلقـي، فابتسـمَت في انتصـار بسـيط وأكملـت:

- إن الأمـر مجـرد صدفـة تافهـة.. لا يعـدو عـن كونـه شـبه قريـب بينـك وبـين امـرأة صـارت ترابًـا الآن.

اعتدلت لها:

- وإن كانـت صدفـة حقـا.. لمـاذا لـم يعـثر عليهـا أحـد قبـلي؟ لمـاذا أنـا بالذات؟ الفتـاة الـتي تشـبه المـرأة هـي مـن تعـثر عـلى تلـك المفكرة؟

مال عنقها في تعجب:

- قلـت لـك مـن قبـل، مجـرد صدفـة قدريـة.. وأنـا مسـتعدة أن أعـثر لـكِ مـن خـلال شـبكة الإنترنـت عـلى الآلاف.. بـل الملايـين مـن البـشر ممـن صرّحـوا بأنهـم وجـدوا صـورًا لشـخصيات قديمـة تشـبه ملامحهـم في العـصر الحـالي..

نطقت في تمرد طفولي كما وصفته من قبل: لا أصدق!

امتعضت في صمت، وأدارت المفكرة تجاهي في حزم:

- حسنًا.. للمرة الأخيرة.. أترين ذلك الرداء الذي ترتديه شبيهتك؟

التفت لها مسرعة وقد نسيت تلك الملاحظة:

- بالطبع! كيف نسيت ذلك.. نعم.. انظري... إنه تصميم لا يناسب عصره..

ابتسمت في سخرية من سذاجتي:

- آه.. ستندهشـين مـن كـم التصميمـات الـتي نظنهـا حديثـة بينمـا ترجـع أصولها لقـرون مضـت.. أنـتِ مـن دون البقيـة عليـكِ أن تعلمـي ذلـك، وكنـت تحاولـين اسـتنباط تصميماتـك مـن ذلـك الزمـن.. أتظنـين أنـكِ أول مـن حـاول فعـل ذلـك؟

زفرت في حنق:

- فقط تحدثي بما يدور برأسك..

نطقت في تحدٍ بارد:

- إن كانـت تلـك الرسـمة تصـف أدق تفاصيـل هيئتـك حقًـا.. كيـف انتبهـتِ إلى مـا ادعيـتِ أنهـا ضمـادة حديثـة ولـم تنتبهـي لذلـك الـرداء؟ هـل تملكـين مثلـه؟!

كان رداءً طويـلًا ذا تصميـم دائـري بخطـوط تناسـقت بـين البيضـاء والسـوداء كحمـار وحـشي في أناقـة بالغـة، ومـا أن تأملتـه حـتى لطمـت رأسي ملاحظتهـا، فقـد

غفلـت حقًـا عـن ذلـك الأمـر.. فأنـا لا أملـك رداءً كهـذا!

نهضت في خيبة أمل، وقد دفعها صمتي إلى الاعتقاد بأنها فازت بالمناقشة:

- ما أن ينتهي الـ event.. فلتعودي إلى بيتك لقسط آخر من الراحة..

استوقفتها بكلمة ظنت أنها خرجت في كبرياء الإنكار:

- ولكن!

لـم تكلـف نفسـها عنـاء الـرد بـل رحلـت في خطـوات سريعـة، وقـد رأيـت خلـف رأسـها وهـو يهـتز يمينًـا ويسـارًا في اسـتنكار وكأنهـا تتحـسر عـلى عقـل الفتـاة اليافعـة ومـا أصابهـا في أقـل مـن يومـين.

عـدت سـيرًا عـلى الأقـدام إلى الفيـلا دون أن أفكـر حـتى في اسـتعمال سـيارة أجـرة، فقـد كان مـا يـدور بـرأسي كافيًـا لدفـع قدمـيّ للحركـة دون أن أشـعر بالزمان أو تغـير المـكان، فبـدوت وكأني أتحـرك في أتوماتيكيـة.

راجعـت كلمـات إيمـان، وكذلـك حالـتي النفسـية في الأيـام الأخـيرة، وعوّلـت عليهـا سـبب هـوسي المـرضي بتلـك المفكـرة التافهـة، فربمـا شـعرت في الفـترة الأخـيرة بشـعور غامـر بالفشـل والخـروج مـن دائـرة الاهتمـام.. فصنعـت لنفسي دميـة سـحرية أركـض خلفهـا لأعـود إلى إحسـاسي السـابق بـذاتي وكأني محـور الكـون.. ولـم يقتـصر تأثـيري فقـط عـلى زمـني الحـالي.. وإنمـا تحكمـت أيضًـا في مصائـر بـشر في زمـن سـابق.. وبالقتـل إن جـاز التعبـير!

وصلــت إلى بوابـات الفيـلا وكنــت بالــكاد أشـعر بأصابــع قدمــي، فعــبرت الحديقـة في بـطء وأنـا أحتضـن تلـك المفكـرة الملعونـة، ودون أن أهتـم.. ألقيـت بهـا داخـل سـلة القمامـة المجـاورة لبـاب الفيـلا الداخـلي ودنـوت مـن البـاب الداخـلي أجـر أذيـال الخيبـة.

ومــا أن طعنــت المفتــاح بالكالــون الذهــبي حــتى تعــثرت قدمــي بــشيء مـا، نظـرت إلى موضـع قدمـي في ملـل وعندهـا رأيتـه..

صنــدوق مســتطيل الشــكل يرقــد في لفافــة ملونــة بشريــط قرمــزي أحكــم إغلاقهــا، واســتقرت عــلى رأســها بطاقــة ورقيــة تلمــع في الظــلام كعيــون قــط غاضــب..

انحنيت في توجس وسحبت تلك البطاقة وقرأت ما عليها:

«كنتِ على حق.. فلقد تراجعت حقًا عن قرار الطلاق وقبل حتى أن تصل الشمس إلى كبد السماء.. وسأردك في الصباح إلى عصمتي.. فلتقبلي هدية اعتذاري»..

تنهدت في ضيق من الخبر الذي اعتاد أن يكون مفرحًا لغيري من النسوة، ومزقت الشريط القرمزي في غضب.. وما أن أزلت الستار عن هديته، حتى أجبرت الصدمة عينيّ على الإغلاق الغائر..

همست في ألم:

- آاااه يا عاصم.. لُعِنتَ في كل كتاب آمنت به أم كفرت!

كان ذلك الرداء اللعين! يبدو أن قتلك بات وشيكًا يا جلنار!

-٥-

جُلنار طوسون

١٩٤٨

لـم يكـن الأمـر كمـا ظـن الجميـع، ولم يكـن لهـم ذنـب في اعتقادهـم الخاطئ، فتلـك هـي عـادة الحقيقـة، لا يخفيهـا أحـد متعمـدًا، بـل تُخـبئ جسـدها أسـفل عبـاءة قاتمـة مـن الكـذب والأسـاطير، أمـلًا في أن تجعـل لعراهـا ثمنًـا.. وتكـون لحظـة كشـف عورتهـا، شـهوة متبادلـة بينهـا وبـين فاضحهـا!

وهكذا كان أيضًا ظن الناس بي، غير أني لم أكن أتبادل الشهوة مع أحد.

اشـتهرت قبـل أن أعتـاد عـلى اسـم الـولادة بفاتنـة المجالـس، حـتى ولـم أكـن قـد أكملـت العـاشرة مـن عمـري، فجمـالي الطاغـي كمـا سـمّاه جلالـة الملـك فـؤاد الأول في المـرة الأولى الـتي عرضـني فيهـا أبي عـلى بـصر معاليـه، كان سرًّا مـن أسرار شـعوري المبكـر بأهميـة لـم أفهـم سـببها، لـم تكـن أهميـة بالمعـنى الواضـح وإنمـا نشـوة غريبـة تغـزو روحـي كلمـا خلَـت عيـون مـن حـولي منحنيـات جسـدي أو التـواءات شـعري المنسـدل.. أو حـتى ابتسـامة سـقطت مـني دون مـبرر واضـح.

جذبـني أبي يومهـا بإصبـع ضخـم تعلـق بـه كامـل كفـي في خطـوات بطيئـة تجـاه جلالتـه، كنـت أحفـظ تمامًـا تعليمـات أمـي الـتي اسـتغرقت أسـبوعًا كامـلًا مـن التعنيـف والتدريـب قبـل ذلـك اللقـاء المنتظـر، فكانـت تطبـق بذراعها عـلى رقبتي لدقائـق متواصلـة وهـي تتحـدث مـع صديقاتهـا أو تطالـع الصحـف، حـتى أتعـود عـلى النظـر أرضًـا بـرأس منحـنٍ في انكسـار لـم أعتـد عليـه، وشـاركتني بنفسـها تدريـات السـير بخطـوات واسـعة ولكـن بطيئـة.. فالواسـعة تؤكـد اهتمامـي بلقـاء الملـك، والبطيئـة ترسـم انطباعًـا بانعـدام اللهفـة.. فهكـذا يجـب أن تظهـر المـرأة الارسـتقراطية.. أو المـرأة بشـكل عـام إن أرادت أسر قلـوب الرجـال، راغبـة في اللقـاء.. غـير متلهفـة عليـه. لابـد أن تحمـل لقـب الراغبـة المتمنعـة.

كانت أمي معلمة جيدة. ولكنها لم تكن تعلم أن تلك التعليمات لا تناسب الارستقراطيات فقط.. وإنما ترفع أيضًا من سعر الساقطات!

تحركت مع أبي وعيني تسابق الرسوم الخلابة لسجاد قاعة الحكم وهي تركض في سرعة أسفل خطواتي، كانت لحيوانات مفترسة تفغر فاها لمن يخطو عليها، وبتجاوزي أنيابها في كل خطوة، كنت أشعر -بسذاجتي الطفولية- بشيء من الثقة.. فها أنا أخطو فوق وجوه الوحوش وأسحقهم بحذاء وردي دون أن يطرف لي جفن!

لمحت بعد ثوان ظلًا ضخمًا يقطع مجال رؤيتي الأرضية ويختفي، كان أكثر شراسة من تلك الوحوش السفلية، شعرت بانقباضة إصبع أبي بمجرد عبور ذلك الظل، فعلمت أنه لجلالة الملك نفسه، وتسارعت خطوات الإصبع في لهفة للأمام.. ونطق صوت أبي الأجش بالتحية.. ولكن، كيف أغفل تعليمات أمي؟ فأطبقت بكفي الصغيرة على حركة أبي وأجبرته على إبطاء خطواته دون تردد، فقطع تحيته في منتصفها ونظر إليّ في تعجب وارتباك، فحافظت على سرعة خطواتي في ثقة، وعندها استمعت لأصوات همهمة بسيطة كانت تتزايد لتتحول إلى ضحكة مكتومة لأحدهم:

- «عفارم.. عفارم.. لقد ولدت ابنتك أميرة يا باشا»..

قالها الملك قبل أن يأذن لي بالنظر إليه، رفعت عيني في بطء وجذبتُ بتلامس إصبعين صغيرين طرف رداءي الوردي وفردته في الهواء كجناح يحلق في ترفع عن ملامسة الأرض، وأثنيت ركبتي بانحناءة هادئة لم تستمر إلا لثانية وجزء منها.

رأيت في عيني الملك ابتسامة إعجاب لم تكن قط ابتسامة عجوز لطفلة، بل كانت شيئًا آخر لم أفهمه حينها، واكتفيت بحفره في ذاكرتي، أو بالأحرى حفره هو نفسه داخل ثنيات تلك الذاكرة الخصبة، وظل يطاردني لسنوات تعبت من عدها، وجوار تلك الذكرى البصرية ذكرى أخرى وقعت من قلبي موقع النشوة لأول مرة، كلمة نطق بها قبل أن ينهض مجبرًا جميع من بالمجلس على النهوض والانحناء له وهو يقترب مني.

- «ابنتك ذات جمال طاغٍ يا باشا.. ما اسم الأميرة؟»..

قاطعت رد أبي بصوت هادئ لم يُربكه الخوف:

- الأميرة كُلنار طوسون كلالة الملك.

كلما تذكرت تلك اللحظة لا أملك إلا أن أضحك وأنا أستمع لصوتي وهو يخطئ في نطق حروف تلك العبارة، إلا أن ضحكة جلالته كانت دائمًا تعلو على صوت ضحكاتي وهو ينقل بصره إلى المحيطين، وكأنه يأمرهم مازحًا أن ينظروا إلى تلك «العفريت الصغير»، كان ينطقها هكذا «العفريت» وليس «العفريتة»، فتتعالى الضحكات المحافظة من الجميع، ويهاجم الدم وجه أبي خجلًا تحت ضحكاته المصطنعة مجاملة لضحكات جلالة الملك الخشنة.

علمت بعدها بأيام وقد استرقت السمع إلى حديث هامس بين أمي وزوجة أختها الأميرة شهد أن صوته اعتاد أن يكون ناعمًا لولا تلك الرصاصة التي أطلقها عليه أخو زوجته الأمير أحمد سيف انتقامًا لشقيقته الأميرة شيوه كار في نهاية القرن الماضي وقبل أن يكون ملكًا على البلاد، وما أن أصابت تلك الرصاصة حلقه حتى عطب صوته، وفي كل مرة ينطق فيها بحرف.. يخرج غليظًا متكلفًا جهورًا حتى وإن كان يمزح.

وكعادة لاعقي البلاط الملكي، استمرت الضحكات حتى ينتهي منها الملك أولًا، إلا أن انقطاعها هذه المرة لم يكن لاكتفاء الملك بضحكة طويلة أرهقت أحبالهم الصوتية، ولكنها انقطعت عندما انتفض أصحابها على فعل غريب أقدم عليه الملك.. فأسكت أنفاسهم.. وقذف بلمعة تصبغت بها عيني للمرة الأولى ولم تختف منذ حينها.

مال الملك بقامته أمام جسدي القصير وانحنى في احترام باسم:

- من مثلك.. ينحني لهم الملوك يا عزيزتي!

ارتعش إصبع أبي فخرًا فاهتزت ذراعي، فبدوت للملك كما تمنَّى.. مرتبكة من فعلته في تواضع يناسب الأميرات، ولكنه لم يعلم أن فعلته لم تحرك بي ساكنًا.. لولا رعشة أبي المسكين.

ومنذ ذلك اليوم وأنا جُلنار طوسون، الفاتنة، من انحنى لها ملك البلاد

دون غيرها وهي لا تزال في نهايات عقدها الأول، وقبل أن يلتف لها خصر أو يبرز لها نهد، فقط صاحبة الجمال الطاغي الذي شهد به لسان حاكم المحروسة.. وطمع به كل من دونه.

أتذكر ذلك اليوم وتغيب ضحكتي على ذكرى نطقي الخاطئ لاسمي أمام الملك، ويغزو وجهي بدلًا منها شبح الحزن والانكسار، وأنا أرقد عارية الجسد بين ذراعي مصطفى باشا الورداني، أهتز اهتزازات أخيرة لانتفاضة شهوته التي يفرغها متعرقًا بأحشائي، ثم يعتدل في إرهاق بالغ وصدره يصارع اندفاع الهواء إلى جسده في سرعة، محدقًا بسقف الغرفة ونجفتها الفضية المتلألئة بشبيهات أحجار الماس، يظل محدقًا بها وكأنه يراقب اقتراب ملك الموت منه مشدوهًا.. وكم تمنيت أن يلقاه!

ولكنه لا يفعل.. بل في كل مرة يخرج من شروده، وقد عاد صدره المتعرج فوق بروز بطنه الممتلئ والمشعر إلى سرعته الطبيعية، ليبتسم وهو يقبل يدي، آخذًا إياها بيده اليمنى وفيها بذلك القفّاز الجلدي الذي يرتديه، ويُمسك بغليونه ويملأه بإصبع مرتعش بالتمباك التركي باهظ الثمن.

لطالما تعجّبت من ذلك القفاز اللعين الذي يظل مرتديًا إياه حتى وهو عاري الجسد تمامًا، وكأنه يخفي شيئًا أسفله. لطالما تعجبت، ولطالما فشلت في معرفة السر وراء ذلك. ولم يبق من الأمرين سوى انقباضي من تلك الهيئة التي تزيده قبحًا في نظري..

«رجل عارٍ كثيف شعر الجسد.. مقزز.. يعتصر نهديّ بقبضة خبيثة من قفّاز جلدي أسود».

ارتفعت بجسدي على قائم الفراش، وقد اعتمدت بذراعي على مفرش الفراش، الذي يثير في كل مرة اشمئزازي بما تلطخ من شهوة الباشا، وكالعادة أبقى كما أنا عارية الصدر كما يريد، كجارية يعود زمنها إلى الدولة العباسية وحريمها، ممن يشاركن الخلفاء جلستهم في عراء حتى بعد انتهاء العلاقة، وكأن شهوة النظر إليهن لا تنضب بشهوة الجسد.

أخبرني مرة بهوسه بهيئتي تلك من عدة لوحات رسمها صديق له -فرانسوا

أليجيري- الذي كان نصف فرنسي ونصف إيطالي، وقد اشتهر برسوماته الزيتية عن تاريخ مصر وخاصة حيوات الجواري وحرملك السلاطين، ومنذ أن وقعت عين مصطفى باشا على لوحة منها ورأى تجمع الجاريات العاريات حول ملكهن في خضوع ساعد جمال ريشة فرانسوا على إنضاجها بالحياة، وهو يحلُم بأن يجعل من تلك الخيالات الملونة، واقعًا يعيشه حتى وإن لم يكن ملكًا ولا حتى أميرًا خائبًا.

التفت نحوي والغليون متعلق بين أسنانه وابتسم، فتنهدت وجذبت أعواد الثقاب وأشعلته له كالعادة، في استكمال لمسلسل عبودية ذلك المريض، ولكن على غير العادة.. وما أن ألقيت العود المحترق بعيدًا حتى جذبت الغطاء حتى رقبتي في صمت وشرود.

كان يفتل شاربه وتتلاعب على شفتيه ابتسامة يؤكد بها لنفسه أنه مازال حيًا حتى بعد أن جاوز الستين من عمره، ولم يلحظ فعلتي حتى غابت سحابة الدخان الأبيض التي سترتني من عينيه للحظات، وحينها لمح اختفاء اللحم الأبيض تحت الخيوط القماشية الرمادية.

غابت بسمته وتحجرت نظرته في هدوء ورزانة:

- ماذا تفعلين؟

أجبته دون أن أنظر إليه، فقط أسقطت رقبتي بين كتفيّ العاريتين حتى لامست ذقني حواف الغطاء: أشعر بقليل من البرد..

جذب في لطف الغطاء ليعريني مرة أخرى:

- هيا يا سمو الأميرة.. فنيران عشقنا لم تنطفئ بعد.. فوالله.. لازال جسدي ينتفض منها جمرًا..

جذبت الغطاء مرة أخرى في بطء ولامبالاة: حقا؟ تنطفئ إذًا بسرعة أكبر بأجساد صغيري السن.

ابتسم مبتلعًا للإهانة:

- لن تنجحي هذه المرة في إفساد متعتي.. حتى ولو نطقتي بأكبر من هذا..

نهضت وأنا أحيط جسدي بالغطاء، فظهرت منه رقبتي وشيء من صدري

ولـم ينجـح اللعـين في إخفـاء سـيقاني، فهمـس الـورداني بصـوت غلبتـه الشـهوة مـرة أخـرى وهـو يراقـب تمايـل جسـدي بابتعـادي عنـه:

- تبدين كآلهة إغريقية..

أحكمـت قبضـتي عـلى طـرف الغطـاء بأسـفل ظهـري وأنـا أتباطـأ بخطـواتي إلى النافـذة:

- توقـف عـن اسـتعارة عبـارات مـن كتـب لـم تقرأهـا.. فمسـتواك التعليمـي لـم يـرق إليهـا بعـد..

مـا أجمـل أن توافـق الإهانـة الـتي نقـذف بهـا الآخريـن حقيقتهـم، فقـد أهنتـه وعيّرتـه بجهلـه، ولكـني لـم أكـذب، حيـث لـم يخطـو ذلـك العجـوز لا في شـبابه ولا كهولتـه أيًّا مـن أروقـة التعليـم الملـكي الـتي اعتـدت عـلى تلقـي العلـم منهـا، ففـي الوقـت الـذي كان يتنقـل فيـه بـين القـرى كموظـف للـري كنـت أدرس منـذ الصغـر الرسـم والأدب واللغـات، حـتى أني أتقنـت اللغـة التركيـة والفارسـية والفرنسـية وتربعـت عـلى عـرش الأمـيرات.. ممـن يقـول عنهـن العامـة «ذوات مـال وجمـال وثقافـة»..

ضيعـت الكثـير مـن السـنوات حقًـا في دراسـة تلـك المـواد بالغة الصعوبـة، حتى أتحـول إلى جاريـة لرجـل لـم يتعلـم حـتى منتصـف عقـده الرابـع كيـف يضبـط طربوشـه عـلى القواعـد الصحيحـة، تعجبـت حـين تعرفـت عليـه منـذ عـدة أشـهر كيـف أصبـح بذلـك النفـوذ، مختـالًا بلقـب الباشـا داخـل الحكومـة وهـو لـم يكـن إلا ابـن فـلاح توسـط لـه الإقطاعـي الـذي يعمـل بأرضـه، بعملـه مـع الإنجليـز بنظـارة الزراعـة، حـتى أن حظـه وافـق قـرار الحكومـة في ثـاني يـوم لتعيينـه أن تصبـح مكاتبـات النظـارة بالعربيـة بـدلا مـن الانجليزيـة، ليختفـي جهلـه خلـف قـرار متأخـر لحكومـة هزيلـة.

سـألته في مـرة قبـل الإطاحـة بملابـسي وهـو في غمـرة شـهوته، كمـا اعتـدت أن أعلـم مـا أريـد مـن أسرار الرجـال في تلـك الحظـة الـتي تخـور فيهـا قواهـم، عـن الـسر وراء تحولـه مـن موظـف بسـيط بنظـارة بسـيطة إلى رجـل يتحكـم في العديـد مـن الـوزراء ويرسـم لهـم الخطـوات السياسـية بالأمـر ودون نقـاش، مـا الـسر وراء

تلك الانتقالة الجذرية في مكانته؟ فاستفاق لحظيًا على عكس الجميع وابتسم في شيطانية، وقد فهم حيلتي:

- السر.. هو أني أُحسن حفظ الأسرار!

علمت حينها أن وراء تلك الأعين الصغيرة التي تبدو كثقبين غائرين بوجهه الممتلئ شيئًا يستدعي الخوف من تقلباته، فآثرت من وقتها إطاعة أوامره.. ليس فقط لأنال ما أطمع، وما وعدني إياه بلسانه، وإنما خوفًا من أن تخفت مهارته في حفظ الأسرار التي يتشدق بها ويكشف سرّي.. وحينها تنتهي جلنار طوسون إلى الأبد.

ندمت حقًا وأنا أقترب من النافذة من تلك الإهانة التي ثقبت بها وجهه فأفرغ به مكانًا لعين ثالثة ربما تزيدني رعبًا من تهديداته، إلا أنه ضحك بصوت خشن تخللته عدة سعلات مقززة ولم يغضب:

- معك حق.. ليس لجهل مني ولكن لغياب الكلمات عن ألسنة من يحاول.. فقط يحاول.. وصف ذلك الجمال الأسطوري.

ثم باغتني بأمر صارم بنبرته الهادئة كمن يأمر بهلوانًا أن يسلّيه:

- صفي نفسك إذًا.. (ثم أكد في فوقية) ومن الأفضل أن يكون وصفًا بليغًا يُمتع أذنيّ.

راقبت من خلف زجاج النافذة الذي استحال ضبابًا بأنفاسي، القمر الذي لم يكد يكتمل ضياؤه، وكأنه يشاركني محاولة إخفاء فتنته أسفل عباءة من الظلام، ونطقت في شرود:

- بل فاكهة محرمة!

ضحك في استمتاع من جملتي البهوانية بالنسبة إليه وقال في حماس:

- حقًا.. حقًا.. معك كل الحق! تفاحة نضرة، ولكني لا أخشى على نفسي من قضمها، فلا يطرد من الجنة من كان مالكًا لها..

التفت إليه في تقزز من اقتناعه بألوهيته الزائفة:

- تلك هي المشكلة يا عزيزي.. تنصرف الأذهان دومًا إلى صاحب القضمة

ومصيره، ولكن لم يلتفت أيٌّ منهم إلى الفاكهة وما يحدث لها حقًا..

اعتدل وقد سحب غليونه مرة أخرى كمفكر أبله وقد أثرت إعجابه:

- نقطة غاية في الأهمية.. لم يثرها أحد قبلك (وكأنه سيعلم إن كان قد أثارها أحد حقًا ذلك الجاهل).. أخبريني إذا.. ما الذي يحدث لها؟

أعدت بصري إلى القمر مرة أخرى، وقد اختفت سحابة الظلام التي سترت فتنته، فعاد عاريًا ولكن بشوائب مظلمة لصخور متعرجة تفرقت على سطحه، بدا قبيحًا:

- ما أن تُقضم التفاحة حتى تذهب نضرتها.. وكأنها تعلم أنه لم يُقدّر لها تؤكل.. بل خُلقت للجمال فقط.. خُلقت للخلود.. حتى يعتصرها الفانون بأسنانهم.. فتتحول إلى جزء منهم.. وقبل أن تشعر بالأسى على حالها.. تضمر.. وتموت..

أصدر صوتًا من بين صدغيه كفلاح أبله يطلب انتباه أحد بهائمه، فالتفت إليه في غضب ليبتسم:

- لم أخطئ إذًا.. ما الفرق بين الآلهة والفاكهة النضرة؟ فكلاهما خلق للخلود..

ثم ربت عدة مرات على الفراش في ابتسامة شيطانية أخرى:

- وأنا لم أشبع بعد!

تمنيت لو أملك من الوقت ما يكفي حتى أفتح تلك النافذة وأقفز من على حافتها قبل أن يمنعني بخفة حركته المعهودة، ولكنها دائمًا ما استعصت عليّ ببرودة مقبضها على أصابعي الضعيفة، فتسمّرت في شرود وأنا أراجع تلك الفكرة، وما إن استبطأ استجابتي لأمره حتى غلظت نبرته:

- «جلنار! تـ..»

قطع جملته انفجار درفتي الباب على مصراعيه، انتفض من مكانه في لهفة، والتفت بدوري إلى مقتحم خلوتنا المحرمة، كان ابنه المراهق «فرج» الذي تجذر بخطوته في صدمة مما يرى!

غطى الباشا جسده الممتلئ وصاح فيه بعصبية:

- ما الذي تفعله أيها الأحمق؟!

شحب وجه فرج ونقل بصره إليّ ففغر فاه وجحظت عينه، كنت كما وصفني أبوه، آلهة إغريقية تنتصب تحت أشعة القمر الزرقاء التي تبرز بصفائها كتفين عاريتين وصدر ممتلئ اختبأ بين حافة غطاء داكن من الأسفل، وخصلات شعر ذهبية من الأعلى.

توقف الزمن، ولم أشعر إلا وقد أسقطت الغطاء من على جسدي في تعمّد لم أفهمه حتى ظهرت عارية تمامًا! هاجم الدم وجه الفلاح الساذج فرج، بينما صرخ الباشا باسمي في غلظة كانت كافية لقتلي بمجرد أن طالت أذني، وعندها اندفعت امرأة مسنة في ملابس قروية من الباب وبدت وكأنها فهمت ما يحدث في اللاوقت، فشهقت من الفاجعة وضربت بيدها القوية على عيني الشاب وارتمت تحت قدميّ كجارية ذلول، ترفع الغطاء لتخفي مفاتني أسفله مرة أخرى.

كنت أعرف هويتها حتى قبل أن أراها، كانت زوجته الأولى «نعمة» التي تزوجها وقتما كان موظفًا بسيطًا بقريته، وما أن تحول تحوله الغامض إلى الباشوية، حتى تركها ورضيعها واستقر بالقاهرة، ومنذ سنة فقط وافق أخيرًا على أن تأتي وولدها الذي عاد شابًا ساذجًا لمشاركته العيش، كعبيد تحت إمرة زوجته حورية هانم ابنة بهجت باشا.

لم أفهم حقًا سبب موافقتها على ذلك الظلم الذي دق به عنقها، تعمل كخادمة لضرتها، ولا تعترض على نزواته التي أصبحت أنا جزءًا منها، بل تساعده على إخفاء الأمر عن زوجته الهانم، فقط من أجل أن يرضى، حتى أنه أخبرني في مرة أنها تجهز له بنفسها ماءه الساخن الذي يغتسل به بعد كل علاقة جنسية تتم تحت سمعها، قالها متفاخرًا بسطوته عليها.. وسمعتها وكلّي حيرة من تلك المرأة جبلّية الأكتاف.

تساءلت من يومها، كيف هو شعورها كأنثى تراقب زوجها وهو ينصرف عنها إلى نساء أخريات لم يقدمن إليه ولاءً وحبًا كما قدمت؟ كيف تتمكن

مـن إجبـار قلبهـا عـلى انتظـام ضرباتـه بمعـدل طبيعـي كلمـا انحنـت أمـام إحدى عشـيقاته أو حـتى زوجتـه المتعجرفـة في احـترام.. كيـف؟

رفعـت نعمـة الغطـاء في سرعـة لتغطـي مفاتـني دون أن تجـرؤ عـلى النظـر إلى عيـني، أحكمـت الغطـاء بقـوة حـتى انتفضـت عـلى لمسـة بـاردة مـن سبابتها عـلى ظهـري وهـي تديـر القطعـة القماشـية، نظـرت إليّ نظـرة خاطفـة تعتـذر فيهـا عـن بـرودة أصابعهـا، فتلاقـت عينانـا أخـيرًا، نظـرت إليهـا في شـفقة وكأني أحيطهـا بذراعـي وأهتـف لهـا كمـا تمنيـت «لا تحـزني»، وبـدت وكأنهـا سـمعت صـوت تلـك النظـرة، فعجـزت عـن تحويـل بصرهـا عـن عيـني، وعندهـا توقـف الزمـن مـرة أخـرى.. واحتملـت الثانيـة مـن الزمـن.. حـوارًا دار بـين نظراتينـا لأيـام.

لمعـت عيناهـا بغـلاف رقيـق مـن عـبرات نجحـت في جعلهـا لا تنسـاب عـلى وجنتيهـا، وانتفضـت مبتعـدة عندمـا انتبهـت عـلى طـرد الباشـا لولدهـا إلى خـارج الغرفـة بعـدة ضربـات مـن قبضتـه الغليظـة أتبعهـا بسـباب متواصـل لـم يمنعـه إلا عندمـا وقفـت أمامـه تلـك المسـكينة.

ركلها بقوة صائحًا:

- كيف تسمحين لذلك الأحمق باقتحام غرفتي أيتها الـ..

قاطعتـه في اسـتعطاف بالـغ وهـي تغلـق البـاب لكيـلا يدخـل السـاذج مـرة أخـرى، وعـادت إليـه في لهفـة ورجـاء وهـي تحتمـي بالهـواء في هيسـتيرية العبيـد مـن ضرباتـه الـتي علمـت أنـه يسـتعد لهـا:

- غفلت قليلًا يا سي مصطفى.. العفو والسماح!

سـحب كرباجـه مـن خلـف قائـم الفـراش وتقـدم نحوهـا فأسرعـتُ إليـه، ولكنـه أوقفـني بنظـرة بالغـة الـشر صرعتـني بمسـمار غليـظ دق خطـوتي بمنتصـف الطريـق، وصـاح بهـا ملوحًـا بالكربـاج:

- فالعذاب الأليم هو ما تستحقينه إذًا يا ابنة الكلاّف!

ضربهـا في قسـوة فاسـتقامت انحنـاءة ظهرهـا للسـعة الكربـاج، ولـم تلبـث أن تقوسـت مـرة أخـرى أرضًـا عنـد قدميـه وهـي تبـكي:

- والختمة الشريفة يا سيدي.. حاولت منعه.. ولكنه.. ولكنه..

ضرب الكرباج أرضًا بجوار وجهها فارتعدت وأكملت في ارتعاش:

- كـ.. كان غاضبًـا مـن تأجيلـك للمقابلـة الـتي.. الـتي وعدتـه بهـا.. فـ.. فسـيطر الشـيطان.. أعـوذ باللـه منـه.. عـلى رأسـه.. و..

اشـتعل غضبًـا وكأنـه حقًـا الشـيطان الـذي ينتفـض بالاسـتعاذة منـه، وضربهـا بلسـعة كربـاج أخـرى صائحًـا:

- فيتجـرأ عـلى اقتحـام خلـوتي؟! ولمـاذا؟ مـن أجـل أن يسـاوي رأسـه بـرأس البهـوات ويُكمـل تعليمـه بالخـارج؟ ابـن نعمـة يريـد أن يسـافر إلى باريـس! أي مهزلـة هـذه؟

مـال بوجهـه عـلى جلوسـها المنحـني أرضًـا في شر فألصقـت وجههـا بإصبـع قدميـه وجسـدها لا يتوقـف عـن الانتفـاض ببكائهـا الذليـل:

- لابـد أنـك أنـتِ مـن تدخلـين برأسـه تلـك الأفـكار.. تريديـن أن يصـل مقامـكِ إلى مقـام حوريـة هانـم.. ولكـن.. إن كان رأسـك مدفونًـا بالوحـل.. فكيـف تفعلـين ذلـك؟ (اسـتدار حـول جلسـتها كذئـب يسـتعد لطعـن فريسـته بأنيابه).. توسوسـين إليـه بـأن يصبـح كابنهـا.. ويـدرس بالخـارج ويعـود طبيبًـا.. أليـس كذلـك؟.. اااه.. لا.. ليـس طبيبًـا.. وإنمـا رسّـامًا.. يريـد أن يصبـح فنانًـا.. سـليل البهائـم!

رفعـت كفيهـا في الهـواء في حـركات هيسـتيرية يمينًـا ويسـارًا يصحبهـا بـكاء وإنـكار لمـا يقـول:

- لا والله! لا والله! يا سيدي.. لا تظلمني!

ضرب الكرباج مرة أخرى أرضًا فانتفضت وصرعها:

- اغـربي عـن وجهـي.. وليلملـم حاجياتـه وإيّـاكي.. ولا تـشرق الشـمس إلا وقـد أذهبـتِ عـن الـسراي نجاسـتك أنـتِ وهـو!! تحـركي!

أومـأت عـدة مـرات في طاعـة ولا تـزال تحتمـي بيدهـا مـن الهـواء، وانطلقـت بجسـدها المقـوس وخطواتهـا المتعرجـة إلى الخـارج، ومـا أن فعلـت حـتى صفـع البـاب خلفهـا واسـتند عليـه في إرهـاق لاهثًـا وقـد وهـن جسـده مـن فـرط مـا فعـل!

همسـت لـه في خـوف غطـى عـلى الغضـب الـذي نهـش ملامحـي فأدمـى وجهـي

في نظره:

- تطردهم في تلك الساعة المتأخرة؟

التفت إليّ بنظرة غاضبة دون أن ينطق بكلمة وألقى بالكرباج أرضًا وتقدم مني في خطوات بطيئة سبقَتَها إلى جسدي رعشة الخوف:

- لـ.. لقد.. لقد سقط الغطاء رغمًا عني!

مال بعنقه مترقبًا لعلامات الكذب على وجهي ونطق بصوت رخيم وعين ثابتة: كلا! بل اشتهيتِ نظراته؟ رخص جسدك اشتاق لعين بِكر تعيد إليه نضارته.. أيتها الساقطة!

لم أعلم حقًا سببًا لما فعلت، ولكن ما قال كان أقرب إلى ما شعرت به رغم استنكاري له عندما نطق به، ولكن كيف استطاع أن يفهم ذلك الشيطان ما اختلج في نفسي من مشاعر حتى قبل أن أفهمها أنا؟ نعم تعمدت أن أتعرّى أمام ذلك الساذج.. ولكنه كان أمرًا عفويًا.. لم أراجع نفسي لاستيضاح أسبابه.. فقط حدث!

وكان جواب السؤال عن الشيطان.. إنه حقًا شيطان من شياطين الجن النافذة لأنفس الضعفاء.. أو ربما باع روحه لأحدهم!

وصلت أنفاسه الساخنة إلى وجهي، فغلظت من نبرتي ودافعت في فوقية، وقد عدت أميرة مرة أخرى: احفظ لسانك أيها الفلاح. فأنت تحدث أميرة علوية.. لا ساقطة في خمارة!!

وقبل أن أنتشي بانفجاري المتأخر في وجهه، بادرني بصفعة قوية شعرت بعدها وكأن الأرض ترتفع إلى وجهي لتصفعني هي الأخرى، وقد سقطت دون أن أشعر!

سال الدم من فمي، فلطخ سجادته التركية، التي كانت تشبه في تصميمها سجادة جلالة الملك برسوم الحيوانات البرية على سطحها، وما أن نال دمي من أحد أنيابها حتى علمت حقيقة نفسي دون كذب هذه المرة..

ماتت جلنار الطفلة التي كانت تخطو على تلك الأنياب في ثقة.. وخُلقت جلنار جديدة.. تجرعت الأنياب من دمائها حتى جفت عروقها.. وتحولت إلى

وصـف أكـثر دقـة مـن وصـف الفـلاح الباشـا..

لم أعد آلهة إغريقية.. وإنما تمثال حجري لها.. بلا حياة!

بـدأ في إعـادة ملابسـه الفضفاضـة إلى جسـده المترهـل وهـو يتحـدث دون أن ينظـر إليّ: كامـل باشـا الحـداد!

مسـحت بإصبعـي قطـرة الـدم ونطقـت كجاريـة تجـاوزت فـترة التمـرد بنجـاح: مـاذا بـه؟

فتـح البـاب وصرخ باسـم نعمـة بقـوة ثـم عـاد مـرة أخـرى ليجلـس منتظـرًا وقد أزاح قدمـي الممـدة أرضًـا مـن طريقـه بضربـة مـن قدمـه: تقـرّبي إليـه.. أريـده أن يضاجعـك في أقـل مـن أسـبوع.

سـكتُّ في حنـق ولـم أجـد ردًا عـلى تكليـف ذلـك القـواد لي بمضاجعـة غـيره وكأنـه امتلـك جسـدي، وقبـل أن أنطـق بكلمـة أخـرى، دخلـت نعمـة بملابسـها الفلاحيـة وكأنهـا تسـتعد للسـفر حقًـا، غـير أنهـا كانـت تحمـل بيدهـا صينيـة نحاسـية وإبريـق فـضي انطلقـت بـه إلى أسـفل قدميـه دون تعليـق، رفعـت طرحتهـا المتدليـة وبـدأت في تلقائيـة في صـب المـاء عـلى يـده.

مـد ذراعيـه العاريتـين أسـفل عمـود الميـاه وكأنـه يتوضـأ –ذلـك الفاسـق- وأكمل حديثـه: سأسـافر إلى لنـدن لأيـام لعمـل يخـص إبراهيـم باشـا عبدالهـادي.. فلتمـارسي غوايتـك عـلى الرجـل.. ومـن الأفضـل أن تـترددي عـلى منزلـه.. فهـو رجـل يخـشى عـلى سـمعته.. ولـن يسـتقبلك في مصنعـه..

اعتدلـت في حنـق ولمحـت نظـرة تشـفٍ أطلقتهـا نعمـة مـن جانـب وجههـا بعـد عبارتـه التحقيريـة: سـمعته؟.. أنـا أمـيرة يـا باشـا و...

قاطعـني دون أن ينظـر إليّ وهـي يـضرب وجهـه بكفـين مـن المـاء: أمـيرة سـيئة السـمعة.. والـكل يعـرف هـذا حـتى وإن نجحـت أنـا في إخفـاء أي دليـل يؤكـد تلـك المعلومة..

اصمتتـني معايرتـه بحمايتـه، وشـعرت حقًـا بالارتيـاح بامتناعـي عـن الكـذب عـلى نفـسي، فلأواجههـا في شـجاعة.. جلنـار سـاقطة.. والباشـا هـو سـيدها، فلأتحـدث إذًا كسـاقطة.. وليسـتمع هـو كقـواد يخـشى عـلى أعمالـه.

نهضت أنا الأخرى وقد أغلقت الباب الذي تركته نعمة مفتوحًا واختبأت خلف إحدى درفتي الدولاب أثناء ارتداء ملابسي، سمعت زفيرًا سريعًا قصيرًا خرج من أنفه كتعليق ساخر على خجلي من ظهوري عارية أمامه وخادمته مرة أخرى، فتجاهلته وسألت: وكيف لي أن أدخل بيته.. وابنته وزوجها يشاركانه العيش به، ألا تخش أن يُفتن بي الزوج على سبيل الخطأ؟

جفف يده من الماء: عزيز بك لم يعد بعد من باريس.. ولن يفعل قبل عدة أشهر.. الخطر الوحيد هو من ليلى هانم.. فهي شيطان رجيم!

استعاذت نعمة من سيرة الشيطان وضربت يدها في الهواء وكأنها تبعد سيرته في جهل قروي، بينما اتجهت إليه في حنق وقد ارتديت رداءي: وكيف أتصرف معها؟

أحكم إغلاق سترته الرسمية في لامبالاة: أصبحت مشكلتك الآن!

تحرك إلى الخارج وأشار إلى نعمة فهرولت بالصينية أمامه واختفت، سحب طربوشه وقبل أن يسقطه على رأسه، اعترضت طريقه: وما الغرض من غواية ذلك الرجل؟ أليس من حقي حتى أن أعرف؟

أحكم الطربوش وفتل شاربه بمرآة التسريحة واستعد للمغادرة، وقبل أن يفعل وقف أمامي ومرر إصبعه على وجهي في استفزاز كتاجر يعاين بضاعته في استمتاع: فلتقدم الفاكهة نفسها إليه فحسب.. ولسوف تتكفل قضمته منها بالبقية!

***

«الملاية اللف»

كانت الملاءة اللف هي دومًا الحل، أتلحّف بها وأحكم لِباس الحبرة واليشمك فتختفي الأميرة جلنار طوسون إلى غير رجعة ويختلط جمالها بفتنة وقبح غيرها من النساء بطرقات المحروسة، فعلى عكس خلق بني آدم أجمعين، لا أجد تحررًا في التعري وإن كنت وحيدة، كما أجده في الاختباء

خلـف طبقـات وطبقـات مـن الجلاليـب الفضفاضـة والمـلاءات السـوداء الـتي تغطـى رأسي نـزولًا حـتى إخمـص قدمـي، حـتى أني لا أحتـاج إلى ارتـداء ذلـك الخلخـال الـذي يرتدينـه النسـاء للاعـلان عـن خطواتهـن بـين طُرقـات الرجـال، فقـط أتحـرك كجثـة كان كفنهـا أسـود.

ربمـا هـذا هـو اللـون الـذي تسـتحق فاسـقة مثـلي أن تتكفـن بـه قبـل أن يرفسـها أحدهـم إلى حفـرة بالقـبر دون أن يقـرأ عليهـا آيـة رحمـة واحـدة.

آه.. آية رحمة.. رحمك الله يا شيخ فاضل..

درسـت كغـيري مـن الأمـيرات تعاليـم الديـن الاسـلامي، وكانـت توفـد إدارة القـصر إلينـا شـيخًا مـن الأزهـر الشريـف في صبانـا، يجالسـنا ويُلقـي علينـا مبـادئ الديـن، ويترنـح يمينًـا ويسـارًا وأحيانًـا للأمـام والخلـف وهـو يتغـنى بآيـات عذبـة مـن القـرآن الكريـم، وكان مـن بـين هـؤلاء الشـيوخ الشـيخ فاضـل القمعـي، والـذي كلفتـه أمـي بـأن يعلمـني وحـدي.. بعـد أن اشـتكى الشـيخ السـابق مـن مقاطعـتي الدائمـة لـه خـلال دروسي الجماعيـة مـع زميـلاتي الأخريـات بالسـؤال والجـدال حـول معـاني الآيـات.

كان الشـيخ فاضـل قصـير القامـة للغايـة، وبالرغـم مـن ذلـك، فإنـه كان صاحـب وجـه ضخـم مسـتطيل ذي تعـرج متداخـل بـين حاجبيـه، فيبـدو لمـن لا يعرفـه رجـلًا دائـم العبـوس، نبتـت لحيتـه حالكـة السـواد حـتى وصلـت إلى أسـفل عينيه، وانتصـب أنفـه بحافـة مدببـة طويلـة رسـمت وجنتيـه عـلى جانبيهـا، كقوسـين دائريـين حـول سـهم مسـموم كلمـا ابتسـم، وبالرغـم مـن صوتـه الرقيـق وعلمـه الغزيـر، لكـن هيئتـه الغريبـة كادت عـدة مـرات أن تلقـي باسـمه إلى آخـر كشـف المرشـحين بتكليـف القـصر لتعليـم أبنائهـم وبناتهـم، لكـن حظـه ابتسـم وقـد طلبـت أمـي إرسـال أي شـيخ مـن الأزهـر لتعليمـي حـتى ألحـق بزميـلاتي، وقـد امتنعـت عـن حضـور الـدروس لأسـبوعين كامـلين.

كان حديـث العهـد بالـزواج، فتوسـل إلى شـيخه لترشـيحه إلى تلـك المهمـة أمـلًا في زيـادة دخلـه، فاسـتخار الشـيخ الكبـير -كمـا قـص عـليّ الشـيخ فاضـل- ربـه لثلاثـة أيـام متعاقبـة حـتى بـدت إشـارة بسـيطة للموافقـة، ربمـا لا يعـوّل عليهـا كغيرهـا مـن الإشـارات الواضحـة، إلا أن إلحاحًـا مـن الشـيخ فاضـل كان كافيًـا

لاستكمال النقص في الإشارة.. والموافقة المبدئية على حضوره.

وما أن رأته أمي حتى فزعت وطلبت طرده على الفور، إلا أن ابتسامته الخجلة التي كان يخفي تحتها حزنه من إهانتها المتوالية التي ضربت بها وجهه دون أن تلقي بالًا بمشاعره، أسرت قلبي، وركضت مسرعة إليه وتعلقت بما طالته قامتي القصيرة.. فاحتضنت خصره ودفعت برأسي داخل صدره وصحت بها: أريده يا أمي!

رفضت أمي رفضًا قاطعًا بالطبع، ولكن إلحاحًا كإلحاح فاضل على شيخه، طاردت به مواطن الراحة لأمي، مما دفعها إلى الموافقة أخيرًا.

لا زالت أذكر حتى الآن جلساتنا القصيرة، وهو يشرح لي معانى الآيات القرآنية في هدوء بالغ ووجه باسم لم أرهبه كما كانت تفعل الخادمات وهن يسُقن إليه كوب الينسون لـ «تسليك» صوته قبل التلاوة، وما أن وصل إلى أحد الأحاديث النبوية.. حتى استوقفته في جرأة ووقاحة..

قال: قال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال.

اعتدلت وتركت المقعد المرتفع وجلست إلى جواره أرضًا في تربيعة كالتي اعتاد عليها، وسألته: كيف يحب الله الجمال.. وخلقك قبيحًا هكذا؟

لو كنت أدرك كما أدرك الآن وقع تلك الوقاحة على نفسه لما قلتها، ولكنه ابتسم ابتسامته المخيفة مرة أخرى وأجاب في لطف: ومن قال أني قبيح؟!

- الجميع!

ابتسم وأغلق المصحف واقترب من جلستي وتحدث بصوت ناعم: الجميع على خطأ.. فلتشيري بإصبعك على ما ترينه قبيحًا بوجهي..

أشرت إلى عقدة حاجبيه في بلاهة فابتسم: أتعلمين لم هي متعرجة كل هذا التعرج؟

هززت كتفي في جهل: لأنك قبيح؟

زاد من ابتسامته، وخلع عمته وأخرج منها لفافة ورقية من مسحوق غريب، فرده أمامي أرضًا وقال: إنها من رمال جبل أُحُد جئت بها للتبرك.. ولكن لا عليكِ منها الآن.. فقط انظري..

مـرر إصبعـه الغليـظ عـلى سـطحها الناعـم حـتى خلّـف وراء أصابعـه تعرجًـا يشـبه تعـرج حاجبيـه: أتريـن مـا يحـدث.. كلمـا مـر شيء مـن هنـا زاد ذلـك التعـرج.. ومـا كان مـا بـين حاجـبي إلا أثـر لمـا يمـر أسـفل جبهـتي جيئـةً وذهابًـا..

سألته وأنا أحدق بجبهته: وما الذي يمر أسفلها؟

تنهـد في حـزن بسـيط أتبعـه بابتسـامة: الخـوف يـا سـمو الأمـيرة.. الخـوف يركـض جيئـةً وذهابًـا داخـل رأسي المسـكين حـتى شـوه جبهتـه.

أشـفقت عليـه، فاقتربـت منـه بحنـان أم تخطـت الخمسـين وليـس طفلـة لـم تقـرب الثانيـة عـشرة بعـد: ومـا الـذي يخيفـك.. إن أبي باشـا كبـير.. وأمـي أمـيرة.. والملـك قـد انحـنى لى دون غـيري كمـا تقـول أمـي.. فربمـا أوصيـه عليـك و...

ضحـك حـتى احمـر وجهـه وربـت عـلى رأسي: لا عليـك يـا صغـيرتي.. فمـا أخاف.. لا ينفـع فيـه باشـا، ولا أمـيرة، ولا يُجليـه سُـلطان ملك..

تعجلتـه بالنطـق بمـا يخـاف بنظـرة اسـتعطاف، فسـكت قليـلًا وشرد في حـزن بالـغ: الخـوف مـن المـوت قبـل الرضـا!

آااه يـا شـيخ فاضـل، أذكـرك كلمـا دلفـت إلى تلـك الحـواري الضيقـة، بـين طيات الملابـس الـتي تخفـي حقيقـتي عـن أعـين الجميـع وربمـا عـن عيـني أنـا أيضًـا، قلتهـا منـذ سـنوات ولـم أفهمـك «الخـوف مـن المـوت قبـل الرضـا»، ولكـن.. أي رضـا؟ أقصـدت رضانـا نحـن بأقدارنـا، أم رضـا مـن قدّرهـا علينـا؟

ألقيـت لغـزك وانصرفـت إلى غـير رجعـة، وهـا أنـا أحـاول فـك طلاسـمه في كل يـوم يتأخـر فيـه المـوت عـني، سـواء رضيـت أم لـم أفعـل.

ولكن لم العجلة، فربما أموت اليوم ويتلاشى الخوف وكأنه لم يكن.

وصلـت إلى أعتـاب الخالـة «محبوبـة» وطرقـت بأصابعـي عليهـا بعـادة ربمـا تكـون قـد نسـيتها لانقطـاع زيـاراتي عنهـا لسـنتين، تساءلت إن كنـت قـد أدركتهـا حيـة؟ أم ماتـت هـي الأخـرى لينقطـع أمـلي في إخفـاء فضيحـتي كمـا أخفـي فتنتي؟

ولكنهـا خرجـت إليّ بعـين ضاقـت مـن قسـوة أشـعة الشـمس الـتي أحاطـت بوجهـي فأخفتـه، رفعـت طرحتهـا السـوداء الـتي تزعـم أنهـا ولـدت داخـل خيوطهـا منـذ سـبعين عامًـا، وقـد أهدتهـا القابلـة إلى أمهـا بعـد الـولادة، وحجـزت بهـا

أشعة الشمس وما أن رأتني حتى ارتعشت تجاعيد وجهها فرحًا واحتضنتني، كانت الوحيدة التي تميز ملامحي أسفل كل تلك الأسوار السوداء.

نطقت في لهفة: فاطمة! لقد.. أين.. أين كنتِ طوال تلك الفترة يا ملعونة؟!

بالطبع قالتها مازحة، وبالطبع كانت تعرفني باسم فاطمة، وبالطبع كنت أستحق ما قالت..

دخلت إلى بيتها في ابتسامة حنين لجدرانها الدافئة حتى وإن كانت شبه متهدمة، وقبل أن أخلع الحبرة، لمحت حركة مريبة بإحدى غرف البيت المظلمة، فانتفضت في امتناع، لكنها ابتسمت وربتت على فخذي: لا تقلقي.. إنها عائشة حفيدتي، ثم همست: الدار أمان.

خرجت عائشة بوجه محايد لم أتبين ما كان وراءه، فكانت ابتسامتها جامدة وهي تتأمل ملامح وجهي المختبئة خلف الحبرة، وأومأت إليّ في احترام مصطنع علمت حقيقته تمامًا.. فلقد عاشرتُ شبيهه طوال حياتي..

بدت من انحناءتها القصيرة، ووجهها البارد، وتعانق أصابع كفيها أمام رجلها أثناء سيرها بحكم العادة.. أنها خادمة لدى أحد الباشوات، وعندها آثرت ألا أفضح نفسي أمامها، فربما ضاجعته ولمحتني، وربما سأضاجعه وتراني.

مالت على وجهي تلك العائشة بنظرة لم تغادر عيني، ومدت يدها خلف جلستي وسحبت حقيبتها وهي تحدث جدتها في سخرية حانقة: الحزينة نامت يا جدة.. سأعود إلى السراي الآن.. وغدًا آتيك بالخبر اليقين..

لم أهتم بغموض حديثها، وراقبتها حتى اختفت خلف الباب الخشبي القديم في رحيل، وعندها خلعت الحبرة: أي حزينة تقصد يا خالة؟

تنهدت في أسى: آااه.. مسكينة.. إنها غانية من بيت ضاحي.. كشفوا عليها بالحوض المرصود فتبينوا مرضًا يمنعها من معاشرة الرجال.. فأبطلوا رخصتها.. وطردها ضاحي لعنه الله إلى الطريق فلجأت إليّ.. وها هي على تلك الحال من يومها.. لا تستيقظ إلا لتبكي وتنام..

شعرت بالأسى تجاه الغانية الفقيرة، فلم تلق حظي.. أنا الغانية الأميرة،

أفعـل مـا أفعـل ولا ألقـى عقابًـا لا بمـرض يجـبرني عـلى التوقـف، ولا بقبـض يخلصـني مـن حيـاتي.

ثـوان مـن الصمـت قضيتهـا في شرود، فاقتربـت مـني الخالـة محبوبـة في بـطء وخـوف مـن إجابـة سـؤالها القـادم: أهـو حمـل آخـر يـا فاطمـة؟

لـم أجبهـا إلا بالصمـت فكانـت أبلـغ إجابـة، فأحنـت رأسـها في حـزن وقالـت: ربمـا تموتـين يـا فاطمـة.. الأمـر خطـير يـا ابنـتي.. حـتى وإن نجـح.. أخـشى إن أسـقطت الجنـين هـذه المـرة أن يحرمـك اللـه مـن نعمـة الإنجـاب..

أجبتهـا وأنـا أخلـع ملابـسي في لامبـالاة وكأني أتعجلهـا: لقـد حرمـني اللـه مـن نعـم أخـرى.. فلتسرعـي يـا خالـة مـن فضلـك..

ربتـت عـلى فخـذي مـرة أخـرى فتوقفـت عـن خلـع الجلبـاب الأسـود وهـو يعـبر رأسي فلـم أر إلا سـوادًا: الرضـا يـا ابنـتي.. الرضـا..

همست لنفسي وعيني تسبح في السواد اللانهائي: بل الموت قبل الرضا!

كانـت الخالـة محبوبـة كبـيرة ممرضـات الحـوض المرصـود قبـل أن تلـزم بيتهـا للشـيخوخة، واعتـدت منـذ سـنوات عـلى اللجـوء إليهـا لإفـراغ أحشـائي مـن حمـل مَـن أضاجعهـم، ولاسـيما مـا يفتـك بهـا اليـوم مـن مـاء مصطفـى باشـا القـذر..

أغلقـت الخالـة النوافـذ فحبسـت ضـوء النهـار، وأشـعلت عـدة مصابيـح زيتيـة أدفـأت الأجـواء بضوئهـا الأصفـر المتمايـل، وافترشـت الأرض بغطـاء قمـاشي شـديد النعومـة واعتـذرت عـن عـدم اسـتخدامنا الغرفـة الداخليـة لاسـتحواذ مـن وصفتهـا بالمسـكينة -وكذلـك عائشـة بالحزينـة- عليهـا، وبـدأت في هـدوء عملهـا المعتـاد..

زفـرت بخـارًا سـاخنًا مـن فوّهـة كـوب زجاجـي امتـلأ عـن آخـره حـتى أوشـك أن يفيـض بمـشروب غريـب أسـمته «الحرمـل»، وحاولـت في حنـان كان أقـرب إلى الشـفقة إطعامـي أولى رشـفاته. انتفضـت مـن مرارة طعمـه كالعادة في المـرة الأولى، ولكـن مـا لبثـت أن أجـبرت نفـسي تحـت نظراتهـا الحزينـة عـلى تجرّعـه كامـلًا دون أن أطـرف. شـعرت كمـا أشـعر دائمًـا وأنـا أشربـه، وكأني أسـتحق مرارتـه. كانـت كل قطـرة تشـوّه لسـاني كجلـدة زيتيـة مـن سياط أجلـد بـه نفـسي، وكأني أكفـر عـن كل

لحظة قضيتها منفرجة الساقين لشهوة الرجال. كانت رقبتي تنتفض لتدفقه داخلها، تمامًا كما كانت تنتفض صراخًا تحت ضربات ذكورتهم لزهرة أنوثتي.

انتهيت أخيرًا، فانفرج صدري لشهيق عنيف كان أقرب لصرخة خروج الروح، وسقطت أرضًا وأنا أسعل في هيستيرية كمن اختنق حلقها بجنين غير مكتمل وآثر المسكين على الخروج من بين شفتيها بدلًا من تحتها. ضربت الخالة على ظهري عدة مرات، ونفخت في وجهي المنتفخ بالاحمرار وهي تتمتم بآيات الرحمة.

هدأت انتفاضتي تدريجيًا، وعادت أنفاسي رويدًا إلى سرعتها الطبيعية ولم أسلم من حشرجة أصابت صوتي لعدة أنفاس أخرى. وعندها، مال جسدي أرضًا في سكينة هادئة حتى تمددت تمامًا وقد غابت عن عيني ملامح الغرفة، فبدا السقف ناعمًا بذلك الضوء الذي كان يخفت متراقصًا بين فتحات الستارة المترنحة مع رياح شهر آذار اللطيفة، واختفت تعرجات الجدران وتشققاتها، فظهرت ملساء باسمة كلوحة رخامية لامعة. وتسرّبت الأصوات المتداخلة من باعة الحارة الجائلين وصراخ أطفال الجيران وطرقات عمال النحاس ببطء حتى هانت على أذني واختفت. ولم يبق إلا صوت أنفاس الخالة.

«هيا يا خالة»..

همست لها في استسلام وقد اهتزت اللوحة الرخامية أمام عيني بموجة مرتعشة من الدموع حاصرت جفنيّ. لم تجب الخالة، فأعدت عليها الأمر وقد بدأت حمّى البكاء في الفوران، وقد انحدرت دمعتان خرجتا من عيني على جانب وجهي حتى طالتا الأرض: «بالله يا خالة»..

تنهدت الخالة وهمست باستغفار أخير واقتربت من نومتي الأرضية، ووضعت يُمناها على جبهتي وهي تبتسم «والله ما امتلأ قلبي بحب أحد كما امتلأ بحبك يا ابنتي». أغمضت عيني لها دون رد، فشعرت بيسراها وهي تعتلي بطني، وأصابتني رجفة خوف لا إرادية عندما أحسست بأصابعها وهي ترفع عباءتي حتى بات بطني عاريًا. بدأت الخالة في تدليك بطني في حنان ناسب عبارتها السابقة، بينما انهمكت في مقاومة تلك الرجفة التي أصابتني دون أمل في ردعها.

مـرت دقائـق، فغفلـت حـتى عـن عبـور يدهـا مـن بطـني إلى بـين قدمـي. أحسسـت باقـتراب الأمـر، فغابـت الرجفـة وحلـت محلهـا بـرودة الاستسـلام، فسـكن جسـدي حـتى أصبح وكأنـه بـروز مـن تعرّجـات الأرض الجامـدة، لا حيـاة فيـه. كنـت لا أزال مغلقـة العينـين، وظننـت وكأن الخالـة تمنّـت أن أكـون قـد غبت في نـوم غريـق، فسـمعت صـوت اصطـدام خفيـف لـشيء معـدني لسـعتني برودتـه بمجـرد أن لامـس فخـذي. فعرفـت أنهـا النهايـة.

فتحـت عيـني وقـد تمنيـت أن تكـون تلـك هـي النهايـة الحقـة، وأن المـوت سيختم تلـك المسرحيـة الهزليـة بقسـوته الحنـون، تمنيـت أن يخلّصـني ممـا أنـا فيـه، وارتأيـت أن يفعـل وعيـني معلقـة عـلى آخـر مشـهد مـن مشـاهد الدنيـا، مجـرد سـقف شـبه مظلـم.. أرهقـه الزمـن.. حـتى بـات عجـوزًا ينتظـر المـوت مثـلي.. فيسـقط عـلى رأسي متممًـا مهمـة القـدر المقدسـة.

تخلـت الخالـة عـن حنانهـا الحـذر وبـدأت تعتـصر بتلـك الآلـة الحـادة اللحـم الميـت لمهبـط شـقائي، فبـدأت متسلسـلة الألـم في التجسـد، فزحفـت صعـودًا كحيـة آلمـني ارتعاشـها، فعـبرت بطـني ودقـت طريقهـا بـين نهـديّ حـتى اعتلـت صـدري، ومـا أن وصلـت إلى رقبـتي وقـد ظننـت أنهـا سـتخنقني بضربـة مؤلمـة، حـتى توقفـت.

غابـت متسلسـة الألـم كهـدوء مفاجـئ لريـاح اعتـادت أن تكـون طارحـة لأعمـدة الأشـجار. وبـين لحظـة وثانيتهـا، سـكن كل شيء، فـكان حقًـا هـدوءًا يسـبق العاصفـة.

وضربـت العاصفـة. شـعرت بطعنـة القضيـب المعـدني وهـي تخـترق أحشـائي، فأطلقـت رغمًـا عـني صرخـة اهـتزت لهـا جـدران البيـت الفقـير. ارتمـت الخالـة مبتعـدة في هلـع. واصلـت الصرخـة العاليـة حـتى تقطعـت أوتـار حلقـي وغـاب الصـوت عنهـا ولـم يبـق مـن آلامـي سـوى عنـق أحمـر مشـدود العـروق، وفـاه فغرتـه عـن آخـره في ألـم أخـرس.

«ناااار يا خالة! نااار!».

رأيـت الخالـة تنتفـض ابتعـادًا عـن رجـليّ المفتوحتـين والـدم يغـرق كفيهـا،

فـزاد مـا رأيتـه منهـا مـن هلعـي، فارتفعـت صرخـتي الـتي اختلطـت بنادئهـا المذعــور:

«بركة! انجديني يا بركة!»..

انتفـض جسـدي انتفاضـة بـدت أخـيرة حـتى عصـف التعـب المفاجـئ بأعضـائي، واستسـلمت لإغمـاءة لـم أحـاول مقاومتهـا. وكان آخـر مـا رأيتـه وجهًـا ربمـا كان أجمـل مـن وجهـي للفتـاة الـتي كانـت تفـترش الغرفـة في حـزن، وهـي ترتمـي عـلى جسـدي في ذعـر في محاولـة لإفاقـتي..

تحولـت الرؤيـة إلى ضبابيـة.. واختفـت صـورة بركـة بـين أمـواج السـواد قبـل أن يختفـي آخـر مـا صـاح بـه صوتهـا الناعـم «يـارب! مـا للولايـا مـن نصـير إيـاك!»..

***

ظـن الجميـع أني سـافرت كعـادتي إلى أوروبـا، ولـم يلحـظ أيّ منهـم غيـابي ببيـت الخالـة محبوبـة لأسـبوعين. حـتى زوجـي السـكّير، لـم يكلـف نفسـه عنـاء الـرد عـن سـمعتي عندمـا تهامـس المشـككون عـن حقيقـة سـفري مـن عدمـه. بينمـا نجحـت الخالـة وصديقتهـا بركـة في إسـعافي، وأصرّت عـلى عـدم مغـادرتي بيتهـا قبـل أن أسـترد بعضًـا مـن عافيـتي، فاسـتجبت لهـا وكأن مطلبهـا وقـع مـن قلـبي موقـع الرضـا، بـل والرجـاء أيضًـا. فمـا أردت دومًـا إلا الابتعـاد عمـا آلفـت مـن حيـاة ولـو كان بمـوتي، فبـدا أن القـدر قـد اسـتجاب لمطلـبيّ بالابتعـاد والمـوت، فأماتـني لدقائـق ومـا لبـث أن أحيـاني مـرة أخـرى بإجبـار عـلى مـا تمنيـت مـن حيـاة جديدة.

تحولـت خـلال تلـك الأيـام القليلـة إلى امـرأة بسـيطة مـن نسـاء المحروسـة، فتعلمـت مـن الخالـة محبوبـة طبـخ الطعـام، وتنظيـف الأثـاث، وإطعـام البـط أو كمـا تسـمّيه «تزغيـط»، ودون وعـي.. تصادقـت أنـا وبركـة وقـد وجـدت كلٌّ منـا في الأخـرى نسـخة مختلفـة المعالـم مـن أصـل واحـد للمعانـاة.

وكمـا تمـر لحظـات النشـوة كطرفـة عـين اشـتهيت سـابقًا طـرق قلـوب الرجـال بهـا، انتهـى الأسـبوعان، واضطـررت للرحيـل، وشـعرت بالنـدم حقًـا فـور أن

غـادرت البيــت، ليـس فقـط لرحيـلي عنـه، وإنمـا أيضًـا عـلى إفصاحـي لبركـة بحقيقـتي العَلَويّـة. وبالرغـم مـن قسَـمِها أنهـا لـن تكشـف الـسر حـتى للخالـة نفسـها، فـإني لـم أعـد أثـق بالأقـدار كمـا يثـق العجـين بطـرق خبّـازه، كمـا اعتـادت محبوبـة أن تقـول.

لم أفهم حتى المقصود بهذا المثل الشعبي.. ولكني حفظته.

عـدت إلى قـصر الأمـيرة ألفـت كعـادة كل شـهر للتجمـع حـول أحاديـث النميمـة الـتي اعتـدت أن أكـون جـزءًا منهـا، لـولا إصرار ألفت هانم عـلى إقحامي بجلسـاتها لتجـبر غيرهـا مـن الأمـيرات عـلى التوقـف عـن الخـوض في سـيرتي وأنـا بينهـن، وفي غمضـة عـين.. نسـيت فاطمـة ذات المـلاءة اللـف.. وتحولـت إلى الأمـيرة جلنـار.. قاتلـة أمـيرات الأسرة الحاكمـة مـن الغيـظ.

تحركـت في خيـلاء اعتـدت عليـه بـردائي الأبيـض الطويـل الـذي لـم يبخـل زوجي بترصيـع بعـض مـن مقاطعـه بالألمـاس، واقتحمـت جلسـتهن الدائريـة في شـموخ، وكمـا توقعـت، أو بالأحـرى أردت، انتصبـت أعينهـن تجاهـي كأنصـال مسـنونة، وبـدأت الابتسـامة المصطنعـة بالتحـرك بـين شـفاههن رغـم تأخـر بعضهـا فـإن واحـدة منهـن لـم تنطـق بكلمـة، فقطعـت ألفـت هانـم الصمـت واتجهـت إليّ في ابتسـامة صادقـة هـذه المـرة.

- كيف كانت أوروبا يا جلنار هانم؟

جلسـت وأنـا أرسـم الغـرور عـلى كل جـزء مـن قسـمات وجهـي: أفضـل مـن بعـض الأماكـن سـمو الأمـيرة..

نطقـت إحداهـن في خبـث: ومـا الحاجـة إلى السـواريه يـا جلنـار هانـم؟ لا زال الوقـت باكـرًا عـلى المسـاء.. وعـلى.. (ابتسـمت في سـخف) أعـين الرجـال لتطـال حُسـنك!

نظـرت إليهـا بجانـب عيـني نظـرة لـن يطيقهـا حـتى خـادم، وعلّقـت عـلى ملابسـها: لسـت مسـتخدمة في مصلحـة السـكة الحديـد يـا عزيـزة هانـم لأرتـدي ملابـس العامـة..

امتعضـت عزيـزة وهمّـت بالـرد عـن نفسـها وسـاعدها عـلى ذلـك اعتـدال

الأخريـات في جلسـتهن باسـتنكار بالـغ لنـبرتي القاسـية، إلا أن صوتًـا صـدر مـن خلفـي أسـكت الجميـع وأعـاد جلسـتهن إلى الاحـترام مـرة أخـرى، ورسـم البسـمة عـلى وجـه ألفـت أو بالأحـرى الارتيـاح، جـاءت متأخـرة ولكنهـا جـاءت في الوقـت المناسـب..

«لن نبدأ المجلس بالعراك يا فتيات.. انضجن قليلًا»..

ومـا أن عـبرت مـن خلفـي واتجهـت إلى مقعدهـا المواجـه لمقعـدي تمامـا حـتى رأيتهـا، كانـت ترتـدي الملابـس البسـيطة مـن الجونـلات القصـيرة والمعاطـف الداكنـة، ولـم تنـس ارتـداء قبعتهـا القصـيرة أسـفل إيشـاربها السـماوي، لكنهـا بالرغـم مـن ذلـك بـدت ذات هيبـة طاغيـة..

خلعـت قفازهـا الحريـري وهـي تراقبـني في هـدوء باسـمة: مـن مثلـك لا تحتـاج إلى السـواريه لتبـدو جميلـة يـا جلنـار هانـم.. فأنـا أظـن، وظـني دائمًـا مـا يصيـب مـن الحـق حقًـا، أنـك لـو ارتديـت مـلاءة سـوداء بحـبرة كـ «نسـاء الحـواري» سـتظلين أيضًـا فاتنـة الجمـال..

لـم أفهـم إن كان حديثهـا إطـراءً أم تلميحًـا لأمـر قاتلـت لصرفـه عـن ذهـني، فـكان الصمـت غالبًـا عـلى ردي، وعندهـا تدخلـت ألفـت مـرة أخـرى: إنهـا حوريـة هانـم بهجـت يـا جلنـار!

عـاد ألـم الخالـة المحبوبـة، ولكنـه ضرب رأسي هـذه المـرة، فأنـا أجلـس أمـام زوجـة القـواد الـذي يعتلـيني في كل يـوم وليلـة عـلى فراشـها دون أن تـدري!

ارتبكـت وقـد فـرت الكلمـات مـن الـرد المناسـب عليهـا، فاسـتبطأته، وعندهـا قـررت اسـتكمال حديثهـا: ومـع ذلـك لا ألومـك.. فأنـا أيضًـا كثـيرة السـفر إلى أوروبـا، وأرى مـن نسـائهم مـا يشـعل غـيرتي بالظهـور فاتنـة بمعظـم الأوقـات.. ألا تشـعرين بذلـك يـا هانـم؟

أومـأت لهـا في هـدوء وقـد طعنـت قلـبي الشـفقة عليهـا، فهـي جميلـة للغايـة وإن طالـت منحنيـات الزمـن مـن جانـب عينيهـا وقـوسيْ ابتسـامتها ببعـض التجاعيـد، أعلـم أن مصطفى باشـا لا يضاجعهـا بـل وأخـبرني أنـه دائـم السـخرية مـن أنوثتهـا كلمـا اقتربـت منـه، فتلجـأ إلى السـفر معظـم أيـام السـنة هربًـا مـن

خزيهـا الشـخص الوحيـد الـذي أحبـت..

مسـاكين نحـن النسـوة. نتـوق إلى الذكـور كتـوق المؤنـث إلى تـاء التأنيـث.. ولكـن مـا لهـذا الجيـل مـن الرجـال لا يعرفـون فـن الإعـراب؟

مـضى مـا مـضى مـن الوقـت، وتسربـت الأمـيرات الواحـدة تلـو الأخـرى بعدمـا اسـتبطأت كل منهـن أخبـار ألفـت عـن القـصر وميعـاد حصـة كل منهـن في الراتـب الـذي أمـر بـه الملـك لـكل أمـيرة مـن الأسرة العلويـة، ولـم يبـق بعـد عـدة أباريـق خزفيـة مـن الشـاي سـوى أنـا وحوريـة هانـم.

تجاذبنـا أطـراف الحديـث وحوافـه في كل الاتجاهـات، حـتى تخلينـا مـع الوقـت عـن رسـمية الكلمـات الرنانـة، وارتاحـت إلى كلمـاتي فأفضـت إليّ بالكثـير ممـا أعرفـه مسـبقًا.. وأخـيرًا تطرقـت إلى حكايـة «فـرج» وأمـه القرويـة «نعمـة»..

تنهـدت في حـزن: يعلـم اللـه أني لـم أرغـب لهمـا بتلـك الحيـاة خدمًـا تحـت قدمينـا أنـا ومصطفـى باشـا، ولكنـه لا يعـرف الرحمـة، ومـا أن عـدت مـن السـفر حـتى فوجئـت بـه وقـد أرسـلهما إلى البلـد مـرة أخـرى وسـافر بـدوره..

اصطنعت الجهل بالأمر: وهل علمتِ ظروف قراره بترحيلهما؟

تهربـت مـن نظـراتي فعلمـت أنهـا سـوف تكـذب بمـا يحفـظ مـاء وجههـا: اا.. لـم.. لـم أعـرف بالضبـط.. ولكـن مـا أعرفـه أن المسـكين فـرج فنـان حقيقـي حـتى في هـذه السـن الصغـيرة.. بـل أراه عبقريًـا.. وأبـوه يرفـض أن يرسـله إلى الخـارج لدراسـة فنـون الرسـم كولـدي محمـود.. (ثـم أكـدت مسرعـة) ااا.. ولـدي محمـود يـدرس الطـب بالطبـع!

اعتدلـت في يـأس مـن أحـوال الدنيـا، وتحولـت دون أن أدري إلى الخالـة محبوبة: إنهـا الأقـدار يـا هانـم.. وليـس لأي منـا إلا أن يقبـل بهـا.. لمـاذا في رأيـك سـمّيت بالأقـدار؟ لأنهـا تقـدر عـلى مـن يصـارع مشـيئتها..

راقبتـني في حـيرة بسـيطة أزالتهـا سريعـا مـن عـلى وجههـا وأومـأت في موافقـة: نعـم.. معـك حـق.. ولكـن بيدنـا أن نعبـث بهـا قليـلًا.. أليـس كذلـك؟

راقبتهـا في تعجـب وهـي تنفعـل في حمـاس طفـولي بعـد سـؤالها الأخـير، فاقتربـت مـني في همـس لا تسـمعه ألفـت الـتي غابـت لمقابلـة زوجهـا خـارج

غرفـة الاسـتقبال الـتي احتلتهـا حوريـة وشـاركتها ذلـك الاحتـلال: اا.. سـأثق بـك دونـًا عـن الجميـع وأخـبرك بـسر، إن خـرج مـن بيننـا.. ربمـا تكـون نهايـتي أسـوأ مـن نهايـة المسـكينة نعمـة..

أشرت لهـا في طفولـة موازيـة افتقدتهـا منـذ سـنوات بعيـدة بـأن سرّهـا في أمـان، وأشرت إليهـا كمـا فعلـت «بركـة» عندمـا أخبرتهـا سرّي، قبضـت الهـواء وأسـقطته داخـل حمالـة صـدري في صمـت وطرقـت عليـه في قـوة، ولكـن لـم أقـل مـا قالتـه «سرّك الآن بعـبّي!»..

أطلقـت حوريـة ضحكـة عاليـة، فابتسـمت وقـد تناسـينا مـا بنـا مـن همـوم، وزادت مـن قربهـا مـني في حمـاس وقالـت: لـم يعلـم مصطفـى باشـا أمـرًا عـن قـصر أفنـدار والـذي ورثتـه عـن أمـي.. وبالرغـم مـن أنـه قديـم وشـبه متهالـك فـإني قـررت وهبـه لفـرج ليتخـذه مـن دون أمـه حـتى.. مكانـًا لفنـه!

تحجـرت رقبـتي فلـم ترتـد للخلـف مـن صدمـة الخـبر، لـم أعـرف حينهـا مـا الـذي أدهشـني حقـًا، سـذاجتها البالغـة لتوهـب قـصرًا إلى فـلاح يظـن أنـه دافنشي الجديـد؟ أم براءتهـا غـير المفهومـة الـتي ضربـت بـكل قوانـين المنطـق عـرض الحائـط..

كانـت إجابـة السـؤالين واحـدة.. وكانـت تلـك الإجابـة هـي الـسر الـذي دفـع بزوجهـا مـن مجـرد موظـف للـري إلى باشـا بالحكومـة المصريـة، فربمـا عهـدت إليـه بـإدارة أملاكهـا وقتمـا وقعـت في حبـه، وبنفـس هـذه السـذاجة وبشـبيهة تلـك الـبراءة.. امتطـى أكتافهـا وصـار إلى مـا صـار إليـه مـن نفـوذ..

راقبت تعبيراتي في وجل وارتعش صوتها: مـ.. ما بك؟

تخلصـت مـن تحجـري المؤقـت واعتدلـت في ابتعـاد عنهـا وقـد بسـطت حاجـبي في تعجـب: لا أعـرف إن كنـتِ تعنـين مـا تقولـين..

عـادت إلى حماسـها مـرة أخـرى: أعـرف أنـك ربمـا تظنـين أني خرفـة طـال العجـز منهـا العقـل.. قبـل خصيـلات شـعرها.. ولكـن.. لمـاذا نفكـر مرتـين قبـل أن نهـب مـن ليسـوا منـا مـا يسـتحقون؟ أكنـت سـأتردد لـو كان ابـني محمـود هـو صاحـب تلـك الموهبـة العبقريـة؟ كلا بالطبـع.. كنـت سـأهبه كل مـا أملـك عـن طيـب

خاطـر..

حاولـت نصحهـا: أجـل ولكـن، ذاك الشـاب الـذي تصفـين ليـس ولـدك.. إنـه فـلاح.. ومـا تفعلينـه ربمـا يعتـبره الجميـع نوعًـا مـن السـفه..

اقتربت من وجهي في تعجب: ومن الذي سيخبر الجميع؟!

- نعم ؟!

- كمـا سـمعتِ.. أخبرتـك أنـه قـصر مهجـور.. طـال عليـه الأمـد دون بيـع أو سـكن.. حيـث ظنـت أمـي أن جدرانـه مسـكونة بـأرواح الرومـان منـذ أن حكمـوا مـصر.. فهـو عديـم القيمـة.. فلـمَ أذيـع في النـاس بـأني سـأهبه ذلـك المسـكين؟ فليسـتخدمه.. ويعتبرهـا هديـة أعوضـه بهـا عـن الشـقاء الـذي نـال مـن حياتـه بسـببي وولـدي.

سـمعنا خطـوات ألفـت المترددة وهـي تقـترب مـن الغرفـة الـتي أظلمتهـا عتمـة الليـل، وعلمنـا قبـل أن تظهـر أنهـا تشـعر بالحـرج مـن محاولـة طردنـا مـن بيتهـا وقـد اغتصبنـا هـواءه طـوال النهـار، فأومـأت لحوريـة في موافقـة عـلى مـا قالـت، واسـتعددت للنهـوض وأنـا أفكـر في مصيبـتي القريبـة..

مـضى أسـبوعان عـلى الأسـبوع الـذي منحـني إيـاه مصطفـى باشـا للإيقـاع بكامـل باشـا الحـداد.. ولـم أكـن قـد اقتربـت مـن الرجـل بعـد!

وبينمـا تحركـت في شرود وخـوف مـن عقـاب الباشـا، عـلى تقاعـسي عـن أداء وظيفـتي المشـينة، وقـد اقـترب موعـد عودتـه مـن الأسـتانة، حـتى انتبهـت عـلى لمسـة مـن كفهـا الناعـم مـرة أخـرى، تمنعـني فيـه مـن الرحيـل بمطلـب أخـير..

«أرجو أن تقبلي رغبتي يا جلنار هانم!».

جلسـت مـرة أخـرى واسـتمعت لمطلبهـا الغريـب، الـذي لـم أظـن حـين سـمعته أنـه سـيجلب عـليّ كل تلـك المـآسي..

ليـت المـوت قـد نـال مـني وأنـا أنـازع تحـت يـديْ الخالـة محبوبـة، أو حـتى قتلـني الباشـا عندمـا علـم بفشـل مهمـتي مـع كامـل الحـداد.. فربمـا كان ذلـك أكثر رحمـة ممـا أصابـني.. لمجـرد أني نطقـت بالموافقـة عـلى رغبـة حوريـة اللعينـة.

أي نهاية يا جلنار؟

-٦-

عزيز بِك قاسم

١٩٤٩

«اعترفت لي بالحقيقة كاملة.. قبل أن أنال منها قبلة واحدة»..

قالها كامل باشا وهو يرشف رشفة مرتعشة من كوب الشاي الأحمر الذي أعددته له في صعوبة، حيث أصر على أن يشربه في كوب زجاجي كمقاهي المحروسة البسيطة بدلًا من أي فنجان أنيق امتلأت به خزائن مكتبي الفاخر، سألته عن السبب.. فأطرق برأسه في ابتسامة حزينة وقال: كانت عادتها.. وها أنا أحييها..

لم أظن يومًا أن علاقة سوية قد تنشأ بيني وبين كامل باشا، فلطالما كنت بالنسبة له زوج الابنة التافه، ولطالما كان في عيني الحمو الساخر من طموحات وأقدار زوج ابنته، ولم يكن بيننا من رابط سوى ليلى.. الضلع الأعوج في مثلث الجحيم الأسري.

ولكن ما أن لجأ إليّ بعد انتحار جُلنار حتى نجحت قصتها في إزاحة ليلى من كونها رابطًا بيني وبين ذلك العجوز، وأصبح شغفي وراء معرفة ما حدث لجلنار، ورغبة الباشا في الثأر لها رابطًا جديدًا تمسك به كل منا، وأعلى من شأنه فوق مشاعر السخط المتبادلة بيننا.

بالطبع لم أنتظر من كامل باشا أن يتحول في يوم وليلة هو الآخر إلى صديق حميم يثق باحتوائي لأسراره دون خيانة، ولا يخجل من البوح بأدق تفاصيلها دون حُكم مُسبق أطلقه على أفعاله، ولكنه وقد مر أسبوعان كاملان على جلساتنا السرية، كان قد اعتاد على جلستي.. بل وأدمنها حقًا، وهذا ما حاولنا إخفاءه عن ليلى.

ففي النهار وبين جدران قصر ليلى، يحترف كامل باشا دور الحمو السخيف

الـذي يمطـر زوج ابنتـه بالتعليقـات السـاخرة مـن أعمالـه، وكذلـك اتخـذت مـن تزييفـي السـخط منـه، مهنـة أمتهنهـا في مهـارة عاليـة، وفي الليـل وبـين جنبـات مكتـبي المظلـم، نتبـادل الحكايـات بـل والمشـاعر أيضًـا، فيفـضي كل منـا إلى الآخـر بمـا يشـعر، تحـت مظلـة حـكاوي جلنـار طوسـون.

وفي كل مـرة كان ينطـق فيهـا بأمـر يخـص جلنـار، حـتى أندمـج معـه في عالمهـا الخـاص، وكيـف كان سـاحرًا مليئًـا بالتناقضـات، وألعـن الظـروف الـتي أودت بحياة امـرأة مثـيرة كتلـك الراحلـة.

أخـبرني الباشـا سـابقًا أنـه رأى تلـك الفتـاة الـتي قتلـت جُلنـار، ومـا أن قالهـا حتى انقلبـت بوصلـة التفكـير العلمـي داخـل عقـلي، فلـم تعـد تلـك الفتـاة الغامضـة مجـرد هـلاوس بصريـة لأحدهـم، بـل تحولـت إلى خيـال غـير مفهـوم يطـارد عـددًا مـن الأشـخاص، وهـو مـا رفضـه المنطـق، وابتعـدت نظريـات العلـم عـن تصنيفـه.

أدار كـوب الشـاي السـاخن بـين كفيـه في تحـركات متتاليـة وهـو ينشـد دفئًـا لأطرافـه: كنـا نتقابـل بقـصر أفنـدار.. وجاءتـني في مـرة بمـلاءة لـف وحـبرة.. ومـا أن دخلنـا مخبأهـا الـسري حـتى أصرت عـلى أن تكـون ليلتنـا شـعبية.. بسـيطة.. ليلـة حـب بـين -كمـا أطلقـت عـلى نفسـها- شـابّة تدعـى فاطمـة.. وكمـا أطلقـت علـيّ.. جـدع اسـمه «عطـوة»!

ضحـك عـدة ضحـكات قصـيرة في حنـين لتلـك الليـالي، أتبعهـا ببسـمة حزينـة فابتسـمت ونظـرت أرضًـا دون مواجهتـه حـتى يكمـل بـلا خجـل: وأصرّت عـلى أن أشرب الشـاي في أكـواب زجاجيـة كالجدعـان، بينمـا تدلـك هـي قدمـيّ في طسـت مـن المـاء المملـح.. اااه.. كانـت أسـعد ليـالٍ في حيـاتي..

شردت في تلـك الحيـاة الـتي اختارتهـا جُلنـار سرًا، وعلمـت عـلى الفـور تشـخيص حالتهـا بالنفـور مـن حيـاة القصـور والحنـين إلى عيشـة البسـطاء، وقـد نجحـت في اسـتدراج الباشـا إلى تلـك البيئـة هـو الآخـر، فتخـلى عـن باشـويته ذات الهيبـة الزائفـة أمـام مـن حولـه، والـتي يمجـده النـاس مـن أجلهـا، وشـعر لأول مـرة برجولتـه الحقـة عندمـا تتخـلى مـن يحـب عـن كبريائهـا وتجلـس تحـت قدميـه في ذل الخادمـات لتدلـك قدمـه طواعيـة، كان يفتقـد حقًـا إلى ذلـك الشـعور..

ونجحت جلنار في إهدائه إليه.

وبالرغم من استمتاعي بما كان يقصه عليّ من تفاصيل حميمية شعرت أنا أيضًا بالحنين إليها وكأنها أسرتي، وبالرغم من خوفي من مقاطعته، لكن ذلك السؤال كان يُلح في استفزاز بصوت رخيم داخل رأسي، ولم يكن هناك بد من التخلص منه إلا بإطلاقه بوجه عطوة باشا: ولكن.. معذرة يا باشا.. أخبرني بالتحديد كيف بدأت تلك الخيالات في الورود إليها؟

أخرج سلسلته الفضية من جيب صدريته واصطنع امتعاضه من تأخر الوقت، فابتسم كعادة اكتسبها خلال الفترة الأخيرة قبل أن يكذب بعذرٍ يجنّبه الإجابة عن سؤالي: لقد تأخر الوقت.. فلنكمل غدًا..

ونهض متجهًا إلى غرفة الحمام الصغير الخاص بمكتبي ووضع كوب الشاي بالحوض في عفوية وتحرك للمغادرة، بينما لم أحرك أنا ساكنًا، وانقسمت تعبيراتي الباسمة في دلالتها إلى طرفي نقيض: احترام كاذب لرغبته في الرحيل.. وسخرية حانقة من فشلي في استدراجه إلى ما أريد سماعه بدلًا من أن أكون مجرد صفحات بيضاء يخط عليها كل ليلة بعضًا من ذكرياته لينعم بنوم هادئ للصباح ليس أكثر..

علمت حينها أني لست ماهرًا في عملي كما أظن..

رحل الباشا وهو يؤكد عليّ حضور جلسة الغداء مع ابنته ليلى حتى وإن لم أعد أبيت في فراشي، فقط من أجل إجابة رغبتها، فأومأت له بالطاعة، وتحرك باسمًا بلمحة من شفقة غامضة أحسست أنه يشعر بها تجاهي.. وكأنه كان يقرأ أفكاري ويسمع كم اللعنات التي أطرق بها رأسي لاعنًا فشلي في الحصول على ما أريد.

وكعادتي في الليل منذ تركت قصر الباشا وفراش ابنته، أغلقت باب المكتب في هدوء لا يُزعج سكان العمارة التي لم يعد يسكنها منذ أن اشتراها كامل باشا، سوى راقصة بأحد تياتروهات عماد الدين، ومجموعة من الشباب الريفيين من طلبة الجامعة المصرية، واتجهت إلى فراشي الجديد.. المقعد القطني الذي اعتادت قائمته على انحناءة خلفية أوشكت أن تبليه من كثرة

تكومي داخلـه في نـوم طويـل للصبـاح.

ولكـن في هـذه الليلـة، كان النـوم أشـبه بحكايـة غـير مكتملـة، لا تـكاد تبـدأ حـتى تنتهـي بموضـوع يثيرهـا تشـويقًا، فأصابـني الأرق بالتـواءات متكـررة عـلى محـور المقعـد كادت هـذه المـرة أن تحيـل انحناءتـه إلى تحطـم لا إصـلاح لـه، وعندهـا علمـت أن تلـك الليلـة لـن تنتهـي كمـا أتمـنى منـذ انتحـار جُلنـار.

انتحار جُلنار..

حقًّـا هـو مـا يؤرقـني، فلـم لا أفعـل كمـا يفعـل كامـل باشـا؟ فقـط أشـكو إلى أوراق بيضـاء مـا يخلـب النـوم مـن رأسي، نهضـت وأمسـكت بمفكـرتي الورقيـة، وبـدأت في كتابـة كل مـا أعرفـه عـن تلـك المـرأة، مـا فعلتـه يـوم تقابلنـا للمـرة الأولى والأخـيرة، ومـا قالـه كامـل باشـا مـن حكايـات غـير مترابطـة أراد أن يسـلّي بهـا ليلـه.

فلم أكتب إلا سطرًا واحدًا.. بدا أنه كافٍ لتلخيص حالة جُلنار المعقدة..

«جُلنـار طوسـون.. أمـيرة علويـة.. تشـتهي الرجـال.. وتعيـش حيـاة سريـة كامـرأة بسـيطة.. فاطمـة.. حـبرة ويشـمك.. للدرجـة الـتي تدفعهـا لإجبـار حبيبهـا عـلى أن يتحـول إلى رجـل بسـيط.. عطـوة.. إسـكافي كمـا رسـمت شـخصيته الجديـدة.. جلنـار تعـاني مـن اغـتراب تجـاه بيئتهـا.. ربمـا أدى لرفـض لـكل مـا...».

توقفـت عـن الكتابـة وقـد أطرقـت أذني لصـوت ضربـات أجنحـة فكـرة، عـبرت أمـام رأسي في هـدوء يناسـب تلـك الليلـة السـاكنة، همسـت إليّ الفكـرة بـشيء بـدا منطقيًـا للغايـة لحالـة جُلنـار..

«مـن تنشـد حيـاة البسـطاء.. لابـد أن تنجـذب إلى البسـطاء ممـن حولهـا رغمًـا عنهـا حـتى وإن حاولـت التظاهـر بالعكـس.. فمـن ممـن حولهـا ربمـا يكـون الأقـرب إلى هـذا التصـور؟»..

رفرفـت الفكـرة في فـزع بعيـدًا عندمـا طرقـت عـلى المكتـب في قـوة وقـد وجدتهـا! تذكـرت مـا قالتـه ليـلى في حـوار تكليفهـا المخـزي لي باسـتجواب جُلنـار بمـا يخـص علاقتهـا بالباشـا، وقـد أخبرتـني أن خادمتهـا أخـبرت خادمتنـا عائشـة بتلـك العلاقـة.. فـلا يعـني ذلـك إلا أن تلـك الخادمـة كانـت عـلى علاقـة وثيقـة

بجلنـار، علاقـة تختلـف عـن شـكل العلاقـات المعـروف بـين أمـيرة وخادمـة.. حـتى تعلـم عنهـا ذلـك الـسر!

ولكـن كيـف أصـل إلى تلـك الخادمـة.. دون أن أثـير مـن الشـبهات مـا يُعيـدني إلى قبضـة القـصر مـرة أخـرى؟

عائشة!

مكالمـة متأخـرة بعـد منتصـف الليـل أيقظـت ليـلى كانـت كفيلـة بإنهـاء الأمـر: أريـد عائشـة في الصبـاح لتنظيـف المكتـب.. عـم سـالم في البلـد..

عـدة لعنـات عـلى إيقاظهـا، وضربـة عاليـة لسـماعة الهاتـف عـلى مهبطهـا لـم أسـمع منهـا غـير نصفهـا لانقطـاع الخـط.. أكـدت لي موافقتهـا عـلى مـا طلبـت!

رمـح الليـل واختفـى، فاسـتفقت في الصبـاح عـلى منظـر كان غريبًـا، أقـدام تسـير عـلى سـقف الغرفـة وتـضرب بعصـا سـحرية عـلى سـطحها فيخـرج منهـا صـوت جميـل يهمـس في إيقـاع هامـس «زوروني (ثـم تنهيـدة حنـين محترقـة) كل سـنة مـرة.. حـرام.. تنسـوني.. بالمـرة.. واللـه حـرام»..

اسـتغرقت عـدة ثـوان حـتى فطنـت إلى حقيقـة مـا يحـدث، كنـت مقلوبًـا في نومـتي عـلى المقعـد بـرأس اصطـدم بـالأرض وأقـدام تدلـت مـن أعـلى مسـند المقعـد، فرأيـت عائشـة وهـي تكنـس الأرض في هـدوء يخـشى إزعاجـي، فاعتدلـت في إرهـاق وسـقطت مـن عـلى مقعـدي بطريقـة أفزعتهـا بضربـة عـلى صدرهـا وركـض ملهـوف إلى وضـع الجنـين الـذي اتخذتـه تحـت المكتـب متكومًـا..

حاولـت حـل عقـدة ترابـط ذراعـي مـع قدمـي في تلـك الوضعيـة: ياللحِـزن.. اعتـدل يـا بِـك..

حاولـت الاعتـدال وأنـا أشـير لهـا بـأن الأمـور عـلى مـا يـرام كمخمـور لا يعلـم حالتـه: حسـنًا.. حسـنًا.. أشـكرك..

اعتدلـت وجلسـت أرضًـا في إرهـاق مـن ذلـك التقـوس الـذي أصـاب عظامـي بـآلام تفرقـت عـلى جميـع مفاصلـه وعضلاتـه، كنـت أعلـم أني أبـدو مـشردًا كمجاذيـب مسـاجد الأوليـاء، رث الثيـاب، أشـعث الشـعر، أنظـر في بلاهـة إلى الفـراغ محـاولًا تبيّن الخـط الفاصـل بـين الواقـع والحُلـم الـذي كنـت غارقًـا بـين

أمواجـه، وعندمـا لاحظـت عائشـة ذلـك، انصرفـت في خجـل إلى عصـا مقشـتها التي سـقطت بلهفتهـا السـابقة وعـادت إلى مبـاشرة عملهـا في صمـت لفـت انتباهـي.

نطقـت لهـا دون أن أنظـر إليهـا كمحمـوم أصابـه الخـرف فأثقـل حـروف كلماته: لمـاذا توقفتِ؟

ردت في سرعـة تزامنـت مـع سرعـة ذراعيهـا في العمـل: أو.. أوشـكت عـلى الانتهـاء يـا سـيدي.. حـالًا.. حـ.. حـالًا..

أشرت إليهـا في ابتسـامة: لا لا.. أقصـد عـن الغنـاء.. ألـم يكـن ذلـك الصـوت الـذي أيقظـني غنـاءً؟

مطـت شـفتيها في خجـل: لا تؤاخـذني يـا سـيدي.. فقـط.. كنـت.. لـ.. لـم أقصـد إزعاجـك.. بـل كنـت ااا...

- فقط أكملي غناءك..

- ماذا؟!

راقبتـني في تعجـب، فضممـت سـاقيّ كمـا يفعـل عـم سـالم بعـد الانتهـاء مـن صلاتـه في «تربيعـة» كمـا يسـمّيها، وطرقـت عـلى الأرض بجـواري بباطـن كفـي باسـمًا: اجلـسي.. وأكمـلي غنـاءك.

رأيـت في عينيهـا ضيقًـا مـن مطلـبي، وقـد ظنـت أني أتقـرب منهـا رغبـة في علاقـة جنسـية أو عـلى الأقـل معاكسـة تطيـل مـن يـدي إلى جسـدها، فأومـأت لهـا: أعـرف الفـرق بـين الجاريـة والخادمـة يـا عائشـة.. لا تخـافي.. فقـط اجلـسي.. واعفيـني مـن كلمـات «لا يصـح يـا سـيدي».. «مقامـك يـا سـيدي».. وغيرهـا.. فقـط اجلـسي..

اقتربـت في وجـل وجلسـت ببـطء وهـي تحتضـن عصـا مقشـتها حـتى بعـد جلوسـها: طـ.. طـوع أمـرك يـا سـيدي..

نظـرت إليهـا في صمـت منتظـرًا غناءهـا في بـرود، فتنهـدت في خجـل ونظـرت أرضًـا ومـرت دقائـق عـلى الصمـت، سـاد فيهـا صـوت هـواء الصبـاح..

قـررت أن أبـدأ بغنـاء قبيـح الصـوت: زوروني.. كل سـنة.. مـرة.. (ابتسـمت مـن قبـح صـوتي وضمـت كتفيهـا إلى عنقهـا في محاولـة لكتمـان الضحـكات).. هـا؟ أكمـلي.. بـدلًا مـن أهـين الأغنيـة بذلـك الصـوت أكـثر مـن ذلـك..

همسـت في غنـاء خجـول، وتصاعـدت نبرتهـا في تحـرر تدريجـي مـع تدفـق الكلمـات وبـدأت في التجـلّي وكذلـك أنـا، حـتى أجبرتـني قشـعريرة أصابـت جسـدي عـلى إغـلاق عيـني في اسـتمتاع بتلـك الأغنيـة العذبـة، حـتى وصلـت إلى عبـارة فتحـت عليهـا عيـني في بـطء باسـم..

«يا خوفي.. والهوى نظرة.. تيجي.. وتروح بالمرة..».

كانـت «الهـاء» في كلمـة «الهـوى» تخـرج منهـا بتنهيـدة أشـبه بصـلاة خاشـعة تطلـب فيهـا ضمّـا لـروح فارقتهـا، فراقبتهـا مشـدوهًا بذلـك الإحسـاس الفطـري الـذي شـب بأصابـع جريئـة فـوق أسـوار البـاكاوات والخـدم، فلمحـت بطـرف عينيهـا تعلـق عنقـي بوجههـا وتحركاتهـا المائلـة مـع منعطفـات اللحـن الـذي تشـدو بـه، فأسـكتها الخجـل بعـد أن أفسـد بضعـة حـروف مـن نهايـة الأغنيـة..

هربت ببصرها إلى أنحاء الغرفة فابتسمت: لديكِ صوت جميل يا عائشة..

أومأت سريعًا بطريقة متكررة في ذل: تِسلم يا سيدي..

اعتدلـت ورسـمت برجـليّ زاويـة قائمـة وقـد أقمـت إحداهـا وفـردت الأخـرى أرضًـا مسـتندًا عـلى الحائـط خلفـي، وبـدأت مـا خططـت لـه مـن حيلـة: تذكّرينـي بامـرأة لـم أسـمع مثـل صوتهـا في حيـاتي.. أظـن أنـك كنـتِ تعرفينهـا.. الأمـيرة جُلنـار ط..

وقبـل أن أكمـل الاسـم الثـاني، لمحـت انتفاضـة خفيـة بيدهـا في فـزع مسـتتر، ودارت عيناهـا داخـل جفنيهـا في حـركات متوتـرة فأكملـت: هـل سـمعتِ غناءهـا؟

نهضـت لاسـتكمال عملهـا في تهـرّب واضـح: هـه؟.. لـ.. لا.. (ابتسـمت في توتـر وهـي تزيـل الأتربـة في عصبيـة القلـق) و.. وكيـف لمـن مثـلي أن تسـمع غنـاء الأمـيرات يـا سـيدي؟

أمسـكت بغليـوني مـن أعـلى سـطح المكتـب في صعوبـة وضبطـت التمبـاك داخلـه في صمـت أردت أن يزيـد مـن توترهـا: عـلى كلٍ.. كان صوتهـا جميـلًا كمحيّاهـا.. أعطـني عـود كبريـت..

أسرعـت إلى المكتـب تبحـث مسرعـة عـن أعـواد الكبريـت واتجهـت إليّ فنظـرت إليهـا منتظـرًا أن تشـعله لي، فمالـت بقامتهـا عـلى جلسـتي في توتـر أرقَـص شـعلة

النـار الصغـيرة، خرجـت الأدخنـة تعيـق اقـتراب وجهينـا فواجهتهـا: ربمـا لـم تسـمعي غنـاء الأمـيرات.. ولكـن بالقطـع.. سـمعتي غنـاء فاطمـة!

حدّقـت بوجهـي في صدمـة، وزحفـت شـعلة النـار حـتى التهمـت عـود الكبريـت الخشـبي فلدغـت يدهـا بحرقـة موجعـة أطلقـت لهـا شـهقة عاليـة. انتفضـت مبتعـدة وهـي تُلقـي بالعـود الأسـود أرضًـا وعـادت إلى عملهـا في صمـت متوتـر.. بينمـا أكملـت في هـدوء مسـتفز لـم يتصاعـد عـلى الإطـلاق..

- لا داعي للكذب يا عائشة.. فجلنار أخبرتني بكل شيء..

- و.. ومالي وما أخبرتك به يا سيدي.. اا.. أنا لا أعرف شيئًا..

- بل تعرفين.. متى قابلتِ فاطمة تحديدًا؟

- سيدي ااا..

- الخادمة تطيع.. والجارية تُجبر يا عائشة.. أيهما تفضلين؟

توقفـت عـن العمـل في تنهيـدة متقطعـة، واهـتز جسـدها لبـوادر بـكاء حاولـت كتمانـه حـتى عقـدت يديهـا عـلى رأس المقشـة وأسـندت جبهتهـا عليهمـا، وعندهـا أطلقـت العنـان لبكائهـا. نهضـت إليهـا محـاولًا الحفـاظ عـلى هـدوئي، بينمـا كانـت ضربـات قلـبي تتصـارع للخـروج مـن فـرط الحمـاس لمـا ظننـت أنـه أول الخيـط..

ربت على أعلى ذراعيها في لطف: لا تقلقي.. لن يعرف أحد أنكِ...

ارتمـت في أحضـاني في بـكاء الأطفـال فانتفضـت مـن المفاجـأة ولكـني حافظـت عـلى هـدوئي: يـا.. يـا مُـرّك يـا عائشـة!

- تحدثي..

رفعـت عينهـا معتدلـة وهـي تمسـح بمنديـل رأسـها مـا لطـخ شـفتيها مـن مخـاط البـكاء: كانـت صدفـة.. رأ.. كنـت عنـد الخالـة.. محبوبـة و... و..

أكملـت لهـا في مواسـاة عـلى البـكاء: تلـك الخالـة الـتي جـاءت لـ «ليـلى هانـم» بالـزاد الريفـي؟

أومـأت باكيـة: نعـم.. كـ. كانـت.. قـ. قضـت معهـا الأمـيرة.. أسـب.. أسـبوعين.. و.. لـم أظـن أن.. أقسـم لـك يـا باشـا.. أن ليـلى هانـم هـي مـن أجبرتـني عـلى..

سـقط قنـاع الهـدوء الـذي حاولـت إلصاقـه بوجهـي طـوال اسـتجوابها، بـل عقـدت حاجـبي في حـيرة لذلـك الأمـر الجديـد: مـا الـذي أجبرتـك عليـه ليـلى؟

لاحظـت جهـلي فابتعـدت خطـوة وهـي تمسـح دموعهـا في ريبـة: إذًا أنـت لا تعـرف!

ضرب الدم وجهي بقبضة مؤلمة فتسرب الغضب: تحدثي يا عائشة!

ابتعـدت عـني في لهفـة، فأحاطـني غضـب الفضـول بهالـة غـير مرئيـة مـن السـخونة، فتحـررت منهـا باندفـاع غشـيم تجـاه عائشـة، فألصقهـا اندفاعـي بالمكتبـة وقـد ارتطمـت بهـا وتناثـرت عـدة كتـب مـن عليهـا أرضًـا وأمسـكت بكتفيهـا صائحًـا: مـا الـذي فعلتـه ليـلى بجُلنـار تحـدثي!

صرخت في بكاء: لا أعرف شيئا! ستقتلني إن أخبرتك! ابتعد!

التصقـت بجسـدها بعـين جاحظـة وشر لـم آلفـه قـط: بـل سـأقتلك إن لـم تفعـلي!

حاولـت الهـرب، فمنعتهـا بجسـدي وقـد ألصقـت خـصري بخصرهـا ورفعـت ذراعيهـا فـوق رأسـها بقبضـة قيـدت تعاقـد رسـغيها فصرخـت: ابتعـد عـني!

«عزيز!»..

أصابـني النـداء بطلقـة اسـتقرت بمؤخـرة رأسي، كان نطقًـا غليظًـا لصـوت حـاد أصابـني بالشـلل للحظـات فخـارت قبضـتي مـن عـلى رسـغيْ عائشـة، فشـهقت وضربـت فمهـا في صدمـة وهربـت عابـرة جسـدي، بينمـا وقفـت أنـا كتمثـال حجـري اعتـاد أن يكـون بشريًـا لـولا أن لعنـه النـداء وحوّلـه إلى حجـر!

اقتربـت ليـلى مـن وقفـتي بأنفاس سـاخنة أحرقت بهـا رأسي، فتنهدت واسـتدرت في مواجهـة إليهـا، وعندهـا رأيـت نظرتهـا الغاضبـة أسـفل سـتار قبعتهـا الشـبكية الفاخـرة: ترفـض جسـد الأمـيرات.. وتشـتهي عجائـن الخادمـة؟

عـبرت وقفتهـا في لامبـالاة: توقفـي يـا ليـلى.. لـم تكـوني قـط مـن الأمـيرات لأرفـض جسـدك.. فلتنضجـي قليـلًا.. لـم يكـن الأمـر كمـا تظنـين..

جلسـت عـلى المقعـد الملتـوي، وأشـعلت التمبـاك لغليـوني فأقبلَـت: لمـاذا تفعـل بي ذلـك.. وجرمـي الوحيـد هـو حـبي لـ...

قاطعتهـا في ملـل وعـين مغتربـة وأنـا أضرب الهـواء بعـود الكبريـت لإطفائـه: عـودي إلى القـصر.. ولنؤجـل عراكنـا لوقـت أتمكـن فيـه مـن اصطنـاع الخضـوع أمامـك درءًا للمصائـب!

أومـأت بعنقهـا في رفـض غاضـب وصـوت هامـس: كلا! أنـت ملـكي.. ولـو أردت أن نتعـارك الآن.. فسـنتعارك الآن..

ابتسمت في ضيق وهمست بما سمعَتَه: مختلة!

بسـطت حاجبيهـا في دهشـة: مختلـة؟! عزيـز! (نظـرت لهـا في لامبـالاة).. أريـدك أن تعلـم أنـك كنـت الوحيـد في المحروسـة كلهـا.. مـن جنّبتـه لقـاء ليـلى هانـم الحـداد عـلى حقيقتهـا.. أترفـق بـك.. بـل وأخضـع إليـك.. ولا تعلـم حقًّـا مقـدار المجهـود الـذي أبذلـه لـكي أحـني رقبـتي أمـام تافـه مثلـك.. فقـط لأني كنـت أحبـك..

أصابتـني نشـوة التمـرد، فرفعـت رجـليّ عـلى المكتـب وعقدتهمـا في ارتيـاح حـتى واجهـت قدمـي العاريـة وجههـا وأنـا أسـحب أنفـاس الغليـون في استمتاع: كنـتُ.. وكنـتِ؟ بـدأت أعتـاد عـلى صيغـة المـاضي في حديثـك..

- ضيّعت الحاضر بحماقتك!

- على العكس.. بل تلك الصيغة تضمن لي مستقبلًا عظيمًا..

- ألهذه الدرجة ترغب في التخلص مني؟!

- لهذه الدرجة لم أعد أرغب في أي شيء منك.. لا بقائك ولا رحيلك!

كنـت أعـني حديـثي وأشـعر بالفخـر أني تمكنـت مـن مواجهتهـا بتلـك الكلمـات القاسـية، ولكـن.. لـم أفهـم لمـاذا شـعرت بالنـدم وقـد رأيـت وجههـا والزرقـة تسـلب منـه الحيـاة، حـتى انتفـخ جفناهـا لدمعـة اسـتعصى عـلى ليـلى هانـم الحـداد إسـقاطها، فتبـدل عزيـز الـزوج القـاسي إلى عزيـز الطبيـب المرهـف الـذي شـعر بهـوة عاطفيـة محزنـة تتمـدد بقلـب جليسـته..

تنهدت في ندم بسيط ووضعت الغليون على المكتب: ليلى ااا...

قاطعتـني في ضحكـة عاليـة تعجبـت لهـا: كلا كلا! لا تعتـذر.. إنهـا مشـاعرك.. وحياتـك.. بـل وزوجتـك.. ومـن حقـك أن تفعـل بهـم جميعًـا مـا تشـاء..

أخفضت نبرتي في اعتذار لما وجدته منها من بوادر جنون وشيك: ليلى ليس الأمر كما تظنين و...

قاطعتني وهي تخلع قبعتها في قوة: وأنا أيضًا! لي الحق في الإفصاح عن مشاعري.. والمضي قدمًا بحياتي.. والتمتع بزوجي أينما شئت!

اعتدلت في ريبة وأنا أراقبها، حيث ألقت بقبعتها، وفتحت أزرار سترتها الفاخرة في سرعة وخلعتها في لهفة: أنا أريدك الآن..

انتفضت مانعًا إياها: ليلى!

حلّت كبسولة تنورتها القصيرة وأسقطتها وارتمت عليّ: لست أقل من الخادمة! هيا! فلنفعلها!

طحنت جسدها بجسدي وهي تخلع ملابسها فالتصقت بالحائط وصرخْت: توقفي عن ذلك الجنون!

مزقت قميصها في عنف فبرز نهدها: أنا آمرك!

ارتمت عليّ فلم أشعر إلا وصفعتها بقوة: ملعون هو أمرك!

أصابتها نشوة مريضة فضحكت وزادت من ضربات جسدها بجسدي: أجل أجل! أنا أحبك!

- ليلى لقد فاض الكيل!

- فلتفرغه إذًا!

- اغربي عن وجهي!

- أنت زوجي!

- ولكني لست عبدك!

- يتمنى غيرك أن ينال ذلك الشرف!

ومدت يدها إلى بنطالي في شهوة مستعرة، فأطبقت في غلظة على عنقها وألصقتها بالحائط في غضب وقوة، فابتسمت وهي تلهث في إرهاق واستمتاع بضعفها تحت قبضتي وجسدها ملتصق بالحائط، وتمايلت في شهوة موحية وهي تموء كالمخمورة المنحرفة بخصيلات شعرها المتعرقة على جبهتها،

فصرعتهـا: ولا شرف لي طالمـا كنـت زوجـك!

مسـحت وجنتهـا بقبضـتي أسـفل عنقهـا في نشـوة مريضـة كقـط يرجـو لمسـات سـيده: فلتكـن عشـيقي إذًا.. هـذا أفضـل! المـرأة لا تجـد المتعـة إلا مـع مـن يجامعهـا سرًا!

انتابتـني صحـوة غـيرة رجوليـة وقـد شـككت في سـلوكها: وكيـف لـك أن تعـرفي عـن ذلـك؟!

أطلقـت ضحكـة العاهـرات وقبضـتي تهـتز بعنقهـا: كل النسـاء تعـرف ذلـك.. فلــ. فلتسـأل.. (تنفسـت في نشـوة غـل) فلتسـأل حـتى والدتـك!

عـدت تمثـالًا حجريًـا مـرة أخـرى مـن إهانتهـا لذكـرى والـدتي، بينمـا ارتعشـت شـفتاها لابتسـامة تشـفٍّ مريضـة والعـرق يغـرق وجههـا وأكملـت: ألـم تجامـع رؤوف أفنـدي سرًا؟ أم ظننـت أن أخـاك الراحـل كان مـن صلـب قاسـم باشـا فريـد؟! فلتتمتـع يـا عمـري كمـا تمتعـت والدتـك!

بـدا عليهـا انتظـار ثـورتي فأطيـح بوجههـا بضربـات تغـذّي شـهوتها، إلا أن ذلـك لـم يحـدث، حيـث غـاب الغضـب وحلـت الحـسرة بمكانـه، وأرخيـت قبضـتي عـن عنقهـا وأنـا أقلـب عيـني بعينيهـا غـير مصـدق لمـا قالـت، ليـس فقـط لتجرئهـا عـلى ذكـرى أمـي، بـل لهوسـها المـرضي الـذي سـيطر عـلى كامـل جوارحهـا، فتحولـت أمـام ناظـري إلى امـرأة مسـكينة غلـب الجنـون عـلى عقلهـا..

ابتعـدت خطـوة في وجـل، بينمـا تجهمـت في خـوف مـن ردة فعـلي الغامضـة، وعندهـا فعلـت مـا لـم تظـن أنـه مـن الممكـن أن يحـدث لأمـيرة مدعيـة مثلهـا في يـوم مـن الأيـام..

راقبتهـا وهـي تقـف أمامـي نصـف عاريـة، ووجههـا يلمـع بطبقـة مـن العـرق، ونظراتهـا تجـول حـولي في عبوديـة طلبًـا لشـهوة امتنعـت عنهـا. اجتمعـت أركان الـذل.. ولـم ينقصهـا إلا كلمـة واحـدة تأخـرت كثـيرًا..

«كان الأمر منطقيًا منذ البداية! ليلى.. أنتِ طالق! أقسم لك أنكِ طالق!»..

***

بنسيون التفاحة..

كان المكان الذي اضطر عم سالم إلى توفيره لإقامتي، بعد أن رفضت العودة إلى قصر قاسم باشا، وأعلن كامل باشا الحداد رغمًا عنه موافقته على لعنات ابنته ليلى لمروري أمام قصرها، حتى وإن أردت أن أجمع ثيابي، وتطور الأمر إلى منعي ضمنيًا من الاقتراب من أعتاب مكتبي!

علمت بالزيارات المتكررة لكامل باشا إلى ذلك البنسيون البسيط الذي لا يناسب هيئته طمعًا في مقابلتي، وكذلك محاولات رمزي بك سكرتير والدي للاطمئنان له على مجريات أيامي، وقد منعه الخصام القديم من الاطمئنان بنفسه، ولكن كان العزوف عن العالم داخل تلك الغرفة الضيقة هو المطلب الذي لم أرغب فيه من قبل، ولكني اكتشفت رغبتي الملحة تجاهه، فهذا ما كان ينقصني حقًا حتى وإن لم أفهم ذلك قبل الليلة.

بضعة جنيهات اعتبرها «عوّاد» موظف الاستقبال ثروة لا تضاهي طلبي له بألا يُزعجني أحد، كانت كل ما يحتاجه الأمر، فتحررت بانعزالي داخل أربعة جدران ضيقة، بعدما كنت سجينًا في براح كبير من المشتهيات الزائفة لنفسي المنسحقة، كنت أعيش كذبة انطلت عليّ قبل أن يصدقها الآخرون. عزيز بك قاسم.. الحكيم الشاب.. ذو الخُلُق الرفيعة.. والنسب العَطِر.. والزوجة النافذة.. والمستقبل المشرق.

كانت كذبة بالية تشبه الملاءة المهترئة -لذلك الفراش الصدئ- بفتحات قذرة تفرقت على جوانبها. تقلبت على طرفيه في أرق طوال الليلتين اللتين غبت خلالهما عن العالم الذي اعتدت على تناقضاته واعتاد هو على إذلالي، ولم يكن الأرق لخوف من المستقبل بعد قراري الغليظ بتطليقي لأكثر نساء الأرض شرًا في القرن الحالي، وإنما كان شرودًا ساكنًا في أحداث حكاية أكثر نساء المحروسة غموضًا هذه الأيام.. جلنار!

رفضت صينية الإفطار المتسخة التي ساقها عوّاد إلى غرفتي ككل صباح، وأعطيته بقشيشًا رغم ذلك، ظن في أول الأمر أن كرمي غير المبرر لا يعبر إلا

عـن سـذاجة «بـكِ» أجبرتـه الدنيـا عـلى مداهنـة الصعاليـك خوفًـا مـن بطشـهم الطبقـي بمـن مثلـه، ولكنـه لـم يـدرِ أن السـبب الحقيقـي كان الحصـول عـلى لعابـه اللاهـث خلـف المـال لاسـتخدامه في رحلـتي..

دخـل في حيـاء وهـو يضبـط طاقيتـه المشركـزة بكلتـا يديـه عـلى مـا تبقـى مـن شـعره، أشرت بطلـب هـادئ أن يجلـس عـلى الكـرسي الخشـبي القديـم بمنتصـف الغرفـة، فرفـع يمنـاه في تحيـة مبالغـة وانحـنى أمامـي مبتسـمًا، وتقـدم في خطوات متعرجـة مـن مجلسـه وهـو يمسـح كفيـه بمؤخرتـه ذات البنطـال مقطّـع الجيـوب.

جلس وأخرج من جيب قميصه سيجارة: عفّر معالي البِك..

جلست أمامه في ترفع لم أقصده: أشكرك..

أجلسها على أذنه باسمًا فمازحته: ولكن.. لا ضير في أن «تعفّر» أنت..

أجابـني في مداهنـة غـير مسـببة كعـادة البسـطاء ممـن اعتـادوا عـلى النفـاق حـتى وإن لـم يعلمـوا مـبررًا لـه: حفظًـا لمقـام جنابـك.. لا أجـرؤ عـلى التدخـين طالمـا لـم تفعـل..

تجـاوزت تلـك الإرهاصـات الاجتماعيـة: أخـبرني إذًا يـا عـواد.. مـا حجـم علاقاتك داخـل الأحياء الشـعبية؟

فـرج فـاه لابتسـامة ثقـة اشـمئزت لهـا وقـد بـرزت أسـنانه السـوداء: محسـوب جنابـك يـا جنـاب البِـك.. قـرد أحـل أولاد الحـرام سلسـلته.. المحروسـة بأكملهـا داخـل كـف العبـد للـه.. منـذ أن جئـت إليهـا مـن شـبين.. وأنـا أمتطـي طرقاتهـا ليـل نهـار.. حـتى بـات كل مـن فيهـا إخـوتى.. ولـم تسـلم عتبـة رزق أو مصطبـة عيـش لأحـد فيهـا.. إلا وحيّنتهـا بضربـة مـن حـذائى.. (رفـع حـذاءه فجـأة) لا يغـلى عـلى جنابـك.. مسـتورد.. سرقنـاه مـن متـاع مديـر مكتـب سـيادة الكونصـول (القنصـل) شـخصيًا..

عـبر عـلى ضفّـتي وجهـي شـبح ابتسـامة اختلـط سـببها بـين السـخرية مـن قولـه والاسـتمتاع ببسـاطته: حسـنًا.. مـاذا لـو أعطيتـك اسـم امـرأة وطلبـت منـك أن تتحـرى لي عنهـا.. هـل تفعـل؟

امتعـض في ضيـق بالَـغ في اصطناعـه: أجـل جنابـك ولكـن.. العسـس وراء الولايـا

يجلب الفقر.. يستر الله على ولايانا وولاياك..

تحجرت نظراتي إليه واقتربت من جلسته وسحبت علبة السجائر من جيب قميصه وأجلست مكانها بضعة جنيهات، راقبني في تردد وحيرة من فعلتي، فأخرجت سيجارة رخيصة ووضعتها في فمي: لو كان الفقر هو المشكلة.. دعني أتكفل بذلك..

أخرج النقود من جيبه وعدها، فجحظت عينه وسال لعابه كما توقعت، وأسقط سيجارة أذنه سريعًا ومال ملهوفًا وأشعل لي سيجارتي: أما والله لقد ظلمتك.. لقد ظننت أنك بِك متعالٍ (أشعل سيجارته هو الآخر).. ولكن يبدو أنك ابن بلد..

نطقت دون مقدمات ودخان سيجارته العفنة يحرق صدري: الخالة محبوبة!

ضرب سطح الكرسي بكفه بين فخذيه وجذبه للأمام مسرعًا حتى التصق بجلستي في تركيز: من أي بيت؟

- لا أعرف.. ولذلك لجأت إليك.. كم عجوز تدعى محبوبة تعرف بالمحروسة..

- العلم عند الله.. ربما المئات.. ولكن.. إن استطعت أن تميزها بـ.. بأي شيء.. صنعة.. شهرة.. شخص..

اعتدلت في خيبة أمل، فأكمل مسرعًا في خوف من استغنائي عن خدماته: و.. ولكن لا تقلق.. سأعثر لك عليها.. فقط كنت أسأل لتسهيل الأمر والإسراع به.. اطمئن سأعثر لك على كل محبوبة أوجدها الله فوق أرض المحروسة.. وربما تحتها..

قاطعته وقد تذكرت شيئًا ما: لها قريبة تدعى عائشة الفناجيلي.. خادمة بقصر كامل باشا الحداد.. هل يسهّل ذلك الأمر عليك؟!

ابتسم في شيطانية وكأني أكملت له ما كان ينقصه، وأشار بإصبعه إلى عينيه بالتوالي: الآن وقد قلتها.. قبل أن تغرب الشمس.. سآتيك بها حبوًا!

غادر مسرعًا في حماس اللصوص، بينما قضيت النهار بأكمله أدخن سيجارة تلو الأخرى من تلك العلبة الرخيصة التي نسيها عواد، ولم أهتم

بإعادتها إليه وقد ظننت أني دفعت حقها أضعافًا مضاعفة، شعرت في أول الأمر بالاشمئزاز من أدخنتها كريهة الرائحة، ولكن مع مرور الساعات وتبدل الشمس بلوحة القمر خارج نافذة غرفتي.. كنت قد اعتدت عليها.. وتحولت إلى ضرورة أضبط بها أنفاسي..

كان الأمر شبيهًا بكل شيء، تشعر بالرفض في أول الأمر تجاه أي متغير يعصف بحياتك الآمنة، ولكن.. ما إن تعتاد على المأساة حتى تصبح جزءًا منك وقد ظننت أنك لم تولد بدونها..

هكذا رأيتها الدنيا وقد اتضحت الرؤيا حقًا.. علبة سجائر رخيصة.. لا طاقة لك بأول قبلة منها، ولكن لا تلبث أن تتعلق بأطراف ثوبها.. شهوةً في فتنتها الزائفة..

لم تفهم أمي تلك الحقيقة ولا لوم عليها، فقد أدركتها أنا أيضًا متأخرًا. أذكر تمامًا كما البارحة كيف كانت تتجاهل نصائح والدي لها برفع جسدي الصغير عن فخذيها في جلساتنا العصرية أمام النافذة. «لقد أصبح رجلًا على ذلك». كانت تتجاهله وتعبث بخصيلات شعري الناعمة دون أن تجيبه، وكأنها لا تريد أن تعترف بمرور الزمن، ولا بتحولي من طفل رضيع يتعلق بعنقها، إلى صبي طالت قدماه الأرض بجلوسه على خصرها، أو هكذا ظننت.

ظلت جلساتنا بالقرب من النافذة على عهدٍ يومي لم يخلفه أي منا ولو سرًا، فقط نجلس دون حديث، تعبث بخصيلات شعري، وأستدير بإصبعي في دوائر لانهائية على كفها المنبسط على صدري، حتى إذا غابت الشمس، انطلقنا إلى الغرفة العلوية، أراقبها وهي ترسم لوحتها الجديدة على أنغام اسطوانة نقية لفنان كان شابًا حينها، وأيضًا دون حديث، فقط نستمع إلى صوت «محمد عبدالوهاب» الذي يغلف الأجواء..

همست إليّ في مرة وهي تخلط الألوان بحاملها الخشبي: أخبرني يا عزيز.. وقد كبرت الآن وصرت رجلًا كما قال أبوك.. ما الذي يُسعدك؟ ما هو أكثر ما يدخل السرور إلى قلبك؟

كان سؤالًا غريبًا لم أفهمه في وقتها، بل أجبتها دون تفكير وأنا أنظر إليها

مبتسـمًا: النظـر إليـكِ يـا أمـي..

ابتسـمت في خجـل وهـي تـضرب بفرشـتها عـلى وجـه تلـك المـرأة الـتي تصـوغ جمالهـا: يومـا مـا.. سـتكبر.. ويصبـح النظـر إلى امـرأة غـيري أكـثر إسـعادًا لـك..

كنت ساذجًا: وهل سيكون لي أم غيرك عندما أكبر؟

أطلقـت ضحكـة عاليـة أضـاءت الغرفـة وأسـكتت صـوت عبدالوهـاب احترامًـا لهـا، ومسـحت بيدهـا الملطخـة بالألـوان جبهـتي: يـا حبيـبي.. وهـل يجـب أن تحـب أمـك فقـط؟.. سـوف تقابـل ااا...

قاطعتهـا مؤكـدًا: أحبـك أنـتِ فقـط! ولـو كانـت عمـتي اعتمـاد هانـم مثـلًا هـي أمـي.. لمـا أحببتهـا.. أنـا أحبـك أنـتِ!

نظـرت إليّ في ابتسـامة هادئـة وبرقـت عينهـا بدمعـة محبوسـة وحدثـت نفسـها بمـا ظنـت أني لـم أسـمعه: اااه.. ضـاق بالحـب صـدر أمـك يـا ولـدي.

لـم أفهـم عبارتهـا في وقتهـا، وانتبهـت هـي إلى مـا قالـت في حينـه فاعتدلـت باسـمة: هــ.. هـل لعبـت اليـوم مـع صالـح؟

امتعضـت في خـزي: لـم يوافـق أبي عـلى ذلـك.. أخـبرني أنـه مريـض اليـوم أيضًـا.. وأن عـليّ أن أبتعـد عـن طريقـه..

زفـرت في حـزن ثـم التفتـت إليّ في تصميـم: لا تطعـه يـا عزيـز.. إنـه أخـوك.. ولا تسـمح لأحـدٍ حـتى وإن كان أبـاك أن يفرّق بينكمـا..

أومـأت لهـا في بلاهـة موافقًـا دون أن ألقـي بـالًا لمـا تقصـد، بينمـا ارتعشـت يدهـا في توتـر منعهـا مـن اسـتكمال الرسـم، وعندهـا أنهـت جلسـتنا سريعًـا، ورحلـت إلى مفتـاح الإضـاءة تغلقـه دون تـردد وكأنهـا تطلـب مـني صمتًـا أن أذهـب إلى النـوم..

فعلـت، وكالعـادة.. اسـتمعت إلى بعـض مـن عراكهـا وأبي، وفى تلـك السـن الصغـيرة، لـم يكـن مـا يقـولان ويتسـرب إلى أذني مـن ثنيـات الجـدار الـذي يفصـل بـين غرفـتي وغرفتهمـا سـوى حديـث يمنعـني عـن النـوم فقـط، ولكـن.. في هـذه الليلـة كان صـوت أمـي أكـثر بؤسًـا مـن ذي قبـل، حـين صاحـت بـه بنـبرة اتهـام لـم أفهـم معناهـا:

«إنه ابنك! كيف تقول مثل هذا؟».. فأجابها في صوت مخيف أجبرني على الاختباء أسفل غطاء الفراش.. «ثلاثة أيام ونكتشف الحقيقة.. وعندها.. لن يعتب عليّ أحد»..

ثلاثة أيام وينتهي كل شيء.. هكذا رددت قبل أن يغيب صوتها بين ظلام غرفتها للنوم، وهكذا مرت الأيام الثلاثة، كدهر انتهى وعاد إلى بدايته ثلاث مرات قبل أن يعلن النهاية. نهاية كل شيء، غرفة الرسم وصوت عبدالوهاب، ولوحتها الزيتية غير المكتملة، حتى جلساتنا العصرية، وأصابعها وهي تتخلل خصيلات شعري، وكفها المنبسط لإصبعي الصغير الذي يدور بين منحنياته الناعمة.

حتى جاء اليوم وانتفضت في الصباح على صرختها! أفزعتني كما أفزعني طرق عواد المتكرر على باب الغرفة المقفرة!

اعتدلت في غيبوبة، ولم يساعد ضوء الشمس الذي غزا الغرفة على ارتحالي من عالم الأحلام والذكرى إلى عالم الواقع ومفرداته، قاسية هي أحلام المساء عندما ترفض أن تكون مجرد أضغاث غير مترابطة، وتستلهم من الذكريات ما يعيدنا إليها.. وكأنها جسر اضطراري يجبرنا على العودة إلى أفظع ما هربنا منه.

فتحت الباب دون أن أهتم بهندمة ملابسي، فاحمر وجه عواد خجلًا وقد علم مقدار الإزعاج الذي سببه، بينما تركته وعدت إلى طاولة منتصف الغرفة أضرب بأصابع مترنحة على علبة السجائر الرخيصة طمعًا في سيجارة أخرى أكمل بها عشائي بإفطار مدخن!

كانت العلبة الورقية فارغة، فظهرت سيجارة أمام عيني من العدم، كان إصبع عواد يعرضها عليّ في ابتسامة، أخذتها وأنا أجلس في إرهاق ولازال النوم غالبًا على تحركاتي البسيطة..

أشعلتها كالمخمور وأنا أفرك عيني بباطن كفي: ظننت أنك لن تعود..

جلس أمامي في حماس: ولماذا في ظنك سمّيت بعواد؟ لأنني دائمًا أعود!

ابتسمت في سخرية من بلاغته التافهة وأغلقت عيني رغمًا عني وكأن نعاس

الذكرى أصر على مطاردتي، حتى شعرت بأنفاس عواد وهي تُدفئ أذني باقترابه الشيطاني منها، وعندها بدأ وسوسته التي فرجت جفنيّ الملتهبة في قوة: الخالة محبوبة في انتظارك!

سقطت عدة ساعات من ذاكرتي، فلا أذكر كيف تركت الغرفة ومتى غيّرت ملابسي، ومتى وصلت إلى رأس الحارة التي وصفها لي عوّاد، وعاد الوعي وأنا أطرق عتبات الطريق في خطوات جاهلة أبحث بها عن البيت البسيط الذي يحمل بين جدرانه أحد خيوط السر الكبير لجلنار طوسون.

عبرت عدة دكاكين بسيطة تفرقت على جانبي الحارة رغم ضيقها، لمحت بطرف عيني نظرات التعجب من أصحاب تلك الدكاكين من مرور بِك راقٍ مثلي مخترقًا هواءهم الشعبي البسيط، فمنهم من اعتدل احترامًا وقد جذب مقعده إلى الوراء مفسحًا لي المجال، ومنهم من أصر على أن يسحب نفسًا قويًا من شيشته المغلفة برباط من القطيفة الحمراء ليطلقه في وجهي، بينما انهمك الآخرون في متابعة زبائنهم من النساء والرجال، واختفى جسدي مع استمرار السير بين لوحات مختلفة من الملايات اللف السوداء، والطرابيش الحمراء المائلة.

حتى وصلت إلى دكان «النديم»، أخبرني عواد أن الخالة تسكن في البيت المواجه له، فتقدمت في رقي البكوات إلى صاحبه الذي احترف بيع العطارة للنساء بيده اليسرى فقط، بينما تواظب يده اليمنى على فتل شاربه الضخم في تكرار مَرَضي كل عدة ثوانٍ.

عبرت امرأة مدفونة داخل ملاية لف سوداء في أدب بالغ: اسمحي لي يا هانم..

رمقتني المرأة بنظرة تعجب، بينما ضحكت صديقتها ضحكة عالية: والله وأصبحتِ هانم يا «بنت الحفافة»..

أسكتهم الشارب الضخم بنبرة غليظة: تحشّمي يا امرأة، واغربا عن وجهي.. تفضل يا أفندي..

أشرت له مصححًا في خجل: بِك.. أنا قاسم بِك.. وأريد أن...

سحب كرسيًّا خشبيًّا بدا كريشة بين أصابعه الغليظة وضرب به الأرض تحت قدمي في غضب: بِك.. أفندى.. باشا.. حتى ولو كنت ولي النعم ذاته.. كلنا أولاد تسعة.. تفضل! شاي؟!

امتعضت من نبرته فرفضت الجلوس في أدب: أشكرك.. فقط أسأل عن الخالة محبوبة!

سحب الكرسي بعيدًا في غضب: لعنها الله.. ارحل يا أفندي قبل أن ينالك مني ما نالها قبلًا.. ارحل!

وفتل شاربه في عصبية وهو يعود إلى النصبة مرة أخرى، فتراجعت خروجًا من الدكّان خوفًا من بطشه القادم إن لمح استمرار وقفتي. وما أن خرجت حتى تبعتني صاحبة الضحكة العالية، وهي تغطي رأسها بطرف الملاية اللف الذي سقط: أتريد الخالة محبوبة يا جناب البك؟

أومأت لها بالموافقة، فمطت «بنت الحفافة» شفتيها في ضيق: كبدي عليها.. لقد طردوها من بيتها بعدما انفضح أمر تلك الفتاة الساقطة.. وهي تسكن الآن بالطرقات..

- الطرقات؟

- سمحت لها الأبلة «ريفال» زوجة الخواجة «روني» أن تبيت أمام البار.. تعال معي.. سأسوقك إليها..

جذبت يدي كالطفل الصغير، بينما فرّقت صديقتها السير أمامنا صائحة «افسح يا ولد.. افسحي يا امرأة.. سكة لجناب البِك!»..

تحركنا لعدة دقائق، حتى وصلنا إلى البار المذكور، كان يبدو قديمًا بيافطته المائلة التي تحطمت بها عدة مصابيح صغيرة من مصابيحها الحمراء. سألت في بلاهة عن مكان الخالة والأبواب الزجاجية للبار مغلقة، فصاحت إحدى صاحبتيّ الجديدتين بصوت عال لم أفهم مصدره من بين حنجرتها «يا بركة!»..

ومن العدم، ارتفعت ملاءة ضخمة كانت تغطي جزءًا من حائط أهملته بنظراتي، وخرجت من ورائها تلك «البركة».. فاهتزت الأرض تحت قدمي.

كانت جلبابًا ملونًا يتحرك على الأرض، اختبأ جسدها الرفيع خلف قماشته الواسعة، بينما شمّرت إحدى ذراعيها دون الأخرى، فظهر ساعدها البض الثلجي، رفعت عيني وقد تجاوزت نهديها البارزين خارج جلبابها أدبًا، واصطدمت بملامح وجهها العجيب. كانت بيضاء كثمرة قُطِفت قبل ميعادها، بعينين زرقاوين مستديرين ظللهما طابور محكم التنظيم من أهداب سوداء طويلة، بينما برز أنفها الصغير من منتصف وجهها كنبتة دقيقة نُحتت بانحناءة هادئة للأمام. ولم تسلم شفتاها من إصبع النحات الماهر، فارتسمت شفتها العلوية بخط مستقيم قرمزي لا يشوبه إعوجاج، واختبأت شفتها السفلية بتجويف صغير داخل فمها.. وكأنها تتنازل لذقنها عما تبقى من الوجه الصغير ليُكمل استدارته الناعمة.

وختمت سيمفونيتها الجمالية، بمنديل أخضر اللون أحاطت به رأسها لتُخفي خصلات شعرها الأسود، ولكنه تهدج من بين أطراف المنديل الصغير، فرسم بانحناءاته قوسين مرهفين حول وجهها.

بدت كقمر شديد البياض بين أجنحة ليل كحيل السواد.

كانت الملاءة الضخمة التي تغطي الجدار أشبه بخيمة مثبتة الدعائم خارج أعتاب البار، فهمت منذ رأيتها أنها أصبحت بيت محبوبة بعد طردها السابق. أخرجت بركة دون مقدمات سبتًا من الخضروات ووضعته خارج الخيمة، وجذبت قفصًا خشبيًا مقلوبًا ووضعته خلفها وجلست عليه وهي تحدث مرافقتي..

«خيرًا يا أم نعيم».

قالتها وهي تُسدل الخيمة على ما بداخلها مرة أخرى وكأنها تُغلق باب شقة صغيرة.

تقدمت أم نعيم وجذبتني بيدها: جناب البِك يسأل عن الخالة.. (ثم التفتت إليّ) ها هي بركة جنابك.. كابنتها تمامًا.. فلتخبرها ما تريد وتسمح لي بالانصراف.. فالغسيل لا زال على الحبل منذ الصباح.. وإن تركته أكثر من ذلك.. فسيغبره تراب الكارو.. غير أن رجلي أوشك على العودة إلى البيت ولم

أطبـخ بعـد و...

جذبتهـا بنـت الحفافـة في قـوة للرحيـل: ومالـه ومـال غسـيلك وطبيخـك يـا امـرأة.. تحـرّكي.. لُعِنـت النسـاء حقًـا.. مـا أن تعلقـت بطـرف حديـث.. مـا تركتـه إلا وهـو مربـوط حـول عنقهـا.. هيـا.. بـالإذن يـا جنـاب البـك..

رحلـت السـيدتان وهمـا تتشـاوران فيمـا طرحتـه بنـت الحفافـة مـن نظريـة تخـص التركيبـة السـيكولوجية للنسـاء، فتابعتهمـا بعيـني حـتى انتفضـت قدمـي عـلى بضـع قطـرات مـن الميـاه أصابتهـا. فعدلـت وجهـتي إلى بركـة، وعندهـا رأيتهـا مـرة أخـرى. كانـت تقبـض بكفهـا عـلى صفيحـة معدنيـة وتـضرب بـه الهـواء ليتنـاثـر رذاذه المـائي عـلى أسـطح خضرواتهـا..

لـم تنظـر إليّ، فقـط كانـت تنفـذ عملهـا في شرود حزيـن، وخـرج صوتهـا هادئًـا: تحـت أمـرك يـا جنـاب البِـك..

أصبـح خـروج الصـوت مـن بـين أوتـار حلقـي أشـبه بمعجـزة إلهيـة، فلـم أعـثر عـلى النـبرة الصحيحـة للتحـدث، فتنحنحـت مصلحًـا مـن صـوتي: ااا.. كــ.. كنـت أريـد مقابلـة الخالـة محبوبـة لأمـرٍ هـام..

رفعـت بصرهـا إليّ بنظـرة ملائكيـة ارتعشـت لهـا: أدام اللـه عليـك الصحـة جنابـك.. إنهـا ترقـد بالمـرض منـذ أسـابيع.. ولا تسـتيقظ إلا لتعـود بعـد لحظـات إلى النـوم..

أصابني الإحباط: حسنًا.. هــ.. هل من الممكن أن أنتظرها حتى تستيقظ؟

- أليس من الممكن أن تعود لاحقًا؟ فلا أعرف متى ستفعل..

- للأسف لن يصح أن أعود إلا بعد مقابلتها..

نهضت دون مقدمات في طاعة وانحناءة: تحت أمر جنابك..

وتحركـت إلى أحـد الدكاكـين تطلـب كرسـيًا، إلا أن صاحـب الـدكان نهرهـا في غضـب بالرحيـل، فتراجعـت في خـوف طفـولي منـه وهـي تعقـد كفيهـا حـول بطنهـا في انكسـار مضمومـة الأكتـاف، وعـادت إليّ تجـر أذيـال الخيبـة متجنبـة النظـر إليّ: لا تؤاخـذني يـا..

وقطعـت حديثهـا فجـأة وكأنهـا عرفـت الحـل. جذبـت القفـص الخشـبي سريعًـا

وأجلسته خلف وقفتي وخلعت منديلها الأخضر فسقطت أمواج الشعر الأسود على ظهرها الرفيع، وفردت المنديل أعلى القفص: ليس بمقامك ولكن.. فلتسترح حتى أوقظها..

جلست في بطء على مقعدي الجديد، بينما ابتلعتها الخيمة لثوان قضيتها في مراقبة الطريق من حولي، حتى أجبرتني نظرات السخط من أصحاب الدكاكين والمارة على النظر أرضًا مرة أخرى. وما أن اعتصرت النظرات جوانب رأسي، حتى خرجت بركة في خيبة مرة أخرى.

جلست أرضًا وفرجت ساقيها لـ«تربيعة» واسعة فظهر بياض رجليها، وألقت سريعًا طرف جلبابها على انعقاد قدميها فأخفت ثمرة الفردوس الأبيض مرة أخرى: فلننتظر دقائق حتى تستفيق.. فالحمى شديدة..

أجلست يدها أسفل وجنتها في حزن وهي تهمس: اكرمنا يارب.. يارب الولايا..

لم أتمكن من مقاومة التحدث إليها: هل تسكنين معها منذ فترة طويلة؟

تنهدت في أسى: بل من عدة شهور فقط.. آوتني بعد أن..

وتوقفت عن الحديث في خزي ثم قالت في تردد: بعد أن جار الزمن على الغلابة..

تجاوزت سؤالي المنطقي عما جرى لها احترامًا لما أرادت أن تخفيه وسألتها: إذًا التقيتِ بفاطمة؟

لمع جبينها بطبقة من عرق التوتر، وعبثت بحِزَم الخضروات في تهرّب: لـ.. لقد قابلت الكثير من الفاطمات.. أيهن تقصد؟

ملت عليها في مواجهة باسمة: من قضت مع الخالة أسبوعين..

تحجرت ملامحها لثوانٍ في توتر بالغ يصعب على البريئات من أمثالها إخفاؤه، فنهضت ضاحكة في توتر: يا مرّك يا بركة.. جلست أرضًا قبل أن أكنس..

وجذبت عدة أعواد من الخوص وأزاحت بها في قلق الأتربة من على الأرض في حركات متكررة وهي تحني ظهرها الرفيع، وعندها علمت أنها تعرف أكثر

من اللازم: لها اسم آخر.. جلنار طوسون.

دقت المفاجأة يدها أرضًا بمسمار وهمي، فتعطلت عن الحركة وأخفى شعرها الأسود وجهها المائل للأسفل، فنهضت واقتربت منها جلوسًا القرفصاء بطريقة لفتت انتباه المارة: يبدو أنك كنتِ تهتمين لأمرها.. فـ...

اعتدلت مسرعة واتجهت إلى سبت الخضروات تحمله للداخل: فلترحل وتعد غدًا.. فربما تتحسن حالة خالتي..

دفعت بالسبت إلى الداخل وقبل أن تسدل ستارة الخيمة رميت الحجر بالبِركة الراكدة: لقد قُتِلَت جُلنار يا بركة!

اهتزت ستارة الخيمة لثوان، ثم ارتفعت في بطء وقد ظهر من خلفها وجه بركة. كان أبيض أكثر من اللازم لشحوب ناسب حزنها من الخبر، وتقدمت مني في صدمة ونهر من الدمع يشق طريقه على وجنتها الناعمة: كـ.. كيف قلت؟

أومأت لها في موافقة آسفة، فخرت قدماها في لحظة وسقطت باكية، حتى بكاؤها كان صامتًا، فقط يهتز جسدها في أنفاس لاهثة، وكفاها الصغيران معقودان فوق صدرها في هدوء، وكأنها تظلل على قلبها من أمطار البؤس: أوجعتي قلبي يا ست الناس.. يا حِزني.. يا حزني على الولايا..

تخليت عن أمارات الباكوية وجلست أمامها أرضًا حتى تحول بنطالي إلى لون التراب الأبيض: أنا أبحث عن قاتلها.. ولن يساعدني في ذلك سوى أن تقصي عليّ أحداث الأسبوعين اللذين قضتهما بصحبتك.. هل ستهدين إليها ذلك المعروف في قبرها؟

لم تجب، بل ألقت برأسها على صدري في بكاء محموم وهي تغطي بكفيها وجهها الصغير. تناسيت الزمن لحظة وتفرقت الجدران من حولي في تباعد غير مفهوم، حتى بدا أني أجالسها ببقعة من صحراء خاوية إلا من نسمات هواء رطب، يعبث بخيوط شعرها ويلفح وجهي بسكينة غابت عني لفترة طويلة. اقشعر بدني لتلامس جسدينا حتى وإن كان التلامس بين وجه أبيض صغير وصدر عريض مغطى بطبقات الملابس. ودق قلبي لشعور لم

آلفـه قبـلًا، فرفعـت يـدي دون إرادة وأجلسـتها عـلى شـعرها في حنـان ومواسـاة.. وعندهـا نطقـت في همـس:

«سأخبرك بكل ما جرى وما كان»..

كنـت أعلـم أن كلماتهـا القادمـة سـتغير كل شيء.. ولـم أنتبـه لتجمهـر الرجـال حـولي في غضـب، وقـد احتضنـت فتاتهـم في وقاحـة فجـة بوسـط الحـارة الضيقة!

***

عـدت إلى مكتـبي محطـم العظـام وقـد فرغـت جيـوبي مـن جنيهـات عـوّاد ليُبقـي عـليّ بإحـدى غـرف تفاحتـه القـذرة، وبالرغـم مـن تحريـم ليـلى أعتـاب المكتـب عـلى قدمي وإن كنـت مالـكًا لـه، فـإن تلـك الساعة المتأخـرة مـن الليـل كانـت كافيـة لإخفـاء أمـر مبيـتي عـلى أثاثـه حـتى الصبـاح عـلى الأقـل.

وصلـت متأوهًـا مـن ضربـات الرجـال إلى بـاب المكتـب. هممـت بالبحـث عـن مفتــاح القفــل اللعــين في صعوبــة، لــولا أن تيــار مــن الهــواء ضرب مــا تبقــى مـن سـترتي كان يصـدر مـن قائـم البـاب، رفعـت يـدي ولمسـته.. فانفـرج عـلى مصراعيـه!

كان البـاب مفتوحًـا، فدلفـت في قلـق مـن مواجهـة لـص عنيـف يُكمـل مـا بـدأه «الجدعـان» منـذ الصبـاح، لكـن عـدة خطـوات للداخـل كشـفت الأمـر، كان يقـف أمـام النافـذة في صمـت، تتطايـر السـتارة بهـواء الشـتاء البـارد وهـو يقـرأ مـن ورقـة بيضـاء في عبـوس شـديد..

«كامل باشا؟!»..

التفـت إليّ في فـزع وحنـق، ولمحـت يـده وهـي تطـوي الورقـة سرًّا، بينمـا تطـوي اليـد الأخـرى مـا بـدا أنـه «ظـرف» ورقي، وتسـمر مـن الصدمـة: مـا الـذي جـاء بـك إلى هنا؟!

اتجهـت للجلـوس دون أن يسـمح لي فلقـد كان الألـم شـديدًا: اعـذرني يـا حمـوّي السـابق.. ولكـن لـم أعـد أملـك غـير هـذا المـكان لـ...

وتأوهـت في إرهـاق، فاتجـه إليّ قلقًـا وسـاعدني عـلى الجلـوس: مـا الـذي جـرى لـك؟

ابتسـمت في سـخرية مـن حـالي: فقـط عـدت مـن فرنسـا في الوقـت الخطـأ.. (رفعـت رأسي لـه) مـا الـذي جـاء بـك أنـت يـا باشـا؟

اعتـدل في ارتبـاك ورمحـت مقلتـاه يمينًـا ويسـارًا كمـن يبحـث عـن كذبـة مقنعـة: هـه؟.. كــ.. كنت...

اتجـه إلى المقعـد المجـاور وجلـس في هـدوء وقـد ظـن أنـه وجـد الإجابـة، فاصطنـع الابتسـامة: شـعرت بحنـين إلى جلسـاتنا.. فلـك أن تصـدق أولا تفعـل.. أضحـى مكتبـك أكـثر سـكينة مـن غـيره مـن الأماكـن.

جاريتـه في كذبتـه باسـمًا: لازالـت روح جلنـار تسـبح في هوائـه.. (باغتّـه) مـا هـذه الورقة؟

وضعهـا في جيبـه مسرعًـا: لا عليـك.. هيـا الآن.. دعـني أقلَّـك إلى قـصر قاسـم باشـا حـتى أصلـح الأمـور بينـك وبـين ليـلى..

تحـررت مـن يـده الـتي جذبـت ذراعـي في هـدوء: بـل لا أتـرك مـن أطلقـت عليـه أكـثر الأماكـن سـكينة مـن أجـل غـيره.. فلتتركـني في سـلام حـتى الصبـاح..

زفر في ضيق: ليس الليلة! عليك أن ترحل عن مكتبك.

قاطعته في حيرة: ولماذا الليلة بالتحديد؟

ارتبك وأكمل: هه؟.. لــ.. لو علمت ليلى بمجيئك فلسوف...

فـردت ظهـري عـلى الكـرسي في نصـف نومـة: حـتى وإن علمـت لـن تـأتي إلا في الصبـاح.. فلترحـل أنـت يـا باشـا..

نهـض مبتعـدًا في حنـق: لـن أسـتطيع.. (تعجبـت لـه فأكمـل بكذبـة أخـرى أكملـت الألـف منـذ لقائنـا).. أشـعر بالحنـين إلى جلنـار.. وضـاق صـدري بوجـوه الجميـع.. ومـا أردت إلا العزلـة وتذكـر مـا كان بيننـا..

كانـت كذبـة سـاذجة، ولكـن راودني شـعور طـاغٍ بأنـه يُخفـي شـيئًا: فلتذكـره بصـوت مرتفـع إذًا.. وأقصـص عـليّ بقيـة مـا بدأتـه..

التفت إليّ في تعجب فأشرت له بالجلوس: لن تتخلص مني يا باشا.. حتى تبدأ بالحكي..

جلس مستسلمًا، بينما تحركت في انحناءة سريعة لخطوة تقربني من المكتب وجذبت غليوني استعدادًا لتدخين تمنيت أن يُنهي حياتي: فلنكمل.. كانت تناديك بعطوة.. وتناديها بفاطمة.. قصة حب خرافية.. كيف ساءت الأمور إذًا؟

تنهد في ضيق وعقد رجليه في جلسة مريحة واستسلم: لا أصدق أنك تجبرني على ذلك..

ابتسمت له: لن تصدق مدى إصراري على الاستماع إليك.. فربما أقتلك إن لم تفعل..

ابتسم في شفقة وتنهد في غير موافقة على ما يفعل: حسنًا أيها المريض.. بدأ الأمر بطلب غريب من حورية هانم زوجة مصطفى الورداني.. أساءت به إلى جلنار دون أن تقصد..

أشعلت التمباك في تركيز دون أن أنطق بكلمة، ولكنه كان محفزًا للباشا أن يُكمل حديثه دون سؤال مني: كانت حورية هانم متعددة الأسفار.. وترددها على المعارض الفنية في أوروبا قد خلب عقلها.. وما أن أرادت أن توهب قصرها القديم إلى فرج الورداني ابن زوجها.. كانت تريد أن تكسر بعضًا من الأعراف الشرقية بالعثور له على فاتنات يرتضين الرسم في عريّ..

أطرق رأسه في ضيق: كانت جلنار كما تعلم ذات سُمعة مضطربة داخل القصر.. فظنت حورية أنها لن تمانع!

اعتدلت في جلستي في ريبة وخوف مما أظن أنه حدث: هل طلبت منها أن تتبرع بجسدها لذلك الشاب؟

أشعل سيجارة تشبه سجائر عواد وزفر دخانها الرمادي في حنق: لم أكن أعلم شيئًا عن هذا.. فقد كنت أقابلها فقط بالقصر القديم درءًا للفضائح.. ولكني لم أتصور أنها كانت تتخذ من ذلك القصر مكانا للتعري أمام ذلك الحقير..

- وكيف علمت بالأمر؟

- انقطعـت مقابلاتنـا لشـهر ونصـف بنـاءً عـلى رغبتهـا.. وعندمـا سـمحت لي بالعـودة.. عرضـت عـليّ اللوحـة في فخـر!

- ثم؟

- لـم يكـن هنـاك مجـال لــ «ثـم».. رفضـت الأمـر بشـدة خوفًـا عـلى حياتهـا مـن رجـال الملـك إن وصـل إلى علمهـم مـا فعلـت.. وحاولـت إحـراق تلـك اللوحـة.. ولكنهـا ربطـت اسـتمرار علاقتنـا بسـلامة لوحتهـا المخجلـة.. وعندهـا آثـرت فقـط إخفاءهـا بقبـو القـصر.. ومنـذ تلـك الليلـة بـدأت المأسـاة..

أخـرج سلسـلة سـاعته الفضيـة وراقـب الوقـت في توتـر حـاول إخفـاءه، ونهـض متجهًـا إلى النافـذة ووقـف في صمـت لدقائـق، حاولـت حقًـا أن ألـتزم بمـا ظننـت أنـه يُفلـح معـه، فـلا أقاطـع صمتـه بسـؤال يشـغلني حـتى يختـار هـو أن يقصـص مـا يريـد، ولكـن كان شروده بالنظـر إلى الطرقـات المظلمـة مثـيرًا لحـكاك الـرأس: ولمـاذا ربطـت بـين تلـك اللوحـة وخيالاتهـا يـا كامـل باشـا؟

أعـاد سـاعته في ضيـق إلى جيـب صدريتـه الصغـير وتنهـد ملتفتًـا إليّ: لـم أربـط شـيئًا.. فقـط أخبرتـك أن تلـك الليلـة كانـت بدايـة المأسـاة.. أنـت مـن يربـط الأمريـن الآن..

- ولكن ألا تظن أن هناك رابطًا بينهما؟

- من قتل جلنار هي فتاة غامضة يا عزيز وليست لوحة تافهة..

- إذا فحدثني أكثر عن تلك الفتاة.. وكيف رأيتها أنت..

عـاد وجلـس في حـيرة: لـم أرهـا إلا مـرة واحـدة فقـط، كانـت خـلال نوبـة مـن نوبـات هلـع جلنـار.. كنـت اعتـدت عـلى تهدئتهـا كلمـا ادعـت أنهـا تـرى شـيئًا خفيًـا يطاردهـا، ولكنهـا هـذه المـرة أخبرتـني أنهـا نطقـت باسـمي.. تجاهلـت الأمـر كالعـادة.. ولكـني مـا إن نظـرت إلى موضـع إشـارتها حـتى...

سـكت للحظـات وفتـح صـدره عـلى عـدة أنفـاس طويلـة، وكأنـه اسـترجع بتلـك الكلمـات خوفـه أثنـاء تلـك الليلـة، فارتعشـت أصابـع يـده اليمـنى، ولمحـت قبضتـه اليـسرى وهـي تعـصر أصابعـه المرتعشـة في إجبـار عـلى الهـدوء وقـال:

كـ. كانـت تنظـر إليّ في غضـب.. وتلـوّح في هيسـتيرية.. ثــ. ثـم جذبـت مـا بـدا أنـه قضيـب معـدني ومررتـه عـلى عنقهـا وكأنهـا تهـدد بالذبـح.. ثـم اختفـت!

نفـخ بقـوة هـواءً قصـيرًا ونهـض في سرعـة مبتعـدًا وكأنـه يهـرب مـن خوفـه، بينمـا تعلقـت نظـراتي بجلسـته وكأني لـم ألاحـظ نهوضـه، فقـط شردت في تلـك الفكـرة الـتي ربمـا لـم تخطـر عـلى بالـه، فسـألته دون أن ينظـر أي منـا للآخـر: أكانـت تنظـر إليـك عندمـا أشـارت إلى عنقهـا بالذبـح؟

استند بيده المرتعشة على قائم مكتبتي العاجية: أجل..

استثرت اهتمامه: غريبة!

التفت إليّ في فضول بدا حانقًا: ماذا تقصد؟

شردت لفكـرة سـيطرت عـلى رأسي: مـتى كانـت هـذه المـرة الـتي رأيـت فيهـا فـيروز؟

رفعـت عيـني إليـه في جمـود وشـاركته النطـق بالإجابـة فخـرج صوتانـا مضاعفًـا: عشـية انتحـار جلنـار!

اصطبـغ وجهـه باللـون الأحمـر، لـم أعـرف إن كان غضبًـا أم هلعًـا، المؤكـد أنـه تفاجـأ مـن معرفـتي إجابـة السـؤال الـذي سـألته، فاقـترب في وجـل: كيـف عرفـت ذ لك ؟

وصـل أخـيرًا إلى وجهـي وربمـا أوشـك أن يلامسـه وقـد انحـنى بجسـده عـلى جلسـتي، فنظـرت إليـه مواجهًـا: لا أظـن أنهـا كانـت تهـددك بالقتـل.. بـل كانـت تصـف انتحـار جلنـار!

وقبـل أن ينطـق بكلمـة أخـرى، انتفـض كل منـا عـلى صـوت طلقـات ناريـة تـدوي في الفضـاء، انتصبـت واقفًـا في هلـع ضرب مواضـع الألـم في جسـدي بضربـات لحظيـة، بينمـا رسـم هـو عـدة تعبـيرات مختلطـة عـلى وجهـه لـم أفهـم أيًّـا منهـا، ركضـت إلى النافـذة فرأيـت عـددا مـن الشـباب يركضـون في عشـوائية، وخلفهـم شـاويش مسـن يركـض في صعوبـة وهـو يقبـض بشـفتيه عـلى صافـرة الإنـذار، يطلقهـا بأصـوات متقطعـة تزامنـت مـع أنفاسـه اللاهثـة مـن الركـض.

همـس كامـل باشـا في هـدوء لا يناسـب الموقـف: لابـد أنهـا عمليـة اغتيـال

أخـرى.. فدائيـين!

التفت إليه في تعجب: وما أدراك بذلك؟

جلس في أريحيـة: المحروسـة تغـيرت كثـيرًا منـذ سـفرك يـا عزيـز.. الآن نشـهد عمليـتي اغتيـال أو أكـثر خـلال الشـهر الواحـد.. (ابتسـم في يـأس واستسـلام) ربمـا أكـون أنـا القـادم!

لـم يشـغلني مـا قـال عمـا كان يـدور في رأسي وتوقـف مؤقتًـا لأصوات الطلقـات الناريـة، فرؤيـة الباشـا لفـيروز وإن كانـت لمـرة واحـدة، ووصفهـا لانتحـار جلنـار قبـل يـوم مـن انتحارهـا، وتطابـق أوصافهـا مـع خيـالات الأخـيرة، لا يعـني غـير أن تلـك الأمـيرة إمتثـال كانـت عـلى حـق.. فمـا رأتـه جلنـار لـم يكـن هـلاوس بصريـة.. وإنمـا شيء آخـر.. غريـب.. يختـار مـن يـراه.. ومـن يقتـل.. ومـن..

توقفـت عـن التفكـيرة مـرة أخـرى، فأيـن المبـادئ العلميـة ممـا أقـول لنفـسي؟ أي كيـان هـذا الـذي يظهـر في الفـراغ لشـخصين مختلفـين ويهددهمـا بالقتـل وينفـذ تهديـده؟ أهـو شـيطان مـارد كمـا اعتـاد البسـطاء أن يفـسروا ظواهرهـم الخارقـة بتلـك الاجابـة؟ أم حالـة أخـرى جديـدة ربمـا لـم يكتشـفها العلـم وكان مقـدرًا لهـا أن يتـم كشـفها عـلى يـدي؟

جـذب الباشـا غطـاء الأريكـة القمـاشي وألقـاه عـلى جسـدي الممـدد في حنـان هـادئ: فلتنـم الآن.. ولنكمـل في الصبـاح.. ولا تقلـق.. لـن يكـون إقنـاع ليـلى بردهـا إلى عصمتـك أمـرًا صعبًـا.. سـأتولى الأمـر بنفـسي..

أردت طـرد تلـك الفكـرة مـن رأسـه، ولكـن معاملتـه الطيبـة الـتي تخطـى بهـا حقيقـة أني طلقـت ابنتـه ولازال مسـتمرًا في إحسـانه إليّ، أجبرتـني عـلى الصمـت.

أغلـق النافـذة وهـو يتحـدث في توصيـة: ولتـصرف جُلنـار عـن رأسـك الليلـة.. فربمـا أصبحـت مهووسًـا بهـا أكـثر مـن الـلازم..

ورحـل دون أن يزيـد، فـشردت فيمـا حـدث مـع بركـة، وطـردي مـن مجالهـا الملائـكي بأمـر مـن رجـال الحـارة، وتسـاءلت عـن الطريقـة الـتي سـتمكنني مـن الاتصـال بهـا مـرة أخـرى لأحصـل عـلى جانبهـا مـن القصـة، دون أن يُكمـل جدعـان المحروسـة معزوفتهـم العالميـة مـن الضربـات القاسـية.

صرع رنـين الهاتـف فضـاء الغرفـة، اعتدلـت في ريبـة، فمـن ذاك الـذي علـم بعـودتي السريـة في ذلـك الوقـت مـن الليـل غـير كامـل باشـا، ولـم يتسـن للعجـوز الخـروج مـن الطريـق بعـد حـتى يُبلـغ أحدهـم..

رفعت السمّاعة في وجل، فهمس الصوت الناعم: ااا.. عزيز بِك؟

لقد سمعت ذلك الصوت من قبل فأكملت: أنا الأميرة إمتثال!

اهـتزت يـدي مـن الصدمـة، لـم أدرِ أكان احترامًـا لمقامهـا الصـوتي أم خوفًـا مـن مجهـول دفعهـا إلى مهاتفـتي في ذلـك الوقـت المتأخـر مـن الليـل: اا.. أجـل يـا سـمو الأمـيرة.

- حمـدًا للـه.. لـم أظـن أني سـأجدك في ذلـك الوقـت المتأخـر.. هـل وصلتـك رسـالتي؟

- أية رسالة؟

زفـرت في حنـق وتوتـر: لـ.. لقـد أرسـلت خطابًـا إلى مكتبـك صبـاح اليـوم.. وانتظـرت منـك لقـائي كمـا طلبـت منـك..

التفـت حـولي في حـيرة، وهممـت أن أركـض إلى بـاب الشـقة للتأكـد إن كان عامـل البريـد قـد تـرك شـيئًا غفلـت عنـه، لـولا أن لطمتـنى فكـرة كانـت قـد غابـت عـني للحظات.

كان كامل باشا يقرأ خطابًا وأخفاه فور وصولي!

تلعثمـت في تـردد: كـ.. كلا سـموّك.. لـم يصـل إليّ شيء.. و.. ولكـن.. أنـا.. أنـا طوع أمـرك.. فلنتقابل..

سـمعت صوتًـا آخـر يـتردد حولهـا، فارتبكـت وغلـظ صوتهـا كمـن ألصقـت فمهـا بالسـمّاعة: حسـنًا إذًا.. فلتقابلـني بجـوار جامـع بـن طولـون قبـل صـلاة الفجـر.. تلـك هـي فرصتـك الأخـيرة!

هممت بالرد عليها ولكنها قاطعتني: ولكن احذر بشدة أن يتبعك أحد!

وأغلقـت الهاتـف دون مقدمـات، وتركتـني في حالـة أكـثر غرابـة وحـيرة ممـا حـدث لي عـلى مـدار ذلـك اليـوم التعـس بأكملـه.

بقيـت وحيـدًا في الظـلام، مـرت السـاعات دون أن أشـعر بخفقانهـا، كنـت هائمًـا في عالـم آخـر مـن الصمـت الـذي حفّـز رأسي عـلى بسْـط عبـاءة الأحـداث السـابقة أمـام عيـني بالفـراغ، فأراقبهـا بذهـن صـافٍ، وأربـط بـين تفاصيلهـا في موضوعيـة مجـردة مـن المشـاعر المختلطـة.

بـدأ الأمـر بجلنـار.. ثـم الأمـيرة فوقيـة.. ثـم كامـل باشـا وعلاقتـه السريـة بهـا.. ثـم بركـة والخالـة محبوبـة، كلهـا حكايـات مُرسـلة لحيـاة امـرأة كغيرهـا مـن النسـاء، ولكـن.. مـا بهـا مـن علامـات غامضـة هـو المثـير حقًّـا..

فرج.. وقصر أفندار.. ولوحتها العارية!

جلس عزيـز بـك قاسـم أمامـي عـلى مقعـد وهمـي، عـاد بعـد انقطـاع لسـنوات عـن ظهـوره المسـتفز ليواجهـني بالحقائـق، الـتي غابـت عـني، والآن يراقبـني في ضيـق واشـمئزاز: كان كامـل باشـا عـلى حـق.. أصبحـت مهووسًـا بهـا أكـثر مـن الـلازم وغفلـت عمـا يسـتحق الاهتمـام بحياتـك..

حاولـت تجاهلـه: أي حيـاة تلـك الـتي تتحـدث عنهـا؟ أب قاتـل.. وأم منتحـرة.. وزوجـة مختلـة.. ووظيفـة لا مسـتقبل لهـا؟

حـاصرني باسـمًا: ااااه.. هـا قـد قلتهـا لنفسـك.. تظـن أن بحثـك خلـف جُلنـار قـد يُضيـف بعـض القيمـة إلى عزيـز قاسـم..

- لا تنكر أن أمر انتحارها وتلك الفتاة التي قتلتها مثيرًا بدرجة كافية لتعقبه..

- ظننـت مثلـك في أول الأمـر، ولكـن سرعـان مـا تناسـيت مـا حـدث.. فهـو منافٍ للمنطـق أم تناسـيت أنـت مـا درسـته بجامعـات أوروبـا؟

- ما درسته كان ساذجًا..

- ومـا تظـن أنـك ستكتشـفه ليُـدرّس أصبـح وهمًـا! ألـم تلاحـظ كـذب كامـل باشـا؟ لا ينطـق ذلـك الرجـل بكلمـة حـق واحـدة.. كيـف تجاهلـت أيهـا المغفـل التحـوّل الجـذري في علاقتكمـا مـن الفتـور والنفـور.. إلى صداقـة مفاجئـة دون مقدمـات..

- ربطتنا جلنار وعلاقته بها.. وثق بي..

- بل يستغلك لأمر ما.. عليك أن تعلمه..

- والأميرة إمتثال؟

- أميرة مدللة ضجت من أحاديث السرايات.. وتبحث عن مغامرة مع شاب أبله !

- بدأت تشبه تلك اللعينة ليلى..

- لا طاقة لك في العيش دونها.. قبل أن تجلس على مقعد التحليل لغيرك.. فلتنظر داخلك.. ليلى ضرورة لحياتك.. من مثلك لا يأمن إلا بجوارها.. أنت تنشد إذلالها يا عزيز..

- لست مازوخيًا يتمتع بإذلال النساء!

- بل ملعونًا بحبك لأمك.. تعلقت بالملاك، وما أن مات حتى كرهت ذكراه لحنينك الزائد إليه.. فبحثت عن الشيطان، وارتميت في أحضانه.. نعم يا عزيز.. ربما كانت ليلى شيطانًا، ولكنها إن لم تُخرجك من الجنة فإنها حتمًا قادرة على إجبارك على الجحيم.. حتى تعتاد عليه، بل وتعشقه.. وتصبح جزءًا منه!

ضاق رأسي بهمساته فصرخت: من أين تأتي؟!

أحرق وجهي بأنفاسه اللزجة: من حيث تركتني.. لوحة أمك الزيتية!

انطلقت مسرعًا خارج المكتب وقد انفجر رأسي بهمسات ذلك اللعين، ووصلت إلى الطريق أتنفس الصعداء، وما أن رفعت رأسي إلى السماء أملًا في شهيق نقي يثلج صدري حتى لمحت ارتعاش سواد الليل عن لونه القاتم. وقد اخترقه خيط أرزق هادئ يشير إلى اقتراب الفجر، فعلمت أني تأخرت حقًا عن لقاء الأميرة.

خرجت إلى الطريق الرئيسى فهاجمني الصقيع برعشة جرت بجسدي، فتحركت بياقتين مرفوعتين من البالطو الشتوي الذي تدهورت حالته منذ معركة بركة الأسطورية، وأنا أرسم أمام عيني احتمالات اللقاء الغامض للأميرة إمتثال في ذلك الوقت المتأخر.

قطع سيل أفكاري صوت مريب لحركة تزحف في الظلام حولي، حاولت تجاهل الأمر في البداية، لكن تعاظم الصوت باقتراب صاحبه زاد عليّ رعشة

الصقيـع رعشـة أخـرى مـن القلـق، وعندهـا لمحـت بركـن ضيـق مـن جانـب عيـني ظلًا يتحـرك في سرعـة مقلقـة خلفـي، التفـت إليـه مسرعًـا ولكـن.. اختفـى في اللاوقـت إلى ظـلام الطريـق مـرة أخـرى.

وقفـت للحظـات متجـولًا ببـصري بـين ثنيـات الطريـق، شـعرت بخطـر لـم يفهمـه عقـلي، بـل انتفضـت لـه جوارحـي دون سـبب واضـح، فهممـت بالسـيطرة عليـه وأنـا أصـارع ظنـوني الطفوليـة الـتي همسـت في قسـوة تعتـصر أذني، «ربمـا أصبـت بلعنـة جلنـار! بعدمـا أقحمـت أنفـك داخـل أسرار قصتهـا».

هل تطاردني فيروز لتحصد روحي أنا الآخر؟!

وقبـل أن أصرف تلـك الفكـرة السـاذجة عـن رأسي وأنـا الطبيـب العقـلاني المحنـك، شـعرت بأنفـاس آدميـة تحـرق مؤخـرة رأسي، وعندهـا فـاض الكيـل.. انفرجـت قدمـاي دون أن أشـعر، وقذفـت بي إلى ركـض لاهـث هربًـا مـن المجهول!

عـبرت عـدة منعطفـات لطرقـات غـاب عنهـا المـارة، غمـر الأدرينالـين عـروقي حـتى فاضـت بـه، وانسـكب بغـزارة داخـل مسـتقبلات الإحسـاس لـديّ، فضاعـف مـن قوتهـا، حـتى أني كنـت أسـمع أنفـاس مـن قـرر مطـاردتي، وعلمـت مـن انتظامهـا أنـه معتـاد عـلى ذلـك المجهـود البـدني، خطفـت ملتفتًـا نظـرة قصيرة لهيئتـه، فلـم أر إلا سـترة سـوداء يتطايـر جانبهـا الأيـسر في الهـواء.. بينمـا يعطـل جانبهـا الأيمـن عـن الحركـة شيء بـارز أسـفلها، عندهـا لـم يكتـف الأدرينالـين بسـمعي وبـصري فحسـب.. بـل غمـر عقـلي أيضًـا حـتى وصلـت لاسـتنتاج غـير قابـل للنقـاش.

لـم تكـن فتـاة كالـتي وصفهـا كامـل باشـا، بـل كان رجـلا في سـترة سـوداء.. ومـا كان ذلـك الـبروز أسـفل جانبهـا الأيمـن إلا سـلاح نـاري!

ولكن.. من الذي يريد قتلي؟!

كان سـؤالٌ اختـار وقتًـا حرجًـا لإجابتـه، فلـم أفعـل، بـل زدت مـن سرعـة ركـضي، وأنـا لا أعـرف مـن الأسـاس لمـاذا اندفعـت للهـرب، ربمـا كان يجـب أن أواجـه صاحـب الظـل الغامـض، لكـن الأوان قـد مـضى حقًـا، ولـم يكـن عـليّ سـوى اسـتكمال تلـك الرحلـة المتعرقـة إلى نهايتهـا.

رأيـت سـيارة أجـرة عـلى رأس طريـق قريـب، فانطلقـت إليهـا بقفـزة أربكـت غريمـي، وارتميـت بالمقعـد الخلفـي صارخًـا: جامـع بـن طولـون!

هـدأت لحظيًـا وقـد كشـفت لي مـرآة الصالـون سـقوط الرجـل وهـو يحـاول اللحـاق بسيارة الأجـرة، اعتدلـت وحاولـت أن أفـرغ شـحنة الادرينالـين بالتدريـج، فهـدأت أنفـاسي.. وأثقـل التعـب جفـنيّ فأغلقتهمـا في اطمئنـان، حـتى مـر عـلى هـدوئي المؤقـت مـا ظننـت أنـه دقائـق.

كان صـوت محـرك السـيارة هـو فقـط مـا يغلـف الصمـت، حـتى تحـول إلى صمـت مزعـج هـو الآخـر، لـم يقطعـه إلا صـوت السـائق، فأخرجـني مـن ظلمـتي القصـيرة:

- لا تقلـق يـا أفنـدي.. لـدي مخبـأ لا يخطئـه أمثالـك.. (ثـم نطـق في اسـتمتاع) واللـه «بـراوا» يـا أبنـاء مـصر..

وكأن الليلـة كان ينقصهـا ذلـك الرجـل، مسـحت قطـرات العـرق الشـتوي في حـيرة ممـا يقـول: مـاذا تقصـد؟

نقـل بـصره بـين مرايـا سـيارته متأكـدًا مـن عـدم ملاحقـة أحدهـم لنـا، ثـم أخـرج سيجارة رخيصـة مبتسـمًا ومررهـا لي مـن فـوق كتفـه باسـمًا: عفّـر يـا أفندي والتقـط أنفاسـك.. يبـدو أنهـا عمليتـك الأولى..

راقبـت ملابـسي وقـد تدهـورت حالتهـا، وأصبغهـا ارتطامـي بجـدران الطريـق خـلال محاولـتي الأخـيرة للهـرب بطبقـة مـن الاتربـة المتسـخة فـوق بقـع الـدم الـتي أهداهـا إليّ رجـال المحروسـة، ولاسـيما أن سـقط طربـوشي وأنـا أمـرق مـن منعطـف حـاد، لهـذا ربمـا ظـن ذلـك السـائق أني مجـرد «أفنـدي» خـرج لتـوه مـن أمـر مـا..

- ألست مع الفدائيين الذين أطلقوا النار على داود باشا؟

- نعم؟!

أصابتني الصدمة بغضب فوقي لم أفهم سببه: أي فدائيين أيها الأبله؟!

ابتسـم وهـو يُهـدئ مـن روعـي: حِلمـك يـا أفنـدي.. فأنـا لسـت بخائـن.. «محسـوبك» لـه تاريـخ طويـل مـن النضـال.. فاطمـئن.. و...

ضربت مؤخرة المقعد المجاور له في غضب: لا يعنيني ماذا كنت.. فقط أقلني إلى جامع بن طولون دون حديث لا طائل منه.. فأنا لست من تظنه..

اعتدل إليّ في ريبة ولم يبال بانفلات نظره عن الطريق: لست من أظنه؟ فلماذا إذًا كان يطاردك البوليس السياسي؟! (انتبهت فأكمل) نعم إنه أحد ضباط البوليس السياسي وليس فقط أحد مخبرينه.. ولا يعني ذلك إلا أنك فعلت أمرًا خطيرًا..

أشرت إليه في ارتباك: توقف توقف! ولماذا أنت متأكد أنه البوليس السياسي؟!

زفر في ضيق: وهل يتوه أمثالي عن أمثالهم؟ توقف عن استجوابي يا ولدي لتختبر وطنيتي، فوالله لم أعد أرغب في هذه الحياة إلا مساعدة من هم مثلك بعد أن وهن العظم.. ولم أعد قادرًا على حمل السلاح..

اختلط عليّ الأمر، ماذا لو كان ذلك الرجل محقًا وأن ذلك المجهول الذي كان يطاردني هو حقًا من البوليس السياسي؟ هل أخطأني بأحد ممن ظن أنهم أطلقوا النار على داود باشا؟ كلا.. لقد كان في انتظاري بالتحديد، وكانت لديه فسحة من الوقت ليتأكد من هويتي.. فلابد أنه كان يقصدني دون غيري..

وإن كان هذا صحيحًا.. فلماذا يسعى البوليس خلفي أنا بالذات؟

وبينما كنت غارقًا في تلك الأفكار المتضاربة، لاحظت تغير ملامح السائق، حيث بدأ بمراقبتي بشيء من القلق، فربما أقلقه إنكاري لادعاءاته، فبدأ في الاقتناع بأني لست فدائيًا، وأنه ارتكب خطأً كبيرًا بكشف أمره أمامي، وحينها آثرت اصطناع ما سينجو برقبتي..

- أخشى أن أئتمنك على سرّي فتكون أنت أيضًا مع البوليس.. وتدعي غير ذلك..

احترفت خداعه بتلك العبارة، فالتفت في لهفة وسعادة: أقسم لك أني لست كذلك.. ها، أخبرني ما الذي تريد مني أن أفعله؟

هممت أن أنسج موقفًا من الخيال يؤكد له أني فدائي بصدد تنفيذ مهمة ما، لكن صوت احتكاك عجلات سيارته بالأسفلت صرعني باهتزازات خلعت

عظامي قبل أن نتوقف فجأة..

صرخت في انزعاج: ما الذي يحدث؟!

همس إليّ في غضب: ششش.. أخفض صوتك.. البوليس!

أخفضت رأسي بدلًا من صوتي وكأن الخوف أربك معاني الكلمات داخل عقلي، وراقبت بعيني من خلف مؤخرة المقعد الأمامي، تحركات عناصر البوليس المختلطة جيئةً وذهابًا بالقرب من حاجز صنعوه عند مفترق الطريق، ربما كان بسبب اغتيال ذلك الداود. مال السائق عليّ بوجه منتفخ وعين جحظت في لهفة: أقسم لي أنك ممن قتلوا داود باشا.. أقسم..

راقبته في صمت وحيرة وقد هربت الكلمات مني فأكمل في إلحاح: أرجوك يا ولدي.. لا أرغب في الموت بجسد دافئ تحت أغطية الولايا.. أريد أن أموت بطلًا..

كان الرجل في حالة هيستيرية من اليأس، كمن كانت نجاته في نسج كذبة عليه أن يصدقها، حاولت أن أخبره بالحقيقة حقًا ولكن: إنك بطل بالفعل كما قلت.. ألم تخبرني أن لك تاريخًا طويلًا من النضال؟.. فـ...

صاح بي بقوة بعين دامعة: يا ولدي! (تنهد في حزن) لـ.. لا أذكر حقًا تلك الأيام.. فقد أصابتني طلقة انجليزية منذ اللحظة الاولى لتظاهراتنا احتفالا بعودة سعد باشا.. وأعجزتني عن أي عمل فدائي حتى اليوم.. (اهتز وجهه لبكاء) أي قصة بطولية هذه؟

أسقط رأسه المهتز أرضًا في خجل وعدل من التواءته من مقعدي الخلفي، ونظر أمامه وقد لمحت لمعة دموعه تحت ضربات الإضاءة الوهاجة التي أطلقتها مصابيح العساكر. خلبت كلماته قلبي، وعلمت أنه يمر بحالة من الشعور بالخزي تجاه حياته السابقة، لم تكن حالة صعبة لتشخيصها، بل على العكس، كان نموذجًا مثاليًا لأوائل ما درسنا من الحالات في فرنسا، مما أصاب العديد من جنود الحرب العالمية الأولى..

ودون أن أسمح لنفسي بالتفكير، أشفقت عليه وقررت أن أسوق إليه ما يبعث على سروره: أقسم لك أني من قاتلي داود باشا!

كيـف فعلـت ذلـك؟ كيـف نطقتهـا؟ مـالي والسياسـة، ومـالي وعجـوز خـرف يريـد أن يعجـل بموتـه، كان مـا فعلتـه أكـثر مـا أقدمـت عليـه حماقـة مـن الأفعـال اليـوم.. وهـم كُـثر!

تهللـت أساريره وعلـم أن تهريـبي مـن السـلطات يعـد بمثابـة مشـاركته في ذلـك العمـل البطـولي، وقبـل أن يـترك لي مجـالا للتراجـع عمـا قلـت، اعتـدل في حمـاس وعبـوس وكأنـه يسـتعد لأمـر مـا: حسـنًا إذًا.. لقـد أغلقـوا طريـق المنـيرة.. ولا هـرب منهـم سـوى مـن تحـت أنوفهـم!

حاولت استباق فعلته: فقط أنصت إليّ فأنا...

قطـع عبـارتي بقصـة أخـرى مـن روايـة الحُمـق القصـير، أضـاء مصابيـح سـيارته الأماميـة فالتقطـت أعـين العسـاكر، والتفـت إليّ في لهفـة ممسـكًا بلفافـة غامضـة مـن منديـل يـد: سـأجذبهم إليّ، ولتتخـذ أنـت ذلـك الطريـق الخلفـي.. حـتى إذا نجحـت في إلهائهـم يكـن لديـك مـن الوقـت للوصـول إلى ميـدان السـيدة زينـب! ادخـل المسـجد واسـأل عـن الشـيخ عـلي العجمـي.. سـيتدبر أمـرك.. هيـا!

وأسقط في يدي اللفافة الثقيلة وحلّ ربطتها أمام عيني..

كانت مسدسًا غليظًا!

راقبـت اقـتراب العسـاكر مـن السـيارة، واهـتزت يـدي بمـا تحمـل مـن سـلاح لـم أطلبـه، فضربـني السـائق في كتفـي بقـوة وهـو يمتطـي جسـدي ليفتـح لي مقبـض البـاب المجـاور لخـصري: هيـا اهـرب.. لقـد أشـعلت المصابيـح العاليـة.. فـلا يـراك أي منهـم الآن.. هيـا! انطلـق!

تسـمرت في مـكاني وقـد غلبـني الرعـب، فلامسـت مقدمـة السـيارة أجسـاد العسـاكر وهـم يتحركـون ببـطء، فلـم يجـد العجـوز بـدًا مـن دفعـي بالقـوة وقـد سـقطت أرضًـا، وضغـط بكامـل قوتـه عـلى دواسـة البنزيـن.. وعندهـا..

لـم أعلـم أيًّـا منهـم اصطـدم بالآخـر أولًا.. سـيارته وأجسـاد العسـاكر؟ أم رصاصاتهـم وجسـد العجـوز؟

***

لـم أسـمع منـه غـير كلمـة واحـدة قبـل أن أركـض بـلا عـودة «فقـط لا تنـس اسـمي.. عـوض السـايس!»، بـدا حريصًـا عـلى كتابـة اسـمه عـلى لوحـة البطـولات.. وظـن أن ذلـك الأحمـق الـذي ضحـى بحياتـه مـن أجلـه يُحسـن الكتابـة.

استفقت مـن غيبوبـة الإرهـاق الـتي حلـت بجسـدي بعـد ركـض طويـل، فتحـت عيـني وقـد ظننـت أنهـا مازالـت مغلقـة، فالظـلام يسـود ذلـك المـكان المجهـول، غـير أن فتحـة مائلـة بجـدار بـدا خشـبيًا، أفلتـت حزمـة رفيعـة مـن ضـوء أصفـر متراقـص، فحاولـت النهـوض إليهـا لكـن أيـد خرجـت مـن بـين السـواد وأجلسـتني في غلظـة وقـد همسـت بصـوت مخيـف: «لا تتحـرك الآن!».

التفـت حـولي في هلـع وأنـا أحـاول تحديـد مصـدر الصـوت المخيـف، ولكـن الظـلام حـال بيـني وبـين تلـك المهمـة البائسـة، خـرج صـوتي في قلـق حاولـت إخفـاءه للحفـاظ عـلى مكانـتي: أ.. أيـن أنـا؟

لـم يجبـني أحـد، وعـاد الظـلام إلى الصمـت مـرة أخـرى، فأصبحـت أسـيرًا بـين فكيهمـا، فكـرت في النهـوض، ولكـني خشـيت اليـد الغليظـة، فآثـرت الجلـوس دون حـراك عـلى اكتشـاف الحقيقـة ودفـع ضريبتهـا مـن تهشـم لعظـام كتفـي.

وعـلى غـير المتوقـع، هتـف صـوت عـذب واخـترق الجـدار المائـل بكلمـات قليلـة: الـدار أمـان!

عـادت اليـد وأنهضتـني وتحركنـا في خطـوات متعرجـة حـتى ذلـك الجـدار الخشـبي، اصطدمنـا في طريقنـا القصـير بعـدة عقبـات أرضيـة لأشـياء رقـدت أرضًـا دون أن أعـرف هويتهـا أو حـتى أسـتنبط مـن ملمسـها حقيقتهـا. وأخـيرًا وصلنـا إلى الجـدار وعبرنـاه إلى الداخـل، أو بالأحـرى إلى الخـارج، عندمـا علمـت أني كنـت في مخبـأ سري داخـل إحـدى غـرف مسـجد السـيدة زينـب. هكـذا قـال الشـيخ المسـن وهـو يدلـك لحيتـه ببعـض مـن مـاء الوضـوء.

انتهـى طفـل صغـير مـن صـب عمـود مـن الميـاه عـلى قدمـي الشـيخ مـن كـوب معـدني متسـخ، فابتسـم الاخـير وربـت عـلى كتفـه قبـل أن ينظـر إليّ: رضي اللـه عنـك يـا فرغـلي.. اسـبقني إلى الصـلاة وسـألحق بـك... (ثـم رمقـني في هـدوء) اطمـئن أيهـا الشـاب!

ركض الطفل خروجًا من الغرفة الواسعة وأغلق الباب خلفه، بينما فرد لي صاحب اليد الغليظة حصيرة خشنة أرضًا ودفعني للجلوس عليها. وقد رأيت أخيرًا هيئته. كان رجلًا طويل القامة، أسود الوجه، بجلباب رمادي طويل وعمامة خضراء أحكم ربطها حول جبهته في قوة تناسب غلظته. ثم اتجه إلى الشيخ يساعده في إخفاء صلعة رأسه أسفل عمامة خضراء أخرى.

ابتسم لى الشيخ المسن: من حسن مقدرات الله أنك لم تكن بعيدًا عن المسجد.. وإلا لأصبحت لقمة سائغة بين أسنان البوليس..

راقبته في جمود: من أنتم؟

اقترب مني في لطف بالغ: لقد شهدنا بطولة عوض السايس وهروبك من سيارته.. ولولا تدخل «أنصاري» (وأشار إلى الأسود الغليظ).. لطالتك رصاصات العساكر بدلًا من كعب بندقية أحدهم..

أغمضت عيني في إرهاق، وتذكرت ذلك العسكري الأبله وهو يطاردني رافعًا بندقيته في الهواء قبل أن أغيب عن الوعي. وزدت من إغلاق جفنيّ غضبًا مما أصبحت جزءًا منه دون إرادتي. فظن الشيخ وتابعه الاسود أني فدائي شارك في قتل داود باشا كما ظن السائق المسكين سابقًا.

رفعت رأسي وواجهت الشيخ في محاولة بائسة وربما تكون انتحارية لإنهاء هذا المسلسل السخيف من سوء التفاهم: لست ممن اااا...

قطعت كلماتي نقرتان على الباب الذي أغلقه الطفل منذ لحظات، اتجه الأسود إلى الباب وتلصص في حذر من خلال أحد ثقوبه متبينًا حقيقة الطارق، ودون مقدمات فتح الباب في سرعة، لينفلت منه ثلاثة شباب في ملابس أزهرية قبل أن يُغلقه الأسود مرة أخرى.

أشار إليّ أحدهم وهو يسأل الشيخ في ريبة: من هذا؟

ابتسم له الشيخ وأشار له بالاطمئنان: بطل مثلكم!

تنفس الشاب وصديقاه الصعداء، ثم بدأوا في خلع ملابسهم دون تردد، حلّ أحدهم رباطة العمة من حول اسطوانة طربوشه الاحمر، فلم يبق غيره على رأسه، وتخلص كل منهم من جلبابه حتى ظهرت ملابسهم

الحقيقيـة. مجـرد طلبـة في سـترات رماديـة وفي حالـة رثـة.

اقـترب مـني أولهـم مـادًا يـده بالسـلام: لـم أرك مـن قبـل وإن كنـت تبـدو مألوفًـا.. مـا الـذي فعلتـه الليلـة ليطـاردك البوليـس؟

ألجم الخوف لساني فلم أجب، فأجاب الشيخ: كان ممن قتلوا داود باشا!

التفت إليّ المرتاب في عبوس وقد لاحظ توتري: حقا؟!

أومأت لـه عـدة مـرات في قلـق هيسـتيري بالموافقـة وقـد هجـم الخـوف عـلى جسـدي، فانتفـض واقفًـا وقـد فهـم بفراسـته أن الكـذب يفـوح مـن لسـاني حـتى وإن لـم أنطـق بـه. أشـار إلى صديقيـه في غلظـة: فتشـوه!

اندفـع الشـابان تجاهـي وأنهضـاني في قسـوة، حـاول الشـيخ التدخـل، لكـن الشـاب منعـه في لطـف. ولـم تمـر ثـوانٍ حـتى أخـرج أحدهـم المسـدس الـذي أعطانيـه السـائق، وأخـرج الآخـر شـيئًا لعنـت بسـببه فرنسـا وكامـل طلابهـا..

كان التومباك التركي الذي أدمنت تدخينه مؤخرًا..

أمسـك زعيـم الشـباب لفافـة التومبـاك الجلديـة وراقـب هيئتهـا الفاخـرة وقرّبهـا مـن أنفـه، فاخترقـت رائحتهـا العطـرة شـعيرات انفـه، وعندهـا نظـر إليّ بنظـرة حقـد بالغـة وكأنـه عـرف الحقيقـة: بِـك؟ أم باشـا في هـذه السـن الصغـيرة؟

أخـرج الشـاب بطاقـة العمـل الخاصـة بي، ومـا أن قـرأ مـا فيهـا حـتى نظـر إلى الزعيـم وأجابـه: بـل بـكِ!

امتقـع وجـه الشيخ الـذي كان بشوشًـا، بينمـا زاد عبـوس الرجـل الأسـود وقبـض عـلى المسـدس الـذي وجـدوه بحـوزتي، وألصقـني الشـابان الآخـران بالحائـط في قـوة، وأخـيرًا اقـترب الزعيـم في بـطء كليـث يراقـب فريسـته، وحـدث الشـيخ دون أن ينظـر إليـه وهـو يراقـب وجهـي في غضـب: ربمـا حـان الوقـت لرفـع أذان الفجـر يـا شـيخنا!

تحـرك الشـيخ بـلا مقدمـات خروجًـا إلى سـاحة المسـجد، وسـحب الشـابان جسـدي تجـاه الغرفـة الداخليـة مـرة أخـرى، حاولـت المقاومـة واهـتز جسـدي تحـت قبضيتهمـا، فأطبـق الأسـود كفـه عـلى فمـي وخرجـت تأوهـاتي كأنفـاس مكتومـة مـن أنفـي، حـتى صرعـت عـلى صـوت جهـور يـؤذن للفجـر.

كان الصـوت مرتفعًـا حقًـا، وكان مناسـبًا للتغطيـة عـلى صـوت الطلـق النـاري الـذي سيسـتقر بـرأسي.

دفعـني الاسـود داخـل الغرفـة، فارتطـم جسـدي أرضًـا في الظـلام مـرة أخـرى، وتلمسـت المعوقـات الأرضيـة الـتي عرقلـت سيرنا السـابق، وبـين لحظـة وأخـرى عرفـت مـن ملمسـها مـا كانـت حقًـا، لـولا أن جـاء الأسـود بكلـوب نـاري مـضيء، فتطابـق مـا لمسـته مـع مـا رأيـت.

مقبرة لعساكر الإنجليز!

صرخت بهم في فزع: توقفوا! لست خائنًا أقسم لكم بـ...

صاح الزعيم: أغلق فاك! و...

قاطعتـه في غضـب: بـل اسـتمع إليّ!! أنـا.. أنـا مجـرد طبيـب.. جئـت مـن فرنسـا منـذ شـهرين فقـط.. ولا دخـل لي فيمـا تفعلـون لا أنتـم ولا الإنجلـيز ولا القـصر حـتى...

غلـظ أحدهـم في عنـف: ومـا الـذي جـاء بـك إلى هنـا؟ ولمـاذا تدّعـي أنـك قتلـت داود باشـا! وقـد هرّبنـا قاتليـه للتـو!

ابتعـدت بجسـدي إلى الخلـف في ضغطـات عـلى أوجـه وأقـدام الجثـث المكتظـة حـولي زادت مـن هلعـي: اا.. لــ... لـم أدع شيئًا.. لــ.. لقـد كنـت غائبًـا عـن الوعـي.. واسـتفقت وقـد وجـدت نفـسي هنـا..

تقـدم الأسـود إلى زعيـم الشـباب: كان مـع عـوض السـايس! (ضربـني بقدمـه في قـوة) استشـهد عـوض برصـاص البوليـس وهـو يحمـي هـذا الكلـب! ربمـا ظنـه...

بهـت وجـه الشـباب عندمـا نقـل إليهـم الأسـود خـبر مـوت السـائق، وفي ثـوان تحـوّل الحـزن إلى غضـب، فانتفضـت والعـرق اللـزج يغـرق وجهـي: أنـا.. أنـا أحذركـم مـن قتـلي.. فأنـا عـلى علاقـة وثيقـة بالقـصر.. اا.. أنـا عزيـز بـك قاسـم.. بـن قاسـم باشـا فريـد و....

ألصـق أحـد الشـابين مسدسـه بـرأسي في غـل كاد أن يحفـر دائـرة بلحـم جبهـتي وصـاح: أتظـن أننـا نخـشى كلاب القـصر مـن الباشـاوات؟ انظـر حولـك أيهـا المتغطـرس.. لقـد قتلنـا داود باشـا شـخصيًا.. وليـس قتلـك بالأمـر المسـتحيل..

تقـدم مـني الشـاب الآخـر ورفـع مسدسـه بوجهـي: مـا كان نسـبك الـذي تتفاخر بـه.. إلا سـببًا أكـبر لقتلـك!

وأطلـق طلقـة قويـة صفعـت بهوائهـا جانـب عيـني قبـل أن تسـتقر بصـدر جثـة جاورتي!

انتفضـت في هلـع وقـد ظننـت أن الطلقـة أصابتـني، وقفـزت كالمجنـون مترنحًـا بحثًـا عـن مخـرج مـن تلـك الغرفـة، فجثـم الاسـود عـلى صـدري وهـمّ الشـاب ان يطلـق الرصـاص مـرة أخـرى لـولا أن صـاح بهـم زعيمهـم:

«بل توقفوا!»..

التـوت رقابهـم جميعًـا تجاهـه في تعجـب، بينمـا وقـف هـو فى ثبـات وهـدوء ممسـكًا ببطاقـة العمـل الـتي ألقـى بهـا أحـد الشـباب وقـت اسـتدراجي: عزيـز بـك بـن قاسـم باشـا فريـد؟!

أومـأت لـه وقـد اختلطـت أنهـار العـرق بدمـاء جُـرح وجنـتي، ولهثـت في يـأس: أجـل أجـل!!

رفـع نظـره إلى سـقف الغرفـة متنهـدًا، وغـاب لدقائـق مفكـرًا في أمـر مـا، ثـم أشـار لهـم بالابتعـاد عـني، فصـاح بـه الاسـود: مـاذا تفعـل؟!

أشـار لـه بالصمـت وتقـدم ناحيـتي، وهبـط عـلى قدميـه في جلسـة القرفصـاء وحـدق بملامـح وجهـي: في الواقـع لا أعلـم إن كان ذلـك الأمـر سـيمد في عمـرك.. أم سـيعجل بانقضـاء أجلـك! لا بـأس.. سـنعرف عندمـا تسـتيقظ!

اعتدلت له في حنق: استيقظ من مـ...؟

وقبـل أن أتـم سـؤالي الغاضـب، أصابتـني ضربـة أخـرى أحالـت الدنيـا إلى ظـلام.

***

خيالات لا حصر لها ولا معنى. أرى إيماءة تأخرت من لوحة زيتية. يضرب أذني صوت الطرق على الجدار. إصبع مدمم يمر على خطوط كفي. أعرف الحقيقة. لقد قتلت ولدي. أحببتك وسوف تصبح ملكي. همست لها: جلنار؟ ظننتك غيرهم. كن عنيفًا. طربوشه مائل وشرفه قائم بالكذب. لوّحت لها قبل أن تخرج من صندوقها الخشبي. الإيماءة أصبحت ابتسامة. زيت اللوحة يغلي. طست ممتلئ برؤوس الإنجليز. أحببتك في المنام. فيروز. كان الخنجر لأخيك. كانت ساقطة. رب الولايا. من أين جاء به. مولانا الملك. بركة. دخان أخضر من غليون نحاسي. منديل وردي استحال سوادًا. قبّلني. حِزْمَة جرجير بألف جنيه. سعد باشا. عمري. اهرب. فيروز. قدماي تذوب في المِلح. ابتسمت. لن أنجب. اقترب يا ابن ضاحي. فيروز. عمري. عمري.... عزيز!!

انتفضت في قوة صارخًا، ضاق صدري بأنفاس متسارعة، فتحت عيني في ألم وأنا ألهث من الخوف، أراحت يد ناعمة كفها على وجهي في لطف، كانت الرؤية غائمة، وكأن ستارًا من الماء يفصل بيني وبين من حولى، عصرت جفنيّ أملًا في إبصار أكثر وضوحًا، حتى عادت الرؤية إلى الوضوح تدريجيًا وقد قايضتني على ألم غير محتمل يجول بعظام رأسي.

«حمدًا لله على سلامتك يا عمري»..

كنت نائمًا بين أحضان ليلى على فراشي بقصر كامل باشا، رفعت بصري فوجدتها تبتسم لى بعين دامعة، حاولت الاعتدال فرأيت كامل باشا نفسه جالسًا على مقعدٍ في مواجهتي، كان منحني الظهر تجاهي، وقد أسند مرفقيه على فخذيه مراقبًا وجهي في صمت.

همست في إرهاق: ما الذي حدث؟

مسحت ليلى بيدها جبهتي عدة مرات كمن يدلل كلبه الأليف وألصقت وجهي بنهدها في حنان كرهْتُه: ألا تذكر؟ لقد سرقك بعض اللصوص وتركوك جريحًا حتى طلع عليك النهار.. إنه ذنبي يا عمري، لولا عراكنا الأخير وتركك لبيتك وفراشك لما تعرضت لكل هذا.. ولكن لا تقلق..

مالـت عـلى أذني في همـس: سأسـمح لـك بـردّي إلى عصمتـك اليـوم.. فلننـس مـا حـدث ولنكمـل مـا بدأنـاه يومهـا!

لـم يحـول كامـل باشـا نظـره عـني ولـو لبرهـة، فقـط كان جامـدًا في جلسـته دون أن يطـرف لـه جفـن: اتركينـا لدقائـق يـا ليـلى!

قالهـا في حـزم، فضربـت وجهـي بكفهـا وزادت مـن احتضـاني في غضـب: لا! لـن تنـال منـه اليـوم بكلماتـك السـخيفة.. ألا تـرى حالتـه؟!

نهـض في غضــب: هــل ترضـين أن تسـتدعيه الشرطـة وهــو بهــذه الحالــة للاسـتماع إلى أقوالـه؟ سـآخذ أقوالـه وأنقلهـا إليهـم بنفـسي لأوفـر عليـه مشـقة التعامـل مـع أمثالهـم.

حاولـت النهـوض لـولا أن زاد غضبهـا فأطبقـت عـلى صـدري بقـوة ونهضـت في مواجهتـه: كلا! بـل...

صِحْتُ بهم: فلترحلا معًا إلى الخارج!

نظـرت إليّ ليـلى في عتـاب باهـت، بينمـا مـال كامـل باشـا بعنقـه وحدثـني بنظـرة غريبـة: مـا أردت إلا راحتـك يـا ولـدي.. ألا تعـرف عـوض السـايس؟

لطمـني ذلـك الاسـم في قـوة أوشـكت أن ترسـل بي خـارج الوعـي مـرة أخـرى، اعتدلـت في صدمـة متوجسًـا، وقـد زاد مـن غرابـة نظرتـه بشـبح ابتسـامة رسـمها في حـذر عـلى وجهـه، فبـدا مرعبًـا، بينمـا نقلـت ليـلى نظراتهـا بيـني وبينـه في جهـل: مـن عـوض السـايس؟

هربـت الكلمـات غوصًـا إلى قـاع حلقـي حـتى كـدت أختنـق بهـا، لكـن كامـل باشـا نطـق عـلى غـير المتوقـع: إنـه الصـاغ الـذي أرسـله قسـم الشرطـة لاسـتجواب زوجـك.. وهـو رجـل حـاد المـزاج.. فمـا أردت إلا أن أواجهـه بنفـسي وأوفـر عليكمـا مشـقة مقابلتـه..

انتفخـت ليـلى في عـزة: حـاد المـزاج؟ مـع مـن؟ مـع زوج ليـلى هانـم؟! سـأقابله أنـا و...

قاطعتهـا في هـدوء وقـد تأكـدت أن كامـل باشـا يعـرف الحقيقـة: بـل اتركينـا يـا ليلى .

نظـرت إليّ بالتـواءة عنيفـة مـن عنقهـا في حنـق مـن انتصـاري لكلمـة والدهـا، فأومـأت لهـا في هـدوء أن تفعـل.

خرجـت بضربـات اهـتزت لهـا أرض الغرفـة وصفعـت البـاب خلفهـا في غضـب، فابتسـم كامـل باشـا وتأكـد مـن إغـلاق القفـل الذهـبي والتفـت إليّ في جمـود: أوشـكت أن ترمّـل ابنـتي حـتى وإن طلقتهـا!

اعتمدت بذراعي على الفراش جالسًا في ريبة: ما الذي يحدث؟

اقـترب وجلـس إلى جـواري بحافـة الفـراش: أخـبرني يـا عزيـز.. هـل تؤمـن بالصدفـة؟

واجهته في غضب وقد بدأت أتلمس الطريق في حديثه: لا!

أجاب في نفس اللحظة: ولا أنا!

اعتـدل في جلسـته ورفـع رجـلًا أراحهـا عـلى الفـراش وشرد في هـدوء: كان عـوض أبًـا لأربـعِ بنـات.. سـميرة.. فوزيـة.. سـلوى.. وهـدى.. رفـض أن يـتزوج بعـد وفـاة زوجتـه الأولى.. وعـاش مخلصًـا لبناتـه.. لـم يغـادر في الصبـاح ولـو لمـرة دون أن يجتمـع ببناتـه عـلى طاولـة إفطـار واحـدة.. حـتى وإن كان مـا عليهـا رغيـف عيـش وطبـق شـبه خـالٍ، كان ماهـرًا بلعبـة الطاولـة.. ولـم يدفـع قرشًـا واحـدًا عـلى قهـوة بلـدي لمشـاريب راهـن أصدقـاءه عـلى ثمنهـا إن فـاز عليهـم.. لـم يحـنِ رأسـه أمـام باشـا طـوال حياتـه.. ولـم يرفـع جبهتـه عـن الأرض طالمـا وافـق سـجوده ميعـادًا لصـلاة بجامـع السـيدة زينـب، عـوض كان مجاهـدًا في شـبابه.. تمـنى المـوت كثـيرًا عـلى يـد أعدائـه ليُخلّـد بطـلًا حـتى ولـو لـم يذكـر أحـد اسـمه.. عـوض..

قاطعتــه في حــزن أثقــل كاهــلي: مــات دفاعًــا عــن أبلــه لا يســتحق دمائــه! أليـس كذلـك يـا كامـل باشـا؟ أم عـليّ أن أناديـك منـذ الآن بـ... «عطـوة زعيـم الفدائيـين»؟!

ابتسم نصف ابتسامة: لا تبدأ بالخلط الآن.. واستمع إليّ جيدًا!

شـعرت بخـزي لا حـدود لـه: ألهـذا السـبب أعتقـني رجالـك؟ أني زوج ابنـة رئيسـهم؟

راقبـني في تعجـب: عجيـب هـو أمـرك.. لقـد كشـفت لـك سرًا خطـيرًا للتـو.. ألا تتخـذ بعـض الوقـت حـتى ليتقبـل عقلـك الصدمـة؟

ابتسـمت في سـخرية: هـل عـلى الـدم أن يتجمـد بعـروقي عندمـا أعلـم أن حمـوّي الباشـا.. المقـرب مـن البـلاط الملـكي هـو فى الحقيقـة.. فـدائي داخـل سـترة غاليـة؟ لقـد رأيـت امـرأة تنحـر عنقهـا أمـام عيـني يـا باشـا.. (قلتهـا في غـل) مرتـين! ولـم يطـرف لي جفـن مـن الصدمـة!

تنهـد في تقبـل لغضبـتي: لسـت خائنًـا لجلالـة الملـك يـا عزيـز.. بـل أعـذره لضعفـه أمـام الانجلـيز.. وأفعـل مـا يتمـنى فعلـه ولا يسـتطيع.. كل مـصري يتمـنى أن يفعـل مـا أفعـل..

واجهتـه في اتهـام: كنـت تعلـم أن داود باشـا يسـكن بجـوار مكتـبي.. لذلـك كنـت تـتردد عـليّ طـوال الأسـبوعين السـابقين.. لإعـداد الأمـر أنـت ورجالـك.. ليـس هنـاك مـن فـيروز.. ولا شـبح قتـل حبيبتـك.. أليـس كذلـك؟ فقـط كانـت قصـة جيـدة تسـيطر بهـا عـلى الطبيـب السـاذج ليتسـنى لـك فعـل مـا تريـد..

أجـاب في خجـل: بعـض ممـا قلـت صحيـح.. (زفـرت في ضيـق فعـاد مؤكـدًا) قلـت بعـض! ليـس كل.. ولا أغلـب.. ولا نصـف! فقـط بعـض!

- فلتتحدث إذًا عن ذلك الـ«بعض»..

اقـترب مـن وجهـي في حنـق: انضـج يـا عزيـز.. هـل تظـن أن مـا كل يحـدث حولـك مجـرد أفعـال عشـوائية لا يمـت أي منهـا للآخـر بصلـة؟ كل همسـة وحركـة وسر أطبقـت عليـه الصـدور.. مجـرد خيـوط داخـل عبـاءة كبـيرة مـن شيء واحـد..

غلبتني الحيرة فهدأت ثورتي: لا أفهم..

أومـأ بتجاعيـد صغـيرة بـرزت بجـوار عينيـه وكأنهـا ابتسـامة خفيـة: فلتنصـت جيـدًا.. مـن كلّـف جُلنـار بإغـوائي؟ مصطفـى باشـا الـورداني كمـا أخبرتـك.. وكمـا اعترفـت هـي لي.. أليـس كذلـك؟ سـافر ذلـك الريفـي إلى لنـدن لمحاولة تزكيـة داود باشـا عندهـم ولإجبـار الملـك عليـه لتوليـه رئاسـة الـوزراء بعـد انتهـاء الانتخابـات، في الوقـت الـذي تعمـل فيـه جلنـار عـلى تلطيـخ سـمعتي لإحراجـي وطـردي مـن السـاحة السياسـية، ولكنهـا لـم تفعـل، بـل عشـق كل منـا الآخـر، وقـررت مواجهة

الـورداني ليرفـع سـيفه عـن عنـق جُلنـار.. سر حقـير كان يهددهـا بكشـفه إن لـم تطيعـه..

اندمجت دون أن أشعر فيما قال: وما هو ذلك السر؟

تنهـد في ضيـق: طفـل أنجبتـه مـن يوزبـاشي بالجيـش دون زواج بالطبـع.. أخفتـه عـن أعـين الـكل.. ولكـن أبـاه السـاذج قـرر أن يكتبـه باسـمه ويتحـدّى الجميـع.. ولجـأ إلى زوج أختـه الباشـا الجديـد لمسـاعدته..

- وكيف عرف الورداني بأمر ذلك الطفل؟

- فى رأيك من هو زوج الأخت الكبرى لذلك اليوزباشي؟!

دفعت عبارته رأسي للوراء مندهشًا: مصطفى الورداني؟!

زفـر في يـأس: أرسـل الشـاب إلى فلسـطين بالأمـر المبـاشر، ليتفـرغ للضغـط عـلى جاريتـه الجديـدة لمصلحتـه السياسـية، الـتي تلخصـت في الإطاحـة بي.. بأمـر مـن ابنـتي.. ليـلى!

تحجـرت نظـراتي إليـه، وكأن الصدمـة أصابتـني بشـلل مؤقـت: هــ.. هـل كنـت تعـرف؟

أكمـل دون أن يهتـم: لسـت سـاذجًا، وكذلـك لـم تكـن جلنـار.. لـم نكـن فقـط عاشـقين تمـنى كل منـا أن يقـضي حياتـه بجـوار الآخـر.. وإنمـا كنـا شريكـين في حـرب.. حـرب كُتبـت عـلى المحروسـة قبـل سـكانها..

نهضـت في بـطء وتحركـت في حـيرة بـين طرقـات الغرفـة: ومـا علاقـة ذلـك بقتـل داود باشـا؟ وفيروز؟

تنبهت إلى شيء طعنني بجرح غائر بمنبت كرامتي: وأنا؟

أجـاب في حـزن متذكـرًا مأسـاته: عندمـا نجحـت في العثـور عـلى الطفـل.. كان في رعايـة نعمـة زوجـة الـورداني الأولى.. هددتهـا بسَـجن ابنهـا فـرج إن لـم تسـلمني الطفـل.. فوافقـت وهـي تعلـم أن الـورداني لـن يحميـه، ظننـت حينهـا أن الامـور وصلـت إلى نهايتهـا.. حـتى تبـدل حـال جلنـار بخيالاتهـا عـن فـيروز.. كنـت أظنهـا جُنّـت في أول الأمـر.. ولكـن بعـد أن رأيتهـا بنفـسي علمـت أن القـدر يلعـب لُعبـة أخـرى ليجبرنـا جميعًـا عـلى التوقـف عـن تلـك الحـرب الـتي أشـعلناها..

التفت لـه مكمـلا: اسـتغلت ليـلى مـرض جلنـار وزياراتهـا السريـة إلى طبيبهـا النفـسي.. وسـجنته باتهـام باطـل بانضمامـه للإخـوان.. لترسـلها إليّ وأحصـل منهـا عـلى اعـتراف بعلاقتكمـا.. حـتى انتحـرت!

هـمّ بالرحيـل: كان انتحارهـا، وإن حزنـت لـه، منجيًـا.. وإشـارة لنـا بالبـدء في الخطـوة القادمـة.. الإطاحـة بـداود باشـا!

أمسـك بمقبـض البـاب ونظـر إليّ في حـزن: قـررت اسـتغلالك في أول الأمـر كمـا فعلـت ليـلى.. ولكـن تلـك الجلسـات الـتي كانـت بيننـا.. علمـت منهـا عنـك أكـثر ممـا علمتـه أنـت عـني.. أنـت طيـب القلـب يـا عزيـز.. ولـولا أن وثقـت بـك لمـا قصصـت عليـك كل هـذا.. ولتعلـم.. أنـت الآن داخـل المعركـة سـواء رضيـت أم لـم تـرض.. فلتتبـع تعليمـاتي في الأيـام القليلـة القادمـة.. وإلا لحقـت بجلنـار!

فتـح البـاب وهـمّ بالخـروج فاسـتوقفته دون أن أهتـم بتهديـده الأخـير: وخطـاب إمتشـال هانـم؟

تنهـد في ضيـق: كان كارثـة بـكل المقاييـس.. لا تعلـم الأمـيرة أن البوليـس السـياسي يتبـع كامـل مخاطبـات الأمـيرات خـارج القـصر.. ولـم يكـن يعـني ذلـك سـوى...

أكملـت في ضيـق مـن انكشـاف الامـر: إرسـال أحدهـم لمراقبـتي! (نظـرت إليـه غاضبًـا) وهـل ظننـت أن إخفـاءه قـد يُنجـي رجالـك مـن الضابـط الـذي كان ينتظـرني بالأسـفل؟!

أومـأ في ابتسـامة مـن سـذاجتي: بـل كنـت أخـشى أن يقبـض عليـك دون أن تـدري.. ارتـاح يـا عزيـز.. ولنـا حديـث آخـر..

ومـا أن خـرج نصـف جسـده حـتى اسـتدعيته مـرة أخـرى: قلـت أنـك لا تؤمـن بالصدفـة.. فكيـف وأنـا مكتـبي تصـادف أن يكـون بجـوار مسـكن غريمـك داود باشـا؟ هـل مـا قلتـه صحيـح حقًـا.. أم أنهـا مجـرد قصـة خائبـة ألّفتهـا الآن للتسـتر عـلى خيانتـك للملـك؟

عـاد مضطـرًا وواجهـني في ثقـة: ممـن اشـتريت مكتبـك يـا بِـك بالقراريـط الـتي بعتهـا رغـم وصيـة والدتـك؟! امتلكـت المبـنى بأكملـه قبـل أسـبوع مـن عودتـك

مـن فرنسـا.. ولـولا إلحـاح أبيـك عـليّ مـا بعتـك إيـاه!

أومـأت في ابتسـامة سـخرت بهـا مـن نفـسي وراقبـت رحيلـه، أطرقـت رأسي وأنـا أقلـب عيـني أرضًـا في يـأس مـن سـذاجتي الواضحـة وهمسـت لنفـسي: أيهـا الأحمـق.. قتـل داود كان معـدًا منـذ البدايـة، شئت أم أبيـت، أصبحـت يـداك ملطخـة بدمائـه..

رفعـت رأسي في اسـتمرار لابتسـامتي السـاخرة، وصرعـت عندمـا وجدتهـا أمامـي تراقبـني في شر لـم أعهـده منهـا قبـلًا..

غلـظ صـوت ليـلى ومالـت بعنقهـا في تحديـق مرعـب وقـد سـمعت مـا قلـت دون أن أنتبـه لوجودهـا..

«وما علاقتك أنت بقتل داود باشا؟!».

-٧-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

«لقي عزيز قاسم مصرعه في حادث سيارة في الثامن والعشرين من يناير عام ٤٩»..

قالتها في برود، وكأنها أرادت أن تدفن تلك القصة البالية مع خبر موت العزيز. ظننت أن ذلك الخبر قد يثلج صدري ويربط قدميّ عن البحث وراء الخرافات. ولكنها لم تكن تعلم بأمر الرداء الوحشي. ولو علمت لقفزت من مقعدها في صدمة وشاركتني البحث ولكن.. أنَّى لي أن أخبرها بالحقيقة بعدما فعلت ما فعلت؟

قتل جلنار أصبح حتميًّا يا إيمان. أقسمت لنفسي كما اعتاد فرغلي أن يفعل «أما والله» كنت أتحرّق لإخبارها ولكن..

قصص القتل لا تروى للخائنات.. بل يكنّ أحد أبطالها!

-٨-

فرج الورداني

١٩٧٧

«القصة طويلة، ولكن من هذا الذي يسمع لعجوز خرف تخطى الخمسين من عمره، ربما لم يشتهر العِقد الخمسين من عمر المرء بعد بما يستحق أن يوصف بالكهولة والعجز، ولكن ما رأيته في الثلاثين سنة الأخيرة، ضاعف من سنوات عمري البائسة، وجعل من الخمسين مائة، إذًا.. فأنا عجوز خرف في المائة من عمره.

حسنًا إن كان الضِعف حقًا.. فهي مائة وثلاثة، ثلث ما قضى أهل الكهف في كهفهم!

ولكن لا يوجد ضِعف يؤدي بأي رقم إلى المائة والثلاثة.. ولكن.. ألم أقل أني أصبحت خرفًا؟

اعذرني يا ولدي.. تداخلت الكلمات وعاشر بعضها بعضًا.. فأفرخت عبارات غير مفهومة، فعمّك فرج مهووس بحساب الأرقام.. وحتى وإن لم يكن محاسبًا عمل سابقًا في بنك أو مصلحة حكومية، بل كان شغفه بما هو أغرب من ذلك، شغف بالأرقام حقًا ولكن من مستوى آخر. ألا تعلم ما هي النسبة الذهبية؟ إنها مهمة للغاية في عملي. عددان، إن كان مجموعهما مقسومًا على أكبرهما، يساوي أكبرهما مقسومًا على أصغرهما، فهو يساوي رقما ثابتًا هو ١٫٦١٨، وهي النسبة التي استعان بها كبار الرسامين في لوحاتهم منذ دافنشي وحتى فرج الورداني.

آه! اعذرني.. ألم أخبرك من الأساس أني كنت رسامًا؟!».

ظننت أنه سيغادر بعد تلك المقدمة المرتبكة، فمال لصبي بسيط مثله، في السادسة عشرة من عمره قرر أن يقتطع من وقت مدرسته للعناية بجاره

العجـوز أن يفهـم مـا هـي النسـبة الذهبيـة، أو حـتى يصـدق أن ذلـك الكهـل النـتن ذا الجلابيـة المتهتكـة والإلحاحـات المتتاليـة عـلى أبيـه صاحـب البيـت أن يـترك لـه غرفـة قـذرة بالبـدروم مجانًـا ينهـي فيهـا حياتـه، كان رسـامًا عبقريًـا.. لحّـن بريشـته العديـد مـن السـيمفونيات الجماليـة لمئـات النسـاء؟

ولكنـه لـم يفعـل، بـل ظـل محدقًـا بي في ضيـق وكأنـه مجـبر عـلى التلطـف معـي: أكمـل يـا عـم فـرج..

خلعـت طاقيـتي الـتي اعتـادت أن تكـون مشركـزة ولكـن.. خرقهـا الزمـن بعـدة فتحـات ممزقـة، وأصبغهـا بلونـين أو ثلاثـة مـن ألـوان القـذارة واعتدلـت: سـوف تتأخـر عـلى مدرسـتك يـا ولـدي..

ابتسـم وضـم رجليـه في تربيعـة غـير مريحـة أعـلى مقعـد الأنتريـه القديـم الـذي اشـتريته بجنيهـين مـن عـم رضـا بائـع الأثـاث، وقـال ضاحـكًا: بـل اليـوم الجمعـة.. ألـم تصـل الجمعـة يـا عـم فـرج؟

مالـت رقبـتي رغمًـا عـني في بلاهـة: عـلى زماننـا يـا ولـدي لـم يكـن هنـاك مـن يصـلي سـوى ثلاثـة: الشـيخ.. والمريـض.. والفقـير.. فأمـا المشـيخة فلـم أقربهـا.. وأمـا المـرض، فلـم يظـن الـرب أنـه مناسـب لأمثـالي، لـم أعطـس لمـرة واحـدة في عمـري.. حسـنًا.. ربمـا عطسـت عـدة مـرات ولكـن مـا أقصـد..

- تقصد أنك لم تعطس لمرض..

- تبدو أكثر ذكاءً مني عندما كنت بعمرك..

- والفقر يا عم فرج؟ ألست فقيرًا؟

ابتسـمت بنفـس البلاهـة السـابقة وكأنهـا تحولـت إلى عـادة مجهولـة الأصـل والسـبب: أيـام الملـك لـم يكـن هنـاك فقـراء.. فقـط غلابـة.. ولكـن فقـير؟ فـكلا وإلا!

ارتأيتـه كمـن أراد أن يسـأل عـن الفـرق بـين الفقـير والغلبـان، ولكنـه تعـثر في نطـق سـؤاله بإيمـاءة موافقـة مـن رأسـه، وكأنـه يمنـع نفسـه عـن التسـاؤل موافقًـا عـلى مـا همـسٍ اسـتقر بأذنـه «هـذا الرجـل أبلـه ولا فائـدة مـن مناقشـته»، ثـم نهـض وهـو يعيـد آخـر أزرار قميصـه السـفلية إلى مكانـه بعدمـا انفـرج مـن انتفـاخ

معدته أثناء جلوسه.. فقد كان شابًا بدينًا: سمعت أبي وهو يتحدث مع أمي أثناء فورة الورق.. يلعبان الـ «كونكان» ليلًا كما تعلم لتصرفه أمي عن شرب السجائر.. مر الآن شهر ونصف على إقلاعه عنها (هذا الشاب كثير الكلام حقا) أخبرها أن السادات قال: من لم يصبح غنيًا في عهدي فلن يصبح أبدًا.. فربما يكون أفضل من الملك خاصتك..

خاصتك؟!

هذا الشاب ذكي وكثير الكلام.. والآن ذو لسان أطول من قامته السمينة.

هاجمته في فوقية المسنين على غيره من الصغار: تبدو صغيرًا لتتحدث في السياسة.

استشعر هجومي فرده في وقاحة وهو يرتب لي الغرفة كما أوصته والدته: وتبدو كاذبًا بشأن كونك رسامًا وأحد كفيك ينقصه إصبع!

ارتج صدري من إهانته، فلطالما عانيت من تلك العاهة التي أصابت يدي بعد ثلاثة أيام فقط من يوم مولدي، واعتدلت له في حنق: هل انتهيت؟

مد يده أمام وجهي في صفاقة: الجنيه!

نسيت أن أذكر أنه يجالسني ويرتب غرفتي القذرة مقابل جنيه في الأسبوع.. ولكن.. ألم أقل من قبل أني خرف ينسى أكثر مما يتذكر؟

عمر المائة والثلاث يصنع أكثر من ذلك برأس العجائز..

فردت ذراعي بالنقود في وجهه، وكأني أطلب منه الرحيل في مقابل ذلك الجنيه، وليس في مقابل عمله البسيط بإشارة إلى الباب، ففى لحظة وثانيتها لم أعد أرغب في رؤيته وقد لوح بعاهتي أمام وجهي..

أذكر كم من المرات التي عيّرنى فيها الجميع بإصبعى المفقود، منذ جيراني الصغار بأرض والدي اللعين في البلد ونحن نبذر البذور بمتعرجات الكتل الطينية لأرض الباشا، وزملائي في المدرسة الابتدائية وأنا لا أكاد أملك مهارة وعبقرية الكتابة بالقلم، و«خوجة» اللغة العربية بنفس المدرسة وأنا أتلقى ضربات «خرزانته» على كف بأربع أصابع، وحتى الساقطات اللاتي اعتدت على امتطائهن ليلًا وفجرًا وأحيانا ظهرًا في شبابي.. ولست حقًا هذه

المـرة في حاجـة لذكـر سـبب معيرتهـن لي لغيـاب الإصبـع!

إلا واحـدة لـم تذكـر الأمـر عـلى الإطـلاق.. قابلتهـا لثلاثـة أسـابيع فقـط مـن سـنوات عمـري اللاهثـة ثـم اختفـت مـن حيـاتي الهادئـة، وجلبـت برحيلهـا حيـاة أخـرى مـن المـآسي والأحـزان.

آااهٍ.. لمـاذا أذكـرك يـا جُلنـار؟ وقـد طاردتـني شـياطين الإنـس والجـان إلى جنتك، عـادوا مطالبـين بحقهـم في شـجرة الخُلـد الـتي نبتـت مـن دمـع عينيـكِ. لمـاذا يـا جُلنـار؟ لمـاذا؟

كنـت حينهـا في نهايـة العِقـد الثـانى مـن عمـري، شـابًا فتيًّـا ولكـن في الوقـت نفسـه سـاذجًا غبيًـا، رأيتهـا للمـرة الأولى بغرفـة نـوم والـدي، ولا أرغـب حقًّـا في وصـف تلـك الليلـة حفاظًـا عـلى ذكـراه حـتى وإن كان شـيطانًا تمنيـت موتـه في كل يـومٍ وليلـة، ولكـن.. فوجئـت بهـا مـرة أخـرى بقـصر أفنـدار الـذي وهبتـه لي زوجـة أبي سرًا لأتخـذه مرسـمًا ولاحقًـا ربمـا يكـون معرضًـا للوحـاتي الصبيانيـة. وجدتهـا تقـف أمـام بـاب القـصر، تمامًـا كمـا كانـت تقـف أمـام تلـك النافـذة وهـي عاريـة، يتنفـس جسـدها البـض ضـوء القمـر الأزرق، لكنهـا وقتهـا كانـت تقـف بمـلاءة لـف سـوداء، أحاطـت جسـدها في التفـاف جـذاب، في ليلـة اختفـى منهـا القمـر هـذه المـرة.

كانـت تواجـه البوابـة الحديديـة العتيقـة وهـي تمسـك بمجمـع إصبعيهـا طـرف المـلاءة وتجذبـه كجنـاح مفـرود لطائـر مغـرد، لتخفـي مـا ظهـر مـن وجههـا، اقتربـت مـن وقفتهـا دون أن تـراني، وانتهـزت فرصـة أن أراد الـرب ألا يخلـق لأحدنـا عينـين في مؤخـرة رأسـه، والتصقـت بهوائهـا الـدافئ واشـتممت عطرهـا كمـا تمنيـت أن أفعـل ليلـة رأيتهـا... وعندهـا..

علمت أن الرب قد اختارها دون الجميع ليكسر بها قاعدة الخلق..

حيـث نطقـت دون أن تلتفـت في صـوت متهـدج ذي بحـة مثـيرة وكأنهـا رأتـني حقًّـا: كنـت عـلى وشـك الرحيـل!

ابتعـدت عـدة خطـوات لا أذكـر عددهـا إلى الـوراء منتفضًـا في صمـت، ولـم يغلـف صمـتي سـوى صـوت أنفـاسي المتسـارعة، الـتي اختلطـت أسـباب سرعتهـا

مـا بـين الحـرج مـن موقفـي، والشـهوة المسـتعرة تجـاه جسـد مـن اسـتدارت لمواجهـتي.

رفعـت سـتائر أهدابهـا السـوداء ورمقتـني بعينيهـا الماسـيتين في هـدوء: عليـك أن تعتـاد عـلى حفـظ مواعيـد الأمـيرات..

عقدت حاجبيّ في حيرة لم تناسب خجلي: الأميرات؟

اقتربـت مـن جسـدي فانتصبـت في قلـق: ألـم تخـبرك زوجـة أبيـك؟ معـالي الماما كمـا تسـميها؟

مـا دام علمـت ذلـك اللقـب فلابـد أنهـا قابلتهـا حقًـا: أخبرتـني أنهـا سترسـل سـاقطة وليـس اااا...

تعـثر لسـاني والتـف حـول نفسـه معتـصرًا عبـارتي في قـوة آلمتـني، انتبهـت لدعـوتي لهـا بالسـاقطة، بعدمـا علمـت أنهـا أمـيرة علويـة وافقـت عـلى مطلـبي الفـج برسـمها عاريـة، بينمـا نظـرت هـي أرضًـا في هـدوء ومالـت بعنقهـا في تهكـم: لـم أظـن أن مـن مثلهـا قـد تتفـوه بتلـك الألفـاظ..

ضربت برأسي الأرض خجلًا: أعتذر يا سمو الأميرة، ولكن...

نظـرت إليّ مـرة أخـرى في ابتسـامة بائسـة: ولكنهـا لـم تخطـئ وإلا لمـا ناشـدتني العـراء لشـاب مثلـك!

غابـت شـهوة الجسـد واعتلـت أمـواج الألـم بضربـات قويـة لشـاطئ روحـي، فاقتربـت منهـا آسـفًا، وقـد اهـتز قلـبي لمأسـاة أحاطـت بهـا ولـم أفهمهـا: ربمـا.. ربمـا ترغبـين في التراجـع عـن قـرارك..

انفرجـت شـفتاها القرمزيتـان لابتسـامة عريضـة وأثقلـت جفنيهـا في هـدوء: بـل ندخـل مـن فضلـك.. فالجـو أصبـح بـاردًا..

لـم أدر حينهـا أجـرت بجسـدي رعشـة النشـوة لاسـتمرارها في ذلـك الاتفـاق المخجـل، أم كانـت لشـعوري بالذنـب تجاههـا؟! فأنـا مـن يسـتغل أحـزان امـرأة مـن أجـل غـرض فـني تافـه.. ولكـن...

- هيا!

قطعت حبل أفكاري بنصل ندائها، فتحركت خلفها، وبينما استعدت لعبور البوابة حتى بدأت لوحتي في رسم نفسها في الحال، حيث رفعت بكفها الأبيض ذي الانحناءة الناعمة فروع الأشجار الميتة، التي تشابكت على درفة الباب الحديدي الصدئ، وارتعشت يدها وهي تدفعه للأمام من الصقيع الذي ألم بمعدنه، بطريقة اهتز لها كامل جسدها للحظة قصيرة، فأفاضت على عيني بانحناءة أخرى لذلك الجسد المثالي.. فوقع قلبي ودُفِنَ أسفل قدمي.

تحركنا في خطوات إلى داخل القصر، فعبرنا حديقته المقفرة، التي أيتمتها ظلمة الليل وعصفت بأوراقها رياح الشتاء حتى أنها أصدرت صوت صفير هادئًا، وكأن كل ورقة نمر عليها تصرخ لأختها الغافلة بنبأ مرور أحدهم عليها. وتعالى الصفير تدريجيًا وكأنه احتفال مبهج بوصولنا بعد أعوام مزقت فيها الوحدة الأغصان الخضراء، وتحول ندى زهورها إلى ما بدا أنه دموع الفرح. كم أنتِ جميلة يا سمو الأميرة. حتى الأوراق تبكي فرحًا لاستنشاق عبيرك.

وبينما كان الطريق طويلًا ما بين تلك البوابة والقصر، عبرنا ذلك الممر وهي تحدثني دون أن تلتفت إليّ كعادة اكتسبتها منذ لقائنا القريب: هل ظننت يوم رأيتني بغرفة أبيك أن أكون بطلة لوحتك ااا...

قاطعتها رغمًا عني: فضلًا.. توقفي عن إهانة نفسك!

توقفت حقًا ولكن عن الحركة واستدارت لي: ولم ظننت أن في سؤالي إهانة؟

هربت من نظراتها وابتعدت ببصري إلى زهرة تربت على كتف أختها لتهدئها من بكاء الفرحة مع هواء الليل المظلم: تربيت على قصف الروح بالمعيب سمّوك.. وإن سمعت بعضًا منه وإن كان خفيًا.. يقع في قلبي من فوره..

حفرت هوة حسناء بباطن وجنتها اليسرى جاءت بصحبة نصف ابتسامة: هذا إن أهنتك أنت.. ولكني أهين نفسي كما قلت..

نظرت لها أخيرًا وقد تحررت من الخوف بفعل الشفقة: لستِ أول من يطعن قلبه بيده سمّوك..

عادت إلى سيرها وقد أكملت نصف الابتسامة بنصف آخر اختبأ خلف

تطاير خصلات شعرها بالتفاتها: ربما لم تكن ساذجًا كما ظننتك..

ابتسمت للمرة الأولى وأنا أتبعها وقد احترفت بلاغة الغزل: كنتِ على حق عندما ظننتِ بي السذاجة.. فمن هذا الذي يرى حُسنك ويحفظ وقاره؟

- وشاعر أيضًا.. يسعدني أن أخبرك يا ولدي أنك «ابن حرام»..

تسمرت قدماي لعبارتها، فانتبهت إلى تأخري عن اتباعها، فعادت في أريحية بعدما سبقتني، وقد تخلت عن الرسمية وجذبت يدي لتسوقني مرة أخرى للتحرك، وما أن مدت ذراعها لتمسك بيدي حتى سقطت الملاءة عن كتفها، فأضاء القمر وجهي لكنه الآن لم يأت من السماء، وإنما من إشراق جسدها: لا تغضب هكذا.. أقصد أنك لا يمكن أن تكون ابن الورداني.. فشاطئ المالح لا ينجب نهرًا طيب العذوبة..

أوقفتها عن الحركة وقد قبضت على يدها في خشونة كما يفعل الفلاحون، فرفعت عينها إليّ في قلق، وقد تحجرت ملامح وجهي: ولكني لم أغضب من عبارة «ابن حرام»..

راقبتني في حيرة قلقة وعينها تتراقص بين قبضتي على معصمها ووجهي المتحجر، فملت على عينها وكدت أن ألتصق بوجنتها فارتعشت في خوف: ولكن من كلمة ولدي.. لست صغيرًا يا معالي الماما!

راقبت قسمات وجهي التي انفرجت تدريجيًا لابتسامة لم تلبث أن اتسعت لضحكة عالية، فزفرت في اطمئنان غاضب وضحكت هي الأخرى، فبرقت ضحكاتها حتى أضاء الليل وضربت كتفي: أوقعت قلبي يا ابن الحرام..

ضحكت لها وتحركت معها إلى بوابة القصر الداخلية: تتحدثين كبائعة جرجير يا سمو الأميرة..

عدلت الملاءة على رأسها في قوة مازحة وغطت نصف وجهها بها كحبرة معتمة فلم تظهر إلا عينيها الكاحلتين: بل كوسة يا أفندي.. خدامتك فاطمة..

أقسم أن أذني لم تطرب لصوت هز الفراغ كما طربت لصوت ضحكاتها في تلك الليلة، ولم أصدق حقًا أن ذاب ثلج لقائنا الأول بتلك السرعة، فقد كنت فلاحًا ساذجًا ربما أسرف في قراءة بعض الأشعار وحلق برأسه في خيال

الكلمات والألوان وهو يتدلى من أعلى ساقية بلده الريفي وهي تدور حول محور ثابت من البلاهة، وكانت أميرة علوية فائقة الجمال والمقام. كيف لمن مثلي أن يمزح مع من مثلها؟ كيف لمن مثلي من لم تلمس أنامل امرأة جسده من قبل أن يستقبل قبض كف تلك الفاتنة على معصمه ويقابل ضربة منها على كتفه دون أن يغشى عليه من فرط الصدمة؟ كانت جلنار حقًا خلقًا استثنائيًا للرب، فلجمالها سحر يأسر الناظرين ويعقد أجسادهم من الشهوة، ولضحكتها وبساطة روحها ترياق لهذا السحر، حتى تشعر أنها ولدت إلى جوارك، كأخت أو أم أو ابنة طال انتظارها، فلا تشتهي منها إلا ابتسامة تعبر أمام ناظريك كنسمة هادئة ذات عبير زهري.

وصلنا إلى الباب الخشبي أخيرًا، وقد ظننت أننا لن نفعل إلا بعد دهرٍ كامل من السير، كان الباب خشبيًا هذه المرة، بني اللون، ولكن اختبأت بنيته أسفل طبقة رمادية من خيوط عائلة من العناكب استقرت به بيتًا وتوارثته لأجيال وأجيال، حاولت أن تفتح الباب بكفها الصغير فاستعصى عليها، وعندها تقدمت أنا وضربته بكتفي في قوة مبتسمًا، وكأني كنت أتفاخر بقوتي. عبرت وقفتي في صمت وهي تضم رأسها إلى صدرها لكتمان ضحكة فلتت منها، في سخرية من شعوري برجولتي لمجرد دفعة كتف لباب قديم.

دلفنا إلى القاعة المظلمة، وبمجرد أن وطأت أقدامنا أرضية تلك القاعة حتى هبت ريح الصقيع تعصف بوجهنا من أسفل قدمينا، كانت الأرض رخامية، تساءلت سرًا وربما تساءلت هي أيضًا، من ذا الذي يبنى قصرًا بأرضية رخامية فاخرة إلى تلك الدرجة؟ مرت ثوانٍ في سيرنا إلى الداخل. وتباعدت الجدران من حولها من فرط اتساع ما بينها من بلاطات ومن علو ارتفاعها، بحثت عما أخبرتني به معالي الماما عن قناديل شمعية فضية قديمة تضيء لنا الظلام، وبينما كنت أفعل، رأيتها تقف أمام إحدى اللوحات التي ورثها فرع آخر من عائلة العناكب الرمادية.

كانت تتأمل لوحة ضخمة لضابط تركي ذي شارب غليظ داخل ملابس عسكرية فاخرة ووشاح أحاط بجسده من إحدى كتفيه وحتى خصره، وإلى جواره تجلس امرأة فاتنة في رداء شديد الاتساع والاستدارة حول جلستها.

كانـت صـورة زواج كمـا ظننـت لمالـك ذلـك القـصر وزوجتـه جـدة حوريـة هانـم زوجـة أبي. ولكـن كانـت نظـرة جلنـار إليهـا توحـي بـأن تلـك الصـورة تحمـل معـاني أخـرى.

انهمكـت في البحـث داخـل الدواليـب الخشـبية العتيقـة والمزخرفـة بـبروز معقـود في جمـال تـركي عـن القناديـل الفضيـة، بينمـا نطقـت هـي وكأنهـا تحـدث نفسـها بعـين تعلقـت باللوحـة: تبـدو كعصفـور رقيـق تحـت إبطيـه..

التفت لها في بلاهتي المعهودة: هه؟

نظـرت إليّ بجانـب عينهـا: هـل رأيـت حبًـا كهـذا مـن قبـل؟ آه.. تذكـرت.. لازلـت صغـيرًا عـلى أن تـرى الحـب والكراهيـة..

اصطنعـت انهمـاكًا في البحـث: بـل رأيـت.. رأيـت حـب أمـي لـذل أبي.. ورأيـت كراهيـة عيـني لطلتـه..

شـعرت باسـتدارة جسـدها تجاهـي وعيـني معلقـة عـلى عمـق الـدولاب الخشـبي المفتـوح بحثًـا عـن الـلاشيء، اقربـت مـني واسـتمعت لصـوت احتـكاك ملاءتهـا الحريريـة بجسـدها أثنـاء اقترابهـا في غمـرة ذلـك الصمـت الـذي أحـاط بالقاعـة المظلمـة: أتسـاءل دومًـا.. لمـاذا خلقـت حـواء إن كان الأمـر كلـه بيـد آدم؟

اعتدلـت مـن انحنـاءتى وواجهتهـا، فوجدتهـا أقـرب ممـا كنـت أتصـور: لتخرجـه مـن الجنـة!

نظـرت إليّ متعجبـة فأكملـت: فيحمّلهـا ذنـب إخراجهـا لـه.. ويمتطـي عنقهـا ذلًا وعقابًـا.. فتزيـد مـن غوايتهـا لـه انتقامًـا.. حـرب أبديـة يـا سـمو الأمـيرة.. بـدأت بضلـعٍ أعـوج.. وانتهـت بفاكهـة محرمـة!

شـحب وجههـا حـتى في الظـلام لمـا قلـت، وكأن عبـارتي لمسـت مـن قلبهـا وتـرًا مشـدودًا: أتعلـم؟ لقـد جمعـت بـين الاثنـين.. خرجـت مـن الضلـع الأعـوج.. وأقسـم أني وصفـت نفـسي لأبيـك كفاكهـة محرمـة..

شـعرت بنشـوة التناظـر وربتـت عـلى كتفهـا بيـد مرتعشـة، وكأني أتلمـس الأعـذار للـتزود مـن جمالهـا باللمـس: الضلـع الأعـوج كان لآدم حـتى وإن خرجـت منـه حـواء.. وهـو أول مـن قضـم الفاكهـة وهـي تبعتـه.. الذنـب كلـه عـلى عاتقـي آدم..

أما حواء فكانت سببًا فقط لكي يريح ضميره ويُلقي بالمسؤولية على غيره حتى وإن كان ذلك الـ «غير» أحب الناس إليه.. هكذا هي الدنيا سموّك، نبحث عن الحبيب ليتحمل عنا ذنب عشقنا له!

راقبتني في تعجب بالغ ومالت بعنقها: ألم أخبرك أنك ابن حرام؟!

ضحكت فابتسمت وقد فهمت مقصدها، فربما تساءلت، كيف لصبي تافه مثلي أن يناقش قضية الخلق بتلك الفصاحة، وأنا ابن الفلاحة المنسحقة ووليد الباشا المتعجرف، أجبت نفسي حينها، ربما من كم الكتب التي قرأتها أعلى ساقية أرض الباشا في قيظ الظهيرة، أو حتى من أشعار الشيخ أحمد الزين شيخ الكتاب عندما كان يتجلى بصوته سرًا أمام الأطفال السذج وهم يرددون الآيات القرآنية حفظًا، مسافرًا في عشقه بسرد أبيات الغزل في وصف حبيبته المتوفية.

أذكر أني سمعته في مرة ونحن نردد في صراخ الرضع سورة التكوير، وقد وصلنا إلى آية «وإذا الموؤدة سئلت»، فأكمل متنهدًا «بأي ذنب قتلت!».. ثم غرد بشعر لم أنسه من وقتها..

«ومن التراب جئنا بنفخة من أزل.. وإليه عدنا ببدٍ للعدم..

إلا وريقة النخل شامخة الأجفان.. سُعاد الفؤاد، نبيّة الألم

حاشا للثرى ضمًا لعودها.. وحاشا لقلبي حنثًا للقسم»

أذكر أني قطعت اندماجي في ترديد الآيات مع زملائي، وقفزت على جلسته بحصيرة متكئه الخشبي وسألته: قول لي يا شيخ.. من الخالة سعاد هذه؟

ابتسم لي رغم غلظته المعتادة، وعلقت عيني على خرزانته مستعدًا لضربة أخرى لها، لكنه وضعها إلى جواره وقال: من أمالت عِمّة شيخك يا ولد.. ولطخت وجهه بطين عشقها..

أجبته في براءة الأطفال: أرض الباشا تطرح الطماطم.. ولكن طين الـ.. العـ.. عشك.. هذا.. محصول أرضه.. ماذا؟

نظر إليّ في بؤس: الوجع يا ولدي.. الوجع!

شردت في إجابته ولم أفهمها في حينها، لكنه لم يستمر في هدوئه طويلًا،

حتى انتبه لنفسه فجأة وأزاح جسدي بالخرزانة في غلظة: انزل يا ولد وأكمل.. انزل يا ابن الفرطوس!

فعلت، وجلست أرضًا، يردد الأطفال البلهاء «والليل إذا عسعس»، بينما رددت أنا سرًا «الخالة سعاد الفؤاد.. ونبيّة الألم».. ولم أغفل عن قول «الليل عسعس» فدون أن أشعر أو حتى أفهم، كان كل من العبارتين متصلين بطريقة ما!

عبرت الأميرة وقفتي واتجهت إلى النافذة العالية، التي ابتعد مقبضها عن مستوى رأسها، فخلعت حذاءها الأنيق، وشهقت من تلامس باطن قدمها الثلجية بصقيع الرخام الأرضي فانتبهت لها، وعندها رأيت الجزء الثاني من لوحتي وهو يرسم نفسه.

شبّت على أصابعها العارية، ومدت يدها لتدير مقبض النافذة الصدئ: لا أظن أنك ستجد ما يضيء تلك الليلة.. فلندع تلك المهمة لضوء القمر..

عدت إلى بحث سريع مرة أخرى: تلك الليلة بلا قمر..

فتحت النافذة العالية فأطاحت بها عدة خطوات بعيدًا: نحن بمنتصف الشهر العربي يا أبله.. ربما كان السحاب يحتضنه فقط..

كانت على حق، فما أن فتحت النافذة حتى ضرب ضوء القمر الأزرق وجهي، وأفاض من النافذة بحزمة غليظة أضاءت القاعة بضوء هادئ، لم يكن مبهرًا ولا باهتًا، فقط كان مثاليًا..

كانت على حق، ولكن كتل السحاب لم تكن تحتضنه، بل قبة ذلك القصر المرتفعة، وما أن أصبحنا داخله حتى أطلت نافذته على جانب السماء الآخر.. وقمرها المضيء.

لم تتحرك الأميرة بعيدًا عن النافذة، بل ظلت في مكانها، بينما اتجهت أنا للأثاث القديم وبدأت في إزالة ملاءاته البيضاء التي كفنته، وبينما كنت منهمكًا في عملي، لمحت بطرف البصر وقفتها لدى النافذة ـ فانخلع قلبي. كانت تشبه وقفتها العارية أمام نافذة غرفة والدي، وأفاض ضوء القمر عليها كما فعل من قبل وكأنه عشيقها الذي اشتاق لإنضاج جمالها بلمساته

المضيئـة مـرة أخـرى.

ضربـت الهـواء بإحـدى المـلاءات البيضـاء، فتتطايـرات منهـا عاصفـة مـن الاتربـة، انزعجـت لهـا ومـن غبـائي للحظـة، ولكـن.. اكتملـت اللوحـة الآن حقًّـا.

تداخلـت ذرات الـتراب مـع حزمـة الضـوء الأزرق أمـام وجـه الأمـيرة، وتهـاوت ببـطء أمـام عينيهـا وهـي تنظـر إليّ في هـدوء، كانـت لوحـة حيـة للجمـال الفطري، اهـتزت ركبـتي هـزة غريبـة وكأن قدمـيّ لـم تتحمـلا مـا رأيـت.

كنت صبيًا حقًّا.. لم تتحمل قدماي وطأة الصلاة في حضرة الفتنة الجمالية.

لمحـت تعلقـي بلوحتهـا فاقتربـت مـني في خطـوات بطيئـة ووجـه تتقلـب ألوانـه تحـت ضـوء القمـر واختفائـه خلـف حركتهـا: أعلـم أنـك تريـدني منـذ أن رأيتـني مـع أبيـك..

دافعت في قوة: كلا بالطبع!

اقتربت أكثر: لا يطيل الكذب عمر الأغبياء!

تلعثمـت بحثًـا عـن الـرد: لا يجـوز ذلـك.. فهـو.. فهـو.. فهـو.. (عـثرت عـلى الكلمة غـير المناسـبة).. حرام!

بسـطت حاجبيهـا في تعجـب باسـم: حـرام؟ لـم أكـن زوجتـه حـتى أحـرم عـلى ولـده.. ثـم ااا..

وضعـت ذراعهـا عـلى عنقـي: أيهـا أكـثر حرامًـا.. معـاشرة الابـن لامـرأة الأب؟ أم الزنـا في حـد ذاتـه يـا ابـن الحـرام المثقـف؟!

اقـترب وجههـا مـن وجهـي حـتى هـرب الهـواء مـن بينهمـا ولـم تبـق غير أنفاسـنا الدافئـة وسـط الصقيـع، ألقـت بعينهـا تعويـذة أسرتـني فلـم أتمالـك نفسي مـن القـول متهدجًـا مـن الارتبـاك، وشـابت نـبرتي لمحـة مـن حـزن لـم أفهمـه: لــ.. لـم.. لـم أقبّـل امـرأة مـن قبـل!

لـم تبتسـم هـذه المـرة، ولـم يطـرف جفنهـا، بـل ألصقـت وجههـا بوجنـتي فاشـتعلت متصلبًـا، وفرجـت شـفتيها القرمزيتـين فبـدا كل منهمـا كبوابـة قـصر أكـثر إشراقًـا مـن قـصر أفنـدار نفسـه، راقبـت تعرجـات شـفتها العلويـة برسـمها المنحـني النـاعـم، ومظلـة شـفتها السـفلية وهـي تلتصـق بفمـي. أدارت أقفـال

بوابتها الناعمة على شاربي الصغير الذي لم أحلقه بعد لينبت، واعتصرت في حريرية لم أعهدها من قبل شفتي بين شفتيها، فانعقدنا في قبلة كانت الأولى في حياتي.

دار القصر في عيني، واقتربت أرضيته الرخامية من وجهي، وغاب بصري في رؤية ضبابية أبعد وجهها عني، وعندها شعرت لآخر مرة بارتطام جسدي أرضًا!

أغشي عليّ حقًا من قبلتها وكان آخر ما سمعته منها كان: يا إلهي!

قالت الأميرة حقًا «يا لهوي».. أي أميرة؟ لقد قالتها فاطمة!

غلب الظلام جفني وتهت في عالم الإغماءة ولم أستفق إلا على صوت نسائي قبيح..

«الخضار»..

فتحت عيني في بطء، قلبت نظري بحثًا عنها فلم أجدها، بحثت عن المرأة التي تحدثني، وما أن رأيتها حتى امتقع وجهي في ضيق: صوتك يشبه النساء يا ولد!

رمقني «علي» بنظرة حنق وهو يحمل «حقيبة» الخضار البلاستيكية: الخضار يا عم فرج.. وحل عن رأسي اليوم فلن أطيق إهانتك..

اعتدلت من فراشي المعدني الصغير باسمًا: لا تغضب هكذا يا ابن الحرام!

التفت إليّ منزعجًا وأفلت بيده مدية لم أعلم من أين جاءت وصاح في غضب وهو يضربها بالهواء لينفرج نصلها: ماذا قلت؟!

ضربت رأسي في خجل، فلقد اختلط حلم جلنار ونداؤها، بندائي للصبي «الشرّاني»، فابتسمت معتذرًا له: على رسلك يا ولدي.. اعذر عمك البائس.. فلقد كنت أحلم بشيء ما وتعثر لساني في بقاياه..

لم يغلق مطوته وأكمل في جمود: لست صغيرًا للدرجة يا أحمق.. اضبط حديثك وإلا!

حاولت النهوض إليه في هدوء لأربت على كتفه، ولكن.. حال ألم ظهري

بيـني وبـين الانتصـاب، فبحثـت بيـدي عـن عصـاي، فتحـرّك رغمًـا عنـه وجذبهـا متنهـدًا وتقـدم ناحيـتي، فضحكـت مـن هيئتـه، يحمـل عصـا تسـند شـيخوختي بيـد، ومطـواة تنهـي تلـك الشـيخوخة بيـد أخـرى. أمسـكت العصـا واسـتندت عـلى كتفـه فأكملـت نهـوضي، فبـدا اسـتنادي عـلى جسـده احتضانًـا: انـت طيـب القلـب يـا عـلي..

أغلـق مطواتـه وابتعـد في ضيـق: أعلـم ذلـك! وهـو مـا يشـجع أمثالـك عـلى اسـتغلالي..

أكملـت متحـركًا: ولكـن لا أرتـاح لحملـك لتلـك المطـواة.. عـلى زماننـا.. كان مـن في مثـل سـنك لـم يلبـس بنطلونًـا طويـلًا بعـد..

جلـس كرجـل ناضـج: عـلى زماننـا نحـن، وفى هـذا البلـد، يكـبر الولـد قبـل أبيـه.. السـادات قـال بالأمـس إنـه سـيذهب إلى إسرائيـل.. ربمـا لـم يكـن أفضـل مـن الملـك خاصتـك..

اتجهـت إلى فجـوة بالغرفـة اعتـدت أن أسـميها «مطبخًـا»، وبـدأت في إعـداد الإفطـار، وكان كالعـادة «جبنـة قديمـة وورقـة خـس»، بينمـا جلـس هـو في شرود متجنبًـا النظـر إليّ فأجبتـه: ومـا يضـيرك أنـت في ذلـك.. ابتعـد عـن السياسـة و..

وضـع المطـواة في جيبـه، ورفـع رجليـه لتربيعـة أخـرى أبـرزت بطنـه الممتـلئ وقاطعـني: توقفـوا أيهـا العجـزة عـن وصـف مـا يؤرقنـا بكلمـات كبـيرة كالسياسـة والنظـام وغيرهمـا لتصرفـوا أنظارنـا عنهـا.. (اعتـدل في غضـب) في رأسـكم فقـط.. الفقـر سياسـة.. التعليـم سياسـة.. والخيانـة سياسـة!

اقتربـت منـه بخطـوات متعرجـة مسرعًـا في رد فعـل اعتـدت عليـه: اكتـم فـاك يـا ولـد.. أتصـف الرئيـس بالخائـن؟! سـيقبضون عليـك!

قطـع صـوت غليـظ جملـتي وفـرج البـاب بقبضتـه: اسـتيقظ يـا عـم فـرج.. انتهـت المعتقـلات وراح زمانهـا.. عبدالنـاصر مـات ألـم تسـمع بالخـبر منـذ سـبع سـنوات؟

كان المعلـم رمضـان والـد «عـلي» وصاحـب غرفـتي الضيقـة، اقـترب مـن جلسـتنا فلـم يهـتز لولـده طـرف مـن وصـول أبيـه ضخـم الجثـة. سـحب رمضـان

طرف جلابيتـه وأجمعـه في كفـه وجلس إلى جـوار ابنـه فأجبتـه: أنتـم لا تفقهـون شـيئًا.. أفسـدكم التلفـاز الملـون! حـتى أن الابـن يجلـس في حـضرة أبيـه!

علمـت أن نقـدي لأخـلاق «عـلي» كان واضحًـا ولكنـه لـم يؤثـر، فضحـك رمضان وهـو يشـير لولـده آمـرًا: الشـاي يـا علي..

نهـض عـلي تجـاه فجـوة المطبـخ، بينمـا اعتـدل الأب تجاهـي فأكملـت: لـو كان ذاق أحدكـم مـرار السـجن.. لمـا قـال هـذا!

مال عنقه في تعجب: أكنت معتقلًا يا فرج؟!

غــاب الــرد عــن لســاني الــذي أوشــك أن يُقطــع ســابقًا داخــل ســجون أبي عبدالنــاصر، تذكـرت مأسـاتي فاهـتز جفـني وأشـحت بوجهـي دون رد.

أبي عبدالنـاصر أليـس كذلـك؟ آااه.. لمـاذا كل أب اختـاره القـدر لي بحكمتـه، أو اخترتـه بحماقـتي يـدق عنقـي ظلمًـا وقتـلًا؟

تجـاوز صمـتي: حسـنًا إذًا.. جئـت إليـك لأمـر هـام يـا فـرج.. عليـك أن تبـدأ بدفـع الإيجـار..

خلعـت طاقيـتي القـذرة في وجـل: مــ. مـاذا؟ لقـد اتفـق معـك الشـيخ سـالم أن تكـون الغرفـة مجانيـة!

قاطعـني بكـفٍ أشـار بـه في وجهـي لأصمـت: كانـت مجانيـة لسـبعة أشـهر، ولكـن الآن.. لـن أكـذب عليـك.. جـاءني شـاب مـن أسـيوط يـدرس بالأزهـر ويريـد أن يؤجـر الغرفـة بمبلـغ سـخي يدفعـه أبـوه شـيخ البلـد.. هـل أرفضـه؟

تنهدت وعدت إلى سابق عهدي: على زماننا كانت الكلمة عقدًا..

خـرج عـلي مـن الفجـوة: ألا تحفـظ غـير تلـك الكلمـة أيهـا الخـرف.. «عـلى زماننـا»؟

أغلقـت عيـني في ضيـق مـن جملـة الصـبي الوقـح، فصرفـه أبـوه في أمـر غليـظ: ضـع الشـاي وارحـل يـا ابـن المكنسـة!

خـرج عـلي دون رد، بينمـا مـال عـليّ رمضـان في لطـف: فـرج! لسـت قاسـيًا وأنـت تعلـم ذلـك.. ولكـن.. ليـس فقـط ذلـك الشـاب الريفـي هـو سـبب الأزمـة.. وإنمـا

تلك الخيالات التي تراودك.. بدأ الجيران يشكون إليّ من صراخك في وجوههم ظنًا منك أنهم أشخاص عرفتهم من قبل وماتوا.. أو لم يفعلوا.. لا أعرف حقًا.. ولكن ذلك الخرف الذي أصابك.. ااا..

أطرقت رأسي في حرج: إنها نوبات متفرقة يا معلم.. وليست ااا..

قاطعني مباغتًا: من عزيز قاسم يا فرج؟

لم أشعر إلا وانتفضت مبتعدًا عن جلستنا، سيطرت عليّ حالة من الهلع أفزعته: لا.. لا تذكر ذلك الاسم مرة أخرى!

نهض في مواجهتي بقسوة: لقد سألت عنه وعلمت أنه مات منذ ربع قرن! فلم تظن أنه يلاحقك!

صحت به: اصمت يا رمضان ولا تذكر اسمه!

حاصرني بصوته الرنان: ومن فيروز إذًا؟!

صرخت كالأطفال والتصقت بدولابي القديم حتى سقطت درفته الهشة أرضًا، كان يشهر في وجهي أفظع كوابيسي وطأة على رأسي: ســ.. سأترك لك الغرفة باكرًا.. فقط ارحل!

امتقع وجهه في ضيق، بالرغم من نظرة الشفقة التي لم تختف: حريٌ بك أن تفعل.. وإلا فلتسامحني.. سأرسل للخانكة للقبض عليك.. لحمايتك من نفسك!

واتجه للخروج، فاحتضنت الجدار خلفي كالمجاذيب بعد جلسة كهرباء قاسية، وجسدي ينتفض دون تحكم مني. لماذا يا رمضان. لقد عانيت لسنوات لنسيان ذلك الأمر. ولكن بما أنه قاله، فلابد أن تلك النوبات اللعينة تؤكد أني لازالت أذكره حتى وإن كنت بلا وعي حينها.

اعتدل تجاهي قبل أن يختفي خارج الباب وقال: جاء ذلك الرجل مرة أخرى وسأل عليك وأنت نائم.. أخبرته أن يعود بعد صلاة العصر.. وها قد وجبت.. فأصلح هندامك.. فربما يأتي بمصلحة إليك..

حدثته دون أن أنظر إليه: لا أريد أن أقابل أحدًا.. لا أعرف أحدًا.. ولا أحد يعرف مكاني..

غـادر بجملـة أخـيرة: وأنـا لسـت صبيًـا بورشـتك لأتحـدث باسـم معلمـي.. فلتطـرده إذا أردت!

واختفـى بصفعـة للبـاب خلفـه، تهـاوى جسـدي في إرهـاق وقـد طفـا وجهـي فـوق موجـة مـن العـرق رغـم بـرودة الشـتاء، أغلقـت أزرار سـترتي الصوفيـة المتسـخة وتكومـت عـلى فـراشي الصغـير، كجنـين خـرج قبـل موعـده مـن رحـم أمـه واشـتاق للعـودة، بعدمـا رأى مـن الدنيـا مـا لـم يوافـق عليـه عندمـا وقّـع عـلى عقـد نفخـة الأزل، كمـا وصفهـا الشـيخ أحمـد الزيـن.

لا ألومـك يـا جلنـار عـلى ذلـك اللعـين عزيـز أو تلـك الشـيطانة فـيروز، فأنـت مـن أضـاء سـنوات حيـاتي بثلاثـة أسـابيع مـن البهجـة، حـتى وإن ادعـى ذلـك اللعـين أنـك لـم تفعـلي!

نظـرت إلى إصبعـي المفقـود، وتذكرتهـا رغمًـا عـني مـرة أخـرى، مـر أسـبوعان كنـت قـد انتهيـت فيهـا مـن اللوحـة الإعجازيـة ولـم يتبـق سـوى لونهـا. رقـدت أمامـي كعادتهـا في عـراء كامـل، وبالرغـم مـن تلـك الليـالى الأربعـة عـشرة كمـا وصفـت القمـر في غيابـه شـوقًا «بـدر أربعـة عـشرة»، لكـني لـم أعتـد بعـد عـلى معـرض جسـدها الفاتـن. ففـي كل مـرة كانـت تخلـع فيهـا العبـاءة عـن لحمهـا الأبيـض، كنـت أنتفـض مـن الشـهوة، وأتأمـل نهديهـا الدائريـين كثمـرة ناضجـة حاشـا لخالقهـا أن تُقطـف، ومنحنيـات جسـدها أسـفل تلـك الثمـار حـتى مهبـط فتنتهـا، قبـل أن ينقسـم إلى عموديـن بضيْن كل منهمـا بفخذيـن أبيضـين ناعمتـين كسـتائر غـرف الملائكـة في بيـوت الجنـة، ولـولا شـعرها الأسـود المرهـف عـلى عنقهـا لتوقـف قلـبي هلعًـا مـن تلـك الفتنـة الـتي تحـاصرني.

نعـم.. أنـا مـن تفتنـه رقـاب النسـاء بدلًا مـن نهودهـن، أذوب عشـقًا في اسـتدارة هـذا العنـق الأبيـض وتلـك الفجـوة بأعلاهـا، الـتي تهـتز كلمـا شـهقت صاحبتهـا بهـواء تتنفسـه في هـدوء، أو تبلـع ريقًـا هادئًـا يمـر بـين عروقهـا المنتفضـة في انسـيابية عجـزت عـن عجـم سر جمالهـا.

خرجـت ذلـك اليـوم عـن شرودهـا المعتـاد وهـي ترقـد في حريـة بالغـة، ونظـرت إليّ وأنـا مندمـج في رسـم انحناءاتهـا الطريـة عـلى لوحـتي الصلبـة وقالـت في هـدوء: أقـدر حقًـا احترامـك يـا فـرج..

أجبتها دون اهتمام وأنا أضرب بفرشتي بحاجب معقود في تركيز: أي احترام يا فاطمة؟

مال عنقها في ارتباك من العثور على الكلمات، فأشرت إليها حازمًا في لطف: أأأ! لا تتحركي!

أعادت عنقها إلى مكانه باسمة: أنك لم تستغل ما أفعل لتنال مني شهوةً!

ابتسمت بدوري: لقد أغشي عليّ من قبلة.. فماذا لو عاشر.. عاشرتـ.. عاشرتك؟!

تنهدت ضاحكًا فضحكت: حتى ذِكر الأمر يربك لساني!

ضحكت في امتنان، فأكملت وأنا أنظر إلى صورتها تحت أصابعي بدلا منها: بل أقدر أنا عدم سؤالك!

مالت بعنقها مرة أخرى، ولكنها لم تلبث أن أعادته إلى مكانه قبل أن أطلب: أي سؤال؟

ارتبكت قليلًا وتعثرت الفرشاة في يدي: إصبعي المفقود.. أنتِ الوحيدة في كون الرب.. من لم تسأليني عن الذي حدث..

أغلقت عينها في حزن: لكل منا إصبع مفقود يا فرج.. ولا فائدة من سؤال أحدنا عن عاهة الآخر..

تطوعت بالرد: استقالة!

اعتدلت في إرهاق وقد تيبس جسدها من كثرة رقودها: آه.. (تألمت في جمال) أ.. أي استقالة؟

تركت الفرشاة وذهبت إلى ملاءتها وغطيت جسدها أثناء جلستها، وأكملت عني بإيماءة امتنان لفعلتي، وسندت الملاءة بذراعها أعلى صدرها فبدت أكثر جمالًا من عراها. جلست أسفل قدميها كعادة اكتسبتها من أمي: سألني الكثيرون ولكن.. غضبي من السؤال كان دومًا يحترف عقد لساني عن الجواب.. فأثير حيرة الجميع.. واستمتع بشهوة الفضول في عينهم.. ووالله لا تنضب أبدًا..

أخرجـت سـيجارة مـن أسـفل وسـادة رأسـها وأشـعلتها: واخترتـني أنـا؟ لكـوني لـم أسـأل؟

اسـتأذنتها في سـيجارة أغـبر بهـا ضـوء القمـر الخافـت في ذلـك الوقـت مـن الشـهر، وقـد اعتدنـا أن نسـتحم تحتـه: بـل لأني أريـد أن أقـص عـلى أحدهـم في النهايـة، وكمـا أخبرتـك.. بـدأ الأمـر باسـتقالة..

- استقالة من؟

- فرديناند ديليسبس!

- مهندس القنال؟ ومال إصبعك ومال ديليسبس؟!

- قـرر العجـوز أن يسـتقيل الحيـاة السياسـية بعـد وفـاة زوجتـه.. وسـافر للعزلـة.. فأرسـل إليـه أحـد أصدقائـه عـدة كتـب تسـلّي وحدتـه.. وكان مـن بينهـا مذكـرات نابليـون بونابـرت!

- ونابليـون أيضًـا؟ يبـدو أنـك تلصـق تهمـة إصبعـك بالعظمـاء لتعـلي شـأنه.. إن كنـت تنشـد بتلـك القصـة تعويضًـا مـن فرنسـا أو بريطانيـا العظمـى.. فمـن المؤكـد أنـك سـاذج أكـثر مـن الـلازم!

ضحكـت مـن طرفتهـا غـير المضحكـة، بينمـا انتهبـت أنـا لعـدم إشـعالي السـيجارة، فأشـعلتها لي. ابتسـمت مـن حـالي: أمـيرة تشـعل لـك سـيجارتك يـا بـن الفرطـوس!

أكملـت وأنـا أراقـب الفجـوة بـين الغطـاء وصدرهـا عندمـا مالـت عـليّ لإشـعال السـيجارة اللعينـة: قـرأ ديليسـبس سـطرين بمذكـرات نابليـون عـن مـشروع لـم يكملـه لقنـاة تربـط البحـر الأحمـر بالأبيـض.. ومـن وقتهـا تداخلـت الألـوان برأسـه، وقـرر تصميـم مـشروع القنـال!

أوشـكت سـيجارتها عـلى الانتهـاء، وأوشـك ضـوء القمـر أن يختفـي خلف سـحابة قطنيـة فاسـتعجلتني: أقـصر يـا ابـن الحرام!

ابتسـمت للقـبي الجديـد المسـتنكر المحبـب: أصـدر الخديـو عبـاس أمـره بتجنيـد الفلاحـين قسريًـا لحفـر القنـاة يدويًـا.. وكان مـن بينهـم أكـبر أجـدادي.. جـاء شـيخ البلـد برجالـه إليـه بالغيـط.. وقـد كان شـابًا قويًـا لا يملـك مـال البدلية..

فقرروا القبض عليه للسخرة.. فكر جدّي في زوجته وأطفاله لمن سيتركهم.. فأراد البقاء ولكن كان لكل شيء ثمن.. قطع إصبعه!

انتفضت واعتصرت عينها وضربت كتفي من أعلاه: آاااااه.. لعنت! لماذا تخبرني بذلك؟

أكملت دون أن أهتم برقتها البالغة: مضى الأمر هينًا.. وعاش جدي بين أولاده، ولكن خشى أبوه أن يعيّره إخوته بقطع إصبعه، حتى وهم صغار دون سن التجنيد، فأمر أن تُقطع أصابعهم جميعًا.. فهو أخوهم الأكبر أولًا وأخيرًا.. ولا يجب أن يكون ناقصًا في أعينهم..

- ومالك ومال جدك.. طالت قصتك يا غلام!

- تحول الخوف إلى عادة.. والحفاظ على الشرف أصبح دينًا جديدًا، وشريعته قطع الإصبع. كلما ولد طفل خشى أهله أن يعيّر أعمامه وأباه بأصابعهم فتسقط هيبتهم أمامه وينفرط عقده.. فيقطعون إصبعه.. فإصبع البتر عادة داخل العائلة.. حتى بعد أجيال وأجيال.. وما أن ولدت حتى قطع أبي إصبعي.. فقط حتى لا أعيره بإصبعه!

اعتدلت وقد غاب ضوء القمر بالكامل، فحل الظلام، ولم يضيئه إلا صوتانا فقالت: لا أصدق!

أومأت لها حتى وإن لم ترني: أكاد أجزم أن أبي لا يخلع قفازه أمامك.. حتى وهو.. وهو.. معـ.. معك بالفراش!

زفرت بقوة في حنق: صدقت! كان يعتصر جسدي بقفاز جلدي بارد.. فيزيد من مقتي له..

نهضت إلى القناديل الفضية لأشعلها: هكذا هو الأمر.. لو لم تمت زوجة ديليسبس.. لما قُطِع إصبع فرج الورداني!

ضحكت وقد تصبغت قاعة القصر بلون النار الأصفر، سخرت من حالي، بينما لم تفعل هي كعادتها، فلم تضحك ولا حتى تبتسم، بل أشارت إليّ في قلق: فضلًا أطفئ تلك النار..

التفت لها مستمرًا بضحكاتي: عادة نخشى الظلام وليس النور..

نهضت في سرعة تجاه القنديل ورمحت حتى سقطت عباءتها فلم تهتم بالركض عارية، ونفخت في قوة نفخة الأزل الثانية فأماتت الشعلة. راقبتها في حيرة، فانكمشت في خجل داخل جسدها العاري، فرفعت غطاءها وألقيته على جسدها، فأومأت في شكر صامت وغرق وجهها بحزن ألصق نظراتها أرضًا: ما الذي حدث؟

هربت من سؤالي وتحركت مبتعدة: ذلك القصر مسكون.. ولا تأتي إلا في ضوء القنديل..

اقتربت منها في وجل: من التي تأتي؟

رفعت عينها بعيني ولأول مرة لمحت بريقًا لدمعة محبوسة: الفتاة!

- أي فتاة؟

- لمحتها منذ أسبوع.. لا تهتم.. إنها مجرد خيالات.. فقط لا تشعل النار.. إما ضوء القمر وإما الرحيل..

حاولت أن أستبق حديثها بسؤال أو حتى مواساة على ما لم أفهم، لكن طرقًا عنيفًا على باب القصر أفزعني، بينما تنهدت هي في ضيق. نظرت إليها في هلع. لا يعلم أحد مكان ذلك القصر المقفر ولا بوجود أحد بداخله. من الطارق إذا؟ ولماذا يطرق بتلك العصبية؟

نظرت إليّ في خجل وطرقات الباب تصرع الجدران حولنا: كامل..

اقتربت منها في حنق: كامل من؟!

وقبل أن تجيب. انفلق الباب إلى نصفين. انتفضت وصحت به: ماذا تفعل؟

نظر إليّ باسمًا وهو يضبط عمته الأزهرية: اهدأ يا عم فرج.. فقط اا.. لا يجوز أن تنام داخل المنبر كل هذا الوقت؟

اعتدلت في تعجب من نومتي. كيف وصلت إلى هنا؟ أذكر أني كنت في غرفتي بعد رحيل رمضان بتهديده بطردي. ولكن كيف وصلت إلى جامع أنس بن مالك؟ وكيف دخلت إلى غرفة المنبر الضيقة وتكومت بركنها الحنجوري بتلك الطريقة؟! لم يخطئ رمضان.. إن لم يستدع الخانكة سأستدعيهم بنفسي.

ساعدني الشيخ نور في الخروج من ذلك التقوس المؤلم، كان شابًا جميلًا، عذب الصوت عندما يتلو القرآن، هادئ الملامح عندما يصدح بخطبة الجمعة. علمت فور وصولي إلى عطفة رجب أنه شاب أزهري تخرج لتوه في جامعة الأزهر، ونال إجازة القرآن الكريم فنصبه أهل العطفة شيخًا عليهم رغم صغر سنه.

أجلسني كعادته بالصف الأول دون حديث، فقط ابتسامة، وعاد إلى قرآنه يتلوه على أهل الحارة بالميكروفون الجديد في عذوبة أثلجت صدري قليلًا من عذاب الوعي وتقطعه وغيابه، والأسوأ.. العودة منه. وبينما كنت هائمًا في صوته، اقتربت من جلستي عصا عجمي فاخرة، تبعتها أقدام ذات جوارب قطنية أنيقة، رفعت عيني، فوجدت رجلًا مسنًّا في ملابس رسمية يكفي ثمنها ليبتاع حي الأزهر بسكانه وبناياته عن بكرة أبيها. صعدت ببصري لمستوى أعلى رغم صعوبة ذلك، فوجدت وجهًا ناعمًا محاطًا بلحية بيضاء كثيفة ولكن منمقة للغاية. جلس صاحبها إلى جواري دون أن ينظر إليّ.

عدت إلى رسم السجاد الرخيص الذي جاهد أهل العطفة لشرائه خصيصًا لأرضية المسجد، وعبثت بأحد أصابعي التسعة على رسوماته كفنان متقاعد يشعر بالحنين إلى فنه المندثر، وغبت فيما ظننت أنها بداية نوبة جديدة من الخرف. حاولت حقًّا أن أقاومها. فشقهت وفركت السبحة في هيستيرية مستغفرًا، لكن ثقلًا كبيرًا أطبق على رأسي فخدره.. وعندها استسلمت لتلك النوبة، لولا أن نطق من كان بجواري.

«عبدالناصر لم يمت حقًّا.. إن كنت قد سألت!».

التفت إليه في حيرة، بينما أكمل هو دون أن ينظر إليّ: لا زال في الحكم مختبئًا خلف السادات.. إنها مؤامرة كبرى..

عدت إلى رسم السجاد مرة أخرى: يا الله.. لقد عادت النوبة..

أكمل الشيطان: اللواء رؤوف يرسل تحياته..

ارتج جسدي للحظة من هلع الاسم، فتسارعت أصابعي على حبات السبحة: مـ.. من أنت؟!

وضـع كفـه عـلى يـدي فأوقـف تسبيحي في هـدوء: لقـد كنـت رفيقـك بزنزانـة ١٢.. ألا تذكـر الفلنكـة؟

حاولـت النهـوض لـولا أن أجلسـني بقـوة باسـمًا في شر: لهـا طرفـان.. اجلـس! لها طرفـان يـا فـرج.. الأول حـول قدمـك اليمـنى، والثـاني حـول اليسرى.. ثـم الـترس والجنزيـر.. يـدور ويسـتدير.. فيفـرج رجليـك.. ويـترك المجـال مفتوحًـا للفـازة الثانيـة مـن عمـود الكهربـاء.. أسـقط بنطالـه يـا أومبـاشي.. أوامـر معاليـك.. أمسـك مؤخرتـه جيـدًا ااااا....

صرخـت كالطفـل مـرة أخـرى وانتفضـت للنهـوض، فسـقطت عـلى ظهـري بـدلًا مـن ذلـك، فانطلـق الشـيخ نـور فزعًـا تجاهـي: يـا رحمـن يـا رحيـم.. مـا بـك يـا عـم فـرج؟

اعتدلـت مـع ذراعـه، وتلتفـت حـولي في هلـع، ولكـن لـم أجـد أحـدًا، ضربـت الأرض بيـدي في غضـب وصحـت في هيسـتيرية: يـارب.. إن لـم تـر في عقـلي مـن نفـعٍ لخلقـك وأرضـك الـتى جعلتنـا خلفـاءً عليهـا.. فلتأخـذنى إذا بـين الـتراب.. يلتهمـني الـدود.. وألتهـم مـا تبقـى مـن سـنين برزخـك حـتى الآخـرة.. فلجهنـم أريـد الرحيـل! فلتقـني فى الجحيـم ولا أبـالي.

صرخ الشـيخ نـور بعبـارات الاسـتعاذة والاسـتغفار: أعـوذ باللـه! أتكفـر يـا رجـل؟! هيـا!

وجذبـني بغـير لطـف إلى خـارج المسـجد، تعرجـت مـع دفعاتـه إلى الخـارج فرأيـت تجمهـر المـارة أمـام بـاب المسـجد. ينظـرون إليّ في غضـب وشـهوة لتحطيـم عظامـي. فلـم يغلـق الشـيخ الميكروفـون قبـل نجـدتي مـن سـقوطي أرضًـا، وذعـت في الحـارة بأكملهـا نبـأ كفـري..

آاه.. على زماننا لم يوجد ذلك الميكروفون!

لـم أشـعر وإلا جسـدي ممـدد أرضًـا والضربـات تنهـال عـليّ كأصـوات مدفعيـة الإنجليـز بمـا أسـموه الآن العـدوان الثـلاثي أثنـاء اختبـائي ببورسـعيد، ظننـت حينهـا أن الأمـان سـيكون جليـسي لـو هربـت مـن القاهـرة ومـا بهـا والتجـأت إلى بيـت حامـد الجـزار سـائق معديـة القنـال، إلا أن ثـلاث دول تحالفـت عـلى فـرج

الـورداني لإفزاعـه، وكأن الـرب لـم يـرض لي الراحـة منـذ رسـمت جلنـار العاريـة وهتكـت سـتره عـن أجمـل مخلوقاتـه دون إذنـه.

فـرّق رمضـان الجمـع الغفـير بصوتـه الجهـور وضرباتـه عـلى أكتـاف وصـدور الرجـال، وحملـني بمسـاعدة ولـده السـافل عـلي، الـذي كان يسـند جسـدي بضحـكات مكتومـة حـتى أوصلـني إلى بـاب الغرفـة مـع أبيـه. همـس إليّ ضاحـكًا: سـامحني يـا عـم فـرج.. ولكنـك أغـبى مما كنـت أعتقـد..

كنت في شبابي ريفيًا ساذجًا.. وفى كهولتي عجوزًا خرفًا.. والآن كافر غبي..

على زماننا.. كان الرجل يكتفي بمعيبة واحدة حتى وفاته.

نهـره أبـوه بالرحيـل، ومـال عـليّ في لطـف: لا حاجـة لرحيلـك غـدًا.. فلتسـتعد توازنـك لبعـد غـد.. فكما رأيـت رحيلـك عـن الحـارة أصبـح مطلبًـا شـعبيًا.. سأرسـل لـك مـع أم عـلي لقمـة تسـند قلبـك..

أشرت لـه في إرهـاق: جزيـل الشـكر يـا معلـم.. فقـط أريـد البقـاء وحـدي.. فلتتركـني.. مـن فضلـك..

أومـأ في موافقـة بائسـة مشـفقًا عـلى حالـتي وتحـرك للرحيـل بعدمـا أوضـع يـدي عـلى عصـاي في اهتمـام بالـغ: فلتتذكـر إذا إغـلاق الغرفـة بالقفـل قبـل رحيلـك.. فلقـد تركتـه كالعـادة..

وغـادر مـن فـوره. فتحـت البـاب في تعـب لـم تتحملـه العصـا، فارتميـت عـلى الجـدار البائـش مـن ميـاه المجـاري، وأنـا أغلـق البـاب في ألـم. وقبـل أن أجلـس عـلى أقـرب كـرسي. صرعـني صـوت جـاء مـن فجـوة الغرفـة. أي المطبـخ.

«لقد سمحت لنفسي أن أعد لنا بعض الشاي»..

كان الشـيطان الـذي اقتحـم المسـجد ووسـوس إليّ بإعـلان كفـري. انتبهـت لـه فرأيتـه في هيئتـه الفاخـرة. جلـس أمـام المنضـدة بصينيـة الشـاي وهـو يعبـث بلحيتـه ناصعـة البيـاض. احتـددت عليـه في غضـب لـم تسـمح آلام عظامـي بتعديـه مرحلـة الصيـاح فقـط: مـن أنـت أيهـا الإبليـسي!!

ابتسـم وهـو يجلـس: أعـوذ باللـه يـا رجـل.. أنـا صديقـك.. رفيـق العـذاب.. الفلنكـة!

قاطعته في غضب: اصمت لعنك الله!

- أتلعنني بمن كفرت به؟!

- كان كفري سُخطًا وغضبًا فقط وليس إنكارًا..

- لطالما كانت آفتك.. الغضب والنطق بالسفه.. تشتم العساكر والضباط.. حتى ظن الجميع أن الفلنكة لم تخلق إلا لك.. فرج الورداني نفسه.

- ماذا تريد؟

- جئت لأذكرك بأمر هام.. اتفقنا منذ عشرين عامًا عليه..

تأملت وجهه في ضيق من ذلك الغموض وتوسلت إليه: من أنت يا رجل؟!

تحرك تجاهي بكوب الشاي فرفضته، فوضعه على فخذي فاضطررت إلى الإمساك به من فرط سخونته، وعاد إلى مجلسه مرة أخرى: ربما ذلك الاتفاق يعينك على التذكر.. قل لي.. كيف ولد الشقاء يا فرج؟

جرت بعنقي رعشة كعروق الكهرباء: مـ.. ماذا؟

ابتسم لتوتري: حسنًا.. ولد بغصة شيطان.. وشبّ على طمع امرأة.. وقُتِل بانتحار ملاك..

حاولت النهوض في بطء استعدادًا للهرب: من أين لك بتلك الكلمات؟ من أي حفرة جهنمية خرجت من الماضي أيها اللعين؟

نهض بدوره في بطء استعدادًا للهجوم: هيا يا رجل.. لقد كنت فيلسوف المعتقل.. لولا غصة الشيطان بإجباره على السجود.. لما قرر الانتقام من آدم وبنيه.. ولولا طمع حواء لما أكلا من الشجرة.. ونزلا إلى الأرض وبدأ الشقاء، ولكن، وكما قلت في خطبتك العظيمة ونحن نحطم جبال المحجر بملابسنا الزرقاء المدممة، سينتهي الشقاء.. يوم أن يقبض ملك الموت روح نفسه.. يوم ينتحر وتفنى الدنيا.. ولا يبقى سوى الرب كما تحب أن تناديه.. لمن الملك اليوم يا فرج؟!

مددت يدي إلى مقبض الباب فباغتني بضربة قوية عليه أغلقته وحاصرني بجسده والغضب يفضح عينيه: إياك أن تنسى ما اتفقنا عليه!

صرخت به وكوب الشاي يهتز في يدي ولم أفهم لماذا لم يسقط بعد: أي اتفاق؟!

اقترب من وجهي بطريقة أرعبتني: أفندار..

كان على حق فأنا أعلم ما يقول: فيروز!

ابتعد عن وجهي باسمًا وقد تذكرت، بينما افترس رأسي الغضب: فيروز؟ ومالك وفيروز؟ لا! لقد كان رمضان هنا ولم يرك.. لقد كنت في المسجد إلى جواري ولم يلمحك الشيخ نور.. متى عدت إلى غرفتى؟ وكيف دخلت؟ أيها الشيطان إنك نوبة أخرى من الخرف.

تنهد في ضيق بدا واضحًا عليه: انظر إليّ جيدًا وأزل تلك اللحية.. وانفض العجز عن قسمات وجهي..

عندها سقط كوب الشاي وتهشم تحت قدمي، انبسطت عضلات وجهي للخلف وجحظت عيني في فزع، انقطع صوتي، وانفرج صدري طالبًا إعصارًا من الهواء لأتنفسه من الصدمة: لـ.. لا.. أنت.. أنت نوبة خرف.. لا يمكن.. أنت نوبة خرف.

أغلق عينه وشاب الحزن وجهه: ربما.. وربما أكون..

أكملت عبارته ودموعي تنهمر دون بكاء: عزيز قاسم!

-٩-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

مـال لهـذا الكـون يـزداد عتمًـا وسـوادًا حـتى في وضـح النهـار؟! منـذ ليلـة البارحـة وتـأبى الشـمس أن تخـرج إلينـا لتُجـلي عبـاءة الليـل عمـا رأيـت. حسـنًا.. ربمـا خرجـت عـلى الجميـع، ولكنهـا أرادت في عنـاد أن تتـوارى عـن وجهـي، وعـن ذلـك الـرداء الـذي ارتـداه رسـمي داخـل مذكـرات ذلـك العزيـز القاسـم.

كان حريًّا بي أن ألقـي بـه في نـار المدفئـة وقتمـا رأيتـه. أي مدفئـة؟! تلـك الـتي أشرف عاصـم عـلى بنائهـا مـن الطـوب الحـراري ولـم نشـعلها لمـرة واحـدة؟ ربمـا ظـن وهـو يقـف في سـعادة أمـام العامـل الـذي بناهـا أن ليلـةً مـن خيالـه قـد تـأتي وترتطـم بـأرض الواقـع. أجلس بـين أحضانـه عاريـة ويتلحفـني بغطـاء أحمـر ناعـم نشـاهد ألسـنة النـيران، وهـي تحـرق الحطـب الزائـف في رومانسـية تمناهـا ولـم أبـذل جهـدًا في تحقيقهـا. ولكـن.. منـذ أن جربهـا لنـا مهنـدس الديكـور.. اشـتعلت نيرانهـا للمـرة الأولى والأخـيرة، ولـم يقربهـا أي منـا مـرة أخـرى.

وبـدلًا مـن ذلـك، قضيـت الليلـة أنظـر للـرداء في صمـت ورهبـة. كان ذلـك الجسر الحقيقـي الأول بـين ورقـة باليـة بمذكـرة قديمـة وبـين قلـب أنـثى امتـلأ حقـدًا منـذ سـنوات والآن ضـاق بالخـوف. «قاتلـة جلنـار طوسـون». عبـارة تافهـة انتفضـت بالحيـاة مـن مجـرد رداء.

عشـت عمـري يـا عـم فرغـلي بـين الخيـوط ونسـجها، وراقبـت كيـف تحيـل بالتفافاتهـا المعقـودة جسـد امـرأة دميمـة إلى منحنيـات آلهـة فاتنـة، فقـط بعـدة خيـوط ملونـة تـم رصفهـا داخـل قالبهـا المناسـب. علمـت قوتهـا الخفيـة ولكـن ليـس إلى تلـك الدرجـة. وهـا أنـا ذا.. أصطـدم بخيـوط أخـرى، غـير ملونـة، فقـط الأبيـض والأسـود كانـت كفيلـة بمسـخ قـدري مـن مجـرد مصممـة تافهـة

بإحـدى شركات الأزيـاء، إلى قاتلـة مـن نـوع غريـب، فقـط الأبيـض والأسـود يـا عـم فرغـلي.. هـل تصـدق. وكأن فـيروز أحقـر مـن أن تبـذل الأقـدار لهـا مجهـودًا باصطفـاف لـون آخـر. فقـط يكفيهـا الأبيـض والأسـود لهـدم أسـوار حياتهـا. ولكـن مـن يهتـم؟ فبعـد كل ذلـك.. كنـت عـلى حـق. فتلـك المذكـرة عـلى حـق، ومـا جـاء بهـا عـلى حـق.

وكنت أنت وإيمان على باطل.

أومـن أنـك تسـمعني يـا عـم فرغـلي، إيمـاني بعصـف قبضـتي لـروح جُلنـار. لـن تمنعـني تلـك الأنابيـب البـاردة الـتي غرسـها الأطبـاء داخـل شرايينـك مـن البـوح لـك بمـا يؤرقـني كمـا اعتدنـا. تصـب لي الشـاي الأحمـر داخـل كوبـك المتسـخ. ونتنـاوب عـلى رشـف عصـير ذلـك المسـحوق الأسـمر، ودخانـه المتكاثـف يعـرق جبهـتي ويغيـم نظارتـك الباليـة في كل رشـفة. وكأنـه رسـول يحمـل كلمـاتي إليـك، ويحمـل نظراتـك الحانيـة إليّ. كـوب واحـد هـو كل مـا كنـت تملـك. وكـوب واحـد هـو مـا أفتقـد الآن.

سـتنهض يـا عـم فرغـلي أعـرف ذلـك، ولكـن هـل سـتفعل قبـل أن أقتـل جُلنـار؟ ومـتى أقتلهـا؟ هـل قتلتهـا بالفعـل؟ أم أن هنـاك أمـرًا آخـر تتوقـف عليـه حيـاة تلـك البائسـة لـم يظهـر بعـد؟ هـل يجـب عـليّ أن ألـزم فـراشي حـتى أهلـك لأنقـذ روحهـا؟ أم أسـعى خلـف عزيـز قاسـم وأوقـف ذلـك الجنـون قبـل أن يـدوّن تلـك العبـارة الـتي قلبـت حيـاتي رأسًـا عـلى إصبـع قـدم؟ وكيـف ذلـك وقـد مـات منـذ سـبعين عامًـا هـو الآخـر. اااه.. يـا عـم فرغـلي.. ضاقـت رأس جليسـتك بالأفـكار.

أعلـم أن حديـثي ربمـا يكـون مربـكًا، ولا أعـرف إن كنـت حقًـا تسـمعني أم أنـك غبـت في عالـم آخـر تتـلاق فيـه الأرواح، وتجمعـك بمعشـوقتك سـعاد. عـلى كلٍ.. سـأرحل الآن.. ولتـدعُ لي في عتمتـك السـوداء.. فربمـا لا تجـد دعوتـك بـين السـواد مـا يزاحمهـا إلى السـماء.. فتصـل سريعًـا وتعتقـني مـن ذنـب تلـك المسـكينة.

ولكـن.. كيـف أعتمـد عـلى دعـوة قـدر محسـوم.. ونفـس ذات الأقـدار قـررت تعذيـبي بعبثهـا الأزلي؟

خرجـت مـن غرفتـه المعدنيـة الفاخـرة مـن المستشـفى الضخـم، الـذي أصر عاصـم عـلى أن يدفـع كامـل تكاليفـه حـتى تنتهـي القضيـة. ومـا أن مرقـت خـارج أعتابهـا، ولفـح هـواء لقيـط لفصـول الصيـف السـاخن وجهـي. حـتى تاهـت عيـني في شرود مؤلـم إلى الخطـوة القادمـة.

كانـت سـحابة رماديـة تحجـب الشـمس.. علمـت حينهـا أن اللعنـة قـد بـدأت حقًـا ولا مجـال لردهـا.. فـأي سـحابة ترقـد بسـماء الصيـف في ذلـك الوقـت مـن السـنة؟ مـن المؤكـد أنهـا وكلـت بأمـري، وأحنـت عنقهـا في طاعـة لآمرها «فـيروز لا يجـب أن تـرى قـرص الشـمس بعـد الآن.. حـتى يتـم مرادنـا!».. فأجابـت.. «السـمع والطاعـة يـا...».

لا أعرف حقًا هوية من جاء بعد الـ «يا......»، ولكن.. لعنك الله.

«إيمان؟! كلا.. لم تأت بعد»..

أخبرتـني نـورا بذلـك الخـبر في جمـود. وعـادت إلى عملهـا مخترقـة ممـرات الشركة إلى غرفـة البروفـة مـرة أخـرى وهـي تطالـع التصميمـات الجديـدة للديفيليـه القـادم، تعجبـت مـن غيـاب إيمـان، فهـى لـم تغـب عـن عملهـا ولـو لمـرة واحـدة منـذ أن قبلـت أوراق عمـلي بشركتهـا. ورسـالة «هـذا الهاتـف ربمـا يكـون مغلقًـا» لـم تتوقـف عـن قطـع محـاولاتي للاتصـال بهـا. وبينمـا كنـت عالقـة بـين أفـكار الحـيرة غـير المترابطـة.. عـادت نـورا بمـا كان أكـثر غرابـة!

«آه.. تذكـرت.. ولكنهـا أخبرتـني أنهـا حاولـت الاتصـال بـك ليلـة أمـس ولـم تتمكـن مـن الوصـول إليـكِ.. ونقلـت إليـكِ رسـالة عندمـا تمـنى علينـا بإظهـار وجهـك.. شيء مـا يخـص رجـل اسـمه عزيـز قاسـم! قالـت إنهـا عـثرت لـكِ عليـه!»..

لـم يفزعـني ظهـور نـورا المفاجـئ والمعتـاد أمـام عيـني هـذه المـرة كمـا أفزعتني عبارتهـا. ظننـت بعـد لقائنـا الأخـير أنهـا لـم تعـد تعبـأ بتخريفـي كمـا ألمحـت. ولكـن.. هـل حقًـا قطعـت مـن وقتهـا للبحـث عنـه؟! وكيـف عـثرت عليـه؟! ومـا الـذي قصدتـه بذلـك البحـث؟!

أكملـت نـورا بملاحظتهـا التافهـة بأنـه يبـدو عـليّ التعـب، فاقتربـت مـني في دفء صـادق لـم تعـد أطـرافي تشـعر بـه بعـد الآن ونصحتـني أن أعـود إلى البيـت

اليـوم ولسـوف تتـولى عـني أعمـالي. ولكـن.. كيـف أغفـل تلـك النـيران الـتي تشـتعل بصـدري؟

أومـأت لهـا في موافقـة كاذبـة، وتحركـت إلى بـاب الخـروج وأنـا أشـعر بنظراتهـا الـتي تتابـع خلـف رأسي وهـي تنحسر تدريجيًـا، حـتى اختفـت حزمـة الـدفء عنـه فعلمـت أنهـا تحركـت للعـودة إلى غرفـة البروفـة وعندهـا اعتدلـت مـرة أخـرى، ورمحـت في خطـوات غـير مثـيرة لملاحظـة زمـلائي إلى مكتـب إيمـان، وفي طرفـة عـين. كنـت أغلـق بابهـا علـيّ مـن الداخـل.

تحرّكـت داخـل المكتـب الفاخـر الـذي لـم أعتـد عليـه في غيابهـا، كان ينقصـه شيء، ربمـا عطرهـا، ربمـا صوتهـا الهـادئ رغـم حزمـه، ربمـا هـي نفسـها.

تحركـت تجـاه مكتبهـا الضخـم وأنـا لا أعلـم عمّـاذا أبحـث. ولكـن ذكـر المدعـو عزيـز قاسـم وتأكيـد نـورا أنهـا بحثـت عنـه، أوقـع في قلـبي قناعـة ربمـا تكـون بائسـة أنهـا دونـت شـيئًا عنـه. فاغتصبـت ذراعـي أدراج مكتبهـا بحثًـا عـن أي ورقـة أو ملاحظـة، تقرّبـني مـن الرجـل دون أن أحتـاج إلى سـؤال إيمـان عنـه شـخصيًا.

«ولـم القلـق؟!». سـألت نفـسي.. ربمـا علـيّ فقـط أن أسـألها لـو كانـت تكبـدت عنـاء البحـث، فمـن المؤكـد أنهـا وجـدت مـا يدعـم روايـتي لهـا، ولكـن صفعـني خاطـر كان محقًـا، بأنهـا خانـت ثقـتي مـن قبـل وأبلغـت عاصـم بمـا حـدث مـع عـم فرغـلي رغـم اختيـاري لهـا دونـه بالنجـدة مـن موقفـي، ربمـا كان عليهـا أن تفهـم رفـضي لإطلاعـه علـى الأمـر، ولكنهـا أبلغتـه، فلـم لا تبلغـه هـذه المـرة أيضًـا بجنـون زوجتـه؟!

ربما كان من الأفضل حقًا أنها لم تأت.

أهي لعبة أخرى من الأقدار؟ ربما.

كان ظـل تلـك السـحابة الغامضـة يحيـط بتعرجـات كفـي وهـو يتحـرك بـين الأدراج في هيسـتيريا للبحـث عـن عزيـز، فأحالـت الغرفـة إلى إظـلام رمـادي بعدمـا كان مشرقًـا قبـل دخـولي، أوصمتـني السـحابة بعتمـة تشـبه ملـك المـوت الـتي تلازمـه أينمـا ذهـب وكأنـه يشـير لضحيتـه باقـتراب موعـد رحيلـه. تحولـت إلى نذيـر شـؤم يُظلـم الجـدران باقترابـه منهـا. وتقبلـت حقًـا ذلـك الـدور.. فـإن

أرادتـه مـني الأقـدار.. فمـن أنـا لأتحـدى إراداتهـا؟

مـرت الدقائـق ولكـن دون أمـل.. رفضـت الأوراق، كمـا أطاعـت السـحابة، أن تنهـي بحـثي بـأي أمـر مفهـوم. وعندهـا تحجـرت عيـني، وانتفـض جفـني تجـاه درج إيمـان السـفلي، ذلـك الـذي تغلقـه عـلى الـدوام بمفتاحهـا الـسرّي. سـألت نفـسي.. هـل عـليّ أن أفتحـه؟!

أجابـت أصابعـي وقـد تسـللت إلى فاتحـة الأظـرف الحـادة في غـير إرادة مـني. شـعرت بألفـة غريبـة بيـني وبـين ذلـك النصـل الحـاد وكأني رأيتـه مـن قبـل في مـكان مـا، ربمـا في أحلامـي الـتي تقـذف بي خـارج أعتـاب النـوم في فـزع، ولا تلبـث أن تتـلاشى عـن ذاكـرتي، فأتنفـس في الصبـاح لاهثـة في خـوف ممـا لا أذكـر.

ضربـت النصـل المسـتوي بقبضـة مقفـل الـدرج حـتى انحـنى، كان الإغـلاق متينًـا وكأنـه قَسَـمٌ غليـظ لا يتراجـع عـن مطلبـه. أصابتـني حالـة هيسـتيرية مـن تعنـت المصائـر في وجهـي منـذ البارحـة. تعالـت الضربـات صراخًـا حـتى ظننتهـا تسـتنجد مـن طعنـاتي الطائشـة وارتعـدت لوصـول صوتهـا إلى مـارٍ عشـوائي خـارج بـاب المكتـب، وعندهـا تفاقمـت الهيسـتيرية وارتقـت مـن أصابعـي المرتعشـة إلى جفـني المرتعديـن بـين البـاب والـدرج. حـتى لعنـت صانـع أخشـاب تلـك الشركـة. فثنـائي صنعتـه أصابـاني بالرعـب والجنـون.

وفي طرفـة عـين أخـرى أوشـكت قبلهـا أن أيـأس مـن محـاولاتي الغاضبـة، انفلـق القفـل النحـاسي للـدرج، وانفـرج عـن آخـره. فغاصـت يـدي بـلا تـردد إلى عمقـه حـتى قبـل أن يُفتـح بالكامـل، ونـثرت مـا بـه مـن أوراق أمـام عيـني. بحثـت عـن ورقـة أو قصاصـة منهـا تشـير بخـط إيمـان إلى عزيـز قاسـم ولكـن.. مـا رأيتـه كان أكـثر إفزاعًـا مـن وجهـه إن كنـت قـد رأيتـه حقًـا..

كانـت الأوراق بالكامـل تحـوي العديـد مـن الوصفـات الطبيـة والأشـعة سـميكة الملمـس. تـرك جفنـاي البـاب وانهمكـت في مراجعـة مـا أتـت بـه تلـك الرسـائل القدريـة. وبـين كلمـة وأخـرى شـعرت بتيـار جـارف مـن نهـر مؤلـم يشـق طريقـه عـلى وجنـتي. انهمـرت دموعـي دون وعـي مـني وقـد علمـت للمـرة الأولى مـا أخفتـه إيمـان عنـا أو عـني تحديـدًا. إيمـان مصابـة بسرطـان الثـدي!

ازدادت غيمـة تلـك السـحابة القاتمـة حـتى زحفـت عـلى الأوراق، وكأن شـعور المـوت يتباطـأ مقتربًـا. ابتلعـت شـهيقًا مرتبـكًا وجمعـت أشـلاء الخـوف الغاضـب وأنـا أتـذوق ملـح دموعـي وقـد وصلـت إلى لسـاني، والتفـت بقـوة لمواجهـة تلـك الغيمـة!

لـم أدر حينهـا لـم فعلـت ذلـك؟ كيـف يكـون مـا قلـت حقيقيًـا مـن الأسـاس؟ غيمـة مـوت؟ كان فكـرًا سـاذجًا ربمـا سـاعدت غرابـة قصـة جلنـار عـلى إنضاجـه. ولكـن مـا أن التفـت في غمـرة ذلـك الشـعور الهيسـتيري الغاضـب، حـتى وجدتـه أمامـي.

كان يقـف مبتسـمًا في شر. لا أخفـي أني ارتعـدت فـور رؤيتـه رغـم بسـاطة هيئته، فقـد كان حافيًـا في ملابـس عمـل متسـخة كمـا يدعونهـا «عفريتـة». نبتـت لحيتـه باتسـاخ أسـود حـول وجهـه، وأظهـرت ابتسـامته عـدة أسـنان غائبـة عـن جيرانهـا مـن الصفراويـات القـذرة. أشـار إليّ بإصبـع مرتعـش أن أفتـح النافـذة. تلفـت حـولي في حـيرة ممـا عـليّ أن أفعـل. ضرب بكفـه زجـاج النافـذة في غضـب وحـزم لـم يُذهبـا ابتسـامته. فامتـدت أصابعـي إلى مقبـض النافـذة وفتحتـه.

«مـن أنـت؟».. هكـذا قلـت في بلاهـة ولكنـه كان السـؤال المنطقـي الوحيـد للتعـارف بـين الغربـاء، حـتى وإن كان لصًـا في ملابـس راقيـة.. وشـيطانًا في هيئـة رثـة.

تنهد وقال: عامل تنظيف الزجاج..

كان حقًـا يقـف عـلى «سـقالة» تنظيـف الزجـاج، ولكـن تلـك السـتائر المتراميـة أخفـت إطـار وقفتـه فربمـا ظهـر كشـبح معلـق في الهـواء. اقتربـت منـه في حـزم: كذبـت.. بـل كان ميعـاد التنظيـف البارحـة..

قلتهـا في ثقـة، فاعرضّـت ابتسـامته: حسـنًا.. «لـص أبلـه».. وهـا قـد قابـل «لصـوص هـاي لايـف»!

ابتسـمت في سـخرية ولـم أنتبـه للدمـوع الـتي لا زالـت تبلـل وجهـي واتجهـت إلى الهاتـف: لـص في العـاشرة صباحًـا؟! لا عليـك.. سـأتصل بالأمـن إن كنـت تشـتهي السجن..

كنت قد التفت عنه، فأجاب في همس أعاد هيئته إلى صفة الشيطان مرة أخرى: اااه سأعتاد على جدرانه.. ولكن هل تصبرين بذلك الجسد على البقاء خلف قضبانه؟

التفت له في غضب: اخرس! أنا موظفة بالشركة التي حاولت سرقتها!

أشار بإصبع إلى الدرج المكسور وضم كتفيه في سخافة: على رسلك أيتها السفيرة عزيزة (كرهت حقا كل ما يرتبط بلفظ عزيز).. أي موظفة تكسر درج رئيستها.. نعم! لقد درست شركتكم من الأعقاب وحتى باطن الرأس.. وهذا مكتب مدام إيمان (احترمها السافل بلفظ مدام رغم سرقته لها).. وكفى مراوغة.. فابن الحرام يعرف ابن الحرام مثله..

لم يهتز لي طرف لجملته، كنت مثلها قادرة على استجماع مشاعري بقبضة هادئة. جفت عبراتي نسبيًا وتقدمت منه في هجوم احترفت عيني اصطناعه، وقبل أن أواجهه بعبارة حاذقة أخرى، انتفضت وانتفض على صوت مقبض الباب وأحدهم يحاول فتحه. تسمرت في وقفتي في جمود. وكان قرارًا حكيمًا.. فإن ظهر عليّ الخوف فسيكون ظن «لص النهار» حقيقيًا، ولكن إن لم أفكر في وسيلة للاختباء من فعلتي سينفضح أمري. وعندها عرفت أن ذاك القرار الحكيم سينقلب إلى حماقة إن لم أتحرك.

زادت محاولات الآخر لفتح مقبض الباب الذي أغلقته في إحكام، واستمعت إلى صوت صاحبه من الخارج «لقد علق الباب وأريد ذلك التحويل البنكي قبل الثانية عشرة.. هه؟ لا.. مدام إيمان لا تجيب.. فقط أرسلي لعطا ليحل القفل فلا وقت لدينا». كانت نورا. وكان إفزاعًا آخر لها تتسبب به لشعيرات جسدي المنتصبة. وكانت دقائق قبل أن يصل الساعي عطا ضخم الجثة إلى مسرح الجريمة. فإن استعصى عليه القفل. فلسوف يحطم صاحبه. الباب بالطبع!

ظهر الخوف على «اللص» وتنهد في قلق صادق: حسنًا سأشرح لكِ الأمر كله.. ولكن عليكِ مساعدتي في إنزال ذلك الشيء.. فمنذ أن صعدت إليه وأنا محبوس بين عمدانه منذ الفجر.. فلم أسرق ولم أفلت بجلدي، وأعدك أني سوف أساعدك.

لملمت الأوراق في ثقة: لا أحتاج إلى مساعدتك.. ولا أكاد أصف لك جم سعادتي بأزمتك المعلقة.. فلون السجن الأزرق سيليق بك حقًا..

توسل: أرجوكِ أنا حقًا ساذج.. لا أعرف كيف تعمل تلك السقالة.. أنا ساقط ابتدائية، لعن الله هذا البلد، فلابد للص فيها أن يكون جامعيًا حتى يسرق بضعة جنيهات.. أرجوكِ!

أعدت الأوراق إلى الدرج وأغلقته جيدًا والتفت إليه في تشفٍ: بل اا..

قطع صوتي صوت ضربة عطا على قفل المكتب. فاتجهت دون أن أشعر في آلية أثارت ضحكة غير منطقية لذلك اللص إلى النافذة. وفي سرعة صامتة. خلعت حذائي وامتطيت السور المعدني وجلست داخل السقالة وأنا أضم يدي حول خصري كتلميذة مخطئة أمام ناظريّ أستاذها. ونطقت في بلاهة: «أين تريد أن تذهب؟».

***

انبطحنا بين الجدران القصيرة لتلك السقالة، فصارت السماء الزرقاء الصافية هي سقفنا الجديد. راقبتها وأنا ممددة على ظهري وتعجبت. «أين ذهبت تلك السحابة القاتمة». التفت إلى شريك الجريمة ونظرات القلق تغرق وجهه بأمواج من العرق اللزج وقد حطّم عطا الباب. مالت رقبتي في شرود المجاذيب وأنا أراقب ذلك الرجل الذي هبط إليّ من السماء.. «أين حقًا تلك السحابة.. هل كان هو.. هل تناثرت أقطانها في الهواء، وتجمّعت مرة أخرى في شخصه؟! لم يكن ظل السحابة الذي كان يزحف على الجدران وإنما ظله.. اااااه.. ها أنا أجالس سحابة متحولة إلى لص بشري.. أي عبث هذا؟!».

ارتفع صوت أفكاري فخرجت من بين شفتي دون وعي مني: هل أنت السحابة؟

كان متكومًا بقعر السقالة خوفًا من أن يلمحه عطا أو تتعثر به نظرات

نـورا، فتعجّـب مـن عبـارتي: سـحابة؟!

انتبهـت لمـا قلـت فتهرّبـت مـن نظراتـه وقـد اسـتفقت أخـيرًا مـن نوبـة الجنـون الـتي أصابـت عقـلي وصـورت لي الرجـال عـلى أنهـم سـحاب متطايـر، بينمـا تنهـد هـو في يـأس وكأنـه علـم الحقيقـة: سـحابة؟!.. اه.. الآن قـد فهمـت.. حـتى ولاد الـذوات لـم يسـلموا مـن المخـدرات؟!

زفـرت في ضيـق مـن اتهامـه السـاذج، وكذلـك مـن انفـلات لسـاني بمـا دفعـه إلى ظـن لـم ألُمـه عليـه، بينمـا ارتفـع هـو بجسـده مـرة أخـرى مراقبًـا المكتـب وسـكّانه الجـدد، ولكنـه لـم يلبـث إلا أن انتفـض رقـودًا مـرة أخـرى وهمـس في صرع: إنهـا متجهـة إلينـا! أرجـوكِ افعـلي شـيئًا..

دار بـرأسي مـا دار سـابقًا مـن أفـكار الهلـع واحتمـالات الكارثـة إن رأتـني نـورا عـلى تلـك الحالـة، فهمسـت لـه: فلتحـاول أن تُـنزِل ذلـك الـشيء!

بـدا أن الزمـن تتناقـص فجواتـه تدريجيًـا فيضيـق ويعتـصر جسـدينا بأسـنان الرعـب وشـهوة الانتفـاض مـن مكانينـا قبـل أن ننفجـر هلعًـا، فصـاح بي هامسًـا: أخبرتـك أني أحـاول منـذ الفجـر ولا أمـل.. المقبـض معطّـل..

وأشـار إليـه بجانـب رأسي. رأيـت المقبـض وحاولـت الاعتـدال مـن تكوّمـي بميـل مؤلـم للخلـف دون أن أرفـع رأسي في محاولـة بريئـة لمعاينتـه. ولكـن مـا أن لمسـته حـتى انفلـت رباطـه فجـأة واندفعـت السـقّالة بعنـف في الهـواء بهبـوطٍ صـارخ!

كنـت أسـمع دومًـا عبـارة «السـقوط الحـر»، وكيـف كان يصـف الجميـع الشـعور الـذي يسـتحوذ عـلى صاحبـه بالفـزع. فالصـدر ينقبـض وتفلـت حوافـره أطـراف الـروح الـتي يحتويهـا، فتتهـاوى بسرعـة أكـبر لأسـفل، ربمـا حـتى أسرع مـن الجسـد الـذي كان يضمهـا بعهـدٍ باطـل بالحفـاظ عليهـا للأبـد.

وكنـت أسـمع دومًـا أن الـروح إن فارقـت الجسـد لمـوت وشـيك فهـى تنتفـض خروجًـا إلى الأعـلى، إلى السـماء كمـا يدعـي كل مـن شـهد خروجهـا لحبيـب أو حـتى عـدو نـدم عـلى قتلـه. ولكـن بسـقوط تلـك السـقالة بتلـك السرعـة، كانـت روحـي تنفلـت مـن جسـدي مـن أسـفل. أمـا واللـه كمـا كان يقسـم فرغـلي.. لسـقوط الـروح مـن إخمـص القـدم.. أكـثر فزعًـا مـن انفجارهـا بـين مضايـق الصـدر.

تهاوت السقالة وتهاوى جسدانا داخلها، فبدت البنايات المجاورة وشرفات المنازل وما تحتويها من حبائل الملابس البالية وسجائر عاطليها، وكأنها ترتفع بشهيق خاطف إلى الأعلى. بدا الوجود بأكمله وكأنه يتلاشى صعودًا إلى السماء. حتى ظننت خلال تلك الثواني القليلة أن عهد الدنيا قد انتهى، وأن كل ما خُلِق على الأرض، يصعد إلى جنة السماء مرة أخرى، إلا أنا، فلقد حكم عليّ القدر أن أهبط منها وحيدة بباطن الأراضين السبع لتتخذ نفسي من نفسي عدوًا.

أغلقت عيني وانتظرت ارتطامًا وشيكًا، ولم أملك مقاومةً لشهقة أخيرة تسبق هلاكي القادم. ولكن، لم يمرح نصف ما أردت من هواء إلى صدري، حتى ارتجت السقالة في عنف أطاح بجسمينا كخض أمواج نوّة متأخرة، فتطايرنا طيْحًا يمينًا ويسارًا حتى استقرت سفينتنا قبل الأرض بسنتيمترات قليلة.

توقفنا حقًا، وتنفّس اللص الجبان عدة أنفاس قصيرة وكأنها تسبيح هيستيري بالحمد على بقائنا أحياء. بينما اكتفيت أنا بالصمت الأزرق على وجهي الباهت. مسح الرجل عرقه الغزير حتى ظهر وجهه مرة أخرى وقد كان توارى قبل ذلك خلف صفحة ماء الخوف اللزج، فاعتدلت دون حديث وعبرت سور السقّالة وقفزت إلى الطريق وتعلو رأسي صافرة خلوّها من الأفكار.

مشيت عدة خطوات متعاقبة دون وعي. فلمحته وهو يلحق بي متلهفًا. سبقته بركض غير مبرر وعزمت على فضحه بين المارة بأنه يريد معاكستي إن اقترب أكثر من ذلك، ولكن كنت ظالمة بحقه. فما كان لحاقه بي إلا لسبب أغفلته دون أن أدري.

«احذرى من الزجاج يا ست»..

صفعني بتلك العبارة. فنظرت إلى زجاج الأسفلت كما يدّعي. فانتبهت لشيء آخر. كنت حافية. وعندها توقف الزمن عن تسارعه الجنوني. ورمح أمام ناظري منظر حذائي التافه وقد تركته بمكتب إيمان. وعاجلًا أم آجلًا ستعلم إيمان أني اقتحمت خصوصيتها. فتوقفت ورفعت رأسي للسماء. وبحثت عن

تلك السحابة، فلم أعثر عليها.

اقترب مني ونزع حذاءه المقطع ووضعه أمام قدمي. نظرت إليه في تعجب وإلى قدميه الحافيتين: ماذا؟

أجاب دون تردد: فلترتده حتى نعثر لك على آخر..

- وأنت؟!

ابتسم في بطولة زائفة كعامة البسطاء السذج: لا تهتمي! نحن جدعان يا مدام، وإن كنا «لصوصًا».. ولا نرضى للنساء، وإن كنّ «لصوصًا» (ابتسم من عبارته)، أن يغوصن في الألم و....

قطعت جملته بتحرك محقر غير مبالٍ لما قال من أشعار السذاجة الرجولية. وابتعدت عنه عدة خطوات في ترفع، ربما أردت أن أثبت له أن من كانت أمامه ليست بامرأة راقية تافهة تخشى على أقدامها الارستقراطية من بعض الزجاج. ولكن.. عدة خطوات للأمام حقًا، كانت كفيلة بأن تجعل من ذلك التصوّر السابق كتحريف الأتباع لكتاب نبيهم المقدس.

ارتديته في صمت. وابتسم في صمت. وآثر المارة الصمت وهم يرون امرأة في رداء خمري يطول ركبتها بسنتيمترات قليلة وترتدي «كاوتش» أبيض تحول إلى الرمادية بفعل اتساخه، ويجمع رباطه القذر ما على الطريق من أوراق وأتربة ذرتها الرياح. ولكن.. هكذا أصبحت تعليقات المصريين على غرابة ما يرونه كل يوم. فقط الصمت.

حاول استباق خطواتي لاهثًا بكلمات لم أفهم سبب نطقه بها: اا.. أنا لست لصًا يا مدام.. عليكِ أن تعلمي ذلك، أنا موظف محترم ولكن.. كـ.. كانت المرة الأولى.. وها أنا فشلت بها..

أجبته دون أن ألتفت أو أقطع سيري: أنت حر الآن.. وربما بطل أبله أعطاني حذاءه.. فلم تتكبد عناء الدفاع عن جريمتك؟

تحرّك وتوقف أمامي فحبس خطواتي عن الحركة، كان يائسًا: ربما جمعتنا الأقدار لسبب..

أزحته عن طريقي بدفع من كفي لكتفه وعبرت جسده الممتلئ: إن كان ما

تقـول حقًّـا فعليـك أن ترحـل.. فمـا بعثـت إليّ الأقـدار إلا الشـقاء.. ومـا طـال مـن جـاورني منهـا إلا المـوت!

كان محقًّـا. فمقبـض السـقالة كان عالقًّـا لسـبب تافـه، فلـم اسـتجاب لأصابعـي في لحظـة، ولـم يسـتجب لمحاولاتـه البائسـة لليلـة كاملـة؟ لـم أصـدق عبـارة «أنـه جاهـل». فـأي «بهيـم» بـلا رأس قـد ينجـح في سـهولة في إتمـام الأمـر. ولكـن.. في اللحظـة الـتي كاد أن ينكشـف فيهـا أمـري. ترسـل إليّ السـماء موظفًّـا أبلـه عـلى سـقالة معلّقـة لتنقـذ رقبـتي مـن اتهـام السرقـة؟ ربمـا كانـت الأقـدار تتنـاوب عـليّ بقصـص الأسرّة حقًّـا. ولكـن.. لـمَ أهتـم؟ يبـدو أن قصتهـا أوشـكت عـلى الانتهـاء!

استوقفني مرة أخرى: ١٤٠٠ جنيه.. هي كل ما أريد.. «الواد» سيرسب!

لـم أتمكـن مـن مواصلـة الحركـة بعـد الآن، فالتفـت في تعجـب: هـل كنـت تـسرق مـن أجـل الـدروس الخصوصيـة؟

أومـأ في حـيرة مـن سـؤالي، وكأن مـا قـال كان بديهيًـا: وهـل يـسرق الغلابـة طمعًـا؟ سيصير دَكتـورًا، ومـا أن يدخـل كليـة الطـب ويتخـرج.. حـتى يغـدق عـليّ وعـلى أمـه وإخوتـه بالأمـوال.. فقـط ١٤٠٠ جنيـه قـد تحـيي أسرة بالكامـل..

راقبته وكأني أراه للمرة الأولى: ما حكايتك؟

ابتسـم في مسـتهل مقدمتـه المسرحيـة لإخبـار قصتـه، ولكنـه مـا لبـث أن تجهـم مـرة أخـرى عندمـا لمـح شـيئًا يتحـرك خلـف وقفـتي. لـم أتـردد في الالتفـات لاسـتيضاح سـبب تجهمـه. وعندهـا سـمعت صـوت سـيارات الشرطـة وهـي تصطـف أمـام بوابـة الشركـة. غريبـة هـي بلاغـات الأغنيـاء. تجيبهـا شرطـة مـصر بسرعـة الـكاف والنـون..

لـم أخـف رعـدة خـوف زحفـت عـلى جسـدي. تلـك الـتي يشـعر بهـا السـارق حـتى وإن لـم يكشـف أحـد أمـره. كان مـن الممكـن أن أتقـدم تجـاه رجـال الشرطـة وأواجـه رئيسـهم كمسـاعدة مـدام إيمـان الشـخصية حـتى وإن عـثر عـلى حـذائي، فربمـا كان حـذاء إيمـان، وربمـا كان الـدرج المكسـور للـص غـيري ولـن يخطـر عـلى بالـه أن زوجـة مديـر مكتـب وزيـر الخارجيـة هـي مـن انتهكـت حرمتـه،

ولكـن.. كانـت روح اللـص تسـيطر عـلى جوارحـي وكامـل تفكـيري. فـكان رد الفعـل في تلـك اللحظـة.. هـو الارتعـاش مـن الخـوف.. والرحيـل بخطـوات متعرجـة داخـل ذلـك «الحـذاء الريـاضي» الواسـع.

لـص ذو جسـد ممتـلئ.. بحـذاء أكـبر مـن مقـاس فيلـة الغابـات.. ملعونـة هـي المصائـر الـتي تتحفـز لإيلامـي بأتفـه الأسـباب غـير المنطقيـة.

جذبـني جنـاب اللـص مـن ذراعـي ولـم أمانـع. وتحـرّك بي في سرعـة وعينـه تعـرف طريقهـا إلى الطريـق الخلفـي للشركـة، الـذي بمجـرد أن دخلتـه حـتى تبـدّل منظـر اصطفـاف السـيارات المرسـيدس واسـتواء الاسـفلت أمـام البنايـات الزجاجيـة الفاخـرة، إلى حـارة شـبه شـعبية. تسـتقر بأحـد أركانهـا قهـوة بلـدي لا تقـل قـذارة عـن ملابـس صديقـي الجديـد. وبـين مقاعدهـا الـتي ترامـت عـلى الجانـب الآخـر مـن تلـك الحـارة عـدة صناديـق معدنيـة أغفلتهـا أيـدي المـارة بإلقـاء القمامـة خارجهـا. فـلا أخفـي أن كان مظهرهـا بديعًـا. صناديـق قمامـة فارغـة وتـلال مـن القـاذورات تزيـن الطريـق حولهـا.

أسخر بالطبع. كان أمرًا مقززًا.

اسـتمر ضحيـة السـقالة في جـذب ذراعـي تجـاه القهـوة. ودخلهـا دون تـردد فانتصبـت رقـاب أشـباهه مـن الغلابـة، عـلى حـد تعبـيره، أمـام وجهـي. امـرأة فاتنـة بـرداء قصـير وعنـق عـارٍ تعـبر بينهـم. تجاهلـت نظراتهـم في بلاهـة القلـق مـن انتصابـات الشـهوة الـتي احتـدت تجاهـي. حـتى وصـل حـارسي إلى صاحـب القهـوة والـذي يبـدو أنـه كان يعرفـه.

«الشرطـة تبحـث عنـا».. فأجابـه الرجـل في ضيـق: قلـت لـك إن مـن مثلـك لـم يخلـق للسرقـة.. ادخـل مخـزن البـيرة وأغلـق البـاب مـن الداخـل. ومـا أن تحركنـا حـتى اسـتوقفه مـرة أخـرى: ولكـن.. الأبلـة ااااا.. عيـب يـا سـيد.. لسـنا بقـرون والمخـزن لـه حرمتـه..

لـم يهتـم لأمـره. فقـط عـبر جسـد القهوجـي السـافل وجذبـني وعـلى وجهـه ابتسـامة تشـفٍ في جيرانـه مـن رواد القهـوة. وكأنـه يقـول «فـزت بالفاتنـة يـا غجـر». وأنـا؟ لـم أعقـب.. فقـط تبعتـه كالبلهـاء إلى مخـزن البـيرة المزعـوم. حـتى أغلقـه

مـن الداخـل.

«فلنجلس هنا لبعض الوقت..».

قالهـا وهـو يقلـب صندوقًـا فارغًـا خلـف وقفـتي ويمسـحه بكـم قميصـه الأكـثر اتسـاخًا. جلسـت وحـولي بنايـات ضخمـة مـن صناديـق البـيرة. بينمـا جلـس هـو أرضًـا وأخـرج مـن جيـب قميصـه المتعـرج سـيجارة ملتويـة، يبـدو أنهـا كل مـا تبقـى لـه. فخرجـت عـن الصمـت أخـيرًا: ثـم؟!

انشـغل بإشـعال السـيجارة. فعلقـت نظـراتي بـه في جمـود. وعندهـا لاحـظ تحديقـي فابتسـم وأجـاب: آه.. إنهـا القهـوة الـتي أتسـلم منهـا أنـا و«صاحـبي» ورديـة التاكـسي.. اااه.. لعنـه اللـه.. هـو مـن أشـار عـليّ بتلـك السرقـة.. ورسـم الخطـة بالكامـل.. كان يعلـم أني «عبيـط».. ولكـن يبـدو أنـه صـدق كمـا صدقـت نفـسي أني أسـتطيع فعـل ذلـك..

تنهدت من نقص الاوكسجين بذلك المكان: وكيف وصلت إلى السقالة؟

نظر إليّ بطرف عينه باسمًا في يأس: ولم تهتمين؟!

نهضـت متجولـة في المخـزن دون أن أجيـب في اصطنـاع لعـدم الاهتمـام، فلمحتـه بأحـد أركان عيـني السـفلية وهـو يمـد عنقـه تجاهـي وكأنـه كان متوقعًـا إلحاحًـا في سـؤالي. بـدا مريضًـا بالحـكي. فأجـاب في ضعـف: صاحـبي يعمـل بهـا.. وأعـد لي الأمـر كلـه..

كنـت قاسـية: وهـل تظـن أن دخـول ابنـك كليـة الطـب سـيُحيل جحيمـك إلى جنـة أرضيـة لتقـدم عـلى فعـل بتلـك الحماقـة؟

أومـأ عـدة مـرات في إصرار غاضـب وكأنـه يحـاول إقنـاع نفسـه بصـدق ظنـه: نعـم، نعـم! لابـد أن يفعـل.. محمـد ابـن أصـول.. وسـيحمل والديـه وإخوتـه.. ولكـن عـليّ أن أتمـم مهمـتي تجاهـه..

تجاهلـت وقـد تعـرق جسـدي مـن ضيـق المـكان وحـر الصيـف فأكمـل: هـذا هـو دفاعـي.. ولكـن مـا هـو دفاعـك لسرقـة مديرتـك؟! فلقـد كنـتِ تلازمينهـا لوقـت طويـل في إخـلاص كان واضحًـا..

التفت إليه فأكد: راقبتكما كـ «لص» مخضرم لأسبوعين..

جلسـت مـرة أخـرى وأنـا أصـارع أنفـاسي الضيقـة: حماقـة تشـبه حماقتـك.. حدوتـة سـاذجة توقـف الأطفـال عـن الاسـتمتاع بهـا منـذ عقـود مضـت.. (ثـم نطقـت في غمـوض) قصـة مـن قصـص السـحر!

مـرت دقائـق مـن الصمـت. وكأن كلا منـا اختـار أن يضـم صـدره عـلى قصتـه دون أن يطلـب مـن الآخـر تفسـير أي منهـا. مـد يـده إلى صنـدوق مـن صناديـق البـيرة وأمسـك بزجاجـة خـضراء وفتحهـا، وقبـل أن يمدهـا لشـفتيه نظـر إليّ في حـرج ضاحـك: عـدم المؤاخـذة.. لـن يسـمح لي المعلـم سـوى بزجاجـة واحـدة.. فـلا أسـتطيع أن أدعـوك..

قاطعته في رد مفاجئ لم أفهم سببه: فلنتناوب عليها إذًا..

ربمـا تذكـرت جلسـاتي مـع فرغـلي وتناوبنـا عـلى كـوب الشـاي الـذي لا يملـك غـيره. وابتسـمت رغمًـا عـني مـن المفارقـة. فجلسـاتي مـع شـيخ حـول كـوب شـاى، تحولـت إلى جلسـة مـع لـص حـول زجاجـة بـيرة!

أومـأ في موافقـة. وبعـد أن كاد أن يلصـق فوهـة الزجاجـة بشـفتيه. ارتفـع بهـا بعيـدًا وأسـقط بعضًـا مـن سـائلها الاصفـر داخـل حلقـه وسـلمني إياهـا. رأيتـه أكـثر احترامًـا مـن الكثيريـن وقـد خـشى أن أشـمئز مـن الـشرب بعـده. كانـت المـرة الأولى الـتي أشرب فيهـا ذلـك السـائل ذا الرائحـة العفنـة. ولكـن.. لـم لا؟! فأنـا لصـة للمـرة الأولى. وقاتلـة للمـرة الأولى. ومطلقـة للمـرة الأولى. وأوشـك بعـد مـوت إيمـان الوشـيك أن أكـون يتيمـة للمـرة الأولى.

ولكل مرة أولى مرارتها.. وكذلك تلك البيرة!

امتقـع وجهـي وقـد اختلطـت أماكـن ملامحـه بانقبـاض غريـب بمجـرد أن لمـس السـائل لسـاني، فأطلـق «سـيد» ضحكـة عاليـة، أتبعهـا المعلـم بطرقـة حازمـة عـلى البـاب مـن الخـارج وقـد ظـن مـا ظـن: يـا سـيد! اتـق اللـه! واللـه لـم أحلـق شـاربي منـذ الدبلـون..

كتمـت ضحكـتي لمقولتـه وسـلّمت الزجاجـة لـسيد، وقـد شـعرت بألفـة غريبـة بيـني وبـين ذلـك الجـو الغريـب الـذي أقحمـت نفـسي فيـه دون وعـي، بينمـا رمقـني صديقـي النـتن بنظـرة إشـفاق وقـال: المـرة الأولى في خمـر الغلابـة؟

مـال رأسي لثقـل غريـب أصابـه لمجـرد رشـفة مـن خمـر الغلابـة وشردت في كذبـتي الـتي حدثـت نفـسي بهـا سـابقًا عـن المـرة الأولى للخمـر: بـل الثانيـة.. ولا أظـن أنهـا سـتكون الأخـيرة..

لـم يفهـم سـبب شرودي. ولـم أحـاول منـع الذكريـات مـن الهجـوم عـلى رأسي. خـرت دفاعـاتي أمـام صـورة تلـك الليلـة الـتي حاولـت نسـيانها منـذ عـشر سـنوات. يـوم تذوقـت الخمـر للمـرة الأولى. لـم يخدعـني أحـد الشـباب لتذوقهـا قبـل ليلـة حمـراء أفقـد فيهـا عذريـتي. ولـم أتمـرد بهـا عـلى أخـلاقي في سـفر إلى مدينـة سـاحلية مـع «شـلة» أصدقـاء. بـل قبلتهـا في صمـت وجمـود رغـم اصطناعـي رفضهـا وقتهـا، عندمـا عرضهـا عـليّ مـن كان أقـرب إليّ مـن الجميـع حينهـا!

كنـت في السـنة النهائيـة مـن تعليمـي الجامعـي التافـه. وتلقيـت لتـوي خـبر هجـرة «عمـر» حبيـبي الأول مـع والديـه بعـد فشـل روايتـه الرابعـة. ولـم يكـن ذلـك بالخـبر الغريـب عندمـا تلقيتـه، فلقـد كان غريـب الأطـوار منـذ عرفتـه.. حـتى أنـه اقتحـم بيـت أسرتي فقـط ليصحبـني إلى عـم فرغـلي بطـل مسرحيتـه الجامعيـة الجديـدة ولا يبـالي. وكان هـذا كل مـا تبقـى منـه. عـم فرغـلي.

عـدت إلى بيـتي وقدمـي تترنـح مـن ثقـل كاهـلي بخـبر اختفـاء عمـر عـن الوجـود. ظننـت حينهـا كشـابة أقـرب إلى الطفلـة منهـا إلى المـرأة، أن مـن نحـب لـن يرحـل مـادام للزمـن مـن بقيـة. فالشـمس تسـطع بلمسـة منـه في الصبـاح. والليـل يشـدو سـاحرًا بكلمـة منـه في الظـلام. والـروح تنسـاب في نهريـة طالمـا التصـق رأسـانا بأحضانـه. ظننـت.. ومـا كان للظـن أن يدنـو مـن الحقيقـة إلا في المصائـب.

دلفـت مـن بـاب الشـقة، فوجـدت أمـي كعادتهـا وهـي تجالـس ابـن عمهـا في شـكوى أخـرى مـن زوجهـا، وكان ابـن العـم بالطبـع يواسـيها في رفـق بالـغ لطالمـا كرهتـه. ربمـا كانـت الغـيرة عـلى ضعـف أمـي الـذي أردت أن يكـون محلـه صـدر أبي كمـا نـرى في أفـلام الأبيـض والأسـود، وليسـت ربتـات ابـن العـم المتوتـرة.. تـارة عـلى وجنتهـا.. وأخـرى عـلى كتفهـا في حيـاء مسـتفز. مـررت مـن أمامهمـا دون أن يـراني الأحمـق أو تشـعر البلهـاء بضربـات قلـبي وتأخرهـا عـن نبضهـا المعتـاد. وارتميـت عـلى فـراشي متكومـة كجنـين يرفـض الخـروج مـن رحـم أمـه رغـم ضيـق جدرانـه، وأفضـت عـلى وسـادتي بالدمـع حـتى أنبتـت.

غبت لنوم زارني فيه عم فرغلي بحلم بدا قصيرًا، جملة واحدة.. فقط «مري علىّ في الصباح»، ناقشته بالحلم بأني لا أومن بجلسات ختمة القرآن الكريم لاستدعاء الحبيب حتى آتيك بعد رحيل عمر، فتبدل وجهه بوجه عمر وقال بل أحتاجها والجحيم تُعرض عليّ. سألته في بكاء: ولكن من مثلك لا ينتمي للجحيم. فأجابني بوجه أحمر أفزعني «ديْن يا فيروز حياتي ولابد من سداده». ومسح دمعي بإصبعه. اعتادت أن تكون مداعبته ناعمة تنشدها وجنتي مرات في اليوم والليلة، ولكنها أصابتني بحكة مؤلمة تعاظمت مع تزايد سرعة أصابعه. وما أن أوشكت أن تخدش وجهي حتى انتفضت من الحلم صارخة.

استفقت وكان جرح خدي مدممًا. فزعت وابتعدت عن الوسادة الملطخة بمحلول دمعي ودمائي، ففطنت إلى الحقيقة. كنت أنام على أشواك الوردة اليومية التي يتركها أبي بجانب رأسي عندما يعود متأخرًا ويغفو قبل أن يصل إلى فراشه.

نهضت في تعجب، فأبي كان مسافرًا لأسبوع كامل ليجد بعض الحلول لخسارة أسهم مصنعه وابن عم أمي، ولكن بدا أنه عاد في تلك الليلة، ابتسمت رغم الحزن، وقررت الذهاب إليه رغم مقاطعتي إياه بعد عشقي لجلسات عم فرغلي. فلم يكن لي إلا أذناه يستمع بها إلى شكواي، ولكن تدهور حالته وتكرار سُكره الروتيني، ساعدا على نفوري منه.. وساعد كوب عم فرغلي الأحمر على جذبي لصدره كلما اشتد الحزن.

خرجت إلى الصالة، فسمعت صوت تأوه مكتوم. حاولت تحرّي مصدره ولكن غاب دون رجعة فيئست من تلك المحاولة. وما أن اقتربت من غرفة نوم أبي حتى ضرب عيني بريق غريب. التفت ناحيته.. كان انعكاس ضوء الشرفة على كأسه الزجاجي. كان يجلس في استفاقة غير معهودة يشرب الخمر في جوف الليل.

كانت المرة الأولى التي يشرب فيها الخمر بالبيت.. والمرة المائة بعد الألف التي يتجرع فيها من ذلك السائل المُسكر..

ذهبت إليه في خطوات بطيئة عبرت بها باب الشرفة، وفى كل خطوة كان

وجهـه يـزداد وضوحًـا. كان شـاحبًا متجعـدًا كمـن شـاب لمائـة عـام في طرفـة عـين. كان ينظـر إلى الطريـق الخـالي وقـد فـرد مرفقـه عـلى السـور البـارد وأسـند ذقنـه عليـه في شرود. اقتربـت منـه حـتى كـدت ألتصـق بـه فلـم يلحظـني، رأيتـه يراقـب قطـة تدفـن قاذوراتهـا في الرمـال. راقبتهـا معـه. حـتى انتهـت وبـدأت في حومتهـا المعتـادة حـول بقعـة الرمـل تشـتم رائحتهـا. سـمعت حينهـا تأوهًـا مكتومًـا آخـر ومـا أن التفـت إلى مصـدره حـتى صرعتـني ضحكـة أبي. كان جسـده ينتفـض وهـو يكتـم فمـه بكفـه المرتعـش وكأنـه يكتـم بـكاءً وليـس ضحـكًا. فربـت عـلى كتفـه علّـه ينتبـه لوجـودي. ولكنـه أكمـل مراقبتـه للقطـة وتحـدث دون أن ينظـر إليّ أو يحـرك سـاكنًا..

«سيأتي زوجها الآن».

جلسـت أمامـه عـلى أحـد مقاعـد الخـوص الـتي اعتـاد أن يغزلهـا بنفسـه في صبـاح الجمعـة وقبـل صلاتهـا: مـاذا تقـول يـا أبي؟

أجـاب وعينـه تراقـب الطريـق: هـم الذيـن يقولـون.. يقولـون إن القطـة تـترك رائحـة قذارتهـا ليتبعهـا زوجهـا.. يتيهـون ليـلًا ونهـارًا مـن أجـل لقمـة العيـش.. يأكلانهـا، ويهضمانهـا، ويتبرزانهـا.. فقـط مـن أجـل أن يلـم القـدر شـملهما مـن جديـد.. دائـرة مفرغـة لا بدايـة لهـا.. وآخرهـا لـم يُخلـق بعـد.

- لا أفهم..

- لا أحـد يفهـم حقًـا.. ولكنهـم أجمعـوا عـلى أن حـب الزوجـين بُـني عـلى قـذارة المصائر..

تجـرع رشـفة أخـرى مـن الـكأس وهو يسـتند برأسـه عـلى مرفقـه دون أن يعتدل، فانسـكبت الرشـفة بالكامـل عـلى ذقنـه وصـدره، ولكنـه لـم يعبـأ.. فقـط لحـس مـا تبقـى منهـا عـلى شـفتيه كقـط يلحـس يديـه مـن الملـل وهـو فى انتظـار زوجتـه.

انتابـني القلـق مـن نبرتـه ونسـيت حـزني عـلى عمـر للحظـات ولمسـت قبضتـه: مـا أرجعـك مـن سـفرك يـا أبي؟

نظر إليّ وابتسم: الرمل يا عزيزتي.. رائحة الرمل.

أطرقـت بـرأسي في غـير فهـم وعوّلـت عـلى الخمـر غرابـة كلماتـه، لكنـه التفـت

إليّ لأول مرة منذ بداية تلك الجلسة الغريبة وابتسم: اشتقت إليكِ يا ابنتي..

ابتسمت في يأس وعصرت جفني إغلاقًا للحظات تمنيت أن تدوم: بل اشتقت إليك يا أبي.. سافرت منذ سنوات ولم تعد حتى الآن..

أمسك بزجاجة الخمر في بلاهة وجذب كأسًا أخرى دون أن يُلقي بالا لما يقول: وما فائدة العودة ولا أحد ينتظرك؟! أتشربين؟!

فتحت عيني في فاجعة! أيعرض أبي عليّ خمرًا. ظننت أنه ربما اختلط عليه الأمر أو صهرت الخمر رأسه فلم يعد يفرّق بين ابنته وعشيقته. ملأ الكأس بالكامل وقربها من فمي: فلتجربي؟

- أجرب الخمر يا أبي؟!

- ولم لا؟! جئنا إلى الدنيا يا ابنتي عرايا.. وكُتِب علينا اختبار كل مأساة فيها مقابل ما يستر عوراتنا.. كل مأساة بقطعة من قماش.. كل على حدا.. إن اختبرنا موت من نحب يستر الحزن صدرًا بداخله قلبًا احترق على فراقه.. إن اختبرنا فشلا يستر الذل عنقًا مال من ضيق العيش وبأسه.. وإن تألمنا لخيانة تستر ورقة الموز عضوًا ذكريًا أو أنثويًا بخل الحبيب عليه بشهوة حرّمها على من دونه!

ضربت شفتيّ بكفي خجلًا. كيف يقول الأب ذلك أمام ابنته؟ علمت أنه ثمل حقًا وخشيت أن يصل به الأمر أن يتجرد من ملابسه أمامي كما المجاذيب، ولكنه أكمل وهو يتجرع كأسه فتنسكب على ذقنه وصدره دون أن يبتلع نقطة منه:

«فلمَ إذًا نختبر كل المآسي لكي نستتر.. ولا نختبر المتع وإن كانت حرامًا.. كي نتعرّى من جديد». ضحك ثم قال «أهذا عدل؟! اشربي، اشربي»..

واجهته في حيرة: ولكنك لا تشرب حقًا يا أبي.. الـ. الخمر ينسكب على صدرك..

ابتسم وعاد بنظره إلى الطريق: أي صدر.. نفد القلب المحترق منه.. لا تقلقي.. أصبح به فجوة كبيرة.. فما ينسكب خارجه.. يعود مرة أخرى إلى داخله..

أرهقتـني كلماتـه غـير المترابطـة. فقـررت أن أنهـض للنـوم وقـد ظننـت أني سأشـكو إليـه رحيـل حبيـبي. ولكـن.. كان عـم فرغـلي هـو الخيـار الأمثـل. ومـا أن نهضـت حـتى جـذب ذراعـي وأجلسـني: أريـد حقًـا أن يشـاركني أحدهـم الـشرب هـذه الليلـة..

راقبتــه في جمــود غاضــب. فــاض الكيــل مــن انحرافاتــه والآن يجــبرني عــلى الحــرام: أبي ااا..

ألصـق الـكأس بشـفتي فجـأة فانسـكب عـلى ملابـسي، وتذوقـت بعضًـا منـه رغمًـا عـني. وامتقـع وجهـي مـن مرارتـه. فضربـت يـده بعيـدًا حـتى طـارت الـكأس بالطريـق فأفـزع القـط وزوجتـه وفـرا هاربـين.

نهضـت في غضـب، فهمـس في حـزن اسـتوقفني: أردت لـك تـذوق المـرارة حـتى تعتـادي عليهـا.. ألا تريـن؟ نتجـرع المـرارة قهـرًا.. ولكنهـا لا تلبـث أن تصبـح مـن متـع الدنيـا.. وحُسـن عذابـات الآخـرة..

نظـرت إليـه شـذرًا واتجهـت إلى غرفـتي. تنهـد برحيـلي فلـم ألتفـت. أكملـت طريقـي، ولكـن في منتصفـه، أوقفـني صـوت التـأوه المكتـوم مـرة أخـرى فتسـمرت أصابـع قدمـي الحافيـة أرضًـا. ظننـت أني علمـت مصـدره. عقـدت حاجبًـا انعقـد بعقـدة رجـليّ فـوق بعضهمـا للرجـوع خطـوات للخلـف. تحركـت في بـطء تجـاه غرفـة نـوم والـدتي. فتعـالى صـوت الآهـات. خشـيت عليهـا أن تكـون مرضـت بمـرض سرّي وتتألـم وحدهـا، ولكـن.. خاطـر غاضـب افـترس رأسي.. لـم أعـرف هويتـه ولا معنـاه ولا سـببه.. فقـط سـيطر عـلى شـعوري بالخـوف كلمـا اقتربـت مـن مقبـض بـاب تلـك الغرفـة المظلمـة.

انفجـرت الآهـة المكتومـة إلى أنفـاس متعاقبـة مـن اللهـاث. فضربـت المقبـض بيـدي وصرعـت البـاب بفتـح درفتـه السـاخنة، وعندهـا رأيـت مـا رأيـت. أمـي عاريـة وابـن عمهـا بـين فخذيهـا متعرقًـا!

انفجـرت خصـلات شـعري الأسـود للخلـف بتيـار جـارف مـن الصدمـة، وشـعرت وكأن شـيئًا يزحـف بـين شـعيراتها. اهـتز عنقـي في ارتعـاش غـير مفهـوم. وضربـني جفـنيّ بنبضـات هيسـتيرية وكأنهـا تدفعـني بقوتهـا للخلـف وتـصرخ «ارحـلي.. ولا

تطيلي النظر!». انتفضت أمي وارتمى عشيقها وهو يستر عورته بكفه النجس أرضًا إلى أسفل الفراش. التفّت أمي بملاءتها المبتلة بعصائر شهوتها المحرمة وأحاطت جسدها المتعرق وانهمرت دموعها. حاولت النهوض تجاهي في لهفة صرعت خطواتها. صرخت في توسّل متقطّع بما ظننته منطقيًا وظننته حقيرًا:

« فـ.. فيـ.. فيروز! لـ.. لا.. لا.. لا تخبري أباكي عندما يرجع!».

أثقلت غيمة سوداء عيني، وأحالت الرؤية إلى الظلام تدريجيًا وأنا أهمس لها بحروف سمعتها أعجمية « اا.. ا.. انـ.. انه.. ف.. في الشرفة..»، وعندها فطنت إلى حقيقة أفعاله. عاد من سفره ورأى ما رأيت، فعاد كعبد وضيع مخنث إلى الشرفة يسكر من خيانة زوجته دون أن يحرك ساكنًا لقتلها.

تمنيت لو فتحت عيني بعد أن فطنت إلى تلك الحقيقة، أبي يجلس حيًا وهو يسمع آهات زوجته في الغرفة المجاورة.. أي ذل هذا؟! فتحت جفني.. ولم تتفتح الرؤية. كان الظلام حالكًا. ضربت عيني بأصابعي في قوة، ظننت أمي أني ألطم كفتاة خائرة أمام خيانة أمها. وشعرت بيدها على رسغي وهي تمنعني. دفعتها بقوة ولم أر سقوطها. وعدت في غضب أضرب جفني بقبضات صارخة فربما تعود إليها الحياة وينطفئ الظلام بأي ضوء ولو خافت. إلا أن الكلمة عليّ قد حقّت.

عميت!

انجلت البصيرة بضياع البصر، وعلمت أن سببه لم يكن عري أمي وجسد عشيقها المتعرق، وإنما فاجعتي في أبي. ذلك الديوث اللعين. والذي كان سابقًا، إلهًا عشقت عبادته.

لم يهزني رحيل عمر إلا بكاءً. ولم تطرق خيانة أمي عيني إلا جحوظًا. ولكن الصيرفي؟ فأصابها بموت مؤقت لم أستفق منه إلا بعد عشرة أشهر. وما أن فعلت ورأيت النور مرة أخرى.. حتى شعرت بتلك الفجوة في صدري. فجوة الخيانة التي أبدع في بؤس في وصفها.. وتسرب إليها ما سكبه عليّ من خمر، فأغرق قلبي وأسكره بالغضب حتى يومي هذا.

«مر!».

قلتها فتعجب لها سيد وقد أسندت رأسي على صندوق البيرة خلفي في نوم سريع باغتني. أيقظني صوت ضحكته: البيرة مرة حقًا.. ولكن بعد فترة تعتادين عليها..

أجبته دون أن أفتح عيني وكأنى اشتقت لعمايا المؤقت: ككل شيء مر في تلك الدنيا..

نفث هواءً قصيرًا من أنفه: معك حق!

فتحت عيني واعتدلت وأشرت إلى الزجاجة في يده فسلمها إليّ وقال: وجهك به بعض الجروح.. يبدو أنك فتاة مشاكل..

تجرعت رشفة أكبر تعجب لها: أغلقت إيمان محمولها للمرة الأولى.. ولم تأت إلى الشركة على غير عادة.. ما الذي يعنيه ذلك؟

تعجب وقد ظن أن جرعتين من بيرته الرخيصة أسكرتني: اا.. لا أعلم.. اا..

ضحكت ضحكة عالية في بؤس: علِمت أن موتها اقترب!

ضرب المعلم الباب المغلق في قوة: افتح يا سيد!! التاكسي وصل.. معاد تسليمك وجب! افتح يا جدع ولتوقف تلك المسخرة.. الله؟!

لم يلتفت سيد إلى ضربة صديقه المعلم: ماذا؟ أي موت؟!

نهضت وأنا أنفض الأتربة عن مؤخرة ردائي: التحاليل كانت سيئة!

نهض واقترب منى: لا أفهم يا امرأة!

أرحت كفي على مقبض الباب والتفت له: سأعطيك الـ ١٤٠٠ جنيه.. ولترافقني طوال النهار..

انتفض إلى مقبض الباب يفتحه عني في حماس غريب: فلتأمريني.. و«حذاؤك» فوق رقبتي..

ابتسمت وهممت بالخروج وأنا أنظر للحذاء الرياضي الخاص به بقدمي: ستتسخ رقبتك إذًا..

تراقص فرحًا وهو يحل ترباس الباب: والله وأصبحت الطب من نصيبك يا محمد..

وقطـع جملتـه فـور فتحـه البـاب، حيـث انتبهنـا عـلى مشـهد غريـب. كان مسرحًـا مـن الرجـال يجلسـون أمـام البـاب يسـترقون السـمع لمـا ظنـوا أنـه لقـاء آثـم بـين ذكـر قبيـح مثلهـم وأنـثى متفجـرة المفاتـن مثـلي. ومـا أن رأوني حـتى انتفضـوا في تباعـد الذبـاب عـن جثـة القطـة الخائنـة. وعندهـا نظـر إليّ هامسًـا: الصيـت ولا الغـنى!

خرجنـا إلى سيارة الأجـرة البيضـاء وقفـز بهـا دون تردد حـتى أنه نـسى أن يداهنني بفتـح البـاب لــ lady مثـلي. فهـمّ أن يعـود مسرعًـا ولكـني قطعـت محاولتـه بركوبي الصامـت. أدار المحـرّك وأثـار بـه ضجيجًـا. انتظـرت أن يتحـرك ولكنـه نظـر إليّ في حـرج وقدمـه لا تـزال تضغـط عـلى الدبريـاج: اعذريـني يـا هانـم.. فضـل كبـير منـك أن تعطيـنى ذلـك المبلـغ.. ولكـن.. لابـد أن أعطـي صاحـب السـيارة ٢٠٠ جنيـه في نهايـة اليـوم.. و.. و.. وسيسـحب ذلـك مـن مبلـغ الــ ١٤٠٠ و..

أشرت لـه بالصمـت وقـد وصـل محمـولي إلى أذني. سـمعني وأنـا أتحـدث مـع موظـف الاتصـالات لشركـة خدمـات سـيارات أجـرة فاخـرة. فشـعرت بـبرودة المـوت وهـي تحيـط بوجهـه خوفًـا مـن ردة فعـلي، وقـد ظـن أنـه أغضبـني بمطلبـه فقـررت الاسـتعانة بغـيره: مـن فضلـك.. تعتمـد مـدام إيمـان الفـولي صاحبـة شركـة «هيلـين أوف تـروي» عـلى خدماتكـم عندمـا تتعطـل سـيارتها.. هـل اسـتعانت بكـم اليـوم؟

تنفـس سـيد الصعـداء. وتنهـدت مـن رفـض الموظـف الإدلاء بأيـة تفاصيـل: أنـا سـكرتيرتها مـدام فـيروز الصـيرفي.. راجـع مديـرك ليؤكـد لـكِ هويـتي.. مـن فضلـك نريـد تأكيـدًا للمسـافة الـتي قطعتهـا معكـم اليـوم لإضافتهـا إلى دفاتـر المصاريـف.. نقلتهـا مـن أيـن إلى أيـن؟

لـم أعـرف حقًـا إن كانـت قـد اسـتعانت بهـم أم لا، وخفـق قلـبي مـن توقـع إجابتـه بأنهـا لـم تفعـل، ولكـن كلماتـه ضربـت أذني بعنـوان غريـب قصَدَتْـه منـذ نصـف سـاعة. أغلقـت المحمـول دون رد. وهمسـت لسـيد والحـيرة تحيـط بـرأسي:

«٢٠٠٠ جنيه يا سيد.. فقط تحرّك للزمالك».

بهـت وجهـه في غـير تصديـق، وارتعشـت قدمـه العاريـة مـن إثـارة مـا سـمع.

اهـتز الدبريـاج وأخطـأ سـيد في مزامنتـه مـع دواسـة البنزيـن فقفـزت السـيارة وانطفـأ محركهـا، فعـاد وأدارهـا باسـمًا: سيكشـف الدكتـور محمـد عليـكِ مجانًـا مـدى الحيـاة.. هـذا وعـد مـن أبيـه.. ولـن يرفـض ابـن الكلـب.. أنـت ومالـك لأبيـك.

توقـع أن أضحـك عـلى طرفتـه كمـا فعـل إلا أن العقـل كان ضـالًا في طريـق آخـر. وتلـك الفجـوة الساخنة بصـدري عـادت إلى اشـتعالها مـرة أخـرى فانسـكب منهـا خمـر الغلابـة بـدلًا مـن سـقوطها داخلهـا. فاسـتفقت مـن سـكرتي المؤقتـة. وفي لحظـات لـم أنتبـه لطولهـا مـن قصرهـا، وصلنـا إلى أول الطريـق الـذي وصفتـه لى شركـة الأجـرة. خرجـت مـن سـيارة سـيد دون أن أنطـق بكلمـة. فأكـد عـلى تأمينـه لمصـدر أموالـه «في انتظـارك يـا ست ولـو للصبـاح». لـم أجـب، بـل عرجـت إلى الطريـق الضيـق والـذي جـاور عـدة مقـاهٍ صاخبـة ضلـت طريقهـا عـن حـي الزمالـك منـذ سـنوات، أهـي نسـخة محسّـنة مـن المقاهـي البلـدي تجلـس عليهـا الفتيـات والشـباب؟ أم كافيهـات راقيـة تصبغـت بصبغـة المقاهـى؟ فقـط عرجـت إلى الطريـق الهـادئ الـذي يغلفـه ضجيـج المقاهـى الكافيهيـة فيحبـس أصواتـه عـن خارجهـا. وتقدمـت تجـاه مبـنى كنـت أعرفـه جيـدًا. رأيـت قطًـا يحـوم حـول رملـة داكنـة اللـون مـن فـرط قذارتهـا. اعتدلـت ورفعـت قبضـتي للطـرق عـلى البـاب ولكـن.. لـمَ أفعـل ذلـك؟ فدخـولى الدرامـي دون اسـتئذان سـيزيد مـن ثـورتي الـتي تُقـت إليهـا.

أخرجـت مفتـاح البـاب وطعنـت القفـل الذهـبي بـه، أذكـر أني أشرفـت عـلى تركيبـه بنفـسي. حللـت لسـان القفـل عـن مكانـه فانفلتـت درفـة البـاب في بـطء. وبقـوة! ضربـت البـاب بقدمـي ذات الحـذاء الريـاضي المتسـخ. وتسـمّرت!

كانـت مسـاحة الاسـتوديو كبـيرة. والفـراش الـذي انتصفـه لـم يكـن بعيـدًا عـن البـاب. ظـن أخـي في غـرور أنـه لا يحتـاج إلى أحـد أركان الاسـتوديو الضيقـة ليجامـع فيـه نسـاءه. فهـو في الزمالـك بحـق اللـه، وصـوت آهـات النسـاء بهـا جـزء مـن موسـيقاها التصويريـة الـتي يطـرب لهـا الجميـع. ولكنـه مـن المؤكـد أنـه سـيعيد النظـر في ذلـك الأمـر بعـد ذلـك النهـار.

كانـت عاريـة في أحضانـه. وكان متعرقًـا بـين فخذيهـا. انتفضـت عـلى إثـر اقتحامـي ونهضـت مـن نصـف نومـة. فلمـع رأسـها تحـت النـور الأحمـر للشـمس

التي كادت أن تغرب. كانت صلعاء وقد سقط شعرها المستعار بفعل ضربات عمرو لجسدها في نشوته القصيرة. ولكنه لم يقفز هذه المرة ليختبئ أسفل الفراش. ولكنه احتضنها في حماية وبحث في هيستيريا عن الشعر المستعار ليُخفي بها عاهة رأسها، وكأنه يستر نفسه. كان محبًا يدافع عن كرامة حبيبته. ولكن ما فعل لم يطفئ ناري إعجابًا. وصمتي لم يعقد لسانه غضبًا.

صرخ: فيروز! ألا تطرقين؟

تمنّيت أن أصرخ بهما حتى ينفلق فكّي انكسارًا على مصراعيهما، ولكن غابت سخونة الغضب عن أطرافي وحلت برودة الحسرة واليأس على مقعده.

ارتعشت عينا إيمان لتحديقي بهما وطرقتهما أرضًا، بينما التف لساني وانعقد حول نفسه، باحثًا عن أي كلمة ثأر تناسب ذلك المشهد وتضاهي مقدار الحزن الذي استقر بقلبي على ما رأيت، الذي لو كان قياسه بمقدار الحب الذي كنت أكنه لها، لصار لا نهائيًا.

ولكن، تحولت إلى جثة نحاسية، لا يخرج منها الصوت إلا بحشرجة ضحايا سكرة الموت، فنطقت بصوت خافت لم أكد أسمعه لارتعاشة حروفه:

«عزيز قاسم يا إيمان».

نطقت بها دون أن أنتبه إلى معناها، ولكن.. ما بدا على وجهها من خزي وحسرة أنبأني بذلك المعنى. علِمْت وعلِمَت أنها أصبحت بلا قيمة، فلا عتاب بيننا وحرب تستحقها تلك الخائنة، فقط كل ما أصبح بيننا هو المصلحة. تلك المعلومة عن عزيز بك قاسم.

وكان ذلك أكثر قسوة عليها من طعني لها بخنجر حديدي.

حاولت مقاطعتي بدمع وضعف غريبين عليها: فيرو..

أومأت لها باسمة بالرفض وقد تبلّدت مشاعري: عزيز قاسم.. من فضلك!

ارتدى عمرو بنطالًا في سرعة لم تنجح في إخفاء عظام حوضه واتجه إليّ في غضب: لن نبرر ما رأيتِ.. فانتِ الـ..

تجهمت بوجهه كأخت كبرى فارتعد: أين كنت عندما جامعت أمك ابن عمها؟ لا أراك في ذلك المشهد يا عمرو.. اه.. تذكرت.. كنت بمخيم مدرستك

الصيفـي أليـس كذلـك أيهـا الطفـل المدلـل؟ (اقتربـت مـن وجهـه في قسـوة أوجعتـني قبـل أن توجعـه).. دعـني أخـبرك أمـرًا.. أمـك..

صاح في حزم وثبات: أعرف! لست وحدك من يعرف السر..

بسطت حاجبي في سخرية: ولكني وحدي من عانيت منه!

- ألا تسامحين أبدًا؟

- لا يسامح من لا ينسى..

- الجميع يُخطئ!

- ولذلك.. الجميع يعاني..

- لا تنصبي نفسك إلهًا يعاقب الجميع..

- اااااه.. معـك حـق.. ولكـن في رأيـك يـا فنـان.. لـم يعاقـب اللـه بتلـك البشـاعة؟ جهنـم ؟ الجميـع يُخطـئ يـا رب.. ولكـن أيسـتحقون جهنـم ؟

- ااا...

- لأنه يحبهم.. وعلى قدر الحب يأتي العقاب.. أليس كذلك؟

- لقد جننتِ!

- لا تحاسب المجنون على أفعاله إذًا.. حتى لو وصلت إلى القتل!

- ماذا؟

ارتعـد مـن عبـارتي وربمـا ظـن أني أقصـد حبيبتـه العجـوز، فاسـتمتعت بخوفـه وأومـأت لـه بالموافقـة فاحمـر وجهـه: المـسي شـعرة منهـا و...

قاطعتـه بضحكـة عاليـة. وكلمـا انتهـت تعالـت مـرة أخـرى في سـخرية لاذعـة: ألمـس منهـا شـعرة؟ حبيبتـك صلعـاء يـا عمـري!

صاحت إيمان أخيرًا في حزم اعتاد أن يلجم لساني: فيروز! اتركنا يا عمرو..

عـادت هيبتهـا إلى قلـبي حـتى وإن اصطنعـت عكـس ذلـك. أومـأ عمـرو لهـا في طاعـة العبيـد وجـذب قميصـه وخـرج وصفـع البـاب خلفـه. فباتـت المعركـة بيـني وبينهـا.

نهضـت مـن الفـراش دون أن تهتـم بتغطيـة جسـدها. وتحركـت عاريـة تمامًـا في شـموخ عهدتـه عنهـا. فمـن مثلهـا لـن تخجـل لعراهـا. ولكـن مـا أن رأيـت أحـد ثدييهـا وقـد غـاب عـن مكانـه ربمـا لعمليـة اسـتئصال. حـتى انفطـر قلـبي وقبضت عليـه في غضـب لكيـلا يرسـل الشـفقة إلى تعابـير وجهـي.

بـدأت في ارتـداء ملابسـها في بـطء وهـي تتحـدث في هـدوء: أحبـني رغـم المـرض.. اصطنـع شـهوةً رغـم ضيـاع فتنـتي.. (غطـت صدرهـا بقميصهـا الـوردي) اسـتأصلت ثديـه المفضـل منـذ سـنة ولـم يعلّـق.. عمـرو هـو عشـقي الوحيـد يـا فـيروز.. (نظـرت إليّ أخـيرًا في تهديـد) إيـاكِ وإهانتـه في حضـوري!

تقدمـت منهـا وذقـني ترتعـش مـن الغـل: كنـت أبـكي عندمـا علمـت بمـا أصابك! أيتها السـاقطة!

ضربـت كتفـي وأجلسـتني عنـوة عـلى مقعـد بـارد: لا عـدل في تلـك الحيـاة يـا صغـيرتي.. أحببتـني.. وأحببتـك.. ولكـن.. تنجـح الحيـاة حقًـا في مسـخ ربتـة عـلى كتـف مـن نحـب.. إلى طعنـة نافـذة..

علقت عيني على الأرض كطفل كره وجه أمه: متى بدأ الأمر؟

تنهدت باسمة وهي تجلس: من أول نظرة..

رفعت وجهي في غضب: إياكِ والابتسام لي!

غابـت ابتسـامتها في شـفقة مفاجئـة: أخـبرني عمـرو بحكايتـك مـع أمـك.. ولكـني لسـت مثلهـا..

- ولم تكوني قط.. أظننتِ حقًا أنك كنتِ لي أما؟

- إن لم أكن.. فقد كنتِ لي ابنة..

- قدري يختار لي الأمهات الساقطات..

ابتلعت الإهانة بوجه حزين: كيف عرفتِ بمرضي؟

نهضـت في هـرب مـن تقاطـع ناظرينـا، فربمـا تغلبـني دموعـي: كـسرت مكتبـك! كـ.. كنـت أبحـث عـن أي شيء يخـص حديثـك عـن عزيـز قاسـم.. ااا.. أخبرتـني نـورا أنـك..

أخرجـت سـيجارتها الرفيعـة وأشـعلتها: «لقـي عزيـز قاسـم حتفـه في حـادث سـيارة في الثامـن والعشريـن مـن ينايـر عـام ٤٩..»..

قالتهـا في بـرود وكأنهـا أرادت أن تدفـن تلـك القصـة الباليـة مـع خـبر مـوت العزيـز. ظنـت أن ذلـك الخـبر قـد يثلـج صـدري ويربـط قدمـي عـن البحـث وراء الخرافـات. ولكنهـا لـم تكـن تعلـم بأمـر الـرداء الوحـشي. لـو علمـت لقفـزت مـن مقعدهـا في صدمـة وشـاركتني البحـث ولكـن.. أنَّى لي أن أخبرهـا بالحقيقـة بعدمـا فعلـت مـا فعلـت؟ قتـل جلنـار أصبـح حتميًـا يـا إيمـان. أقسـمت لنفـسي كمـا اعتـاد فرغـلي أن يفعـل «أمـا واللـه» كنـت أتحـرّق لإخبارهـا ولكـن..

قصص القتل لا تروى للخائنات.. بل يكنّ أحد أبطالها!

أخرجـت أدوات الماكيـاج مـن حقيبتهـا وبـدأت في تزيّـن لـم تحتـج إليـه رغـم الكـبر والمـرض: اتـركِ الأمـر وراءك يـا فـيروز.

نظـرت إلى عينيهـا مـن خـلال مـرآة يدهـا: أيهمـا.. قتـل جلنـار أم موتـك في نظـري؟

أكملـت حركـة أصابعهـا بالمكحلـة حـول عينيهـا دون أن يهـتز لهـا جفـن: اعتـدت عـلى المـوت في نظـر مـن أحـب.. وبالرغـم مـن أنـه سـيكون هـذه المـرة مؤلمًـا فإنـي سـأتجاوزه قريبًـا..

كنـت أعلـم أنهـا تشـير إلى موتهـا القريـب، وقـد تفـشى السرطـان بجـدار صدرهـا: لـم تعـد قصـة جُلنـار شـيئًا يعنيـكِ.

تنهـدت: لـن تتوقفـي إذًا.. حسـنًا.. عـثرت لـكِ عـلى ابنـه.. فربمـا يسـتطيع مسـاعدتك..

هممت بالرحيـل في عـزة ولكنهـا كانـت تمسـك بالورقـة الـتي أحنـت رقبـتي: مـا اسـمه؟

أخرجـت قصاصـة صغـيرة مـن حقيبتهـا واقتربـت مـني، فأشـحت بنظـري بعيـدًا عنهـا حـتى قـارب وجههـا عـلى الالتصـاق بوجهـي وهـي تغلـق قبضتهـا عـلى القصاصـة: سـأعطيكِ إياهـا.. ولكـن بـشرط..

زفـرت هـواءً غاضبًـا، فشـعرت بيدهـا وهـي تطبـق عـلى كتفـي. أدارت جسـدي

تجاهها. لمعت عيني لدمعة أثارتها لمستها. فانتفض عنقي مبتعدًا عن وجهها في غضب من ضعفي البائس. همست لنفسي «تماسكي أيتها اللعينة.. لا تحزني لأجلها.. لا تتجاوبي مع لمستها.. لقد ماتت أمك مرة أخرى.. فيروز! تماسكي!».

وبهدوء بالغ وضعت كفها على مؤخرة رأسي ودفعته برفق تجاهها. قاومت عدة مرات لكن الكأس كانت قد فاضت بخمرها. وعندها، لم أشعر إلا وقد اندفعت داخل حضنها. عصف البكاء بصدري حتى انتفض جسدانا في هزات عنيفة. طوقتها بذراعي في قوة وصرخت في نواح الأطفال وأنا أتحسس ظهرها بين كفي في هيستيريا وكأني أخشى ضياعها من يدي: لماذا أنتِ من بين كل الناس.. لماذا؟!

لم تنطق بكلمة، بل ظلت تربت على رأسي في هدوء. وتمرر أصابعها على شعري الأسود في حنان بالغ. وبكائي يتزايد حتى كدنا أن نسقط في نهر دمعي المالح. قبضت على جسدي أخيرًا وضمتني في قوة. فهدأ بكائي. ومسحت عصائر أنفي وابتعدت عنها وأنا ألهث. وما كان منها إلا أن ظلت تراقبني في ابتسامة، وقد لمعت عينها بدمعة لم تسقط منها قبلًا. وحتى هذه اللحظة لم تفعل.

وضعت قصاصة الورق في كفي باسمة: ابن عزيز.. اسمه اللواء حاتم عزيز قاسم.. علمت أنه مساعد لوزير الداخلية.. حظًا طيبًا في مقابلة أحد ملوك هذا الزمن..

نظرت لها في حزن، فأومأت بجفن ثقيل وكأنها تقبل طواعية ما كانت على وشك أن تطلبه: الآن يمكنك أن تفعلي ما لم تفعليه مع أمك.. هيا يا فيروز..

أغلقت عيني تمنيًا لعمى آخر ينجيها مما أمرتني به، ولكن فتحت عيني وقد عاد الغضب يتسرب إلى وجهي مرة أخرى. وعندها أطعت الأمر في قوة.

صفعتها على وجهها!

مال عنقها يمينًا بفعل صفعتي. واستقرت كذلك. لم تعيده إلى مكانه،

وكأنها خجلت من النظر إلى عيني مرة أخرى بعد إهانتها. أو ربما تجنبت تقاطع الأنظار حتى لا نتيه في بكاء آخر.

طال صمتنا. وشحب وجهها الملتوي. فتحركت نحو الرحيل وقد استعدت فيروز الغاضبة مرة أخرى بعدما تسربت الشفقة. مررت بعمرو بجوار الباب فلم أعبأ بأولى كلماته. خرجت أنشد هواءً باردًا لصدري ولكنه كان ساخنًا. اقتربت مني سيارة سيد دون أن أشير إليها. ركبت في صمت. وانتظر ذو الأقدام العارية أمرًا للرحيل.

دق محمولي لرسالة علمت هوية متصلها..

«أذكرك بحفل الوزارة الليلة.. حتى وإن لم تريدي العودة إلى عصمتي.. فقط أضيئى الليلة بوجودك وأعطنا فرصة أخيرة».

رأيت عنق سيد متدليًا فوق شاشة المحمول وقد قرأ ما فيها: أين الحفل؟

سأل باسمًا في لزوجة لم تغضبني، فأجبته دون تردد: بل إلى مكانٍ آخر..

أدار محرّك السيارة وفتحت قصاصة أمي المتوفية وقرأت ما فيها..

«إلى وزارة الداخلية»

***

كوب فاخر من القرفة انهمكت في شربه حتى يعود اللواء حاتم إلى مكتبه. كان مكتبًا داكن الرائحة، ذا هواء مظلم. أثاثه الخشبي كان أكثر حدة من قضبان السجون المعدنية التي يرسل إليها معارضيه. ولم تنجح الستائر القرمزية الداكنة التي افترشت وجنتي النافذة بتركيب بديع أن تزيد من بهجة ذلك القبر المقفر.

طرق الباب ودخل على استحياء التلاميذ لا رجال الأمن. وقع بصره أول ما وقع على حذاء سيد المتسخ. فعقد حاجبيه لبقية هيئتي الراقية ولكنه ما لبث أن ابتسم في دبلوماسية زائفة: إنه لشرف كبير تشريفك لنا يا مدام..

استخدم كلمة الشرف مرتين في جملته.. ملاحظة تافهة.. ولكن تستحق الالتفات إليها.

كان ضخم الجثة كعمود رخام بفيلا والد زوجي المتعجرف. بأنف مدبب للأسفل كمنقار نسر استقر على علم وطني لم يعد يلقي أحدهم به بالًا، وعينين سوداوين غائرتين على قدر اتساعهما أذابت قلبي رعبًا كما أظن أنه اعتاد أن يفعل مع غريميه، وشعر وشارب أبيضين كسحابة الأقدار التي لحقتني منذ الصباح واختفت منذ الظهيرة. وربما كان يقترب بخطوات بطيئة مثلها. كمن تحرّكه رياح هادئة تخدع من تنعّم بها، فما تهدأ الرياح إلا لعاصفة وشيكة.

نهضت وسلمت عليه فانحنى: لن أستغرق الكثير من الوقت..

أشار إليّ بالجلوس فجلست وجلس ونطق بصوت غليظ: حرم عاصم بك تستغرق ما تشاء من الوقت.. أي خدمة..

عرّفت نفسي بزوجة مدير مكتب وزير الخارجية وليس طليقته: ليست خدمة أكثر من.. اا.. سيادة اللواء.. أنا.. أنا.. أعد كتابًا عن بعض الإبداعات القديمة لعظماء المصريين من فترة ما قبل ثورة يوليو.. ومنهم والدك..

ارتعشت ابتسامته ارتعاشة غير مرئية ولكني رأيتها فأكملت: كان طبيبًا نفسيًا في زمن لم يعبأ فيه أحد بتخصصه العبقري.. وكنت أريد أن أجمع بعض المعلومات عن حياته الشخصية و...

اعتدل واعتمد بمرفقيه على سطح المكتب وغابت عينه في تجنب لمواجهتي، وكأنه يتفحص أجزاء مكتبه للمرة الأولى منذ أن اشتراه: رحمه الله.. لا يوجد هناك ما يُذكر.. فقد توفي صغيرًا..

راقبت مقاومته الغامضة للحديث عن والده فأجبرت لساني على الصمت. نظر إلى صمتي في تعجب، بينما تهرّبت منه في شرود إلى عبارة نصحني أبي بها قبلًا عدة مرات قبل أن يفقد مهارة تربية أبنائه. كنت قد اعتدت على اتباع نصائحه، ولولا فعلته الأخيرة وتحريم كلماته على أذني، لربما أفادتني تلك الكلمات فيما تبقى من حياتي البائسة، فلم أكن لأتزوج من عاصم،

أو أعمـل لـدى إيمـان، أو حـتى أصحـب ذلـك اللص التافـه كسائق خصـوصي في رحلـة مجهولـة.

«لا تجالسي من لا تعرفين»..

كان صوتـه في رأسي محقًّـا، فأنـا لا أعلـم أي شيء عـن ذلـك اللـواء النـسريّ مفـترس الهيئـة، فارتأيـت حتمية التحـرّي عنـه قبـل محاصرتـه بأكـثر القصـص جنونًـا عـلى الاطـلاق.

ولكن من الذي سأتحرّى منه عن ذلك الأحمق؟ ومتى؟ فأنا أمامه بالفعل.

وعندها كان الجواب يتراقص في استفزاز أمام عيني: سأتحرى عنه منه.

قطع شرودي في تعجب: مدام فيروز؟

انتبهـت لـه، ومـا لبثـت أن اصطنعـت ابتسـامة: اا.. آسـفة سـيادة اللـواء.. الكثـير مـن تفاصيـل ذلـك الكتـاب تعبـث بـرأسي.. حــ.. حسـنًا.. هـل لـك أن تمـدّني ببعض المعلومات عـنك...

مال عنقه في حيرة: عني أنا؟ ظننت أن كتابك كان عن والدي..

نافقتـه في براعـة: وأسرتـه.. وربمـا سـيكون مـن النـادر أن أقابـل خـلال رحلـة بحـثي رجـلًا وابنـه.. كل منهمـا عظيـم في مجالـه..

اعتـدل في جلسته فخـرًا ذلـك الأبلـه، فأكملـت مسلسـل إهانتـه: فلتقـص عـليّ قصتـك مـن البدايـة.

راقبـني في ابتسـامة غامضـة أذابـت تصـوري السـابق بأنـه أبلـه انتـشى مـن نفـاقي السـاذج. شـعرت وكأنـه قـرأ محاولـتي الطفوليـة بالتحقيـق معـه، وظننـت حقًـا أنـه عـلى وشـك طـردي فاحتبسـت أنفـاسي ولكـن...

«حسنًا.. ولكن.. فلتعديني بفصل خاص لي بكتابك.. ونسخة موقعة منك!».

زفرت ما احتبس من زفير مؤجل في ارتياح، واعتدلت: تفضّل!

اتـكأ عـلى مقعـده في عظمـة فاتحـي بـلاد الفرنجـة: حسـنا لا أعـرف مـن أيـن أبـدأ.. فأنـا.. ولـدت قبـل وفـاة أبي بعـدة شـهور عـام ٤٩.. انتهيـت مـن دراسـتي بالثانويـة الأزهريـة عـام ٦٧.. والتحقـت بكليـة الشرطـة.. ومـن هنـا بـدأت رحلـتي

في خدمـة الوطـن و........

قطـع شرودي المفاجـئ وصـول بقيـة كلماتـه إلى أذني، فـشيء مـا قـد قالـه دون أن يعـيره انتباهًـا كشـف أمـرًا غريبًـا وجـلاه أمـام عيـني.

قاطعــت ســيل هراءاتــه: اا.. آســفة ســيادة اللــواء.. ولكــن.. هــل قلــت أنــك تخرجــت في الثانويــة الأزهريــة؟

أجابنى في تعجب: أجل.. و...

ابتسـمت ابتسـامة أربكتـه وأغلقـت عيـني وقـد طرقـت رأسي أرضًـا وقـد علمـت الأمـر: فلنعـد إلى الحديـث عـن أبيـك إذًا..

تجهـم رغـم محاولاتـه الحفـاظ عـلى لباقتـه: لـم أعـد أفهـم مـا تريديـن يـا مـدام.

تطوعـت بتلـك المهمـة عنـه: رحـل أبـوك الحبيـب عـن دنيانـا عـام ٤٩.. أليـس كذلـك؟

تنهـد وقـد شـعر بضغـط استجواب لـم يعتـد عليـه: أجـل.. أجـل.. كنـت أتمنى مسـاعدتك وإرضـاء عاصـم بـك، ولكـن هـذه المقابلة أصبحـت ااا..

أزعجتــه بإشــارة مــن إصبعــي فــزادت ابتســامته، غبــت في شرود لــم يفهمــه: اعـذرني يـا سـيادة اللـواء.. ولكـن منـذ أن بـدأت حكايتـك... وسـؤال محـير يفـترس رأسي..

حك ذقنه الناعم في ثقة: تحت أمرك..

أكملـت وعيـني معلقـة عـلى كـوب القرفـة ومسـحوقه الخفـي: كيـف يمـوت عـام ٤٩.. وقـد ولـدت انـت بعدهـا بسـنوات.. (نظـرت إليـه في تحـد مفاجـئ) غريبـة.. أليـس كذلـك؟

- يبـدو أنـك لـم تسـمعيني جيـدًا.. أخبرتـك أني ولـدت عـام ٤٩ قبـل وفاتـه بشـهور..

تجرأت دون تردد: بل كذبت!

عـاد وسـند ظهـره عـلى مقعـده وقـد غابـت بسـمته. حـدق بعيـني في جمـود

قصـد بـه إخافـتي ولكـن ابتسـامتي سـبقت غايتـه. سـاد الصمـت لدقيقـة ربمـا. وعـين كل منـا مسـتقرة بجفـن الآخـر دون أن تطـرف ولـو للحظـة. ومـا أن ظننـت أنـه تجمـد ممـا قلـت، حـتى نهـض في هـدوء مـن عـلى رأس مكتبـه وجلـس عـلى المقعـد المواجـه لجنـابي. بـدت حركتـه حـول المكتـب كذلـك النـسر السـابق وهـو يحـوم حـول فريسـته.

ابتسـم مـرة أخـرى ولكـن في شر واضـح: مـدام فـيروز.. مـع كامـل احترامـي لزوجـك.. ولكـن دقيقتـين همـا كل مـا تملكـين حقًّـا..

وضعـت رجـلًا فـوق الأخـرى فاشـتممت رائحـة سـيد النتنـة وقـد ارتقـى حـذاءه للأعـلى: هـل تشـم ذلـك؟

نظـر إلى قدمـي واعتـدل سـاخرًا: عـدم إنفـاق عاصـم بـك عـلى أحذيـة زوجتـه أمـر لا يعنيـني..

اسـتوقفته بنفـس الإصبـع مـرة أخـرى في بـرود: كلا كلا.. بـل رائحـة الكـذب يـا سـيدي.. مـا الـذي حـدث لأبيـك حقـا؟

- مات في حادث سيارة..

- وكتبك أولاد الحلال على اسمه..

- لست في حاجة لاستكمال ذلك العبث.. مع احترامي.

- بل انت في حاجة لإسكاتي إن لم تفعل.. مع احترامك.

- ماذا؟

- كيـف يكـون ولـده رجـلًا مرموقًـا مثلـك ومتعلقاتـه الشـخصية تُلقـى بمقلـب قمامـة وضيـع؟

- أي متعلقات؟

- حسنا.. ربما كتب.. أبحاث.. أو...

انتظـر نطقـي بهـا وقـد توقعهـا: مفكـرة قديمـة بهـا رسـم يخـص جنونًـا مؤقتًـا لأمـيرة منتحـرة!

تحجـر وجهـه لثـوانٍ وكأن تلـك العبـارة طرقـت بداخلـه عـلى زنـاد صـدئ

أوشـك أن يعـود إلى حالتـه الطبيعيـة وينطلـق بوجـه أحدهـم. نهـض مبتعـدًا تجـاه البـاب. ظننـت أنـه سـيفتحه كالأفـلام القديمـة ويعلـن «انتهـت المقابلـة يـا عزيـزتي». ولكنـه فعـل المناقـض. أدار مفتـاح المكتـب تجـاه الإغـلاق. وعـاد في هـدوء دون أن ينظـر إليّ وجلـس مـرة أخـرى عـلى رأس مكتبـه: انتهـي مـن القرفـة مـن فضلـك.

كنـت أنـثى مهمـا اصطنعـت الشـجاعة، لا أخفـي أني نفـذت أمـره دون تفكـير. فطـرة الأنـثى لأوامـر الرجـل عـلى مـا أظـن. وبينمـا رفعـت الكـوب لآخـره وغطـى وجهـي. أخـرج جليـسي مسدسًـا مفزعًـا ووضعـه بيننـا، فخـرج صـوت ارتطامـه بالمكتـب قويـا: أكمـلي مـن فضلـك..

ارتعدت: أترفع سلاحًا بوجه.. !!!! بوجه زوجة مدير !!..

قاطعـني وهـو يعبـث بمسدسـه: تـؤ.. أنـا أنظـف سـلاح مسـاعد وزيـر الداخلية.. عـلى مكتـب مسـاعد وزيـر الداخليـة.. في حضـور زوجـة مديـر مكتـب وزيـر الخارجيـة.. (ابتسـم) فقـط!

أطرقت برأسي في إرهاق: أريد فقط أن أعرف الحقيقة..

لم ينظر إليّ: أي حقيقة؟

- لماذا تكذب بشأن تاريخ ميلادك؟

- ولماذا تظنين ذلك؟

- سيادة اللـواء.. قلـت إنـك تخرجـت في الثانويـة الأزهريـة عـام ٦٧ ثـم التحقـت بالشرطـة بعدها..

-ثم؟

واجهتـه في كشـف لكذبتـه: كليـة الشرطـة لـم تكـن تقبـل خريجـى الثانويـة الأزهريـة قبـل عـام ٧١.. أي بعـد أربعـة أعـوام مـن زعمـك الالتحـاق بهـا.. ومـا أراه الآن أنـك حقًـا التحقـت بهـا.. فـلا يعـني ذلـك سـوى أنـك ولـدت بعـد عـام ٥٢.. والأوراق تؤكـد أن والـدك قـد تـوفي عـام ٤٩.. فكيـف تكـون ابنـه بالرغـم مـن كل ذلـك؟

تحجـرت أصابعـه حـول سـلاحه النـاري، وفغـر فـاه مصدومًـا، فتقطعـت

الكلمات خروجًا من لسانه الجاف: كـ.. كيف.. كيف وصلتِ إلى تلك المعلومة التاريخية بكلية الشرطة؟

اعتدلت وقد عادت الثقة إلى أطرافي، وتذكرت راجي دون احترام حقيقة زواجي من عاصم: اعتدت أن أكون حبيبة كاتب تاريخ..

تجاوز إهانتي لاسم عاصم ونظر إليّ في استسلام: ماذا تريدين يا امرأة!

صرعته في هيستيرية المتوهمين وقد انتبهت فجأة بغضب إلى إرهاقي من تلك الرحلة البائسة: أريد بالله أن أعرف ما الذي حدث حقًا لأبيك؟! مات قبل أن تولد.. كتب أن إحدى مرضاه انتحرت بسببي.. رسمني منذ سبعين عاما أو أكثر.. كيف ذلك؟

رفع عينه تجاهي منتبهًا. أشار إليّ وهو يسترجع شيئًا من ذاكرته: قلتِ إن اسمك ااا.. مدام فيروز؟

ثم أطلق فجأة ضحكة عالية ارتجت لها الجدران وربما ارتعد منها نسر العلم المنتصب على مكتبه فطار خوفًا، لولا النافذة المعلقة، فحام حول رأسي كسبب آخر للخوف الذي أحاط بي. حاول اللواء الضاحك أن ينهي ضحكته، ولكنها تعاظمت أكثر حتى دمعت عينه. أعاد السلاح إلى درج مكتبه ونظر إليّ مبتسمًا.

«أعتذر يا مدام.. هل تظنين حقًا أنك فيروز التي كان يقصدها؟».

واجهته في غضب: إذًا أنت تعلم ما مر به..

أومأ في موافقة وهو يمسح دمعة الضحك: نعم نعم.. فقط اهدأي بالًا.. القصة بأكملها «نكتة» إن جاز التعبير.. عودي إلى بيت معاليكِ.. وانسي ما في رأسك..

ضربت المكتب بقوة فلم يهتز: بل هو حقيقة!

أشار إليّ كممرض بالخانكة يُهدئ أحد نزلائه: اهدأي! حسنًا.. كان أبي يعاني من الخرف.. هل ارتحتِ الآن؟

هاجمته في تصيد لأي خطأ: وهل ذلك الخرف قد يساعده على إنجابك بعد موته؟!

ابتسـم في هـدوء: ليـس في الأمـر لغـز كبـير.. إنهـا فقـط قصـة طويلـة.. ولا مجـال لقصهـا الآن..

- ربما عليّ أن أتصل بزوجي ليخلق لك مجالا..

- أنصحـك بـألا تفعـلي.. سـتغضبين عاصـم بـك بمـا تقولـين.. ويبـدو أنـك لا تعرفينـه حقًـا وهـو غاضـب.. يبـدو أنـه يحبـك بشـدة ليُخفي وجهـه الآخـر عنـكِ.. لا تدفعيـه لذلـك.

- أتهددني بزوجي؟

- انتهت المقابلة يا مدام..

وفى لحظـات كنـت خـارج مكتبـه. وفى دقائـق كنـت في غرفـتي. ومـا أن دخلتهـا حـتى نسيت أن سيد ركـن سيارته بعيـدًا عـن مبـنى الـوزارة بطريقـين خوفًـا مـن العاملـين بهـا، فلـم أعطـه المبلـغ المتفـق عليـه ولـم أرحـم قدميـه مـن عراهمـا الطويـل منـذ بدايـة اليـوم. ضربـت رأسي وأنـا أرى صورتـه وهـو لا يـزال يجلـس وحيـدًا داخـل سـيارته منتظـرًا تلـك اللصـة الـتي سرقـت حلـم ولـده وهربـت. لعنـت فـيروز أكـثر مـن لعـني لإيمـان. فلتذهـب كلاهمـا إلى الجحيـم.

دق محمـولي لرسـالة أخـرى مـن طليقـي: «هاتفـني حاتـم باشـا.. فـيروز.. عليـكِ حقًـا أن تـأتي الليلـة.. حجـزت لـك غرفـة في الاوتيـل الـذي سـيقام بـه الحفـل وعاملـة الكوافـير بانتظـارك.. وإن لـم تـأت أقسـم بحـبي لـك.. أن يفيـض الكيـل!».

أي بـؤس هـذا الـذي أعيـش بـه. لـم أتمكـن مـن نسـيان مـا قالـه حاتـم عـن عاصـم رغـم محـاولات التجاهـل. ربمـا كان محقًـا. فهـدوء عاصم طوال السـنوات الماضيـة لـم يكـن مـن حسـن الخلـق وإنمـا لكبـح عظيـم لغضـب حـاول دومًـا دفنـه بـين ضلوعـه. خشـيت أن يفـور الـبركان وتحـرق حممـه الغليظـة وجهـي إن لـم أطعـه. هـل سـيرفع حمايتـه عـن قضيـتي؟ ربمـا. هـل سـيُعديني إلى الطريـق بعدمـا انقطـع عيـشي بشركـة إيمـان.. يجـوز. هـل سـيعيدني إلى أبي المكلـوم. عـلى جثـة قاتلـة الأمـيرات أن يفعـل!

قـررت الذهـاب إلى الحفـل. ولـن أبـرر تلـك الحماقـة. بـل سـألقي بذنبهـا كالعـادة عـلى الأقـدار.

وصلـت إلى الأوتيـل المذكـور. كان «زهـدي» مساعد زوجـي الشـاب في انتظـاري. غفلـت عـن وجـوده وأنـا أراقـب بنـاء ذلـك الاوتيـل الفاخـر. ربمـا لـم أسـمع عنـه مـن قبـل «فنـدق المشربيـة». هـل افتتحـوه قريبًـا. وأي فنـدق فاخر يسـمّى نفسـه المشربيـة كمقاهـي طريـق المعـز؟ امتنعـت عـن أسـئلتي الـتي تكـررت كعـادة سـخيفة بـرأسي منـذ البارحـة وعـبرت البوابـة الحديديـة الضخمـة، وانعكسـت إضاءتهـا الملونـة عـلى وجهـي الشـاحب. لا يهـم.. سـتعتني «الاستايلسـت» بأزمـة ذلـك الوجـه قريبًـا. طـرق «زهـدي» عـلى كتفـي في رفـق فأفزعـني..

«أضاء المكان بنورِك معاليكِ.. عاصم بك على وشك الوصول»..

لـم أمازحـه هـذه المـرة كمـا أفعـل كلمـا رأيتـه. «ألـم ينقـرض اسـم زهـدي منـذ عقـود يـا رجـل؟». ولكـن أومـأت لـه في موافقـة وتبعـت ذراعـه الـتي فردهـا أمامـي في احـترام دعـوةً للدخـول. تأملـت عراقـة ذلـك القـصر كلمـا دنـوت بداخلـه خطـوة بعـد الأخـرى. وتمنيـت أن يكـف زهـدي عـن حديثـه حـتى يتسـنى لي التمتـع بجمـال مـا أرى مـن تصميـم خيـالي.

- غرفـة معاليـكِ رقـم ٤٤.. «الاستايلسـت» في انتظـارك.. والـرداء أتى بـه السـائق مـن فيـلا جنابـك منـذ سـاعات..

- هـل كان عاصـم متأكـدًا مـن موافقـتي عـلى القـدوم لدرجـة أن يرسـل السـائق إلى الفيـلا قبـل أن يخـبرني بميعـاد الحفـل مـن الأسـاس؟

- اا.. عفوًا؟ ماذا تقصدين جنابك؟

- لا عليك..

- حسنًا إذًا.. ااا.

التفـتُ إليـه قبـل أن أدخـل «الاسانسـير»: زهـدي أريـد منـك خدمـة غاليـة.. والأغـلى منهـا ألا تخـبر عنهـا عاصـم..

احمر وجهه من الخجل: هه؟.. اا.. أي.. أي خدمة يا سيدتي..

وضعـت يـدي عـلى كتفـه كـشرف لا يحتملـه أمثالـه كضغـط عاطفـي: مهمـة صعبـة ولكـن سـهلة بالنسـبة اليـك.. أريـد منـك أن تعـرف هويـة منظـف زجـاج المبـنى الـذي تتواجـد بـه شركـة هيلـين أوف تـروي.. وتسـتجوبه عـن عنـوان

صديقـه سـيد.. ولا تسـألني عـن اسـمه بالكامـل.. فقـط افعـل.. ومـا أن تعـرف.. أريـد منـك أن تذهـب اليـه.. وتعطيـه خمسـة آلاف جنيـه.. دون أن تسـمح لـه بمناقشـتك.. وترحـل مـن فـورك.. هـل تفهـم؟

لم يتمكن من إخفاء حيرته فنطق في بلاهة: لا أفهم حقًّا.

ابتسمت له: حسنًا.. فلتفعل دون أن تفهم.. وحاول أن تعود قبل الحفل..

أومـأ في طاعـة وهـو يراقـب سـاعته وكأنـه يحسـب الكارثـة، فمـا لـه أن يعـود قبـل الحفـل بعـد كل تلـك المهـام الغريبـة، ولكـن لـم يكـن لـه أن يرفـض. تحـرك مسرعًـا فأوقفتـه بطلـب غريـب آخـر..

«ولتشتري له زوجًا من الأحذية مقاس ٤٢»..

وصلـت إلى غرفـتي فوجـدت الفتـاة في انتظـاري. اقتربـت مسـاعدتها وأخـذت عـني حقيبـتي وانحنـت: «ربمـا تريديـن أن تأخـذي حمامًـا قبـل ارتـداء الـرداء»..

وأشـارت إليـه عـلى الفـراش الفاخـر. فارتـد جسـدي للخلـف وكأنـه تلقـى رصاصة طائشـة. والتـوت رقبـتي عـدة مـرات في رفـض المجاذيـب. «كلا! لـن أرتديـه! كلا!!»..

امتقـع وجـه الفتاتـين في تعجـب مـن ردة فعـلي الجنونيـة. واقتربـت «الاستايلسـت» مـني ففزعـت للمسـتها: اهـدأي يـا مـدام.. لا نملـك غـيره.. وقـد أزف الوقـت واقـترب ميعـاد الحفـل..

صرخت بها: ليس هذا من شأني! اعثري لي على غيره وإلا طردتكم أجمعين!

حاولـت كل منهمـا أن تنطـق بمـا كان منطقيًـا إلا أن يـدًا قـد فتحـت البـاب دون اسـتئذان فصرعتـني مـن الخـوف وانفجـرت في صاحبهـا: ألا تطـرق أنـت الآخـر؟! لـم تـردّني إلى عصمتـك بعـد لتقتحـم خصوصيـتي بتلـك الطريقـة!

تجمـد عاصـم في صمـت وقـد أهنتـه أمـام موظفتيـه. بينمـا تحركتـا دون تفكـير إلى الخـارج منكسـتي الـرأس، وأغلقـت أكبرهمـا البـاب خلفهـا. تنهـدت في نـدم على صرخـتي وابتعـدت عنـه. ولكنـه لـم يحـرك سـاكنًا. فالتفـت إليـه في ضعـف: آسـفة.

اقـترب مـني في جمـوده السـابق، ولـم أعـرف حينهـا مـا الـذي كان يقصـده بذلـك الجمـود: قضيتـك معقـدة يـا نـور عيـني.. ولكـن لا تقلقـي.. فأنـا أتابعهـا عـن قـرب.. وبنفـسي!

فهمت الآن تهديده بما يخص قضية فرغلي إن لم أطعه: لن أرتدي هذا الرداء يا عاصم..

مال بعنقه باسمًا في شر غريب وعبثت أصابعه بشعري: لم يكن حاتم فقط هو من هاتفني، عمرو كذلك.. يبدو أن عالمك ينهار يا فيروز..

أكدت في جنون مكتوم وقد كادت أسناني أن تتحطم: لن أرتديه يا عاصم!

قبّل رأسي في هدوء كـ«ليث» يشتم رائحة ذبيحته قبل قتلها: ربع ساعة.. وأجد ذراعك بتجويف ذراعي.. متأبطين كعشاق المراهقة!!

وغادر دون أن ينطق بكلمة أخرى. خارت قدماي بعد رحيله وسقطت أرضًا. ارتعش جسدي عن آخره. ولم أجد مخرجًا مما أقحمت نفسي فيه. كان البكاء أقرب إليّ من الغضب الذي اعتدت عليه. لكن الحقيقة كانت أكبر من أن تُمحى ببضع قطرات من الدمع. فالليلة تكتب القصة آخر فصولها.

كانت الفتاة تربت على كتفي في مواساة وهي تُسقط أحبال ذلك الرداء على جسدي. لم تعلم سبب بكائي ولكنها شعرت بالمأساة، فرقّ قلبها. كانت خيوطه كعنق ثعبان لعين يلتف حول رقبتي. كان يبتسم أم أني ظننته كذلك وقد فغر فاه. تمنيت أن يقضم رقبتي ويرسلني إلى الموت ولكنه لم يفعل. بل واصل التفافه حتى طرق إصبع قدمي. وكأنه كان يمر على كل قطعة من جسدي في نعومته القاتلة ليبارك تحوّلي من فيروز البشر، إلى فيروز الوحش.

ابتعدت «الاستايلست» عن المرآة لأرى فنها الذي سكبته على وجهي وشعري. فرأيتني كما رسمني عزيز تمامًا بذلك الرداء الوحشي، ابتسمت الفتاة في إعجاب صادق: تبدين كملاك حقًا!

تركتها واتجهت للرحيل: يقولون إن قابض الأرواح.. ملاك أيضا!

وصلت للقاعة الضخمة، وتأبطت ذراع عاصم كما أمر، وعبرت معه أجساد كبار رجال الدولة. أضاءت الثريا الفاخرة خيوط ردائي فرأيتها على حق للمرة الأولى، كان يلمع وبين خيوطه رقائق من لون ذهبي. يبدو أنه كلف عاصم الكثير. تحركنا معًا داخل البهو الضخم. وانزعجت من زحام السقاة بصوانيهم الفضية وما كللها من كؤوس تفرقت بين الخمر والعصائر الطازجة

ومشروبات أخرى لم أعرف لها اسمًا. أفزعني مظهر قناديل الاضاءة العتيقة وهي تتفرق على جدران البهو. كانت بديعة ولكنها في نظري استحالت إلى تشوّه جديد بلوحة على وشك أن ترسلني إلى مهمتي الأثيرة.

خطوت وخطوت. وكلما زادت خطواتي تجولًا، ازدادت قبضتي قوةً على ذراع عاصم، أرتعد خوفًا من تلك اللحظة التي ستراني فيها جُلنار. كنت أسمعه وهو يقدمني إلى أحدهم، وما أن قبض ذلك الـ «أحدهم» على يدي ليقبلها، حتى انتفضت وأحكمت إغلاق ذراعي حول ذراع عاصم.

«الآن أحبك أكثر»..

همس بها وقد ظن أني عدت إلى قلبه بعدما التحمت بجسده في مبالغة. مرت ثوانٍ تناوب فيها الحضور على إرهاق كفي، تارة بتقبيله وتارة بالربت عليه، حتى دبت السخونة بأطرافي رغم برودة هواء التكييف الخفي. فطلبت كجارية من سيدها أمرًا، لعله يُنجي جُلنار من مقتلها القريب.

«أريد الذهاب إلى الحمام.. هل تسمح؟»..

وافق فتنفست الصعداء لقراري على حبس نفسي داخل الحمام حتى الرحيل، وعوّلت على انشغاله بمن كانوا على شاكلته فلا يلحظ غيابي. ورمحت في سرعة إلى كهفي الجديد.

قابلني خارج الكهف رجل أحنى الزمن ظهره. كان يبدو وكأنه في الثمانين أو ربما التسعين من عمره. فالشيب يجتاح رأسه ولحيته القصيرة. والرعشة لا تفارق يده على عصاه الرفيعة. ابتسمت له احترامًا قصيرًا لا يُذكر، وعبرته إلى باب الحمام. حاولت فتحه ولكنه كان عالقًا. فلتتوقفي أيتها الأقدار.. فلن أعود!

«على زماننا.. كان العمّال يُحسنون عملهم».

التفت إليه في تعجب: كيف قلت؟

رفع رأسه رغم انحناءة جسده: افتتحوا الفندق منذ أسابيع فقط.. وأصابت العجلة العديد من مفصلات القصر بالفساد.. فقط مظهر فاخر.. ومفصّلات بالية..

ضربت الباب بقدمي في غضب: عليّ أن أدخل حقًا!

ضحك بصوت ضعيف: ها قد عشت ورأيت الأنثى تصرخ بقضاء حاجتها.. حتى ولايا الحواري لم يجرؤن على ذلك.. فلتستخدمي حمام غرفتك يا امرأة إن كانت لكِ غرفة.. وتحشمي!

تلفت حولي في هيستيرية: بل أريد أن أرحل.. دون أن يراني أحد.. هل يوجد باب خلفي؟

نظر إليّ مطولًا ثم أومأ في موافقة تأخرت لدقيقة بدت دهرًا..

- ماذا؟

- أريد أن أرحل.. أرجوك.. أرجوك.. أرجوك..

رمقني بنظرة تفحّص باردة ولم يحرّك ساكنًا. شعرت وكأن نظراته تشوي جلدي فتُلقى به مهترئًا بين قدميّ، فزاد الأمر من هلعي. فهممت أن أصرعه في هيستيرية أخيرة.. ولكن..

«تبدين كهاربة من شيء ما.. أعرف ذلك الشعور.. فقط اتبعي العجوز الخرف».

تحرك في خطوات بطيئة تمنيت وقتها لو ركلته بقوة حتى أرسله في الهواء بسرعة أكبر من ذلك. عبرنا ممرًا جانبيًا فأوصلنا إلى آخر أيتمته الظلمة. فوضعت يدي على كتفه لتسوقني حركته. وخرج صوته الضعيف ليزيد من هيبة الظلام تخويفًا:

- أعيش هنا منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عاما.. وحينما أرادت المحافظة تحويل القصر إلى فندق.. توسلت لهم أن يتركوني في غرفتي.. حتى وإن عملت لديهم خادمًا أنظف قذارة الزوار من حمام البهو..

- لا أهتم بقصتك.. فقط أسرع..

- على رسلك.. لازال الممر طويلًا.. المهم.. (زفرت في غضب) الله يستره أحد عاملي التجديد.. وافق على أن يفتح لي بابًا بغرفتي على الطريق.. حتى أعيش بها منفصلًا عن الجميع.. وكان الثمن بخسًا.. ارتعشت يدي بالعمر ولكن.. تلك اللوحة التي أرادها لأبيه المتوفى.. رسمتها في أسبوع واحد..

وصلنا أخيرًا إلى باب خشبي عتيق، وبالرغم من تهتك أخشابه فإن تلك الرسومات البارزة على سطحه كانت تخلب العقل. دفع العجوز الباب بيده باسمًا وأشار لي بالدخول:

«أهلا بك في تحفة قصر أفندار!»..

لم أهتم للاسم الغريب. وتقدمت في الظلام بخطوات بطيئة. سألته عن مفتاح الإضاءة فأجاب: لا تعمل الكهرباء بهذا المكان رغم محاولات العديدين.. إن كنتِ تؤمنين بالسحر..

أخرجت محمولي لأضيء به خطواتي، ولكن ذلك الشيء العجيب قد حدث. انطفأ محمولي من فوره وتحول إلى خردة لا قيمة لها. تعجبت ونظرت إلى العجوز ولكنه لم يبال بنظراتي في الظلام. ربما لم يرها من الأساس. وعمد إلى عود ثقاب خشبي يشعل به بعض الشموع.

ضرب عود الكبريت بأحجار اشتعاله الدقيقة فانفجر الضوء الأصفر يضرب الجدران للحظة قصيرة، وعندها رأيت تحفة العجوز المزعومة. كانت الغرفة شديدة الاتساع، تجولت في دائرية حول وقفتي أبحث تحت أشعة الضوء الأصفر المتراقص عن باب الخروج الذي ادّعى العجوز وجوده. وقبل أن أسأله بغضب الارستقراطيات، همس لنفسه بما صرعني: آه يا عزيز.. لولاك ما عدت إلى أفندار ولياليها!

جف حلقي وانجذبت رقبتي بيد خفية إلى الوراء. هرب الدم من وجهي. وشد الهلع عروقي فما عدت استطيع تحريك رأسي. «أي عزيز؟». خاطبت نفسي قبل أن أخاطب العجوز ولكن شللًا مؤقتًا أصاب لساني. فحمل العجوز الشمعدان النحاسي وتقدم ناحيتي: منذ أن رسمته بنهاية السبعينيات.. لم أتمكن من المغادرة.

كان يتحدث في هدوء. وكلما اقترب، زحف ضوء الشمع على الجدران بطريقة مخيفة. حتى اصطدم بلوحة مائلة وسط عدة لوحات أخرى لم يظهر بأسفلها إلا كلمة واحدة.. «جلنـــــــــــــــــــار!».

«معذرة.. ألم أخبرك أني كنت رسامًا؟.. على زماننا ااا..».

ركضت بكامل قوتي إلى تلك اللوحة وعدلتها تجاهي، وعندها غاب كل شيء.. وتبدلت أرض الواقع الضحلة إلى أرض السحر الخصبة. كان الاسم «جلنار طوسون». وكانت اللوحة لامرأة بالغة الجمال.

سقطت أرضًا وزحفت بكلتا يدي للخلف في هلع. اقترب مني العجوز ملهوفًا وانحنى أكثر من انحناءته الطبيعية: ما لك يا ابنتي؟.. هل ااا...

وقبل أن يكمل. دقت الأقدار طبول الحرب. فانتفض كل منا على أغرب ما رأته عيناي. انحسر ظلام السماء فجأة وحل ضوء الشمس علينا! اعتدل العجوز في ارتباك.. وجحظت عيناي في عنف حتى أوشكت مقلتاي أن تسقطا من تجويفهما. هب هواء عاتٍ فأطاح به أرضًا وأطفأ الشموع. بينما أطلق جيشًا من الأتربة بوجهي. احتميت بذراعي. ارتجت الأرض أسفل جسدي الممدد عليها. صرخ العجوز: «يارب العالمين!». تحركت ظلال القاعة في سرعة بحركات دائرية. كان قرص الشمس يركض في السماء ويختفي فيعود المساء، ويظهر فيضيء النهار. ولا يلبث أن يدور ويختفي.. ويعتمنا الظلام. وكأن القاعة بأكملها كانت تدور في فلك غريب بسرعة جنونية. تمضي الأيام بدوران الشمس. وينفجر الاثاث الخشبى ويتحطم بجوار جسدينا!

صرخت: «جلنار!».

وفى لحظة! وما إن نطقت بها حتى توقف كل شيء. وعاد الظلام يحوم بأجنحته حولنا. وضربت النار فوهة الشموع رغم سقوطها فأضاءت مرة أخرى. لهثت بأنفاس متعاقبة لم أتمكن من حساب سرعتها. بينما التقط العجوز الشمعدان بيد مرتعشة واقترب مني زاحفًا: صـ.. صرختي بجلنار.. اا،. اا.. أنى لك أن تعرفي ذلك الاسم ؟

نظرت له في هلع. وبحماقة وضعت عيني بعيني جلنار وعندها حدث ما صرع العجوز حتى تمتم:

«أعوذ بالله من الشيطان.. عـ. عزيز.. كـ. كنت على حق يا عزيز!».

مال عنق جلنار داخل رسمها. وتحركت شفتاها المرسومتان في رعب كان باديًا عليها «مـ.. من أنتِ؟».

ضرب العجـوز عنقـه تجاهـي وقـد فغـر فـاه. بينمـا انهمـرت دموعـي في غـير تصديـق مـن تلـك اللحظـات الغريبـة الـتي أعيشـها. ارتعشـت ذراعـي وأنـا أزحـف تجـاه الصـورة. وكلمـا فعلـت تغـير وجـه جلنـار إلى الفـزع. كانـت خائفـة مـني.. والخـوف مـن نصيـبي.

وصلـت إليهـا وتواجهنـا للمـرة الأولى، فعـادت في صـوت متقطـع بـاكٍ: مـــ.. مـن أنـتِ؟

جهشت في البكاء وأنا أنظر إليها في شفقة: أنا فيروز!

صرخ العجوز: فيروز! أيتها الشيطانة..

لـم ألتفـت لـه.. بـل مسـحت عـلى وجنـة الصـورة في شـفقة: نعـم.. فـيروز.. وأنـتِ اااا..

أغلقت عيني في حزن هشّم ضلوعي وانهمر الدمع مني جارفًا...

«أنتِ على وشك الموت أيتها الفاتنة!».

-١٠-

عزيز قاســم

١٩٧٨

«والآن انتهى كل شيء»..

نطـق بهـا فـرج وأمـارات الحـق تظهـر عـلى وجهـه، ويـده ترفـع دعائـم اللوحـة الـتي انتهـى منهـا أخـيرًا بعـد أشـهر طويلـة أصابـت مـا تبقـى مـن سـواد لحيـتي بشـيْب عجـزت عـن صـدّه. رفعـت رسـغيْ المتعانقتـين مـن عـلى رأس عصـاي الفاخـرة، وارتفـع جسـدي وكل تعـرج بخلقـه كان يـصرخ بآهـات التيبـس. ثلاثـة أشـهر وأنـا أجلـس يوميًـا لعـشر سـاعات، منـذ إشراقـة الصبـاح، وحـتى همـس وعيـده الباهـت بالرحيـل القريـب إلى أحضـان المسـاء. عـشر سـاعات كنـت أتصلـب خلالهـا في جمـود الأوثـان للمدعـو فـرج حـتى ينتهـي مـن تحفتـه الفنيـة. تحولـت إلى عبـدٍ لأوامـره بعـد أن ظننـت أني اسـتعبدته بمـا أغدقـت عليـه مـن وعـود السـكن والطعـام.

أحللـت أزرار سـترتي الضيقـة وأنـا أتجـه إليـه في إرهـاق، وفرّقـت بسـبابتي مـا بـين العنـق وعقـدة «الكرافـات» الخانقـة، وحاولـت أن أرى اللوحـة للمـرة الأولى: ربمـا آن الأوان لأن أرى مـا...

قاطعـني وهـو يغطيهـا بمـلاءة بيضـاء متسـخة متجنبًـا النظـر إليّ: بـل بعـد بضعـة أيـام.. لا يـرى أحدهـم أيًّـا مـن لوحـاتي إلا بعـد أن أنتهـي مـن ألوانهـا.. فقـط ارحـل الآن..

كنـت مضطـرًا لمداهنتـه حـتى ينتهـي الأمـر فابتسـمت في لطـف زائـد: حسـنًا.. لـن أراهـا.. ولكـن.. هـل....

قاطعـني في غضـب وقـد غلظـت نبرتـه: فقـط انتظـر دون أسـئلة! لعنـك اللـه.. ألا أنفـذ مـا أجبرتـني عليـه؟ فلتتركـني وعمـلي إذًا.. عـلى زماننـا.. كان الــ...

ضحكت رغمًا عني: على زمانكم؟! لقد جئت إلى «زمانكم» قبل أن تولد أيها العجوز.. فلتستمر بسحر المجالس بتلك العبارة العتيقة مع أحد غيري.. أما أنا؟ فأنا من ابتدع زمنك!

زفر في إرهاق واستسلام حزين: رُحماك يا رب.. ما الذي تريده يا عزيز؟

هدأ شيطاني الذي لم يفارقني منذ سنوات مضت، ومسخ طبائعي الهادئة بأخلاق بني نسله. وعدت للحظات لا تتكرر كثيرًا إلى عزيز بك القديم، دون شر مستطير.. أو شهوة التمتع بمعاناة أحدهم. واقتربت من فرج متنهدًا بهواء أحرق صدري: لا أعلم حقًا.. سامحني يا صديقي.. بل أشكرك على ما فعلت..

وأخرجت له عقد شقته الجديدة التي وعدته بها في مقابل إرسالي إلى عالم فيروز، وتجهزت للرحيل في صمت، وقد خشيت أن أنطق مرة أخرى بما يزعجه رغمًا عني، فذلك الشيطان قد عاد وتحسست مخالبه حول رأسي.

استوقفني: انتظر.. لست غاضبًا منك.. بل.. بل حزين مما وصلت إليه.. ألا تذكر كيف كنت؟ كنت عزيز بك قاسم.. ذو القلب الطيب.. واللسان العطر بجبر الخواطر.. كنت..

أغمضت عيني في ألم ونطقت مصححًا: كان يا فرج! كان.. ولكن ألم يخبرك أحدهم.. عزيز بك قاسم مات عام ٤٩..

- ومن الذي يقف أمامي إذًا؟

ابتسمت له وربت على كتفه راحلًا: لا أحد.. فقط ضحية فيروز التالية!

كنت أكذب، فعزيز بك لم يمت حقًا عام ٤٩، بل بعدها بسنة ونصف، صحيح أن الأوراق أثبتت ذلك ولكن.. ما هي الميتة الحقة؟ شهادة وفاة مزورة؟ أم جسد يأكله التراب نهمًا؟ أم.. أم لمسة أخيرة من حبيب فارق دنياه أمام عينيك باسمًا؟

لم أمت يا فرج.. بل انتفضت روحي إلى السماء مع روحها، وتركت جثتي الخاوية بين قدمي الشيطان يتحسس فاجعتي. وما أن رأى اللعين هوة قلبي على مصراعيها، حتى نفث مارجه الساخن ببئره السوداء. فصرت خلقًا آخر

لـم أعـرف لـه اسـمًا.. ولا أظـن أن مـن مثلـه يُثـاب بالمـوت رحمـةً مـن شـقائه.

أنـا جسـد عزيـز.. وروح الشيطان.. وذكـرى جلنـار.. وذنـب أمـي.. وقنـوط أبي مـن الرحمـة. أنـا الكـون بعبثـه. والأقـدار ببؤسـها. أنـا المـوت إن تأخـر. والحيـاة إن هلكـت. أنـا عشـق امـرأة. أنـا تـراب خلقهـا. وكفـن جسـدها.

بل أنا لا شيء حقًّا.

بعـد كل تلـك السـنوات صدقـت ليـلى في وصفهـا قبـل أيـام مـن كذبـة مـوتي، ابتسـمت وأصابعهـا تتخلـل شـعر رأسي كمـن تعبـث بفـروة قـط مريـض، أرادت أن تودعـه قبـل أن تضـع رصاصـة في رأسـه درءًا لانتشـار مرضـه: أنـت لا شيء يـا عمـري!

لـم تقـل «أنـت لا شيء بـدوني». فقـط لا شيء. اعتدلـت مـن نومـتي عـلى فخذهـا: انتهـى الأمـر يـا ليـلى.. لـن أردّك إلى عصمـتي..

ضحكـت وهـي تمسـح عـلى ذقـني في حنـان الأمهـات للرضـع: حـتى لـو وافقـت عـلى ذلـك.. (أكـدت) حـتى لـو قاتلـت مـن أجـل ذلـك.. فلـن تسـتطيع!

قـرأت في وجههـا ابتسـامة غامضـة، لـم تكـن بـ«شر» عهدتـه عنهـا، ولا حـب لـم أستسـيغه يومًـا منهـا، بـل بـدت وكأنهـا ابتسـامة وداع أحزنـت قلبهـا: مـاذا تقصديـن؟

جذبـت رأسي مـرة أخـرى إلى فخذهـا رغمًـا عـني في هـدوء آمـر وعـادت إلى عبـث أصابعهـا بشـعر رأسي: علمـت كل مـا دار بينـك وبـين أبي البارحـة.. داود باشـا.. والفدائيـين.. و...

انتفضت من مكاني فزعًا: ماذا؟!

- اهـدأ يـا عمـري.. لسـت أعاتبـك.. بـل أشـكرك عـلى كشـف حقيقـة ذلـك الحقـير.. تصـوّر؟ كنـت أبحـث عـن ذلـك المجهـول الـذي يُفسـد خططـي عـلى الـدوام.. ولـم أعلـم سـوى البارحـة أن ذلـك اللعـين أقـرب إليّ ممـا أتصـور.. إنـه في بيـتي.. وبينـه وبـين نومـتي عـدة أمتـار.. أبي يـا عزيـز.. أبي هـو الخائـن الـذي كنـت أبحـث عنـه..

- لا علم لي بما تقولين.. ولا أبالي بعلمه.. فقط دعوني وشأني..

- ليتهـا كانـت بتلـك البسـاطة.. كامـل باشـا الحـداد عضـو بجماعـة الإخـوان المسلمين إن كنـت لـم تفهـم بعـد.. ليـس في الأمـر فقـط فدائيـون.. وإنمـا جماعة تسلّحت بعـد حظرهـا، وعلمنـا أن عنـاصر مـن الجيـش تطوعـت بتدريبهـا.. ذلـك التنظيـم.. لا يـترك وراءه أثـرًا.. حـتى وإن كان زوج ابنـة أحدهـم..

ابتعـدت عنهـا في فاجعـة، بينمـا تبـدل وجههـا إلى حـزن لـم أره عـلى رسـمها مـن قبـل. تعـرّق جسـدي بقلـب الشـتاء، وارتعشـت أطـرافي في جُـبن الذبائـح: هــ.. هـل.. هـل تقصديـن أنـه سـوف يقتلـني؟

فلتـت مـن عينهـا دمعـةٌ لـم تبـال بإخفائهـا ونهضـت تجاهـي في حـب: آااه يـا عزيـز.. يـا طفـلي السـاذج.. كيـف تكـون بتلـك الـبراءة؟

تحسست وجنتي وانهمرت دموعها دون بكاء: إن لم يفعل.. فسأفعلها أنا!

تجمـدت. ولـم أسـتطع دفـع نظـراتي بعيـدًا عـن عينيهـا الباكيتـين. عقـدت حاجبًـا آلـم جبهـتي مـن غلظتـه، وهمسـت في غـير تصديـق: ممـا خُلقـتِ يـا امـرأة؟

وضعـت كفيهـا عـلى يـدي ورفعتهمـا في بـطء تجـاه عنقهـا حـتى أغرقـت دموعهـا فـروج أصابعـي، راقبتـني في حـزن وهـي تفعـل. حـتى ضغطـت بكفـيّ عـلى عنقهـا بقـوة: مـن ضلعـك الأعـوج يـا حبيـبي.. فلتقتلـني إذًا.. ولـن أقـاوم.. فقـط ضغطـة بسـيطة.. ربمـا تُنهـي حيـاتي.. وتنجـي حياتـك.. مـني! افعلهـا يـا عزيـز.. افعلهـا يـا عمـري.. وإلا.. لـن تخـرج عليـك الشـمس بعـد اليـوم.. فقـط اقتلـني!

غابـت الكلمـات عـن رأسي ولسـاني. رأيتهـا وكأني أراهـا لأول مـرة، لـم تكـن تلـك السـاقطة الـتي تشـتهي السـلطة وإهانـة مـن تحـب، ولكـني رأيتهـا امـرأة هشـة القلـب، وإن أحاطتـه الأحجـار مـن كل جانـب. رأيـت امـرأة تخـشى عـلى حبيبهـا مـن نفسـها، حـتى تطلـب منـه أن يقتلهـا. كانـت تعلـم أنـه إن لـم يفعـل فلسـوف تفعـل.

وليتني فعلت!

ضربـت يدهـا وأفلـت ذلـك العنـق النابـض بشـهوة المـوت. ابتعـدت عـدة خطـوات وأنـا أراقبهـا في اشـمئزاز: بـل لا تسـتحقين راحـة المـوت!

أغمضـت عينهـا فانقطـع سـيل الدمـوع وابتسـمت كليـلى الـتي أعرفهـا: بـل لا

تستحق أنت تعب الحياة.. سأجعلها في رأسي هكذا حتى لا أتألم.. «عزيز أفضل من أن يبقى حيًّا بتلك الدنيا اللعينة».. سأخلصك منها..

كنت أبحث عن المرضى ومن أصاب عقلهم من الخلل ما يكفي حتى أعالجهم، ولم أكن أدري أن أسوأ مرضاي كان يشاركني الفراش: تحتاجين حقًّا للعلاج يا عزيزتي.. لقد فقدتِ عقلك..

رفعت إصبعها مصححة: بل مع الأسف لم أفعل.. العقل آلة يا عمري.. لا تفتأ أن يدور أحد تروسها.. حتى تداوم على دورانها إلى الأبد.. حتى بعد الموت..

- والعقل أن تقتلي زوجك؟ العقل أن تطلبي منه قتلك؟

- بل قلبي هو من أراد منك قتلي.. أما عقلي فلا يرى إلا شيئًا واحدًا..

- وما هو؟

تبدل وجهها إلى العبوس، وضاقت عينها لغضب مكتوم أوشك أن يفجر أوصالها: استعادة حقي! امتلاك تلك الدولة! أنت لا تعلم حقًّا كم عانيت من أجل ذلك! أنت لا تعلم ما فعله بي.. وكيف فعله.. و...

- من تقصدين؟ من الذي فعل؟

- لن تفهم!

- بل أريد أن أفهم.. كامل باشا وأسبابه مفهومة.. يخشى على عنقه إن تحدثت عن خيانته للملك.. أما أنتِ.. فبماذا سيُفيدك قتلي؟!

- أصبحت تعلم أكثر من اللازم.. ما تعرفه يكفي للضغط على كامل باشا، وليس الإطاحة به لدى الملك.. يجب أن يكون بكامل سلطته تحت أيدينا.. لا أن يكون سجينًا فنخسر نفوذه..

- لن أنطق بكلمة..

- كنت أتمنى أن يكفي ذلك.. ولكن.. لن أتمكن من المخاطرة..

- تخاطرين من أجل زوجك.. ألا يصلح ذلك ليكون استثناءً؟

- لا استثناء في السياسة يا عمري..

خلعت في عنف الرداء الحريري الذي أجبرتني على ارتدائه، ورميت قميصًا على جسدي في عجالة وانطلقت للرحيل مسرعًا وقد علمت أنها سوف تحقق غايتها ولكن كذبت أمامها: لا أخاف منكِ.. إن استطعت أن تقتليني فافعلي!

انطلقت كطلقة من سلاح أبيها وانتصبت بيني وبين الباب فأفزعتني: ليس لك مهرب مني.. قتلك أصبح حتميًا..

«قلت لكِ.. لا أخاف منكِ»..

راقبتني في تفحص ساخر ومالت بعنقها بنظرة دبت رعشة غريبة بكامل جسدي، ثم نطقت أخيرًا: حسنًا يا عمري.. سأتركك ترحل ولكن..

شبّت على أصابعها لتطال أذني وهمست بها كصرير الأبواب المغلقة: سأحاول ألا أتعقبك قبل الصباح.. فلتهرب.. إن استطعت!

عادت إلى وقفتها، وبهت وجهها في براءة لحظية وكأنها تمنت حقًا ألا تطال يدها رقبتي، وابتسمت ابتسامة أخيرة. وعلى غير المعتاد في وداع الرجال والنساء، مالت على يدي ورفعتها أمام وجهها كسيد نبيل.. وقبّلتها في حنين بالغ، ثم تراجعت في حزن وانحناءة. وكأني كنت امرأة عشقت حُسنها وانحرفت عن مسارها للمرة الأخيرة.

تبدلت الأدوار.. ولم لا؟ فإن كانت امرأة ضعيفة تهدد رجلًا بالغًا بالقتل.. ويصدق. فلم لا تعامله كامرأة وتنحني له كالرجال؟

كون عبثي حقًا.

عدت إلى مكتبي، وربما كان ملجأً غبيًا لمن أراد الهرب خوفًا على عنقه. ولكن إلى أين كان عليّ الذهاب ولم أكن أملك شيئًا. لا مال أطوّع به مخابئ الهرب، ولا أقارب أعتصم بهم من وعيد القتل الذي التصق باسمي، ولا أب أغفر له بعودتي إليه قبل موتي بساعات. ولا حبيب أهلك بين يديه طلبًا للسكينة وهربًا من رجف الموت.

***

«خالتي محبوبة ماتت»..

قالتها ثم دخلت في نوبة بكاء متهدج الأنفاس وهي تنهض في لهفة من جلستها أمام عتبة مكتبي. كادت أن تقع وتسقط طرحتها السمراء الشفافة من فوق رأسها من شدة الحزن لولا أن سندتها بذراعي، ليحدث حينها ما أشعل قلبي وقد سقطت في أحضاني.

تلهفت لتهدئتها: حسنًا حسنًا... بركة! اهدئي.. كـ.. كيف حدث ذلك؟

رفعت عينيها الزجاجيتين وسقط منها نهر ناعم من دمع لم أر لمثله صفاءً من قبل، فتوقف الزمن ولم أسمع ما قالت: الحمّى يا بك.. غفلت عيني لبضع دقائق.. وكتاب الله المجيد.. وحب الله لنبيه محمد.. كانت دقائق فقط.. ونسيت الكمادات على رأسها حتى سخنت.. و.. استيقظت على حشرجة خروج السر الإلهي..

وبدأتْ فجأة بضرب وجهها وعينيها وفمها. كان لا يظهر من كفيها سوى جزء صغير منه قبل انفراجة الاصابع، فعباءتها الطويلة أخفت كامل رسْمه، فبدت فاتنة حتى وهي تعذب نفسها. ولعنت نفسي لاستمتاعى بجمالها وهي تعيش تلك المأساة.

استفقت أخيرًا من غيبوبة تأملي لها وقد بدأت في شد شعرها، فحاولت احتواء ذراعيها بقوة، قاومت. فأحكمت قبضتي عليها. وما أن رأيت عجزها عن الخروج عن قبضتي، حتى جرت بجسدي دماء الرجل مرة أخرى وقد شعرْت بقوتي.

اااه يا عزيز.. ربما تكون أكثر مرضاك مرضًا.

انقطع تيار الوعي بين إقناعي لها بالدخول إلى المكتب وحتى أن وضعت فنجانًا من الشاي بين يديها الصغيرتين وجلست أمامها على أريكتي الفاخرة. رفعت رجليها في تربيعة عفوية وكأنها لم تكن معتادة على جلسة الأثاث. ابتسمت رغمًا عني وهي تحاول الإمساك بالفنجان بطريقة صحيحة وترمقني من أسفل بنظرات الخزي من جهلها. فتديره يمينًا ويسارًا. تحاول أن تُدخل أحد أصابعها بأذنه فتتعثر. وما أن يئست حتى احتضنته بكفيها ككوب

زجاجي من أكواب الغلابة. فأمسكت بفنجاني واحتضنته كما فعلت تمامًا فتنفست الصعداء الهادئ.

عدلت طرف جلبابها فوق تعاقد رجليها في خجل وقالت: عدم المؤاخذة يا جناب البك.. «اتبطيت» على أنفاسك فجأة.. ولكن.. لم يعد لي أحد.. ولن آخذ من وقتك الكثير..

ابتسمت من المفارقة: لا تقلقي.. لا أملك الكثير من الوقت من الأساس.. وإني لسعيد حقًا أن أقضي ما تبقى منه معك..

ظهر عليها العجز عن فهم مقصدي بما قلت، فتخطت الأمر بضمة طفولية لشفتيها حتى برزت وجنتيها، وهزة رقيقة لكتفيها حتى برزت دقات قلبي، ثم قالت: اا.. فقط.. كنت.. اا.. انت بك كبير.. ومقامك فوق رؤوسنا.. ف.. ف.. كن.. كنت.. كنت أطمع في كرم جناب معالي جنابك.. أن.. توصي عليّ لدى أحد أصدقائك.. (ربتت على رأسها في احترام ولهفة) مقامهم على رأسي.. حتى.. ف.. من الممكن أن أعمل لديهم خادمة..

حاولت أن أجيبها بخيبتي في تلبية طلبها ولكنها قاطعتني في لهفة: اا..أأنا وحق غلاوة الحسين «لهلوبة».. وأمينة.. تنقطع يدي ولا تطول أيًّا من خيرات أصحاب النعمة.. ولا أطلب حتى راتبًا.. فقط.. «نومة» تستر عرضي.. ولقمة تسند عمري حتى يأمر الرزّاق بموتي.. فقط جنابك.

كنت أتأمل وجهها وهو ينقبض وينبسط بحديثها، فتارة تبسط حاجبيها وهي تقسم، وتارة أخرى تعقدهما وهي تحني رأسها احترامًا إن مر ذكري أو ذكر «أصحاب النعمة» على لسانها الوردي. فانحرف فكري إلى أمر آخر لا علاقة له بما قالت: كيف وصلتِ إلى عنواني؟ وكيف مكتبي وليس القصر؟

ارتبكت حتى اهتز فنجانها وانقبض وجهها في خوف ولمعت عينها بالدمع مرة أخرى: و.. والنبي يا جناب البك.. أنت كنت حنونًا عليّ عندما احتضنت بكائي المرة السابقة.. فلا.. فلا.. فلا تضربني..

تعجبت لها: أضربك؟

وضعت الفنجان في ارتعاش على الطاولة وارتمت أرضًا تحت قدميّ متوسلة

وهـي تخـبئ رأسـها بذراعيهـا وكأنهـا تحتمـي مـني: والنـبي يـا جنـاب البـك.. سـأ.. سـأرحل.. واعتـبر أنـك لـم تـرني.. ولكـن لا تــ.....

قاطعتها ولـم أشـعر إلا ورفعـت ذراعيهـا بقـوتي السـابقة إلى جلسـتي: اهـدأي اهـدأي.. لـن أضربـك.

أزالـت سـاعدها عـن وجـه البـدر ومسـحت عينهـا في طفوليـة مـن دموع سـقطت مـن الخـوف: و.. وغلاوة الحسـين؟

ابتسمت لها: وغلاوة الحسين!

ابتسـمت رغمًـا عنهـا أخـيرًا في خجـل وهـي تضبـط طرحتهـا، فأجلسـتها بيـدي مـرة أخـرى، فهـدأت: بعــ.. بعـد.. عملتهـم السـوداء.. وضربهـم لـك.. صمم شيخ الحـارة أن يعـرف مـن الـذي دلّـك.. يـوم في الثـانى.. ووصـل إلى عـوّاد..

- عوّاد؟

- صاحب لوكاندة التفاحة.. قال إنك كنت تبيت عنده..

- ولكني لم أترك له عنوان المكتب..

أعـادت تربيعتهـا مـرة أخـرى واقتربـت مـني في عفويـة وقـد نسـيت مقامـي، فضربـت عـلى فخـذي ولـوت سـاعدها في الهـواء كمـن تحـكي لجـارة عـلى مصطبـة: لاااا.. مـن الواضـح أن جنابـك عـلى «نيّاتـك».. المدعـوق عـواد كان ولازال «لصًـا».. لـم يكـن لـه أن يـترك بـك مثلـك يرحـل عـن طريقـه إلا بعـد أن ينظـف جيوبـك..

اندمجـت رغمًـا عـني: ااااااه.. يـا لغبائـك يـا عزيـز.. لقـد ظننـت أن أحـد الرجـال سرق أمـوالي أثنـاء المعركـة الحربيـة الـتي وقعـت أمـام بيـت خالتـك..

أكملـت: لا.. رجـال العطفـة رجـال شرف.. المهـم.. بـين أموالـك.. عـثر المدعـوق عـلى.. عـلى.. والنـبي لا أعـرف مـا أسـمه حـتى.. عـثر عـلى «قصوصـة» عليهـا اسـمك وعنـوان «المطـرح».. ولـولا أن شـاء رب الغلابـة أن يقبـض عليـه شـيخ الحـارة ويلقنـه «علقـة» عظيمـة.. لكنـت عـدت في يـوم ووجـدت المـكان عـلى «البـلاط»..

ضحكـت في اسـتمتاع بحكيهـا، فأجلسـت قبضـتي أسـفل خـدّي: كل هـذا حـدث في يومـين؟!

تنهـدت في حـزن: لمـا ماتـت خالـتي.. لـم يوافـق شـيخ الحـارة عـلى إعطـائي عنوانـك.. بـل طـردني خـارج الحـارة.. فذهبـت إلى عـوّاد في «الاسـبتالية».. وأعطيتـه خلخـال السـت فاطمـة.. اللـص.. كان كل مـا أملـك.. أخـذه دون مقابـل سـوى عنوانـك..

غابت بسمتي: فاطمة؟

ارتبكت مرة أخرى: اا.. أقصد الست جلنار.. رحمة الله عليها..

اقتربـت منهـا باسـمًا وقـد تجـاوزت سـيرة جلنـار متعمـدًا حـتى لا تتوتـر: وتنازلتِ عـن كل مـا تملكـين مـن أجلي؟

احمـر وجههـا فجـأة ونكّسـت رأسـها، وفركـت يديهـا عـدة مـرات في خجـل: رب الغلابـة أرسـلك إليّ ربـع سـاعة.. ربـع سـاعة فقـط.. وكأنـه أراد أن يخـبرني.. أنـه لـن يتركـني بـلا معـين بعـد أن يرمـي قضـاءه عـلى خالـتي..

رفعـت رأسـها ونظـرت إلى سـقف المكتـب وكأنهـا تنظـر إلى السـماء بنظـرة حالمـة: الحنّـان يـا بـك.. منـذ ولـدت.. وأنـا عـلى كفّـه.. لـم يتركـني لحظـة.. ولـولا الحاجـة مـا أحزنتـه مـني.. (نظرت إليّ) نعـم يـا جنـاب البـك.. الحنـان لا يغضـب.. بـل يحـزن عندمـا يُخطـئ عبيـده.. كنـت أعلـم أنـه حزيـن.. وكأنـه يعاتبـني «لمـاذا يـا بركـة؟».. وأنـا أبـكي ولا أجـرؤ مـن الخـزي عـلى النظـر إلى سـمائه..

تعجبت لقولها: وما كان جُرمك؟

نظـرت إليّ في خجـل وقـد قسـم جفنهـا الذليـل عينيهـا، وسـحبت أطـراف جلبابهـا وأكمامهـا في حـزن: السـتّار سـترني.. ولا أريـد أن أكشـف سـتره..

أومـأت لهـا في تقديـر لحفاظهـا عـلى السـر، فعـادت ونظـرت إليّ في انتظـار لجـواب مطلبهـا، فتنهـدت: مـع الأسـف.. لا أظـن أني أسـتطيع أن أجـد لـك مكانًـا للعمـل..

هـرب الـدم مـن وجههـا ولكنهـا اصطنعـت الابتسـامة المرتبكـة: حـــ. حسـنًا يـا بـك.. لا عليـك.. اا.. كلهـا أرزاق و...

قاطعتهـا ولـم أعلـم مـن أيـن قفـزت تلـك الفكـرة عـلى رأسي: ولكـن.. يمكنـني فعـل شيء آخـر!

انتبهت إليّ في استبشار الغريق بتأرجح القشة على ظهر الموج: إلهي يبارك في جنابك..

اعتدلت لها في جدية: حسنًا.. من الغريب حقًّا أن أخبرك بذلك الأمر.. ولكن.. هناك من يريد قتلي..

ضربت صدرها بقوة أفزعتني: يا إلهي! قطع الله يده قبل أن تمتد لجنابك!

تذكرت ليلى وهمست «آمين»، ثم: الوقت يمضي.. وكنت أبحث عن مكان للاختباء و...

قاطعتني: ما الذي فعلته يا بك حتى يترصدك أحدهم لقتلك؟!

سكت للحظة بدت طويلة ثم ابتسمت لها: الستار سترني يا بركة..

أومأت في موافقة دون تردد بحركات عنيفة لعنقها تناسبت مع موافقتها على المبدأ: وأنا أمة الستار.. وجارية سرّك يا بك.. وكيف ستفعل؟

- أبحث عن مكان للاختباء.. فلو ساعدتيني على العثور على أيهم.. سـ...

أجابت فجأة مرة أخرى في حماس: على عيني يا بك.. كم تحوي محفظتك؟

كانت أوراق المكتب بحوزة ليلى فلم يتسن لي حتى محاولة بيع مكتبي، الشيء الوحيد الذي أملك. ومنذ يومين وبعد سرقة عواد لي، لم يدخل جيبي مليم واحد. فما وجدت أمامي إلا حلًّا واحدًا.

«هل سرقتِ من قبل؟».

استنكرت السؤال في أول الأمر، حتى أنها انتفضت واقفة رفضًا لـ «الحرام» كما أسمته. حايلتها في محاولة للشرح، إلا أنها كانت مصرة على المقاطعة، وزاد استنكارها عندما سألت في استخفاف بقدرتي على السرقة..

«وبك مثلك لم يعتد على الشقاء.. سيسرق مَن يا حسرة؟!».

وأخيرًا حان أوان الإجابة. فابتسمت في شر: أنا!

تحركنا ركضًا بين أرجاء المكتب نجمع كل ما يمكننا حمله من تحف فنية وفضيات مطلية بماء الذهب. اغتصبنا بقبضتنا أواني الزينة، والتماثيل الحجرية، حتى مقابض درفة المكتبة العالية، خلعتها بركة في مهارة. كنت

أراقبها وهي تُعبّئ جلبابها بالأكواب الخزفية حتى انتفخ، فلم أتمكن من منع ابتسامتي التي اتسعت وكأنها جرح ضاقت به وجنتي. وصلت إلى محتويات المكتب، وجمعت الأقلام الذهبية وكل ما أهدتني إياه زوجتي السابقة وقاتلتي الحالية. وعندها وقعت يدي على غمد فاتحة الأظرف. ذلك النصل الذي نحرت به جلنار عنقها. فغابت البسمة وتجمد الوجه حزنًا. كان من الممكن أن أترك الغمد وشأنه خصوصًا بعد أن صادر البوليس السلاح الحاد. إلا أني قبضت عليه ووضعته بجيبى دون أن أفهم سببًا لذلك. فلا بيعة لغمد بلا سلاح. ولكن.. ظننت حقًا أني ربما أحتاج إليه.

جمعنا ما استطعنا، فنظرت إلى بركة متسائلًا إن كانت قد انتهت من سرقتي، إلا أنها كانت تنظر في تعجب لشيء ما يتحرك خلفي. انتبهت لظله وهو ينعكس على سطح المكتب أمامي. فالتفت متعجبًا وعندها نطقت بركة: سبحان من خلق.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها سحابة بتلك الضخامة بسماء المحروسة حتى في الشتاء..

تعجبت كما تعجبت، ولكن وقرت في قلبي رسالة الأقدار فصدقتها دون مراجعة وهمست: بل هي غيمة الموت يا عزيز!

«فيروز!».

كان اسمها مكتوبًا على ملف كبير صنعته فقط من أجلها. ترددت، هل يستحق أن أحمله بين كل تلك الأوزان المتفرقة على مفاصل جسدي؟ أم أنجو بعنقي وأتخلّى عن ذلك البحث الذي لم يجرني خلفه إلا للمصائب؟ كان القرار حاسمًا. «أصبحت فيروز جزءًا من حياتك.. حتى وإن كنت ميتًا».

اقترب الغروب من إسكات ضوء النهار، غير أن ظلامه الباهت لم يكن كافيًا لأخرج من مكتبي في سلام دون أن أسقط ضحية من قرر مراقبتي أمام عمارة المكتب. وقبل أن أهمس لنفسي بذلك الهاجس، فاجأتني بركة بسؤال غريب: هل كان يخدمك أحدهم؟

أومأت لها بالموافقة، فسألتني عن مكان مبيته. أشرت إلى حجرة صغيرة بجوار حمام المكتب كان يبيت بها عم سالم وكانت تتسع بالكاد لجسده

ملتويًـا. فانطلقـت تجاهـه وأفرغـت بيدهـا محتوياتـه حـتى عـثرت عـلى جلبـاب بلـدي وطاقيـة باليـة. ألقتهما بوجهـي دون تـردد: عـدم المؤاخـذة جنابـك.. ارتـدِ هـذه.. ربمـا كان أحدهـم يراقبـك بالأسـفل..

أقسـمت لنفسي أني لـم أشـاركها ذلـك الخاطـر. ولكـن أومـأت للخادمـة كسـيد مطيـع. اسـتغرقت دقائـق بالحمـام حـتى أجـد البـاب المناسـب للدخـول إلى تلـك القطعـة القماشـية المتهتكـة، كيـف كان يُدخـل سـالم رأسـه وذراعيـه فيهـا؟ خرجـت إليهـا منحنيًـا في بلاهـة. لـم تتمكـن مـن كتـم ضحكتهـا الصامتـة. كتمتهـا قـدر الإمـكان إلا أن شـهقة رقيقـة فلتـت منهـا وعندهـا رأيـت انعـكاسي بذلـك الجلبـاب الواسـع بزجـاج المكتبـة فلـم أجـد بـدًا مـن مشـاركتها الضحـك.

أمسَـكَت بالطاقيـة. واقتربـت مـن وجهـي في تركـيز ورفعـت ذراعيهـا في الهـواء لتطـال رأسي. انهمـرت أكمـام جلبابهـا الواسـع سـقوطًا للأسـفل حـتى ظهـر ذراعيهـا دون غطـاء عـلى امتدادهمـا. توقـف الزمـن مـرة أخـرى. ولـم يكـن بيـني وبينهـا سـوى مـا يكفـي لتبـادل الأنفـاس بـين أفواهنـا. أجلسـت الطاقيـة عـلى شـعري الأشـعث فشـعرت وكأن ذراعيهـا كإطـار فـضي حـول وجههـا للوحـة أكـثر إشراقًـا مـن لوحـة أمـي الزيتيـة. نفـذت الوصيـة القديمـة. فنظـرت إليهـا ولـم ألتفـت. متمتعًـا بذلـك التقـارب القـدري. وشـعرت بحـرارة تـدب في جسـدي، لـم أدر حينهـا مـم خرجـت؟ أهـي مـن جوارحـي المشـتعلة؟ أم مـن دفء روح ذلـك المـلاك الـذي خـرج مـن غيمـة المـوت فقـط لإنقـاذي؟

انتهـت ولـم أنتـهِ. بـل ظللـت محدقًـا بهـا مشـدوهًا. وقعـت عينهـا عـلى عيـني فطرفـت في خجـل عـدة مـرات وتراجعـت إلى الخلـف وقـد أحنـت رأسـها، فغابـت اللوحـة وإطارهـا. وسـاد الصمـت.

لـم أكـن لأكسر الصمـت في حضرتهـا. فقـررَت أن تفعـل: و.. و.. ولكـن لـم.. لـم أعـثر لـك عـلى عمّـة..

استفقت من شرودي كطفل يرفض دواء الحكيم: وما حاجتنا إليها؟

خلعـت طرحتهـا السـوداء فانسـابت ضفيرتهـا وعقـدت قلـبي: خالـتي كانـت دومًـا تقـول.. الأهـم مـن «الشـغل».. الـ«فينيـش»!

ضحكت من إنجليزيتها الركيكة، بينما همّت هي بالاقتراب مني مرة أخرى لتعقدها حول رأسي، إلا أن نظرات الاشتياق لفعلتها أربكتها فوضعت الطرحة بيدي: فلتديرها هكذا حول رأسك.. (وأشارت بيدها في دائرية) هكذا، هه!

وصلنا إلى الطريق، أحمل «بؤجة» ضخمة على ظهري كعامل بناءٍ لم أعتد على رؤيته، بينما حملت هي البؤجة الأكبر فزادت انحناءتها من قصر طولها فبدت أكثر رقة. خطونا بخطوات اختلط فيها الحذر بالإرهاق المبكر، إلى أن وصلنا لرأس الطريق، وعندها.. رأيت كامل باشا الحداد بنفسه.

كان يتحرك في عبوس وينتفض بضربات عسكرية كادت أن تحطم بلاطات الطريق الصغيرة. ظننته في أول الأمر وحيدًا، إلا أن عمة خضراء ووجه أسود كانا كفيلان بإقناعي بالعدول عن ذلك الظن. فذلك الأسود الذي عصفني بقبضته بمسجد السيدة زينب لم يكن بالشخص الذي يُنسى لسنوات وليس يومين.

علمت من فوره أنه جاء لتنفيذ أوامر سيده بقتلي. فحمدت ظهور بركة وكأنها هبطت إليّ من السماء مع غيمة الموت، ليس لإنقاذها من بؤسها القدري.. وإنما لإنقاذي من بأس أقداري.

اصطدمت بكتف الباشا مرتبكًا، فدفعني الأسود بقوة محافظًا على هيبة سيده من تلامس كتفه مع كتف خادم غلبان، فالتفت إليه الحداد وزجره في همس: ماذا تفعل؟! قلت لك تظاهر بأننا لسنا سويًا.. انتظر هنا حتى أشير لك من النافذة..

تنهد الأسود في طاعة وندم على إغضاب سيده، بينما قبضت على يد بركة دون مقدمات وأسرعت بخطواتي في ابتعاد. فما كان بين الباشا والنافذة إلا بضع درجات من سلم المبنى الذي وصل إلى بوابته.

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي حاولت فيها قيادة بركة، فبعد تلك الخطوات المسرعة، كنت لها تبعًا. فهي من تولّت بيع المشغولات القيّمة لدى أحد البائعين «اللصوص» كما كانت تناديهم في خلط بين الدعابة والجدية حتى تحصل منهم على ما تشاء من أموال. وكذلك شيخ إحدى

الحارات البعيدة عن عطفة رجب التي كانت تسكنها، الذي نجحت في إقناعه بالعثور لنا على مسكن قبل انتصاف الليل، حتى وإن كان، كما قال، غرفة أرضية تطل نافذتها على إحدى المقاهي الشعبية.

وصلنا إلى الغرفة المذكورة ولم تكد قدمي ترتفع عن الأرض مقدار خطوة من التعب. فتح لنا السمسار القفل الصدئ وأدخلنا باسمًا وكأنه رضوان الجنة يفتح لنا بابًا لمتعة الخلود. فتهللت أسارير بركة وقبلت جانبي كفها وربتت على صدرها هامسة بالحمد. بينما تجاهلت شعوري بالتقزز لما رأيت واصطنعت الابتسام رغمًا عني. فيبدو أن رضا بركة كان مُعديًا.

دخلت بركة على الفور واتجهت إلى الأثاث المتهالك تنفض عنه الأتربة فيحيل بين عيني وهيئتها الملائكية، تقلب «مرتبة» الفراش ذات البقع الداكنة على سطحها إلى الناحية الأخرى وتحدّثني وكأنها تحدّث نفسها: نستر «العيبة».. ونومة على ظهرها.. ستكون كافية لإراحة بدنك يا بك..

وما أن انتهت حتى طفقت إلى طاولة رخامية مهشمة أطرافها، استقر صنبور نحاسى أصفر على رأسها، أمسكت بالبؤجة الفارغة وغمرتها بالمياه التي بدت سوداء بأولى قطراتها. وانهمكت في طي الأسطح في سرعة أملًا في استرجاع لمعانها. كنت أراقبها في صمت ولم أنتبه إلى التصاق شيخ الحارة بخلف رأسي رغم كل ما مر من دقائق.

التفت له: اا.. أشكرك يا.. أشكرك! هـ.. هل هناك شيء آخر؟

ابتسم في لزوجة أظهرت أسنانه المهشمة: الشاي يا بلدينا..

نظرت حولي في بلاهتي المعهودة: ولكننا لم نشترِ أي إبريق بعد لكي...

امتعض الرجل قبل أن أكمل حماقتي، بينما شهقت بركة استنكارًا لما قلت، واتجهت إليه وقد أخرجت عدة فضيات من صدرها وسلمتها إليه، فقبض عليها في حنق: عدم المؤاخذة.. لقد عاد لتوّه من البلد.. ولم يعتد بعد على «ملاغية» جدعان المحروسة.. يسلم عرقك يا سيد الجدعان..

رمقني بنظرة حنق تبدلت مع الوقت إلى الجمود وكأنه أراد لنفسه الاقتناع بعذري الكاذب، فهمّ بالرحيل ولكنه عاد بتحذير أخير: من أجل طيب لسان

الست.. سأترككما اليوم بلا أوراق.. ولكن غدًا سأحتاج إلى قسيمة زواجكما.. ليس لشك لا سمح الله.. وإنما من أجل شرعية بياتكما معًا وسط الخلق..

اندفعت تجاهه منكرة: لا لا.. فأنا لستـ...

كان دوري هذه المرة في إسكاتها والتحدث عنها: بعد بضعة أيام يا... بعد بضعة أيام.. فلقد تركنا البلد بلا أوراق لظروف خاصة.. ولكني سأسافر في أسرع وقت..

بهت وجهها وعلت زرقته فوق نضارته في صمت، بينما تنهد الرجل وأومأ في حنق: حسنًا.. أمامكما جمعة.. يبدو عليكما طيب الأصل.. رغم أن لغوتك ليست كلغوة الفلاحين.. ولكن...

أشرت لها بأن تعطيه بضعة قروش أخرى لكنها طرفت عينها في رفض سريع، وأجاب عنها: عيب يا بلدينا.. الشاي للتعب.. أما الأصول فليس لها ثمن.. ستعتاد على جدعنة أولاد البلد قريبًا.. سلام عليكم.

وغادر وقد أغلق الباب خلفه بصفعة تردد قبل أن يتمّها، بينما التفتت إليّ بركة بسؤال صامت عمّا قلت. فأجبتها مدافعًا: إلى أين ستذهبين في ذلك الوقت من الليل؟ ليس لك مأوى إلا هنا.. ولا تقلقي، فأنا كما قال الجدع.. «طيب الأصل» ولن أمتد إليك بـ...

ضربت فمي بكفها في لهفة فوددت لو قبّلته: معاذ الله يا بك.. لا أقصد.. ولكن.. لا أريد أن أثقل كاهلك بحِملي.

الكثير من الكلمات كان يجوب برأسي ردًا على ما قالت، ولكني نطقت بما وجدته أكثر منطقية في وقتها: هل بقي لدينا من مال لبعض الطعام؟

ابتسمت في خجل وقد فهمت أن الأمر صار محسومًا، فأخرجت من حزام خصرها كتلة ضخمة من الاموال فغرت لها فمي: حقًّا؟! لدينا كل تلك الاموال.. وتُلقي بنا في ذلك القبر الـ...؟

قاطعتني وهي تجلس على الفراش وقد فردت جلبابها وألقت بداخله النقود لعدّها: لا يصلح لاختبائك قصر ولا حتى شقة.. ولا نعرف كم سيطول ذلك الاختفاء، فمن أين ستنفق على عيشك؟ كل ما تحتاجه فقط «نومة»

و«أكلة» ووجوه الغلابة لتختبئ بينهم.. اسمع مني جنابك.. لن تعرف قيمة ما تملك الآن من مال.. إلا عندما يعتصر الجوع بطنك..

مدت يدها تجاهي بالرزمة الضخمة: يطرح الله فيهم الـ«بركة»..

ابتسمت لها وأغلقت كفها عليهم: لقد طرحها بالفعل منذ أن مسّتهم «بركة»..

غابت نظراتها في أرجاء الغرفة في خجل، فاقتربت منها مستغلًا تلك اللحظة وجلست إلى جوارها باسمًا: أأ.. ألم يأن الأوان أن تخبريني بما دار بينك وبين جلنار؟

نهضت من مكانها وهي تهندم جلبابها البسيط ووضعت المال بجواري وابتعدت خطوات في هرب وتردد: الله ستار يا بك.. لقد استأمنتني على سرّها..

نهضت إليها في حماس صائدي المعلومات: أي سر يا بركة؟ إنها كانت أميرة؟ لا بأس فأنا أعلم ذلك..

- ماذا تريد إذًا؟

- ما الذي قالته لك طوال فترة بقائها لديكم؟

- الكثير..

- أريد بعضًا منه فقط!

التفتت إليّ في ضيق متأزمة من حفاظها على مقامي ورغبتها في إجابة مطالبي: يا بك.. لو.. لو كان ذلك غرضك من بقائي معك.. فربما يكون الرحيل أفضل..

وتحركت تجاه الباب فانطلقت خلفها بخطوة متسعة وجذبت ذراعها: إلى أين؟! حسنًا.. أخبرتك من قبل أنها قتلت وأريد أن أعرف هوية قاتلها لنثأر لها معًا.. ألم تحبيها؟

نظرت إليّ باسمة وقد فهمت حيلتي: أنا غلبانة يا بك.. ولست ساذجة.. لا تطرق على وتر حبي لها لتستدرجني في الحديث كالأطفال.. سر جلنار أقسمت

عليـه أن يظـل مكتومًـا.. أراك عـلى خـير يـا بـك..

تحركـت مـرة أخـرى فوقفـت بينهـا وبـين البـاب وكنـت صادقًـا هـذه المـرة: حسـنًا حسـنًا.. لـن أجـبرك عـلى شيء.. فلتخبريـني وقتمـا أردتِ.. ولكـن لا ترحـلي.. أرجـوكِ..

احمـر وجههـا خجـلًا مـن توسـل مـن كان مثـلي لمـن كان مثلهـا فارتبكـت: عـلى عيـني يـا بـك.. ولكـن.. لمـاذا؟

نظـرت إليهـا مطـولًا وابتسـمت وقـد احتبسـت الكلمـات بـين بوابـات شـفتي، فلاحظـت الغلبانـة الـتي لـم تكـن سـاذجة احتياجـي إليهـا الـذي لـم تكـن الكلمات قـادرة عـلى صياغتـه، فأومـأت كالأطفـال وإن لـم أسـتدرجها هـذه المـرة مثلهـم، ونطقـت بمـا يرفـع الحـرج عـن كلينـا: تـشرب شـاي يـا بـك؟!

منعـت حركتهـا بلمسـة عـلى ذراعهـا أربكتهـا، اتجهـت إلى الطاولـة الرخاميـة العفنـة وأخرجـت مـن بؤجـتي كوبـين مـن الخـزف لـم أرضَ ببيعهمـا ووضعتهمـا أمامـي في حـيرة: لا.. بـل سـأعده أنـا!

كان فشـلي حتميًـا، وفي كل مـرة حاولـت فيهـا إصـلاح مـا أفسـدته، كانـت ضحكاتهـا تـضيء الجـدران وتُطفئهـا كلمـا انفـرج فمهـا بموسـيقاها وانغلـق. كانـت حقًـا المـرة الأولى الـتي ضحكـت فيهـا دون خجـل، وكانـت المـرة الأولى الـتي يضحـك فيهـا فـرج بعـد ثلاثـة أشـهر مـن الصمـت والعبـوس..

«بعـد كل مـا رأيتـه مـن مصائـب.. وشـقاء المُعتقـل.. لازلـت عاجـزًا عـن صنـع كـوب بسـيط مـن الشـاي لنفسـك!».

حككـت لحيـتي البيضـاء دون أن أشـاركه الضحـكات السـاخرة وأعطيتـه مـا أطلـق عليـه «السـبرتاية» و«إبريقًـا» قديمًـا دون أن أنظـر إليـه: فلتصنـع لنـا اثنـين إذًا.. وأتمـنى أن تكـون مهارتـك في الشـاي.. كمهارتـك في الانتقـاد التافـه.. ولننتـهِ مـن تلـك اللوحـة مـن فضلـك..

«سنفعل.. بمجرد أن تشرق الشمس»..

اتجـه فـرج إلى «السـبرتاية» مترنحًـا مـن التعـب وهـو يكمـل انتقـاده: سـيكون هلاكنـا جميعًـا عـلى يـدك..

تعجبت من قوله وأخرجت سيجارة من جيب سترتي وأجلستها على لساني: لم تخبرني حتى الآن لماذا صدقت قصة جلنار؟!

ارتبك وتعمّد أن يصدّر إليّ ظهره وهو يعد الشاي: كنت تقصها عليّ ليل نهار حتى أصابتني بلعنتها وأصبحت الكوابيس أمرًا معتادًا..

شعرت أنه يخفي أمرًا: بل أظن أنك تعلم شيئًا ما.. سرًا ربما.. فلست ساذجًا لتصدق تلك الخرافات من المرة الأولى..

- وما هو ذلك السر الذي يترك المصريين بأكملهم ويستقر بابن فلاحة لم يدخل دنيا حتى شيبته؟

تجاوزت كذبه المتعمد وامتنعت عن استفزازه فقط حتى أحصل منه على لوحتي: هل حقًا لم تدخل دنيا حتى الآن يا فرج؟

- لا تشتت الحديث.. فقط أجب على سؤالي.. ما هو ذلك السر أيها العبقري؟

كان دوري في المراوغة: كيف لم تدخل دنيا يا رجل؟ كيف لك أن تقضي مع امرأة بالغة الجمال كجلنار لثلاثة أسابيع كاملة.. وعارية.. دون أن...

توقفت يده عن تقليب الشاي وتنهد في حزن: بعض الجمال لم يُخلق لوطء أمثالي.

ساد الصمت للحظات، فعاد إلى التقليب مرة أخرى بسرعة أكبر وكأنه يتجاوز ذكرى آلمته. وضع كوب الشاي بين كفّي. فباغته بالسؤال: أحببتها أليس كذلك؟

انتبه إليّ في مفاجأة، ولكنه لم يلبث أن جلس أرضًا بتلك القاعة المقفرة مرة أخرى في تأوهات العجز: لا أعلم.. ربما ما حدث.. ااا.. اااهٍ.. لا تنس أني أصبحت عجوزًا خرفًا لأتذكر..

أعطيته سيجارة أخرى باسمًا: كأيام المعتقل.

راقب السيجارة في صمت. مرت ثوانٍ ربما حاول فيها أن يجبر عقله على تذكر ما ظن أنه كان جميلًا بأيام المعتقل بدلًا مما اعتاد على صفع رأسه من صور الإهانة.

نظـر إليّ نظـرة قصـيرة في تـردد ثـم أخذهـا مـني وهـو يقـاوم ابتسـامته: ألـن تشـعل؟

- لقد أقلعت..

- ولكني لم أقلع عن حبها..

انتبـه إلى قولـه فامتعـض، بينمـا ضحكـت في طفولـة زمـلاء الدراسـة السـذج: هـا قـد قلتهـا أيهـا الخـرف!

ألقى بالسيجارة في غضب: لعنك الله أيها الشيطان.. لست ااا..

قطـع لعناتـه وزفـر هـواءً أفـرغ صـدره. بينمـا تحركـت بالقـرب مـن جلسـته وشـاركته إياهـا بالجلـوس أرضًـا. رأيـت ضـوء القمـر يفـترش القاعـة بحزمتـه الزرقاء الـتي ظللـت رؤوسـنا. فعلمـت حينهـا أننـا عدنـا حقًـا إلى أيـام المعتقـل قبـل أن تفـرق بيننـا الأيـام. مجـرد صديقـين يجلسـان كتفًـا إلى كتـف تحـت ضـوء قمـريّ زاحـم قضبانـه نافـذة ضيقـة لزنزانـة عفنـة، نتبـادل أنفـاس سـيجارة أخفيناهـا عـن الحـرس. وأفضنـا بمـا في قلبينـا دون تـردد أو قلـق مـن الغـد، فربمـا لا يـأتي علينـا ونحـن أحيـاء.

بـدا عليـه أنـه شـعر كمـا شـعرت فتطـوع بالحديـث شـاردًا: أحببتهـا حقًـا يـا عزيـز.. وتمنيـت أن.. أن أضـم جسـدها بـين يـدي كمـا كنـت أفعـل بفرشـتي.. لــ.. ليـس في شـهوة.. وإنمـا...

علقـت رأسي بالذكريـات أنـا الآخـر فأكملـت: وإنمـا في شـوق إلى الكمـال.. كنـت أراهـا نصفًـا افـترق عـني منـذ الـولادة.. وعشـت عمـري كلـه أنشـد الاكتمـال بـه.. كــ. كان يبـدو كــ. حـكاكٍ مسـتعر أصابـني منـذ أن وعيت.. وكأنـه يطالبـني بالبحث عنهـا.. «لـن أهـدأ يـا عزيـز حـتى تلتحـم بهـا».. مطارحـة الغـرام ليسـت شـهوة يـا فـرج.. وإنمـا عـودة الـروح الضالـة إلى الجسـد.. عـودة النـور إلى الـتراب..

نظـر إليّ متعجبًـا: غريـب أن تقـول ذلـك عـن ليـلى هانـم.. لقـد أخبرتـني أنهـا كانـت..

- ساقطة! كيف ظننت أني أتحدث عنها؟

- من تقصد إذًا؟

- أقلت أنك قضيت ثلاثة أسابيع مع حبيبة عمرك دون أن تمسّها؟ من أقصد أيها العجوز هي من قضيت معها أربعة أشهر دون أن أفعل..

- وما الذي حدث بعد الأربعة أشهر؟

نظرت إليه وتأملت بسمته الغريبة، كان يبدو منتشيًا من قدرته على استفزازي للبوح بما كتمته، وربما كان يمزح مع صاحب قديم، كغريبين تقابلا صدفة وقررا أن تتهدج صدورهما من الضحكات وهم يقصون سرًا حكايات غرفة نوم كل منهما. فابتسمت له في ثقل: ما حدث بعدها.. كان حماقة يا صديقي.

على قدر ما لعنت تلك الحماقة، على قدر ما شكرت لها الوقوع. كنت قد اعتدت على التمتع ببركة بمجرد النظر، فقط أراقبها أثناء نومها أرضًا وصدرها يعلو ويهبط في هدوء لم يثرني قط، بل كان يربت على قلبي بأجنحة السكينة. كانت تبدو طفلًا بريئًا في نومها بذلك الفم المنفرج بفتحة ضيقة تتنفس منها هواء الغرفة المكتومة، ويدها التي تواصل رحلتها على طرف جلبابها لتغطي رجليها العاريتين حتى وإن لم تكن تعي ذلك. فقط كانت تفعل في لا إرادية.

وما أن يأتي الصباح، وأكون مستغرقًا في النوم وقد أرهقني السهر بنظري الدائم إليها حتى صياح مؤذن الحارة بأذان الفجر ونباح كلاب العطفة وراءه، كنت أستيقظ على صوت خطواتها المتلهفة لإعداد الإفطار قبل أن أنهض. غريب هو أكثر ما كان يرسم ابتسامتي في الصباح، لم يكن صوتها وهي تدندن بأغنية قصيرة امتلأت بالآهات، ولا طرق رواد القهوة الملاصقة لنافذتنا على لوحات «الدومينو» التي ربما قد تعلموها من الانجليز، وإنما كان صوت تلك الخطوات. موسيقى طبل كعبها على مؤخرة «الشبشب» المهترئ التي كانت ترتديه وهي تطوف حول نومتي في عملها اليومي.

كنت أضحك كلما تذكرت ذلك.. البكِ.. ابن الباشا.. لا يثيره جسد امرأة ولا عينيها. وإنما صوت «الشبشب»! كنت كما قالت مرة مازحة قبل أن تضرب فمها في خجل من سقوطها بتلك العبارة «بك فقري!».

أما في ذلك اليوم، كان الأمر مختلفًا. فتحت عيني على السكوت فرأيتها تجلس بكف أسفل وجنتها في همّ بالغ. اعتدلت لها. فعادت إلى عادتها وغطت بيدها طرف جلبابها على رجليها، رغم أنهما كانا كذلك بالفعل. ونظرت إليّ في ابتسامة هادئة..

«نوْم الهنا يا بك»..

كنت أعشق بداية يومي على تلك الجملة، ولكنها اليوم قالتها بنبرة مختلفة يغلب عليها الحزن: ما بكِ يا بركة؟

تنهدت في كفاح لرد لسانها عمّا أرادت قوله: ااا.. حسنًا يا بك.. لن أستطيع أن أخفي الأمر عنك أكثر من ذلك.. أصبحنا على الحديدة!

اعتدلت متعجبًا: ماذا؟! هل...

- نعم.. ولا مليم.. كنت أحاول تدبير الأمر منذ أيام ولكن.. لا فائدة..

أحسست بالعجز للمرة الأولى، فلم أعتد من قبل على الشعور بالحاجة إلى المال مقابل أقل مطالبي وهو إفطار بسيط، بينما أكملت هي في عتاب غليظ: قلت لك لا حاجة لعيشة البهوات.. فالخلق كلها تتناول الفول على الافطار، وبعض الغموس في الغداء.. ولا حاجة لنا في العشاء.. ولكن كيف؟! جناب البك لابد أن يكون إفطاره القشطة والعسل وذلك العجين الذي أذهب إلى آخر الدنيا يوميًا للعثور عليه! تجلّد يا بك! لقد فاض الكيل!

لم أخفِ امتعاضي من تجرؤها على مقامي، كنت بِك مهما حدث وكرهت أن تعيد على سمعي نبرة ليلى في الصباح، فاعتدلت غاضبًا: منذ متى وأنتِ تتحدثين معي بتلك اللهجة؟!

تنهدت ودارت عينها في ندم بأرجاء الغرفة، بينما قفزت من الفراش الذي لا يستحق ذلك اللقب، واتجهت لارتداء الجلباب وقد صرت محترفًا به، واتجهت للخروج. وما أن لمحت تحرّكي، انتفضت في فزع: يا إلهي! إلى أين يا بك؟!

أحللت الطاقية من طرحتها المعقودة عليها وألقيتها بعيدًا وفتحت الباب: أخفف عنك حِمل البك المدلل!

تعلقـت بقدمـي في توسـل: لا.. لا تفعـل.. لعنـك اللـه يـا بركـة.. والنـبي لـم أقصـد إغضابـك.. فقـط أخـاف عليـك مـن...

- انهضي يا بركة!

- كلا.. لن أترك الأرض إن رحلت.. ولو بقيت عليها حتى يواريني ترابها..

- قلت انهضي!

نهضـت في لهفـة وأمسـكت بكفـي وانهالـت بـه عـلى وجههـا: فلتضربـني إذًا لأتـأدب.. اضربـني يـا بـك!

فلتـت يـدي في قـوة وانزعـاج، فقـد نجحـت في إجبـاري عـلى ضربهـا، وابتعـدت عـدة خطـوات في حنـق صامـت. بينمـا تكومـت هـي بجلسـتها واهـتز جسـدها لبكاء محمـوم. راقبتهـا والغضـب يتـسرب مـن بـين أصابعـي الـتي طعنـت وجنتهـا، ومـا أن غـاب حـتى اتجهـت إليهـا محـاولًا المحافظـة عـلى اصطناعـي الغضـب بعـد أن انفطـر قلـبي لدمعهـا: حسـنًا.. لا عليـكِ..

اسـتمرت في البـكاء وهـي تلطـم عـلى وجههـا بضربـات ضعيفـة مرتخيـة: نصيبك يـا بركـة.. تطرديـن الـكل مـن طريقـك.. أنـا أعـرف نفـسي.. لطالمـا دعـت لي أمـي.. وكان الجميـع يخبرهـا.. بـل هـي فـال شـؤم.. دعـوة أمـك يـا بركـة.. أنـتِ دعـوة أمـك الـتي ردّهـا الحنّـان..

هبطـت عـلى قدمـي واحتضنتهـا دون حديـث، فارتمـت عـلى صـدري تكمـل بكاءهـا وقـد ازداد. فمـا كان لي مـن مدخـل إلى قلبهـا إلا بعبـارة تافهـة: سـأثق برأيك بمـا يخـص الفـول.. ولكـن إن آلمتـني معـدتي فسـوف...

انتفضـت في لهفـة أفزعتـني: لا واللـه! سـأعدّه لـك بالليمـون والكمـون.. وأراهـن بهـذا (وأمسكت خصلـة مـن شـعرها) أن تلحـس أصابعـك مـن طيـب طعمـه.

نظـرت إليّ في ابتسـامة منفرجـة وهـي تمسـح دموعهـا في سرعـة تعجبـت لهـا. كانـت طيبـة القلـب إلى حـد لـم أعهـده مـن بـني آدم وربمـا بنـات حوّاء. فأمسكت بوجههـا في دهشـة، وسـألتها مـا سـألت ليـلى سـابقًا: مـم خلقـتِ يـا امـرأة؟

«من تراب قدميك يا جناب البك»..

أعـدت الفـول كمـا وعـدت، ولحسـت أصابعـي كمـا توقعَـت. وأمضينـا النهـار

ككل يـوم، أشـارك رواد القهـوة جلسـتهم مـن خـلال النافـذة وتلـك الأريكـة الـتي استقرت تحتهـا، أبادلهـم الضحـكات بالحديـث عـن أفـلام الموسـم بـدار سـينما الهـلال بالسـيدة زينـب، وكيـف سـيجمعون ثمـن تذكرتهـا قريبًـا للذهـاب والتمتـع بحسـناوات الإنجلـيز والأمريـكان. بينمـا تقـضي بركـة يومهـا في إعـداد طعـام الغـداء. قبـل أن يهـل الليـل ويرقـد كل منـا بنومتـه دون أن يشـغل بالـه بهمـوم الغـد.

لكـن اليـوم كان مختلفًـا، ولـم يـك ذلـك الاختـلاف فقـد بسـبب طبـق الفـول أو«صينيـة الدمعـة» كمـا أسـمتها بركـة، ولكـن تأخـرت في النهـار عـلى غـير العـادة ورجعـت بقليـل مـن أطعمـة طبختهـا، ولـم تكـن تسـتحق ذلـك التأخـر. لـم أسـألها عـن السـبب ولـم تتطـوع بالإجابـة. ولكـن طرقًـا عنيفًـا عـلى بـاب الغرفـة في جـوف الليـل بـدا، وكأنـه جـواب مثـالي لمـا كان يجـوب في ذهـنى.

انتفضـت مـن مراقبـتي اليوميـة لنومتهـا، بينمـا اعتدلـت هـي في هـدوء. لـم يبـد عليهـا الانزعـاج مـن الطـرق الغريـب وكأنهـا كانـت تتوقعـه. بـل اعتمـدت بيديهـا عـلى الأرض وزحفـت للخلـف، وهـي تراقبـني في رهبـة ودمعـة قريبـة.

تحرّكـت إلى البـاب في ريبـة. تقاطعـت نظراتنـا لمـرة أخـيرة، أسـألها في إنـكار لمـا أظنـه، وتشـيح بوجههـا في تأكيـد لجرمهـا. صرعـني الطـرق المُلِّـح مـرة أخـرى وقـد تأخـرت عليـه. ففتحـت البـاب مستسـلمًا.

كنت أظن أنها فضحت اختبائي، وقد أرسلت ليلى من كلّفته بقتلي، ولكن...

«لم تأخرت؟! القتلة لا يطرقون الباب أيها الأبله؟!».

كان قاسـم باشـا بنفسـه. دخـل في هيبتـه دون اسـتئذان وعينـه تجـوب الغرفـة باشـمئزاز بالـغ، أخـرج منديلـه الأبيـض مـن جيـب سـترته السـوداء وسـد بـه أنفـه مـن الرائحـة الـتي اعتـدت عليهـا. وضرب بعصـاه جسـد بركـة بعيـدًا عـن خطواتـه فالتصقـت بالركـن خلفهـا. وجلـس في ضيـق عـلى أريكـة النافـذة.

- أتظن أن اختباءك بين هؤلاء الصعاليك سيُنجي رقبتك؟

- كيف علمت بمكاني؟

- أنـا أبـوك شـئت أم أبيـت.. ربمـا كان عليـك أن تلجـأ إليّ قبـل أن تتـصرف مـن

رأسك..

وقفت أمامه في عزة وحنق وعيني على بركة: كيف علمت مكاني يا باشا؟

نظر إليّ معلّمًا: ابن الباشا لا يصعب العثور عليه يا جناب البِك..

هممت أن أتهم بركة فقاطعني: نعم! هي من أخبرتني بمكانك، فعلت الصواب.. علمت أنك لن تصمد ليوم آخر حتى وإن فعلت طوال الشهور الماضية.. يبدو أن الجميع يفهم حقيقتك إلا أنت!

صرخت في بكاء: وغلاوة الحسين ما أردت إلا الخير.. أنا معتادة على تلك العيشة.. ولكنك...

قاطعها أبي في غلظة: كفى نواحًا يا فتاة! واتركينا!

نهضت مهرولة لإطاعة الأمر فمرت بجواري أملًا في الوصول إلى الباب، لولا أن قبضت على ذراعها وأنا أحدّق بعيني الباشا: ماذا تريد معاليك؟

لم تقاوم جذبي لها، بل استقرت في مكانها خوفًا من التحرك للأمام أو الخلف، فبقينا متجاورين كحبيبين حتى وإن كان وجه كل منا في اتجاه، كحبيبين حتى وإن كان قبضي على ذراعها لم يكن لشوق وإنما لغضب..

راقب الباشا إصراري فتنهد، وأدار عصاته على محورها كما اعتاد أن يفعل عندما يتحدث بلا منطق: سأعد لك الأمر لتعود غدا إلى باريس حتى تهدأ تلك العاصفة..

ارتعشت ذراع بركة بقبضتي وسمعت بكاءها المكتوم لفراقي: وما الحاجة إلى السفر؟ ألا تستطيع حماية ابنك من امرأة حمقاء؟

- لا أستطيع..

- آه.. وأنا الذي عاتبت نفسي على اندثار الرجولة..

- اكتم فاك أيها الأبله؟ ربما تكون الوحيد في مصر المحروسة الذي لا يعلم حقًا من هي ليلى الحداد.. إن صلاتها بالقصر قد...

- قد ترسلنا أجمعين إلى الهلاك..

- أصبت! (استفزني مؤكدًا) للمرة الأولى! اسمع يا ولد.. بلا نقاش.. ستعود

غـدًا إلى باريـس و...

- لن أفعل؟

- لا تتصنّع الشجاعة..

- لا أفعل..

- عنيد كأمك!

أثـارت سـيرة أمـي عـلى لسـانه حنقـي، حـتى وإن لـم يهنهـا صراحـةً، ولكـن يكفي أن يذكـر قاسـم باشـا ذلـك اللفـظ ويعـد الأمـر مـن بعـده إهانـة فجـأة. قبضـت رغمًـا عـني في غيـظ عـلى ذراع بركـة فتأوهـت وسـدت آهـات ألمهـا بكفهـا. فأفلتهـا رغمًـا عـني وواجهـت الباشـا: شرّفـت معـالي الباشـا..

انتفـض مـن مكانـه بسرعـة لا تناسـب عظـام جسـده الواهنـة، فـكاد أن يسـقط ولكـن.. لـم أتحـرك لإسـناده هـذه المـرة، فاسـتند عـلى عصـاه مترنحًـا والـدم يثـير وجهـه إحمـرارًا: أنـت ابـني! ولـن أسـمح أن تضيـع مـني أنـت الآخـر! هـل فهمـت؟

- من ضاع قبلي؟ ندُرَ من يبكي من القتلة على دماء ضحاياهم!

- اصمت! فأنت لا تعلم!

- بـل أعلـم.. خانتـك أمـي، وأنجبـت مـن غـيرك، فقتلـت ولدهـا.. أخـي!! أليـس هـذا هـو سرّك اللعـين؟!

- كلا!

- أحزنتها حتى انتحرت! أليس كذلك؟!

صرخ وقد انفجر صدره: كلا!

هجمت عليه صارخًا: ما الذي حدث إذا؟! تحدث!

ضج لسانه بصياح قطّع أوتاره: بل كان ابني!

ارتـد رأسي للخلـف في صدمـة، بينمـا دمعـت عينـه وسـقط عـلى الأريكـة في إرهـاق وشرد في حـزن أخفـى هيبتـه وربمـا أشـاب مـا تبقـى مـن سـواد رأسـه. انقطـع الصـوت عنـا أجمعـين كراديـو خـرب صـاح بوجوهنـا بحقيقـة أن لا أهميـة لـه بعـد الآن، فلـم يعـد هنـاك مـن أخبـار سريـة ينقلهـا إلينـا فنفـزع، ولا أغنيـات

تطربنا فنبتهج، ولا قرآن يُثلج صدورنا فنقفز للصلاة طلبًا لغفران على ذنب نسينا جحيم عقابه.

لم يكن إلا صوت الرياح التي تسللت من فتحات الشيش المحطمة.. وأنفاسي المحترقة.. وصوت عُقَل أصابع أبي التي كانت تهتز ارتعاشًا.

بدا الوقت الذي مر بالسكون، كزمن كون جديد خلقه الله منذ آدم وحتى انتحار ملاك الموت. بدا كملايين السنين. وما أفاد ذلك الوقت إلا بتحجر عنق أبي انحناءً للأسفل، لا يقوى على النظر إلى الأعلى، أو ربما يراقب حبات التراب على الأريكة النافذية التي بدأت في سرد أحداث شبيهتها من تراب الابن الذي دفنه بيده.

نطق أخيرًا في ضعف: كان ظني كله خاطئًا يا ولدي.. لم تخنّي أمك حتى ولو اجتمع الكل على ذلك الظن.. اا.. ااا.. كنـ.. كنت مريضًا بحبها.. المجنون كان أنا يا عزيز وليس أمك.. كـ.. كان الجميع يتودد إليها.. ولم لا؟! فقد كانت ملاكًا.. قتلتني الغيرة، وصار هوسي أن ينال غيري ما تمتعْتُ به شغلًا أعتم نهاري وأفقر ليلي.. ظـ.. ظننت أنها خانتني.. خلب الجنون عقلي.. وآمنت أن أخاك لم يكن من صلبي.. أحمق! تحريّت الأمر.. وساقت إليّ الأقدار ما ألهب ظني وأنضجه حتى صار حقيقة.. إنها الأقدار يا ولدي، وكأنها أرادت أن تلعنني حتى الموت، وكأنها كانت تعاقبني على مجرد الشك في امرأة كزوجتي.. حبيبتي.. وما عقاب الظن الخطأ إلا أن يكون صحيحًا.. أقنعتني فصدقتها.. وواجهت أمك.. فأنكرت صدقًا.. ولكن، لا تُخمد النار بكلمات الملائكة.. ظللت على عنادي.. وفعلت ما ظننته ثأرًا لرجولتي.. قتلت ابني الصغير.. كان من صلبي ودمي.. وقتلته! كتمت أنفاسه بكفي هذا! نثرت التراب فوق وجهه بتلك الأصابع! قتلته.. ثم قتلتها حزنًا عليه.. ربـ.. ربما كان على زوجتك أن تقرر قتلي أنا وليس أنت.. ولكن.. لمَ تكتب لي الأقدار ما يرحمني من بؤسي؟! كلا.. تجبرني على قتل ابني.. وتجبرني على مشاهدة ابني الثاني، وهو يموت أمام عيني دون أن أحرّك ساكنًا.. لن أسمح بذلك.. ضاع مني أحدكما.. ولن يضيع مني الآخر!

لم أشعر إلا وكنت أمامه أرضًا. خارت قدمي والتصقت بتراب الأرض

وكأنها كانت تبحث تحت طياتها على ما تبقى من جسد أمي. لم أصدق ما سمعت، كنت أعلم طوال الوقت أنها لم تكن خائنة، أذكر ضحكتها وأصابعها بين شعيرات رأسي قبل النوم، وصوتها! كنت أذكر صوتها وهي تغني لي في حنان اشتقت إليه ولم أنله مرة أخرى. كنت أذكر كل شيء وأقسم أنها لم تخن. وبالرغم من ذلك، لم أدافع عنها أمام من قذفوها بالباطل، بل كنت أخجل وأطرق رأسي من العار، وكأني أشارك اللاعنين لاسمها لعناتهم. ربما قتلتها مرة يا أبي. ولكن.. يبدو أني قتلتها آلاف المرات من بعدك.

ظللت وأبي على تلك الحال لدقائق عارية من أي صوت. فقط يجلس محني الظهر. وفقط أجلس منكس الرأس. وما قطع الصمت إلا تنهيدة بعيدة خرجت من بركة وأتبعتها بجملة أفاقتني وأبي من غيبوبة الحزن المزمنة: هوّن على عبادك يارب الغلابة.

رفع أبي رأسه ببطء متعجبًا، بينما اعتدلت له بشهيق أعاد الحياة إلى عيني فنظرت إليه. مسح على وجهي في هدوء وقال: لن يمسّ أحدٌ ابني يا عزيز.

أجبته في هدوء وكأن غفرانًا استقر بين عينينا: لن أترك المحروسة يا أبي.

- لماذا؟

- لن ااا.. ربما لن تصدق.. ولكن.. أشعر أني وجدت نفسي أخيرًا بهذا المكان.. بتلك الحياة..

- أي حياة.. حياة الأموات فقرًا؟!

- لا أراها كذلك..

- أنت بِك يا عزيز.. ويومًا ما ستصير باشا.. وحاملو الألقاب يا ولدي.. يولدون بالقصور ويموتون بها.. ولا طاقة لهم بأقل من ذلك.. تلك هي سُنّة الأقدار..

- بل ربما كان هذا هو سبب شقائي.. لطالما شعرت بالغربة دون سبب.. لطالما شعرت أني لا أنتمي لقصرك ولا لقصر ليلى ولا حتى لذلك المكتب الفاخر.. ربما.. ربما.. ربما كان مقدرًا لي أن أكون شخصًا آخر.. أكثر بساطة.. ربما..

- ستشقى يا عزيز..

- لقـد اسـتنفدت نصيـبي مـن الشـقاء سـابقًا يـا أبي.. لـن يصيبـني أفظـع ممـا حـدث..

راقبـني في محاولـة لقـراءة صـدق أقـوالي وفصلهـا عمـا ظـن أنهـا غيبوبـة افتتـان السـائحين ببيئـة جديـدة فحسـب، ولكنـه لـم يلبـث أن تنهـد وقـد لمـس قناعـتي بمـا قلـت، فأومـأ في موافقـة: حسـنًا إذًا.. ليـس لهـا إلا حـل واحـد.. أن تمـوت قبـل تُقتَل !

صاحـت بركـة واندفعـت تجاهـه في غضـب: لاااا.. ورب مُحمَّـد لـن تخـرج مـن الحـارة حيًـا إن فعلـت! لقـد جئـت إليـك لإنقـاذه لا لقتلـه! صرخـة واحـدة وأجمـع عليـك رجـال الحـارة ينهشـون عضمـك بأسـنانهم ! وأنـا قبلهـم !

رمقهـا بنظـرة هادئـة وعـاد إليّ، بينمـا أشرت لهـا بالصمـت فأكمـل: سـأقتلك كمـا قتلـت أخـاك. ولكنهـا هـذه المـرة لأحييـك.. لا لأميتـك.. لـديّ مـن يسـتطيع أن يعـد لـك أوراقًـا مـزورة تؤكـد وفاتـك يـوم اختفائـك.. أكان في الثامـن والعشريـن مـن ينايـر؟!

أومأت له بالموافقة فأكمل: حسنًا.. ولكن علينا أن نعثر لك على سبب اااا...

قاطعتـه بركـة في عفويـة وكأنهـا وافقـت ضمنيًـا عـلى رأيـه وتناسـت غضبهـا السـابق في لحظـة بعـد أن فهمـت مقصـده: حادثـة.. بعـد الـشر يـا بـك.. ولكـن حادثـة سـيارة.. وأنـا أعـرف صـول يمكنـه أن يحـرر محـضرًا قديمًـا بذلـك.

عــاد الراديــو الخــرب ليتســيد الغرفــة بصمتــه. والتفــتّ وأبي في بــطء إليهــا وعلامـات التعجـب تفـترش وجهينـا. راقبتنـا في توتـر، ومـا لبثـت أن ضمـت كفيهـا إلى صدرهـا في احـترام كمـن تصـلي، ونكّسـت رأسـها مـن فـوره. ابتسـم أبي ورمقـني في حـيرة: مـن أيـن جئـت بهـا؟

أغمضـت عيـني وارتعشـت وجنـتي لابتسـامة ناسـبت سـيل الأحـداث الـذي بـدأ بالأمـيرة جلنـار طوسـون وانتهـى بــبائعة الجرجـير.. «بركـة».

«ااه.. لن تصدق»..

لـم أتكبّـد عنـاء إخبـاره بمـا لـم يكـن مصدقًـا. بـل تركتـه وتركـني، وعـاد إلى

دنياه التي اعتاد عليها، وانصرفت إلى دنياي التي تمنيت أن تعتاد هي على بقائي كدخيل بين جدرانها. تعهّد بتزييف موتي، وفعل. وتعهّدت أن يكون موتي ميلادًا جديدًا لعزيز آخر، ولكن.. هيهات أن أفعل.

حاول أن يعرض عليّ مالًا ربما يُعينني على ما اخترت من حياة الفقراء، ولكن رفضت في عزة كانت جديدة على عزيز بك قاسم. لم أفهم من أين انتفضت مشاعل تلك الكرامة بنيران الرفض النبيل، ولكنها بدت مناسبة لتلك الرغبة التي أفصحت عنها قبلًا. «العيش كالبسطاء كما أشتهي.. فربما يعثر عزيز على عزيز بينهم». ولا أمل في إتمام ذلك إلا بالتخلي عن كل ما ارتبط به ذلك البِك السابق، حتى وإن كانت بضعة جنيهات من أبيه.

مضت الايام، وحاولت استنساخ حياة «الغلابة»، فالتصقت بطعامهم، وأصبح الفول وجبتي المفضلة، ورضخت لمطلب بركة التي لم تجرؤ على الإفصاح به إلا بنظرات تعلمت قراءتها بأن أبحث عن عمل، فيدي وإن كانت بطّالة فلا تستحق حقًا أن توصف بـــ «النجسة». فرافقتها إلى الأسطى صابر بحي النحاسين، وقدّمتني إليه كصنايعي شاب ينشد العمل تحت إمرته، يطيعه قبل أن يأمر، ويأخذ منه الصنعة دون أن يتذمّر.

وما أن رأيت الأسطى صابر حتى تراجعت عن قراري بالتعمق في تلك العيشة البسيطة. حيث كان دائم العبوس ذا هيبة مخيفة رغم قصر قامته، أصلع الرأس ذا حاجبين غليظين كثيفيّ الشعر حتى أنهما كانا يوشكان على تظليل عينيه السوداوين المتسعتين على الدوام، ولحية بيضاء مترامية الأبعاد بدءًا من عنقه المتجعد لسنواته السبعين وحتى تجويف عينيه في عشوائية مقززة. حتى ظننت أن صلعة رأسه ما كانت إلا لتفرق ما أُخِذ منها على جوانب وجهه المشعر.

خرج بتلك الهيئة من باب ذي سقف دائري مظلم بغرفة ضيقة بالحي المذكور، نفض جلابيته القصيرة في حنق وأجاب نداء بركة: من يُنادي؟

أجابته بركة باسمة وهي تقبض على يدي لكيلا أهرب: مراسيل ربنا يا أسطى.. أرسلنا إليك من أجل لقمة العيش..

لـم يهتـم بنـا، بـل سـحب طسـتًا نحاسـيًا مقلوبًـا وجلـس عليـه عابسًـا، وأمسـك بصينيـة نحاسـية ذات نقـوش غـير مكتملـة، وبـدأ بمسـمار رفيـع ومطرقـة غليظـة بالـدق عليهـا: لا يصلـح!

تعجبـت مـن إجابتـه فهـو لـم ينظـر إليّ مـن الأسـاس، فقاطعـت ضجيـج طرقـه: ولمـاذا تظـن ذلـك وانـت حـتى لـم...

توقـف عـن الطـرق ونظـر إليّ حانقًـا: كـف أسـطى النحـاس لا تتعلـق بـه النسـاء يـا بلدينـا.. يبـدو أنـه ناعـم أكـثر مـن ذلـك..

أطاحـت بركـة بيـدي في سرعـة فالتفـت لهـا مسـتنكرًا فعلتهـا، ولكنهـا لـم تبـال واقتربـت منـه: بـل هـو رجـل ولا كل الرجـال.. يتعلـم سريعًـا ويطيـع الأمـر.. ومـا كان تعلّقـي بـه إلا أملًا في أن تقبلـه.. (ثـم همسـت لـه) نحـن عـلى فيـض الكريـم يـا أسـطى.. والخلـق كلهـا تحمـد لـك جدعنتـك..

تنهـد بأنفـاس سـاخنة ونهـض إلى الداخـل دون رد، فعـادت إليّ بركـة في ابتسـامة دعـم هادئـة: لا تقلـق يـا بـك.. ربـك لا ينســـ...

صـاح مـن الداخـل بقـوة انتفضنـا لهـا معًـا: مـاذا تنتظـر يـا «ولا».. اتـرك الحريـم واتبعـني.. اللـه؟!

تهللـت أسـارير بركـة وفغـرت فاهـا لعـدة زغاريـد متعاقبـة انتبـه لهـا المـارة، فبـدأت إحـدى النسـاء في مشـاركتها الزغاريـد، ولـم يمنـع أخـرى ثقـل وزن طفلهـا عـلى كتفهـا مـن مشـاركتهما، وتحـول الحـي إلى زفـاف مصغـر، ومـا أن انتهـين حـتى ربتـت إحداهـن عـلى كتـف بركـة وهـي تسـتعد لزغـرودة أخـرى: ومـا أمـارة الفـرْح يـا أخـتي؟ زواج؟

كـن يزغـردن دون أن يعلمـن السـبب، فابتسـمت بركـة وحضنـت المـرأة: بـل فرحـة رضـا ربنـا يـا كريمـة..

ظننـت أنهـا سـتنهرها عـلى زغرودتهـا الـتي جـاءت بـلا سـبب واضـح، ولكـن عـلى العكـس عـادت المـرأة وزغـردت ورفعـت يدهـا إلى السـماء وصاحـت «آمـين». بينمـا ظللـت واقفًـا أمامهـن كالأبلـه، ومـا اسـتفقت إلا عـلى صـوت الأسـطى صابـر وهـو يهمـس بـأذني: ألـم أقـل لـك، اتـرك الحريـم.. لـن يفيـدك البقـاء إلى

جوارهـن سـوى مضيعـة للوقـت.. سـيزغردن حـتى الصبـاح..

ابتسـمت لـه واسـتجبت لدفعـة كفـه الغليظـة إلى الداخـل حـتى كـدت أن أسـقط عـلى صوانيـه النحاسـية فأزيـده مـن الغضـب غضبًـا.

ظننـت أن الأمـر سـيكون سـهلًا، مـا المشـكلة في النقـش عـلى بعـض القطـع النحاسـية؟ مثلـه كمثـل أي فـن، سـيأخذ بعـض الوقـت لتعلّمـه، فتخيلـت نفسي أطـرق عـلى الأواني كأقـصى جهـد مسـتطاع، لـولا أن أجلسـتني يـد الأسـطى عـلى طسـت نحـاسي أصغـر كطسـته السـابق وأمـرني: ولّـع!

نظرت إليه متعجبًا: ماذا تقصد؟

زفـر في غضـب حـاول كتمانـه ومـال عـلى جسـدي وضرب شـيئًا لـم أره في الظـلام، وفجـأة انفجـرت كتلـة مـن النـار في وجهـي مـا لبـث أن أهـدأ شـعلتها، كانـت باجـورًا بهيئـة غريبـة وصـوت يصـم الآذان ولكـن صـوت صابـر كان أقـوى مـن أن يحجبـه ضجيـج النـيران: عـم فـؤاد الـذي يسـكن جـوار سـبيل محمـد عـلي سـيفتتح عربـة فـول.. والطلبيـة: قِـدرة.. ومغرفـة.. وعـدة أطبـاق..

- وهل سأصنع القِدرة؟

- كلا بالطبـع.. بـل يكفيـك الأطبـاق الصغـيرة.. والقِـدرة سـتكون مـن نصيـبي.. إلى جـوارك عـدة صفائـح.. اسـتخدم الولعـة حـتى تُثـني أطرافهـا لأطبـاق عميقـة.. هـل فهمـت؟

كنـت بِـك درس في أعظـم عواصـم العالـم زخـرًا بالعلـم، لكـني شـعرت لأول مـرة بجهـل أغلـق عقـلي، فنظـرت لـه في بلاهـة لـم يهتـم بهـا، وعـاد إلى مجلسـه دون حـتى أن ينفـذ وصيـة بركـة بتعليمـي.

انتصـف النهـار وأنـا منهمـك في عمـلي، شـعرت أني تعلمـت سريعًـا وأن الأسـطى العابـس سـيتنازل لي عـن ورشـته فرحًـا. تناسـيت الزمـن والسـاعات، وغفلـت عـن كـوني بِـك قديمًـا وشـعرت بمتعـة غريبـة وأنـا أصنـع مـن شيء صلـد باهـت، شـيئًا آخـر جميـلًا وذا قيمـة. شـعرت بقيمـة الإبـداع.

اسـتفقت مـن هيسـتيرية النشـوة عـلى صـوت الأسـطى وهـو ينطـق في اسـتنكار: مـا جـاء بـك مـرة أخـرى يـا سـت.. اتركيـه لحالـه اللـه لا يسـيئك..

كانت بركة، فكّرت أن أنهض لها لولا خوفي من الأسطى، فاسترقت السمع من مسافة لم تكن بعيدة، وسمعتها وهي تسأله: جئت فقط لاطمئن.. هل ااا..

قاطعها بغرابة تعجبت لها واقترب منها هامسًا وقد تعمّد ألا أسمع: عادةً تأتي النساء لتقديم «لقمة» لأزواجهن.. ولكنك لم تفعلي..

ارتبكت وفركت كفيها في تهرّب: الـ. الـ. الطعام على النار و...

نهض إليها فحجب بجسده الرؤية: بل لا تجدين ببيتك ما يسد جوعكما أليس كذلك؟

انتفضت من مكاني خوفًا من إهانته لها، ولكن قبل أن أصل إلى الباب ذي السقف المستدير، حتى توقفت على فعله الغريب. مد يده في جيب جلبابه ودفعها إليها سرًّا: يومية ثلاثة أيام.. اطبخي له شيئًا قبل أن يعود.. يبدو عليه أنه ابن ناس وطيب القلب..

تنهدت من فعلته بينما ارتمت بركة على يده لتقبلها فسحبها متمتمًا بما لم أسمع، ودمعت: رزقك الله الجنة يا اسطى..

سكت وأطرق برأسه في حزن غريب وانبسط وجهه عن عبوسه وحدّثها في لطف وخجل: اا.. فلـ.. فلتدعي لي في الفجر لو شئتِ.. والآن.. ادخلي للاطمئنان عليه.. فربما لمح وجودك ويتعجب حينها من سبب مجيئك.. واخفي النقود حتى لا يشعر بالانكسار أمامي.. لا يكسر الجدع إلا حسنة القرش..

جمعت أطباقي وخرجت لهما مسرعًا متجاوزًا ما رأيت وسمعت، ولأتباهى بما صنعت لأثبت له أني لن أكون غير مستحق لماله، وحافظت على ترفّع الباكوات في نبرتي: بركة.. ما جاء بك؟ حسنًا.. خُذ يا اسطى اثنى عشر طبقًا..

راقب الأسطى تحفتي الفنية، بينما نظرت إليّ بركة في خجل وضربت صدرها، فاحمر وجهه وخاطبها متجاهلا وجودي: ولا تنسي أن تدعي عليه في الفجر أيضًا!

علمت لاحقًا أن ما صنعت لم يكن إلا صفائح ملتوية لا تصلح إلا لتلال من القمامة. ضحكت بركة بينما زجرني صابر إلى الداخل، فتبعته صاغرًا،

بينما لوّحت لي بركة في سعادة بهيئتي الجديدة وإن كانت مهينة ومرهقة وانطلقت في سعادة إلى غرفتنا.

اعترفت لنفسي بعدها بأيام أن ما مررت به كان أفضل ما حدث بحياتي. لم أغفل متعة كسب المال من التعب، ولا من العودة إلى الغرفة الصغيرة وبركة في انتظاري بغداءٍ اعتدت على الاشتياق لرائحته، ولاسيما نومة الإرهاق التي أعادت إلى الفراش البالي عظمته التي لم أكن أدركها. ولم يكن ينقص هذا كله سوى التحام لَيلِي بجسد من شعرت أنها زوجتي منذ زمن بعيد.

مضى شهر حتى تحولت بين الجميع وأمام نفسي إلى الأسطى عزيز راضي، وصادقت جيران القهوة من نافذة الغرفة، الشيخ عطية الشاب الأزهري، و«كوارشي» صاحب ورشة العجل بجوار مدرسة الكمالية، فأصبحنا كأصدقاء قدامى يعتمدون على الشاي الذي تعده لنا بركة بدلًا من شاي القهوة ولا يدفعون للقهوجي سوى ثمن جلستهم على كراسيه رغم غضبه. صادقتهما وبدأت مشاركتهما جلساتهما من الداخل بقصصي عن اوروبا ونسائها ومقاهيها، واحترفت الكذب عن مصدر معلوماتي بأني كنت أعمل لدى بِك قديمًا قص عليّ كل ما رأى قبل أن يموت في حادث سيارة.

وبالرغم من ذلك، لم أكف يومًا عن سؤال بركة عن جلنار وتفاصيل ما دار بينهما في الأسبوعين اللذين جمعاهما في مكان واحد، ولكنها لم تكف أيضًا عن التهرّب، حتى جاء يوم شعرت بغرابته منذ نسيم الصباح.

عدت من الورشة في ميعادي اليومي، وعلى غير العادة وجدت النافذة مغلقة وأنا أدلف من رأس الحارة، تعجبت وتسارعت خطواتي تدريجيًا دون سبب. طرقت الباب كما أفعل حتى تتحشم بركة قبل دخولي، ولكن لم أسمع إجابة، وعندها علمت سبب تسارع خطواتي ورسالة نسيم الصباح الغريبة.

فتحت الباب بقوة فصرعت على إناء كبير ملقى أرضًا والمياه تغرق الأرض، تقدمت خطوة فوجدت بركة تجلس أرضًا في دموع صامتة، تستند على الجدار خلفها ورجلاها ممدتان أمامها.

هرعت إليها: بركة!

وما أن رأتني حتى مدت ذراعيها في الهواء كطفل يطلب من والده حمله وعلمت أنها لا تتمكن من النهوض. ارتميت عليها فزعًا فانخرطت في بكاء مؤلم: ماذا حدث؟

تقطعت كلماتها من فرط البكاء: كـ.. كنت أود أن.. لقد أردت.. أن.. أخبرتني أنك شممت رائحة الكوارع لدى الجيران.. فأردت أن أعدها لك.. فسقط ماء السليق المغلي على رجليّ..

كانت رجلاها مغطاة كالعادة بجلبابها الوحيد. مددت يدي في تحفظ لأرفع ذيل ردائها متفحصًا ما قالت. ولكنها انتفضت وأمسكت يدي في خجل لحظي وكأنها عادة لم تتمكن من التوقف عنها. فربت على يدها مطمئنا، فاستسلمت تدريجيًا لأصابعي ورفعت الغطاء.

كانت رجلاها محترقة ببروز جلدي أحمر، حاولت لمسه فصرخت وقضمت يدها بأسنانها حتى لا تخرج الصرخة للمارة في الحارة. فانحنيت لحملها: هيا بنا !

امتنعت في ألم: إلى أين يا بك؟

وضعت ذراعها على كتفي واستعددت لحملها: إلى الطبيب لابد أن...

أبعدتني عنها في هيستيرية: لا.. لا.. إلا الحكيم.. لن أفعل.. حتى وإن مت!

أمسكت بها رغمًا عنها فضربتني بقوة أجلستني إلى جوارها. نظرت إليها في حيرة، فبكت من فعلتها ومن شيء آخر: يا بك.. أنت لا تعلم شيئًا..

سكتّ في حنق. فتنهدت ومسحت عينها من البكاء ثم اعتدلت في ألم ورجلاها على حالتهما: حسنًا.. آن الأوان.. سأحل ستر الستار وأخبرك.. أنا.. أنا كنت.. كنت أعمل ببيت دعارة!

أصاب وجهي الجمود، لم أحزن ولا أصدم ولا أغضب، فقط في جمود، فأكملت وقد انقسم عنقها أرضًا في عار: وإن ذهبت إلى الحكيم سيرى ختم الحوض المرصود على فخذي، والناس تتحدث يا بك. في ساعات.. ستعلم الحارة كلها أن زوجة الأسطى عزيز.. كانت...

سألتها رغمًا عني في ضيق كاد أن يفجر صدري: ساقطة؟

أومأت بعنقها المنكس وغرق صدرها بدموع لم تتوقف: أحببتك يا بك.. ها قد قلتها.. و.. منذ أن رأيتك أمام نصبة الخضار.. ولكن.. كنت حُلما بعيد المنال.. حـ.. حتى ساقني النصيب إليك.. تعلّقت بك أكثر.. وتمنيتك كما رأيت عينيك وهي تتمناني ولكن... كيف أدنسك بذنبي.. وأنت البك الكبير.. لا يستحق البك أن تحبه ساقطة..

عزفت عنها وجلست إلى جوارها كتفًا إلى كتف والحزن يجلد عظمات صدري: هل كنتِ تنفقين عليّ من...

شهقت في فزع وانتفضت لتفعل ما اعتادت أن تفعل بكتم فاهي بأصابعها، ولكنها صرخت متأوهة من ألم رجليها فعادت باكية: لا! وغلاوة الحسين توقفت عن الأمر قبل أن أراك.. قبل حتى أن أرى الست جلنار..

نظرت إليها وقد غامت رؤيتها لدموع قفزت إلى عيني: لماذا إذًا؟!

غطت رجليها بحذر وألم: النصيب يا بك.. أنا بنت ناس.. غلابة ولكن أولاد أصول.. مات أبي قبل أن أراه.. وربتني أمي حتى صرت شابة، عملت معها على نصبة الخضار.. حتى مرضت.. وفى يوم اشتد مرضها فهرعت بها إلى أقرب «اسبتالية».. الحوض المرصود.. ماتت قبل أن يراها الحكيم.. حاولت الحصول على جثتها ولكن تاهت بين غرف «الاسبتالية».. لم أتركها.. وبقيت على الأرض لأيام أتوسل للجميع مساعدتي في العثور على جثة أمي ولكن دون فائدة.. رأتني حكيمة.. وعطفت عليّ.. واستغلّت ضعفي وضياع ما تبقى من مال أمي.. وضياع فرشة الخضار بأمر من شيخ الحارة الذي دفعت له امرأة أخرى لتأخذ مكاننا، أقنعتني الحكيمة أنها ستوفر لي عملًا.. ولكن عليها أن تكشف عليّ أولًا.. صدقتها رغم غرابة ذلك الكشف.. حتى باغتتني بختم على فخذي.. وواجهتني في وقاحة.. بأني الآن مختومة بختم الساقطات.. ولن يتزوجني رجل مادام رآه قبل أن يقترب مني.. وليس لي إلا طريق واحد.. العمل لدى معارفها من أصحاب بيوت الدعارة.. رفضت.. ولكن اختنقت معدتي من الجوع ووهن جسدي.. ولم أجد بدًا من ذلك الطريق.. ولما بهت الختم.. وقبل ميعاد الكشف الجديد بالحوض المرصود.. وقبل أن تختمني الحكيمة

بختـم آخـر بـأني صالحـة للمعـاشرة بـلا أمـراض.. حاولـت الهـرب.. فغضـب ضاحـي اللعـين صاحـب البيـت.. فقـد كان الرجـال يطلبونـني بالاسـم.. فاتفـق مـع الحكيمـة.. أحرقهـا اللـه في جهنـم.. وفعـلا مـا لـم يفعلـه أحـد ببنـت هـوى قبـلا.. كـوى لحمـي بالختـم نـارًا حـتى أصبـح دائمًـا.. فلـم يعـد لي مـن مخـرج.. وطاوعته.. ولكـن.. لـم يهـن عـليّ حـزن الحنّـان مـني وأردت التوبـة.. فعهـدت إلى الحـلاوة والشـطة.. آكل منهمـا كل يـوم.. حـتى اشـتدت عـليّ الحمّـى.. وكلمـا شـفيت منهـا.. آكل مـرة أخـرى.. فأمـرض.. فيـأس مـني ضاحـي.. وطـردني..

رجـت الغرفـة ضحـكات عطيـة وكـوارشي مـن خـارج النافـذة المغلقـة، فشـعرت وكأن الأقـدار هـي الـتي تصهـل بالضحـكات عـلى حـالي. المـرأة الوحيـدة الـتي تمنيتهـا ولـم أنـل منهـا قبلـة سـاقطة الجسـد، والمـرأة الـتي عاشرتهـا كرهًـا كانـت سـاقطة الـروح. سـمعتها وكأنهـا تهمـس «ليـس لـك مـن هنـاء يـا عزيـز.. سـواء كنـت بِـك.. أو حـتى أسـطى تافـه».

طـال صمـتي فالتفتـت إليّ بركـة: أنـا أحبـك يـا جنـاب البـك.. ولكـن لـك السـمع والطاعـة.. إن أردت رحيـلي فسـأفعل مـن باكـر.. فقـط ارحمـني حـتى أتمكـن مـن الوقـوف عـلى قدمـ..

قاطعتهـا بنهـوض مفاجـئ وقـد اسـتنارت روحـي، وضربـت درفـة النافـذة بقـوة أفزعتهـا فغطـت رجليهـا، بينمـا انتفـض عطيـة عـلى صفعـة الدرفـة بأذنـه: أعـوذ بكلمـات اللـه! مـا بـك يـا أسـطى؟

نـادت عـليّ في ضعـف وهـي تزحـف بعيـدًا عـن مرمـى أبصـار عطيـة وكـوارشي بينمـا راقبتهـا في جمـود: اسـترني يـا بـك.. سـأرحل.. ورب الغلابـة سـأرحل..

نظـرت إلى الشـيخ عطيـة في جمـود غاضـب وهمسـت بأذنـه بـشيء فارتـد جسـده للخلـف واقفًـا: مـاذا؟! ألـم تكـن زوجتـك مـن الأسـاس؟! أعـوذ باللـه!

سمعت لطماتها على وجهها: سيقتلوننا يا بك..

نظـرت إليـه في جـرأة لـم أختبرهـا سـابقًا واسـتمر عبـوسي فلـم يهـتز لي طـرف مـن اتهامـه: ربـك سـتار يـا شـيخ.. أليـس كذلـك؟

اقـترب مـني في ضيـق وجلـس متنهـدا: ونعـم باللـه ولكـن.. أسـتغفر اللـه

العظيـم.. وأنـا كنـت أجلـس خلـف النافـذة طـوال ذلـك الوقـت لأحرسـكما؟ لطختـني بالعـار يـا ابـن الكلـب!

جذبتـه مـن ملابسـه بقـوة تعجـب لهـا وخاطبتـه في غلظـة ارتعـد لهـا رغـم هـدوء صـوتي: الآن يـا شـيخ.. هـل تفعلهـا؟!

أزاح يـدي مـن عـلى ملابسـه في عنـف، وضبـط اسـتقامة عمتـه وزفـر في موافقـة: مـن سـتر مؤمنًـا في الدنيـا يـا اسـطى.. ثـم صـاح عـلى كـوارشى!!

زحفـت بركـة أسـفل الفـراش وهـي تـصرخ في هلـع: عـلى مـن ينـادي؟! يـا بـك أقبّـل قدميـك.. يـا إلهـي.. يـا..

جـاء صاحبـاه فأجلسـهما: اشـهدا.. دون أسـئلة.. سـترنا اللـه جميعًـا يـوم القيامـة..

مـط كل منهمـا شـفتيه في تعجـب ممـا يحـدث، حـتى عـلا الشـيخ عطيـة بصوتـه وهـو ينظـر أرضًـا: أتسـمعين صـوتي يـا سـت؟!

خرج صوتها متقطعًا: بالله عليك يا شيخ.. اا..

قاطعهـا: إذًا تسـمعين.. حسـنًا قـولي ورائي.. «زوجتـك نفـسي عـلى كتـاب اللـه وسـنة رسـوله المصطفـى وعـلى مذهـب الامـام أبي حنيفـة النعمـان وعـلى...».

برز رأسها من أسفل الفراش في صدمة وخرج صوتها متقطعًا: كيف قلت؟

زفـر في ضيـق: يـا سـت ورب الكعبـة إن لـم تقـصري لأعـودن إلى البلـد الآن أرعـى البهائـم بـدلًا مـن المحروسـة ومـا رأيتـه فيهـا.. أوشـك الكيـل أن يفيـض..

نظـرت إليّ بركـة في غـير تصديـق وقـد عـادت أنهـار الدمـوع تشـق طريقهـا بـين وجنتيهـا الحمراويـن، ولكـني لـم أنظـر إليهـا، فأكمـل عطيـة: وعـلى الصداق المسـمى بيننـا.. عاجلـه وآجلـه..

كـررت وراءه في تلعثـم هامسـة وهـي تدفـع نفسـها زحفًـا خـارج الفـراش، ثـم التفـت إليّ: قـل ورائي يـا جـار الشـوم.. وأنـا قبلـت زواجـك..

ابتسمت له بهمس يشبه همسها: وأنا قبلت زواجك..

نظر إلى كوارشي وعليّ فوجدهما يراقبانه في بلاهة فأومأ لهما: لا تسألا..

اندفع كوارشي: ولكن ألم يكونا اااا..

صرعه الشيخ بقوة: ما بك يا رجل؟ احترم العمة يا أخي! فقط لا تسأل.. ها! هل تشهدان على ما حدث؟

هرش كوارشي في رأسه: أشهد والله على ما لا أفهم..

التفت إليّ الشيخ عطية وهو يمد يده ليغلق درفة النافذة بنفسه: مبارك لكما يا أولاد الكلب.. سأستخرج قسيمتكما مع شيخ الحارة في الغد..

منعته عن الإغلاق وهمست له: ولكن يا شيخ.. شيخ الحارة يظن أننا متزوجان و...

احترقت كرامته: شيخ حارة؟ أم شيخ أزهري يا اسطى؟! والذي نفس محمد بيده.. لا يقربكما سوء ولا فضيحة بعدما التجأتما من الحرام إلى جنب الله.. والآن أغلق تلك النافذة وإلا رجمتك بنفسي!

ابتسمت من غضبه فزفر في هدوء أخيرًا وأومأ لي في احترام قصير وأغلق النافذة. أحكمت غلقها والتفت إلى بركة، فزحفت على وجهها في سرعة وقبلت قدمي! اندفعت حاملًا إياها فصرخت. اضطررت لإعادتها إلى الجدار وجلستها السابقة، بينما قبضت على جسدي في احتضان هيستيري ويداها تربتان على ظهري وتمسح بوجهها في صدري بكاءً وكأنها تطوق ذراعيها بحلم تخشى أن تستيقظ منه: ســ. سترتني يا بك.. سترتني.. والله لا أستحقك.. اا.. ولكن أحبك.. أحبك حبي لأمي وخالتي.. لا.. أحبك أضعاف.. وغلاوة الحسين لولا حبه وحب النبي وخالقهما.. لقلت أنك أعلى من الجميع حبًا.. لم فعلت ذلك؟!

جلست أمامها باسمًا ولم أترك ذراعيها: أحببتك يا بركة.. فقط أحببتك.. ولم يعد بجوار ذلك شيء يهم بعد الآن.. تــ. تزوجت قبلك من هانم.. هانم تنحني لها الرؤوس ولكن.. لم تكن في عيني مقدار إصبع من قدميك.. كانت ساقطة هي الأخرى ولكن على طريقتها.. وكنت ساقطًا أنا أيضًا.. أسلم لها جسدي كي أبقى في النعيم إلى جوار نفوذها وأموال أبيها، وما أن قابلتك حتى مات عزيز القديم حتى قبل أن يؤمر بقتله.. ومات في عيني أيضًا ما كنتِ عليه قبل أن تدخلي قلبي.. نحن روحان يا بركة.. تلاقينا.. ورأى كل منا

في الآخـر مـا لـم يـره أحـد.. كيـف أن أتـرك ذلـك لذنـب ربـك نفسـه يغفـره.. ومـن يغفـر ذنـبي غـيرك؟ أنـا عزيـز راضي.. ولسـت عزيـز بِـك قاسـم.. وأنـتِ بركـة عمـري.. ولسـت سـاقطة بيـوت الفحـش.. فقـط مـا أريـد أن تحبينـي كمـا أحبـك.. و...

كان سـهل عليهـا أن تفعلهـا هـذه المـرة. فباركـت فمـي بلمسـة مـن كفهـا لتصمتـني، ونطقـت في وجـه أضـاء بسـعادة لـم أر مثيلهـا إلا عـلى وجـه أمـي، ولمعـت جـداول دمعهـا: خُلقـت لحبـك يـا بـك.. ولـن أعـزف عـن رضـاك إلا بالقـبر وبـين جدرانـه..

قبلت يدها أخيرًا دون خجل: لا تنادي الزوجة زوجها بـ «بك».. فقط عزيز..

ابتسمت: بل سيدي.. وسِيد كل الناس..

قبّلت رأسها متألمًا: كم كنت أتمنى ضمّك اليوم ولكن إصابتك اا...

أمسـكت بيـدي ووضعتهمـا عـلى وجههـا فاشـتعلت شـوقًا: لا تهتـم.. فقـط أقبـل.. أقبـل يـا سـيدي..

لـم أفهـم مـا كانـت تقصـد ولكـن جـزءًا مـن بسـمتها اختفـى للحظـة لألـم مسـتتر، ولكنهـا أجـبرت نفسـها عـلى الابتسـام. فتحـت رجليهـا عـلى اسـتقامتهما في ألـم عظيـم أخفتـه وجذبتـني لأجلـس بينهمـا. رفعـت طـرف جلبابهـا وسـحبته تجاههـا في بـطء حـتى رأيـت رجليهـا عاريتـين، تخطـت عيـني حـرق قدميهـا وبـدا صغـيرًا بـين تلـك الامـواج البيضـاء مـن فخذهـا. غطـت بكفهـا ختـم السـاقطات، وأكملـت حـتى تعـرت تمامًـا ورأيـت منبـت فتنتهـا!

نظرت إليّ وجذبت ذراعي: بالحلال يا سيدي..

اقتربـت منهـا زحفًـا بـين رجليهـا، فمـدت يدهـا إلى جلبـابي وخلعتـه. كان الكـون يتحـرك بنصـف سرعتـه، فجارينـاه، وتحركنـا في بـطء ناسـب شـاعرية تلـك اللحظـة. همسـت حِـزم القمـر الزرقـاء مـن فتحـات الشـيش عـلى وجههـا بحُسـن سـحر عيـني. اقتربـت مـن وجههـا ببـطء وفغـرت شـفتي. فأغمضـت عينيهـا والتحمْـت بشـفتي. قبضـت لأول مـرة عـلى شـفاه امـرأة غـير ليـلى. مـررت ببوابـات فمـي عليهمـا وتذوقـت فاكهـة الجنـة وحلاوتهـا. اشـتعل جسـدي فضممتهـا بذراعـي

ونزعت عنها جلبابها حتى صارت عارية أمامي، وانسابت حرائر شعرها الليلي بين يدي. مسح نور وجهها على وجهي وكأنها كانت تشع حقًا بنور أزلي. لم أنظر حتى إلى نهديها.. فقط احتضنتها بقوة حتى باتت كملاك صغير داخل صدري العريض. انتصبت رجولتي فخجلْت منها. أطبَقت بكفها على ظهري ودفعتني تجاهها باسمة. وعندها ولجت إليها.

كنت بداخلها، التحمنا وضوء القمر المتقطع يطوف حولنا وكأننا ارتقينا إلى السماء كروحين عادا إلى ملكوت غير مرئي. كنا جسدًا واحدًا عاريًا، أطوقها خشية رحيلها، وتطوقني أملًا في بقائي. كانت لحظة الكمال التي سعى الخلق أجمعين إليها منذ نُفخت الروح فيهم. لم أعد ناقصًا الآن، بل كنت. كانت ليلى تصرخ بانتفاضي المتكرر داخل جسدها شهوةً حتى أتعرق، ولكن مع بركة.. كنت ساكنًا، فقط أنا داخلها من أسفل وهي داخل صدري من أعلى. لم ننتفض لشهوة ولم تهتز الجدران كما ظن الشيخ عطية بليلة زواجنا الأولى. بل ملتحمين في صمت. وبكيت أخيرًا حتى أغرقت دموعي ظهرها العاري وجرت قطراته عليه في نعومة. أما هي فكانت تراقبني باسمة، كأم تراقب رضيعها وهو يمتص حليب الحياة من قلبها.

ألصقت فمها بأذني في همس: الآن يا سيدي.. سأخبرك بسر جلنار..

***

«استعد للقاء أمارات الجنون يا رفيق الظلم»..

قالها فرج ساخرًا وإن لم يضحك بل كان عابسًا. أزال ملاءة بيضاء بقوة من أمام لوحته أو بالأحرى لوحتي الجديد، وكأنه يزيح في عنف ستارًا مسرحيًا غليظًا عن آخر فصل من مسرحية بائسة. تسمّرت مكاني قبل أن أذهب إليه لأرى تحفته الفنية وسبب حتفي القريب. كنت ملهوفًا من قبل على رؤية ما رسم، متشوقًا لرؤية فيروز لأنهي ذلك العبث الكوني. ولكن.. التصقت نظراتي بالأرض في خوف الأجنة بالقفز من أرحام أمهاتهم. كنت

كعازف مبتدئ قضى ربع قرن في غرفة صمّاء ليتسيد آلته الموسيقية، وما أن أزاحوا الستار عن حفلته الأولى، حتى سقطت آلته أمام نظرات الجمع.. من كان لقاؤهم سببًا في عزلته، وتحول أخيرًا إلى سبب لموته ذعرًا.

حقًا.. تفرُق السنوات بيننا وبين ما نتحرّق إليها انتظارًا.. وما أن يأتي حتى نهرول فزعًا منه. ربما لم نكن معتادين على الحصول على ما أردنا.. فأصابتنا فوبيا الفوز به.

تحرّك فرج للخروج في غضب مسرع: أفعلت ما أردت؟ لا أريد أن أراك بعد الآن!

حدثته دون أرفع رأسي عن بلاطات الأرضية الرخامية رغم قطرة العرق التي ضربت جفني، فتوقف: ما الذي حدث لك حقًا يا فرج كي تنضم إلى كتيبة فيروز؟!

التفت إليّ في حنق هادئ: ما الذي حدث لك أنت؟

- ضحيتها انتحرت أمامي.. ولكن، ما الذي حدث لك أنت؟!

- وافقتك فقط كي أعيش.. عرضت بيتًا ومالًا مقابل لوحتك.. ولولا ذلك ما فعلت..

- ما الذي حدث يا فرج؟!

وضع يده على مقبض الباب القديم وكأنه كان يستعد للهرب فور نطقه لما أخفى: لم أشارك أحدًا من قبل ذلك الأمر.. والآن.. إن فعلت فلتعدني أنك لن تلاحقني مرة أخرى.. لا أريد أن أراك أبدًا يا عزيز!

تقدمت منه وتناسيت اللوحة: أعدك ولكن تحدث.

خرج من باب القاعة وأغلق درفة الباب إلا جزءًا يسيرًا سمح بلقاء ضيق لعينينا: كنت مع جُلنار عندما نطقت باسمك!

بهت وجهي وانكمش حاجباي لعقدة أصابت رقبتي برعشة بسيطة غير مصدق: كـ.. كيف ذلك؟! لم نتقابل إلا عندما جاءتني بالمكتب.. كيف علمت اسمـ.....

سكتّ وقد ضرب الظن رأسي وتمنيت أن ينفيه فتحدث في تشفٍّ: بل فعلَت يا عزيز.. قالت إن الفتاة أخبرتها عنك بالاسم «عزيز بِك قاسم»!

فتحت الباب في قوة وقبضت على مجمع ملابسه ودفعته للداخل، فسقط أرضًا، وعندها عاد الشيطان واتخذ من رأسي عرشًا. تقدمت منه في شر دفعه للزحف بعيدًا في خوف: وكيف لم تخبرني بذلك قبل الآن؟! تحدث! لقد قابلتك منذ عشر سنوات.. وقصصت عليك الأمر كله.. كله أيها اللعين! كيف أخفيت الأمر عني؟!

نظر إليّ في غل وخوف: بل لماذا لم تسأل نفسك كيف تقابلنا؟! ولم تقابلنا؟! الرسام الذي رسم لوحة لامرأة ظنت أنها تسببت في انتحارها بمكتب طبيب نفسي.. يقابل ذلك الطبيب صدفة! كيف؟ بل تجمعهما زنزانة واحدة.. كيف؟! يختصه من دون الجميع ليقص عليه الأمر كله.. كيف يا عزيز؟!

رأيت منه بوادر انفجار ربما يُفلت من لسانه ما أردت، فحافظت على هدوئي ونظرت إليه شذرًا: أكمل!

قلب عينه أرضًا وجسده يعلو ويهبط بأنفاسه الغاضبة، ثم قال: على زماننا.. لم يوجد ما يسمّى بالصدفة.. وخصوصًا عند الغلابة أمثالي.. بل كان دومًا النصيب.. النصيب يا عزيز.. أو كما يعرفها أمثالك.. الأقدار.. الأقدار تسوقنا جميعًا إلى حتفنا.. كلًا بطريقة مختلفة.. قد ترسل أحدنا بالحب، وآخر بالحرب، وآخر بالمعتقل.. وقد ترسلنا بلقمة العيش إن ضاقت، أو الرضا إن استبد بنا بموت على فراش مهترئ!

تعجبت من حديثه ولم أفهمه: تتحدث بكلام غير مفهوم! لقد عاد إليك الخرف!

إنتفض واقفًا رغم سحق العجز لعظامه ثائرًا فى تصميم: بل إستفقت الآن! ألا تفهم؟! يخلقنا.. ويدفع بعضنا ببعض.. فنتقاتل حتى الموت.. وأحياناً.. نحب! حتى إذا فعلنا.. أخذ منا الحبيب.. فنكره! ولكن هل نموت بعدها؟! كلا! يمد فى أعمارنا والكراهية تحرق صدورنا حتى نتمنى الموت ولا

يُجيـب.. يفتـك بنـا الوهـن.. والمـوت لا يُجيـب! يرحـل عنـا الجميـع ولا يتبقـى سـوى الوحـدة.. والمـوت لا يُجيـب.. تخـرُف عقولنـا وتـذوب أرواحنـا.. واللعـين لا يُجيـب! أى مصائـر هـذه؟!.. أى..

قاطعتـه في غضـب: توقـف! توقـف عـن ذلـك الجنـون! وأخـبرني فقـط بمـا حـدث!

التفـت إليّ بوجـه متعـرق وجنـون واضـح: سـأخبرك! إن كنـت تريـده أن يجيبـك وحدك!

قـرأت وجهـه، فتراجعـت للخلـف مـن هـوْل مـا قـرأت وواجهتـه بمـا تمنيـت أن يكـون خطـأ: لقـد رأيـت فـيروز يـا فـرج.. أليـس كذلـك؟!

ابتسـم في سـخرية غاضبـة مـن سـذاجتي: كلا يـا بِـك! بـل رأيـت جُلنـار وهـي تنتحـر!

- بل رأيتها أنا! ولم تكن معنا أيها الخرف!

- لم أقصد انتحارها بين يديك.. بل انتحارها الأول بين ذراعي..

بدأت الأمور تتضح: هل حاولت الانتحار قبلًا؟

دمعـت عينـه في غضـب فصـاح في انهيـار: أجـل! شـقت رسـغيها! حــ.. حاولـت إنقاذهـا في اللحظـة الأخـيرة.. وفعلـت! غابـت عـن الوعـي.. فلـم أجـد بـدًا مـن اللجـوء إلى صديقتهـا الأمـيرة إمتثـال. ومـا أن أفاقتهـا حـتى اتهمتـني أمامهـا بـأني مـن أرسـل إليهـا فـيروز.. زعمـت أن الفتـاة أخبرتهـا بذلـك.. قالـت «فـرج هـو مـن أدخلـني إليـك قبـل أن يمـوت محترقًـا!».

- وكيف صدقت ذلك؟

- لـم أفعـل! بـل ظننتهـا طاحـت بعقلهـا إلى الجنـون.. فأخـبرَت الأمـيرة إمتثـال عنـك.. وأنهـا يجـب أن تـراك لتفهـم الأمـر.. وطلبـت مـني ألا أراهـا مـن جديـد.. رفضـت.. كنـت مهووسًـا بهـا.. أحببتهـا حقًـا.. ولكنهـا طلبـت مـن أبي الكافـر أن يخلصهـا مـني.. ففعـل.. وأرسـلني إلى البلـد مـرة أخـرى حبيسًـا بدارنـا القديمـة.. لـم أسـتطع أن أغـادر وقـد أوصى العمـدة بغفـير يحـرس حبسـتي.. لـم أسـتطع أن أغـادر حـتى بعدمـا علمـت أنهـا أتمّـت انتحارهـا أمامـك! لـم أسـتطع أن أغـادر

حـتى لأدفـن أمـي! خمـس سـنوات يـا عزيـز وأنـا حبيـس أربعـة جـدران.. إلى أن تـولّى الجيـش البـلاد.. ومـا أن خـاف الـورداني عـلى مُلكـه مـن التأميـم.. (ضحـك في جنـون).. دفعـني رشـوة لرجـال الحكـم ليسـتثنوه: «شـاب ريفـي أبلـه يصلـح أن يكـون إخوانيًـا متآمـرًا عـلى الحكـم».. باعـني أبي ليُنقـذ نفسـه.. وصرت شـيخ المعتقـل حـتى رأيتـك.

توقعـت الـذي حـدث بعـد ذلـك، فجلسـت في إرهـاق وقـد تكشّـف لي الأمـر فأكمـل: وعندمـا رأيتـك! عندمـا أخبرتـني باسـمك.. عندمـا علمـت أنـك سـتكون رفيقـي بالزنزانـة.. عندمـا صاحبتـني وقصصـت علـيّ قصـة جُلنـار بالـذات مـن بـين كل القصـص... علمـت حينهـا أن الأمـر لـم يكـن جنونًـا.. وكيـف يكـون؟! فـيروز أخبرتهـا أنهـا سـتموت منتحـرة.. وفعلـت! وأخبرتهـا باسـمك.. وهـا أنـت أمامـي! فلـم لا أمـوت محترقًـا!

هـدأت وقـد أثقلـت كلماتـه رأسي: لذلـك أصابـك الخـوف المـرضي مـن فـيروز.. ومـني! وأنـا الـذي ظـن أنـك فقـط تأثـرت بمـا قصصتـه عليـك، تعجبـت كثـيرًا مـن تصديقـك للأمـر دون مقاومـة.. كنـت أحمـق.. ظننـت أن كلمـاتي إليـك بأنـك مـن تسـبب في انتحـار جلنـار لرسـمك إياهـا كان هـو السـبب الرئيـسي لمرضـك.. ظننـت أنـك ضعيـف النفـس.. وأني اسـتغللت ضعفـك.. ولكـن..

هـدأ أخـيرًا وشـاركني المأسـاة بوجـه حزيـن: ولكـني كنـت يـد الأقـدار يـا عزيـز.. حاولـت الهـرب منـك.. فاتّبعتـني.. وأجبرتـني عـلى إتمـام الأمـر.. فلتنعـم بـه إذًا واتركـني لحـالي أنتظـر النـار لتحـرق رأسي!

ونهـض في بـطء وشرود راحـلًا، لـم أمنعـه بـل ظللـت مـكاني دون حـراك. تحجـرت وغـاب عقـلي يُعيـد التفاصيـل منـذ اليـوم الأول وحـتى تلـك اللحظـة. غابـت الشـمس وضرب الليـل القاعـة ولازلـت عـلى مقعـدي. لـم أنتبـه كـم مـر مـن السـاعات وأنـا عـلى تلـك الحالـة. حـتى عبثـت الريـاح بالجـدران في تصاعـد تدريجـي. لـم أنتبـه لهـا في أول الأمـر. فقـط سـمعت صريرهـا وهـو يغلـف الظـلام. كان يتصاعـد متعمـدًا حـتى نفـخ بوجهـي صياحـه وعصـف بالأثـاث القديـم. وأسـقط اللوحـة أرضًـا بصفعـة رخاميـة ضجـت القاعـة بصوتهـا.

اسـتفقت أخـيرًا ونهضـت أبحـث عـن ضـوء القمـر لينـير طريقـي، لـولا أن

سـحابة مألوفـة غطتـه فاعتمـت عينـه. عـثرت عـلى ثقـاب فـرج، فأشـعلت الشـمعدان المحطـم وتوهـج اللـون الأصفـر يجـري كنهـر متغـير الألـوان عـلى الأرض والسـقف. اتجهـت للوحـة. توقفـت مفكـرًا، «مـاذا أفعـل؟!».

إن كان فـرج محقًـا فأنـا أيضًـا جـزءٌ مـن حكايـة تحـاول الأقـدار قصّهـا، وإن كانـت فـيروز أخـبرت جلنـار عـني قبـل موتهـا، فلابـد أنهـا رأتـني حقًـا ورأيتهـا حقًـا. وهـا أنـا أجـبر فـرج عـلى رسـمي لأقابـل تلـك الـروح الغامضـة. فمـاذا لـو قـررت التوقـف أخـيرًا عـن ذلـك البحـث العبـثي، مـاذا لـو لـم أر فـيروز؟ بالطبـع سـتختلف الحكايـة.. ولـن تُقتـل جلنـار. ولكـن.. جُلنـار قتلـت بالفعـل. فـلا مهـرب لي إلا مـا رسـمته الأقـدار.. سـأرى فـيروز.. وسـيموت فـرج محترقًـا. فقـط عـليّ أن أستسـلم.

ولكـن.. ألـم أكـن مستسـلمًا طـوال حيـاتي! مـن مـوت أم، وقطيعـة أب، وزواج مـن إبليـس عـلى هيئـة امـرأة، وحـب مـن أخـرى كنـت أعلـم أن نهايتهـا سـتكون عـلى يـدي. ألـم أكـن مستسـلمًا؟!

كلا.. فلتفعل الأقدار ما شاءت ولكني لن أظل كذلك.

أمسـكت باللوحـة في غضـب وطرقـت بهـا بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة عـلى السـطح الرخامـي علّهـا تتحطـم، ولكنهـا لـم تفعـل! لـم تكـن مـن صلـب أو حديـد ولكنهـا لـم تتحطـم! كيـف ذلـك؟! اه.. علمـت الآن، أيهـا الأقـدار، أن الحـرب أصبحـت بيـني وبينـك.

مـددت إصبعـى بالفـراغ الضيـق بـين ورقـة الرسـم واللوحـة الخشـبية محـاولًا فصلهمـا. كان الأمـر شـبه مسـتحيل، ولكـن لـم التعجـب؟! مـن قـال إن قتـال السـحر سيكون هينًـا. تعـرق جسـدي وانهمكـت قـواي وأنـا أدفـع بإصبعـى بتلـك الفجـوة. أحلـت عـليّ طاقـة هيسـتيرية اهـتز لهـا جسـدي ولكـن دون جـدوى. قفـز الـدم مـن إصبعـي وصرخـت لألمـي ولكـن.. لـن أتراجـع.

صرخـت بالفـراغ لمسـامع الأقـدار: لـن أتراجـع! إمـا أن تستسـلمي أولًا.. وإمـا أن أمـوت!

وفى لحظـة وثانيتهـا، انفرجـت ورقـة الرسـم دون مجهـود يُذكـر. هل استسـلمَت

حقـا؟ لا يُهـم فقـد اقتربـت مـن مـرادي. رمحـت إلى الشـمع المحـترق لألقـي اللوحـة عـلى نيرانـه ولكـن.. نفثـت النافـذة رياحًـا أطفـأت النـار في عنـف! هـا قـد عدنـا إلى الحـرب. حاولـت تمزيـق اللوحـة ولكـن كانـت محاولـة متوقعـة النتائـج. لـم أفلـح!

تلـك اللوحـة مؤمّنـة ضـد الضيـاع. سـقطت أرضًـا مـن الإرهـاق. علمـت الحقيقـة، لا نجـاة ممـا طلبـت. سـأقابل فـيروز عاجـلًا أم آجـلًا. أحمـق. أنـا مـن سـعيت لذلـك، والآن أحـاول الهـرب منـه.

افترشـت الرخـام وقـد تحوّلـت إلى هيئـة المـرضى الذيـن كان يعرضهـم الأسـاتذة علينـا في باريـس. متكومًـا في وضعيـة الجنـين ألعـق الأرض بلسـاني مـن الخـرف. يغـرق المـاء وجهـي دون أن أعـي إن كان دمعًـا أم عرقًـا. غـير واعٍ لمـا يحـدث حـولي، تسـاءلت: أنحـن نهـارًا أم ليـلًا، ألازلـت بقـصر أفنـدار أم لـم أغـادر مكتبـي قـط وكل هـذا مجـرد خيـالات شـيطانية، أقابلـت جلنـار حقًـا، أم كانـت مجـرد صـورة أخـرى لوالـدتي وانتحارهـا بـين يـدي، هـل سـخر مـني العقـل الباطـن ونسـج حكايـة مـن الخيـال ودفعـني داخلهـا فظننتهـا حقيقـة، لمـاذا أنـا، مـا الـذي فعلتـه، أيـن الليـل، ومـا القمـر، كـ.. كيـف يُحـرك النـاس أقدامهـم للنهـوض والرحيـل، هـل شـللت، كـ.. كيـف.. مـن أنـا، مـا أنـا؟!

غبـت في غيبوبـة لـم أعهدهـا مـن قبـل، وذهبـت إلى تلـك المنطقـة مـن العقـل مـا بـين الخيـال والحقيقـة. وظننـت حقًـا أني جننـت. فاستسـلمت لمصـيري، ولكـن.. ودون مقدمـات، ابتعـدت السـحابة المألوفـة عـن عـين القمـر. فزحـف ضـوؤه الأزرق تدريجيًـا بأرجـاء القاعـة. تسـاءلت «هـل عفـت عـني الأقـدار؟» حقًـا فعلـت.. فكيـف إذًا لا يسـقط الضـوء إلا عـلى ذلـك الشـق العميـق مـن الجـدار؟ لـم يكـن مرئيًـا مـن قبـل، ولـم تكـن اللوحـة قابلـة للمـوت. وعندهـا ظننـت أن الأقـدار عفـت عـني حقًـا.. وفهمـت رسـالتها.

تحركـت في خطـوات متعرجـة إلى ذلـك الشـق العميـق. وطويـت اللوحـة إلى أقسـام صغـيرة، ودفعتهـا بقـوة داخـل تلـك الفجـوة الجداريـة. لـم أهتـم حينهـا بإصبعـي المدمـم وهـو يصطـدم بنتـوءات الفجـوة المسـننة، فقـط كنـت أهتـم بدفـع تلـك اللعينـة إلى أقـصى عمـق يُمكـن أن أصـل إليـه. وأخـيرًا فعلـت.

ولكن.. لم يكن قلبي ليطمئن بعد.

انتظرت طلوع النهار، وأرسلت إلى أحد العمّال ودفعت له أضعاف ما أراد، فقط لكي يطمس ذلك الشق من الجدار. وانتظرت مقاومة الأقدار لذلك، ولكنها لم تفعل. ونجح العامل في مهمته في نصف ساعة لا أكثر. وعندما رأيت الجدار مكتملًا دون مدخل إلى لوحتي الحبيبة. تنهدت في اطمئنان لم أعهده منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا!

رحلت عن أفندار، وطويت صفحته وصفحة جلنار وألقيت بكتابهما إلى الماضي. سرت على قدمي لساعات طويلة، وكلما تقدمت خطوة انسابت ذكرى من ذكريات تلك الحكاية الغريبة من على كاهلي وسقطَتْ أرضًا لأخطو عليها. حتى وصلت إلى أحد الأكشاك، وطلبت من صاحبها الهاتف لأُجرى اتصالا تأخر كثيرًا..

خرج الصوت من السمّاعة فانفطر قلبي: «ألو؟».

ترددت في الرد وأوشكت أن أنهي المكالمة قبل أن تبدأ ولكن: ا.. اا.. حـ.. حاتم؟

انفجر حاتم في لهفة وتسارعت كلماته: أبي؟! أيـ. أين انت؟! يا الله! أبي لقد بحثت عنك طويلًا!!

فلتت مني دمعة في سكينة: اخشن صوتك يا ولدي.. لقد كبرت!

هرول في كلماته: أأ.. أين انت؟!

وددت لو أحتضنه: فلتسامحني يا حاتم.. لقد تركتك وحيدًا من أجل.. من أجل.. خيال.. جنون.. و.. اشتقت إليك..

بكى في نحيب: وأنا أيضًا يا أبي! وأنا.. وأنا ايضًا!

ابتسمت وشعرت بعودتي إلى عزيز قاسم: فقط تعال لتأخذني.

جلست منتظرًا كعجوز على أريكة حديدية أمام الكورنيش. استندت على عصاي في إرهاق وأمل للقاء ولدي. ولدي الذي تخليت عنه منذ سنوات بمجرد أن تخرّج في كلية الشرطة وعلم بجنون أبيه. لم يرفضني مرة واحدة، بل حاول مساعدتي تمامًا كما حاولت مساعدة جلنار قبل انتحارها. ولكن

كنت عنيدًا وتركته وحياتي ورائي وسعيت إلى نهاية ذلك اللغز. ولم أكن أتصور أن تلك النهاية ستكون هكذا. أجلس على أريكة حديدية رث الثياب أشعث الشعر كمجاذيب العشاق.

لم يمض الكثير ووصل حاتم بسيارته على الجانب الآخر من الطريق. كان يبدو وجيهًا في ملابس الشرطة وقد أصبح رائدًا. كانت عينه تبحث عني في أرجاء الطريق. نهضت له في بطء والدم يجري بعروقي متشوقًا لعناق بعيد. وتقدمت من الطريق ملهوفًا.

ولكن.. قبل أن أتم عبوري وسط السيارات المندفعة. ضربني خيال لم أفهمه فدق قدمي أرضًا وتسمّرت. علت أصوات تنبيه السيارات من حولي منبّهة من اصطدام وشيك. لمحني حاتم وبدلًا من أن يبتسم صرخ بوجهي في فزع.

وعندها توقف الزمن وتحول إلى لوحة عارية من الحركة. اختفت الأصوات من مجرى أذني ولم أسمع سوى صوتها..

«أنت عزيز قاسم؟»..

جحظت عيني وانهمر الدمع من أطرافها. ولمحت حاتم يركض تجاهي ولكن وجهها كان يغطي الكون أمام عيني: مـ.. من أنتِ؟

«أنا فيروز!».

عاد الزمن إلى سرعته، وانفجر الضجيج يفترس سمعي. صاح حاتم: حاااااسب!

وما شعرت إلا وقذيفة حديدية تضرب خصري في عنف. فقدت الإحساس بالحركة وكأني كنت أطير في السماء، ووجه فيروز لا يفارقني حتى في تحليقي. دمعت عينها وتوسّلت:

«ساعدني يا عزيز»..

ولكن فجأة انطفأ كل شيء إلى الظلام..

-١١-

فيـــــروز الصيرفي

٢٠١٧

«ما الذي تفعله أيها الـ..؟!».

قطـع صرخـتي بضربـة غليظـة مـن عـكازه القديـم. تطايـرت بالهـواء حـتى غاصت الأرض بـبروز وجنـتي وقـد التصقـت بهـا. ضرب الظـلام جفـني للحظات متكـررة، وكأنـه يـتردد بـين إرسـالي إلى إغمـاءة حتميـة وإعـادتي إلى وعـي مؤلـم. انسـابت قطـرات الـدم مـن جبهـتي فمـلأت تجويـف عيـني. تيبّسـت مفاصـلي لشـلل مؤقـت وأنفـاس الألـم المتقطعـة تعصـف بصـدري الضعيـف وأنـا ممـددة دون حـراك في وضعيـة نـوم أجـبرني فـرج العجـوز عليهـا حـتى ينتهـي مـن مهمتـه الجنونيـة.

كانـت الرؤيـة غائمـة، والحركـة مسـتحيلة. رأيتـه في صعوبـة ودون مقاومـة وهـو يركـض بخطـوات مائلـة مـن العجـز تجـاه «باجـور قديـم»، ارتعشـت يـده وهـو يحـلّ صنبـوره الصغـير متجهًـا إلى لوحـة جلنـار وهـو يـردد:

«لا.. لن يحدث الأمر مادمتُ حيًا».

سـكب في عشـوائية سـائل الجـاز الثقيـل فـوق لوحـة جلنـار وألقـى بالباجـور في عنـف بأحـد أركان القاعـة المقفـرة. علمـت أنـه يريـد إحـراق اللوحـة، فزحفـت معتمـدة بكلتـا يـدي عـلى السـطح الرخامي وألـم جبهـتي يزيـد مـن قطراتـه دمًـا يحجـب رؤيـتي. دفـع يـده داخـل جيبه بقـوة وأخـرج كبريتًـا خشـبيًا. ضرب الكبريت بمشـطاته مـرة فلـم يفلـح في إنجـاب ألسـنة النـار. زحفـت في قـوة أكـبر وأنفـاسي تزيـد مـن سرعتهـا. ضرب عـودًا آخـر ولـم يفلـح. اقتربـت مـن أقدامـه الثـلاث. ومـا أن هـمّ بـضرب عـودٍ آخـر حـتى صفعـت قدمـه الثالثـة الخشـبية الـتي كانـت يسـتند عليهـا بمرفقـه، فسـقط إلى جـواري!

هتفـت لـه بصـوت لا يـكاد يخـرج مـن لهـاث التعـب: مـا الـذي تفعلـه أيهـا الخـرف!

حـاول النهـوض في هيسـتيرية: ابتعـدي أيتهـا الشـيطانة.. سـ... سـأ.. سـأنقذ جلنـار.. سـأحرق تلـك اللوحـة قبـل أن تقتليهـا..

استعدت بعضًا من قوتي ونهرته في غلظة: بل لن تفعل.. لن ااا..

صفعـني بقدمـه بعظـام أنفـي فارتـد رأسي في استسـلام يـضرب الأرض مـرة أخـرى، وتمـددت عـلى ظهـري كمسـيح صُلِـب أرضًـا وأنـا أسـعل الـدم مـن بـين أوتـار حلقـي. زحـف بقـوة وقبـض عـلى عـود الكبريـت وحكّـه بمشـطاته فتوهـج وانتفضـت القاعـة لنهـار لحظـي مـا لبـث أن انطفـأ. اقـترب بالشـعلة القصـيرة مـن لوحـة جُلنـار ومـا أن ظننتـه سيشـعل النـار فيهـا، ومـا أن اندفـع تجـاه أطرافهـا بسرعـة عاليـة، حـتى تسـمّرت الشـعلة بيـده فجـأة.

راقبتـه مـن نومـتي، كانـت يـده ترتعـش في تـردد. تقلّـب جسـدي عـلى محـوره فرأيـت عيـني فـرج وهـي ترمـح في دائريـة داخـل جفنيـه محدثًـا نفسـه بصـوت سـمعته: مـ.. مـا الـذي أفعلـه؟ حـ... حاولـت التخلـص مـن اللوحـة قبـلا ولكنهـا لـم تتحطـم أو تتمـزق.. لـمَ لـم أفكـر في إحراقهـا مـن قبـل، لمـاذا الآن؟

حاولـت الزحـف إليـه مـن جديـد ودمـي يرسـم خطوطًـا أسـفل حركـتي: أطفـئ الشـعلة يـا...

جحظـت عينـه في فـزع ونظـر إلى سـماء القاعـة: قــ.. قالـت جلنـار أني أرسـلت اللعينـة إليهـا قبـل أن أمـوت محترقًـا.. وهـا قـد أرسـلتها.. هـل اااا؟

صرخ كالمجنـون مبتعـدًا عـن اللوحـة انتفضـت لصرختـه: لااااا.. لـن أفعـل.. لـن أمـوت محترقًـا بيـديّ..

صحت به متألمةً: أطفئ الشعلة!

التفـت إليّ منتبهًـا. نظـر إلى عـود الكبريـت بيـده. لمحـت النـار وهـي تتسـلق العـود الخشـبي تجـاه إصبعـه وقـد أوشـكت أن تنطفـئ. ولكـن فجـأة! انفجـرت النـار كأن نفثهـا شـيطان خفـي وتصاعـدت في كـرة ملتهبـة أمـام جسـده. ألقـى بالعـود مفزوعًـا إلا أن مارجًـا منهـا التقـط مـا سـقط عـلى شـعيرات يـده مـن سـائل

الجـاز فخلبـت ذراعـه!

دار واسـتدار وانتفـض صارخًـا والنـار تركـض في ضرب الأعاصـير حـول جسـده حـتى أحاطتـه. سـقط أرضًـا وألسـنة اللهـب تعصـف بلحمـه في عنـف وغـلّ، يتقلـب متأوهًـا بصرخـات بشـعة أذرفـت لهـا عيـني الجاحظـة دموعًـا سـاخنة. اسـتجمعت قـواي واندفعـت مترنحـة تجـاه مـلاءة قديمـة أمـلًا في إخمـاد الجحيـم الفرجـيّ. تعـثرت خطـواتي، ودفعتـني حـرارة النـار إلى الابتعـاد عنـه وقـد غطيـت وجهـي بذراعـي.

صرعْـت عـلى ضربـات عنيفـة متعاقبـة عـلى بـاب القاعـة. صاحـت مـن خلفـه عـدة أصـوات متشـابكة: مـن بالداخـل، مـا الـذي يحـدث؟! حاولـوا دفـع البـاب ولكـن قفلـه القديـم الـذي يبـدو أنـه ينشـد الانفـلاق إلى نصفـين بهـزة صغـيرة، أبى أن يسـتجيب بالرغـم مـن ذلـك لأجسـاد الرجـال الغليظـة. تبيّنـت مـن بـين الأصـوات المتداخلـة صوتًـا عرفتـه: اتصـل بالشرطـة حـالًا!

صرخ فـرج صرخـة أخـيرة تصاعـدت عـلى إثرهـا ضربـات الرجـال. وتهـاوى جسـد المحـروق في استسـلام لمخالـب اللهـب وقـد غابـت الحيـاة عـن أطرافـه. ترنـح كعبـه دون رفـس أو اهـتزاز وضرب عمـودًا مـن الجـاز انتصـب بينـه وبـين لوحـة جلنـار. فضحكـت النـار في شـيطانية والتهمتـه وزحفـت بصاروخيـة عـلى طولـه حـتى ضربـت اللوحـة.

اختفـى الألـم للحظـة وانفلتـت القـوى مـن بـين مفاصـل جسـدي، وهرعـت مرتميـة عـلى لوحـة جلنـار أحـاول إخمـاد وحوشـها ومخالبهـم. نظـرت إلى جلنـار في ذعـر، صحـت بهـا: لا تخـافي!

نفـث الشـيطان الخفـي النـار مـرة أخـرى فانفجـرت بكـرة أحاطـت بإطـار اللوحة واحترقـت المـلاءة بيـدي. همسـت جُلنـار وهـي تبـكي: اتركيـني وشـأني! اتركيني!

علمـت أن اللوحـة هالكـة لا محالـة، فاندفعـت في محاولـة أخـيرة للتحـدث معهـا: سـ... سـ... احـذرى يـا جلنـار.. سـتموتين منتحـرة.. سـتموتين منتحـرة.. لا تفـ..

- مـــ.. من أرسلك؟ من؟

- لا اعلم!! فقط استمعي إليّ !!!..

- ألا تراها؟ انظر!

- من الذي تتحدثين معه؟

- ألا تراها يا كامل؟! إنها...

- جلنار! استمعي إليّ..

- تحدّثي أيتها الفتاة! من أرسلك؟!

- هذا الخرف فرج.. هو من أدخلني إليكِ قبل أن يموت محترقًا..

- فرج؟!

- فقط حاولي ألا....

تنبهت فجأة إلى الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتها ويعلم الأمر كله فصرخت بها وأنا أصارع الزمن قبل أن تلتهمها النار: جلنار! اعثري على عزيز بك قاسم.. طبيبك.. هو يعلم كل شيء.. هو من سيُنجيكِ! فقط لا تموتي! لن أكون قاتلتك.. أرجوكِ!

وصلت النار إلى لوحة خشبية كانت مختفية وراءها، فالتهمت ألسنتها دعائمها وسقطت أمامي. كان مكتوبًا عليها «كامل باشا الحداد». تعالت ضربات الرجال خلف الباب في قوة أكبر وكأنهم استعانوا بشيء ما لتحطيمه. عدت إلى لوحة كامل مرة أخرى، رأيت عينيه تراقبني في تعجب وخوف. صرخت به: أنقذ جلنار! فلينقذها أحدكم بحق الله!

بدا أنه لم يسمعني. فجذبت لوحته والنار تكاد أن تفترس ساعديّ وجحظت له في غضب: اسمع!

لم يجب، فألقيت به وأمسكت بما تبقى من الشمعدان النحاسي وأشرت إلى رقبتي في هيستيرية الأبكم، أشرت بقضيب الشمعدان بعلامة الذبح وصرخت: ستنحر عنقها أيها الأحمق.. ساعدها!

صاحت جلنار فالتقطت عيني مرة أخرى، اهتز وجهها باللوحة وارتسمت تحت عينيها ظلال سوداء وقد غاب جمالها: إنها أمامك أيها الأبله.. كيف لا تراها؟!

مـن كانـت تُحـدِّث؟ أهـو عزيـز؟ انخرطـت في بـكاء محمـوم وسـقطت عـلى ركبـتي وأنـا أتوسـلها: لا تفعـلي! أرجـوكِ.. لا تفعـلي!

غطـت النـار وجههـا وهـي تنظـر إلى شيء مـا جوارهـا، لـم أعـرف في خضـم تلك اللحظات السريعـة مـن قصـدت، ولكنهـا كانـت كمـن تشـير إلى شخص كان بجوارهـا. وقبـل أن أنطـق بكلمـة أخـرى. ابتلـع اعصـار النـيران اللوحـة وغابـت بـين أسـنانه وكأنهـا لـم تكـن.

تجمدت. لقد انتهى الأمر. اختفت جُلنار.

تسربـت مشـاعر مختلطـة مـن الحـزن والفـزع إلى أطـراف أصابعـي فارتعشـت دون توقـف، شـعرت وكأن صرخـة بركانيـة تندفـع بـين عظمـات صـدري صعـودًا حـتى طالـت لسـاني، وعندهـا تقطعـت أوتـاري وانفجـرت في بـكاء وصراخ رج أرجـاء القاعـة وأسـكت مـن كانـوا خارجهـا: جــلنار!

عـمّ الصمـت لثـوانٍ لـولا صـوت النـار وهـي تلتهـم مـا تبقـى مـن لوحـة جلنـار وتبتلـع لوحـة المدعـو كامـل. حـتى قطـع الصـوت المألـوف صمـت النـار في تعجـب: فـيروز؟!

لـم يلبـث أن تكـرر بضربـات قويـة عـلى البـاب وتعـالى الصـوت: فـيروز! فـيروز! أنـتِ بالداخل؟!

نظرت إلى الباب في استسلام وهمست: عــ. عاصم..

صـاح في ثـورة: ألا تـرون الدخـان؟! زوجـتي تحـترق يـا عالـم! اتصلـوا بالمطـافئ! فـيروز! فـيروز!

رأيـت النـار وهـي تتوهـج أكـثر فأكـثر حـتى زحفـت عـلى الجـدران. وركضـت في شراسـة حـتى أحاطـت بهـا أجمعـين وطالـت السـقف. علمـت أنهـا نهايـتي. فتمـددت في بـطء وقـد جفـت مقلتـاي مـن الدمـوع رغـم ابتـلال وجنـتي بهـا، وافترشـت الرخـام السـاخن. عـدت إلى صلـب المسـيح الأرضي وهـدأت ثـورتي. انتظـرت المـوت ليلتهمـني بِرُسُـله الناريـة. ونظـرت نظـرة أخـيرة عـلى البـاب وهـو يهـتز بضربـات عاصـم وصرخاتـه.

خرج صوتي بالكاد: لم أعد أهتم أيتها الأقدار.. فلتعجّلي بقضائك!

ارتعش جفني في إرهاق وأنا أرى أمواجًا من جهنم وهي تدور حول السقف في شغف. توقفت عضلات عيني عن الحركة ولم أقاوم أوامر إغلاقها. وفى هدوء.. رحّبت بالظلام.

***

هل هذا هو شعور الموت؟ جسد ممدد بلا حراك، وعين لا ترى سوى الظلام، وأذن لا تسمع سوى خطوات ملائكة العذاب وهم يتباطأون اقترابًا؟ هل هذا ما شعرت به أمي حقًا عندما توقف صدرها عن الحركة وانسابت منها الحياة رويدًا؟

كنت أجلس إلى جوارها في صمت، لم أدرِ يومها إن كان خوفًا أم حزنًا. أصرّت على أن تراني بعد هجري لوجهها بثلاثة أشهر، كنت لا أزال بعمايّ المؤقت الذي ظننت حينها أنه سيكون دائمًا. أرسلت إليّ ببيت خالتي وأصرّت على لقائي، رفضت كما توقعَت، ولم تُفلح إلحاحات خالتي ولا زوجها ولا حتى توسلات أخي عمرو وبكائه أملًا في أن تستعيد أمه عافيتها عندما تراني. كنت حجرًا ميتًا ببركة راكدة.

قررت أن أترك ما حدث وراء ظهري، وتظاهرت بأن والديّ قد ماتا منذ سنوات، حتى نسيت ما كان بيني وبينهما من حب وشجن، ولاحقًا من انكسار وخيانة. قررت أن أعود لدراستي حتى وإن كنت عمياء. واستعنت بأقرب صديقاتي «مي» لتساعدني في رحلتي الدرامية التافهة بالحصول على شهادتي الجامعية، وكأني أردت أن أكون جزءًا من قصة مستهلكة للتصميم وتفوق المعاقين رغم ظروفهم، بدلًا من أكون جزءًا من قصة نادرة لخيانة الأم أمام ناظري ابنتها.

ولكن.. لم يمض سوى ثلاثة أشهر حقًا، وقد ضقت ذرعًا من مطاردة تلك المرأة لسمعي بكلماتها الباكية، وعندها أقدمت مي على أسوأ الأفعال التي لن يفلح تبرير «النية الحسنة» في الصفح عنها.

كانت مي تجالسنى بغرفتي الجديدة ببيت خالتي كالعادة، تقرأ لي المراجع وتعيد سطورها على سمعي حتى أحفظها عن ظهر قلب، يمر النهار ويتسرب الليل وأنا أجبرها رغم التعب على مواصلة العمل، ظننت في أول الأمر أنه إصرار الضريرة لتحدي الإعاقة، ولكن تلك الساعات التي كنت أصيح فيها بسطور المراجع في غضب ملحوظ، لم تكن إلا ضجيجًا كنت أسد به أذني عن همسات قلبي بالحنين إلى أمي والاستجابة لمطلبها برؤيتي.

تنهدت مي في إرهاق سمعته، وحاولت مقاطعة صراخي بالمذاكرة: فـ.. فيروز.. حـ.. حسنًا توقفي.. حبيبتي!

أجبت عليها في استكمال لصراخي: ماذا تريدين؟! هل تعبتِ؟ حسنًا فلترحلي أنتِ.. سأذاكر وحدى.. لا أحتاجك. لا أنتِ ولا غيرك! اتركوني لحالي.. الله؟!

ارتعش صوتها الرقيق، وزفرت في حنق فنطقت بلطف: اا.. لـ.. لماذا تقسين عـ..؟

قاطعتها بقوة: أنا لا أقسو على أحد.. لماذا تحترفون جميعًا دور الضحية؟ عرضت عليكِ مساعدتي ولقد قبلتِ! وإن رأيتِ في خطابي لكِ قسوة.. فلترحلي إذًا!

ربتت على يدي: حبيبتي.. لا أقصد نفسي.. بل كنت أقصد.. لماذا تقسين على نفسك؟

سكت للحظة وقد كرهت ضعفي أمامها وقد لمست وترًا مشدودًا. فانفعلت بأضعاف عن المرة الأولى: ارحلي يا مي!

سمعت صوت احتكاك أرجل مقعدها بأرضية الغرفة، فعلمت أنها نهضت، وما ظننت أنها تحركت للرحيل استجابة لمطلبي، حتى زاد اشتمامي لعطرها وقد جلست إلى جواري: حسنًا.. لن أتطرق إلى ذلك الأمر مرة أخرى.. فقط لا تغضبي مني.. فأنتِ صديقتي الوحيدة.. ولا أملك غيرك..

هدأت ثورتي قليلًا ولكن حافظت على بعض الحدة في وعظ: ستتألمين إذًا كما تألمت وربما تفقدين البصر أنتِ أيضًا..

شعرت في صوتها بانزعاج وتعجب: لم تقولين ذلك؟

التفت لها وتخيلت وجهها البريء بين ثنيات الظلام: لا ترتكني على عزيز واحد بحياتك.. يومًا ما سيغادر ويترك قلبك مفطورًا.. وإن لم يفعل، وظل بجوارك سيطعن ذلك القلب مرات ومرات حتى يُميته..

أحاطت كتفي بذراعها: أنتِ غير الكل يا فيروز.. من مثلك لا يمكن أن تمد يدها بأذىً إلى أحد..

- بلى أيتها الساذجة! الكل قادر على الخيانة.. الكل يقتاتون على آلام محبينهم.. وإن لم يكن اليوم سيكون غدًا..

- لا تستلمي لغيابات الحزن يا صديقتي.. سيتوه عقلك بين أمواجها..

- بل تاه قلبي بينها.. ولم أعد أحمل بداخله ذرة حب لأحد.. ولا حتى قِسمة من شفقة.. لا لك ولا لغيرك..

سكتت للحظات طويلة. فاشتعلت غضبًا مرة أخرى، وكأن العمى يطوّر عصبًا جديدًا في خلقة البشر، يشتد عندما يسود الصمت ولا يرى الضرير نظرات محدثه، فتفترس الظنون رأسه: ما الذي أصمته، وفيم يفكر، وهل كان باسمًا أم كان عابسا، هل ابتسامته شفقة، ام استهزاء، هل عبوسه حزنًا على حالي، أم مللًا من مجالسة المعاقين أمثالي؟

صحت بها: لماذا الصمت؟! فلتتحدثي كي أراكِ أو ترحلي!

ربتت في لهفة على كتفي: اا.. آسفة يا حبيبتي.. فقط كنت أفكر في مـ.. مطلب.. أخجل من طرحه عليكِ..

- تحدثي..

- حسنًا.. أنتِ تعلمين أني لن أتخلى عنك تحت أي ظرف.. ولكن أمي مرضت منذ أيام.. وأنا أقضي معكِ اليوم بأكمله.. فـ...

- إن كنتِ تريدين التوقف فلـ...

- لا لا.. بل أريد منكِ.. إن سمحتِ فقط.. أن نعقد جلسات المذاكرة ببيتي غدًا.. حتى أكون على مقربة منها..

- لا يهم.. سأنتظرك حتى تُشفى..

ألحّت في غرابة شعرت بها من تهدج صوتها: لا! بل تأتين معي! وأنا بنفسي سأعرج عليكِ غدًا وأسوقك إلى البيت دون مشقة منك.. إنها فرصة يا فيروز تخرجين بها من عزلتك.. ألم تشتاقي لنسيم الصباح خارج تلك النافذة؟

كنت أشتاق حقًّا إلى ذلك، وصارعت كبرياء الرفض لعرضها: ولكن...

قاطعتني ولقد قرأت موافقتي بلا شك، فهي لم تكن ضريرة: ليس في الأمر «لكن».. حسنًا.. فلنكتفي اليوم بما ذاكرنا.. وغدًا سأعرج عليكِ لنتحرك سويًا..

وطبعت قبلة على جبهتي وقفزت في رحيل قبل حتى أن أزيّف رفضًا آخر لاقتراحها. فاستسلمت.

جاء الصباح، وتوقف نسيمه عن مداعبة النافذة التي سخرت منها مي، تساءلت هل امتنع لحنق منها؟ أم أراد أن يهمس إليّ بانقطاعه، بأن اليوم لن يكون كغيره مما سبق من الأيام ولا مما تلاها؟

انتظرتها فجاءت وساقت خطواتي إلى سيارة الأجرة، ولم تتوقف عن الحديث بكلمات غير مترابطة طوال الطريق، تتحدث عن صديقتنا وزواجها العرفي، والخبر الفلاني بأخبار التاسعة مساءً، وتبدّل أحوال الطقس، وسعر كيلو الطماطم وارتفاعه. وددت لو تصمت، وودت حقًّا لو علمت سبب استرسالها بتلك الكلمات التافهة دون انقطاع على غير عادتها.

وصلنا إلى ما بدا أنها عمارتها. دلفنا من بابها وظلت تبدّل الحركة بين ذراعي ونحن نتحرك للداخل، تارةً يميني، وتارةً يساري، بل إننا تحركنا في دائرية بإحدى المرات، حتى غابت عن حواسي أبعاد المكان، ووصلنا إلى المصعد وتحركنا للأعلى.

كانت ذكية رغم براءتها. وغبية رغم نيّتها الحسنة.

خرجنا من المصعد وعادت مي إلى عادتها في تشتيت شعوري بأبعاد الممر وتوالت على إسناد ذراعي من يميني ويساري، لكن حيلتها سقطت بمجرد أن طرقت على باب الشقة، وانفلق لسان قفله بتيار من هواء مألوف أحاط

بجسدي فأصابه برعشة، وعندها فطنت للأمر كله.

«لقد وثقت بكِ يا مي!».

قلتها في عتاب هادئ، فتنهدت وفلتت يدي بربتة عليها: ستعلمين أني لم أرد لك إلا الخير يا حبيبتي.. فعلت الصواب حتى وإن قررتِ قطع علاقتك بي للأبد.. ولكن إن لم تفعلي سأنتظرك بالأسفل..

غاب عطرها تدريجيًا بابتعادها، وأحل هواء بيتنا القديم مكانه. شعرت بأنفاس كرهت حنيني إليها، انقسمت إرادتي وترددت بين تراجع إلى المصعد، وبين تقدم غاضب لأكمل ما بدأت منذ ثلاثة أشهر، شد الانقسام جسدي بقوة متساوية في كلا الاتجاهين، فكانت النتيجة أن تسمّرت دون حراك كتمثال حجري ينتظر أقدار غيره أن تملي عليه أفعاله.

اهتز صوتها لجملة قصيرة: لن أطيل.. فقط دقائق انتظرتها طويلًا..

لم أجب، فقط تحرّكت في صمت إلى الداخل بجمود محايد وكأن طبائع ذلك التمثال لم تكن لتغادر ملامحي حتى وإن أردت ذلك. حاولَت أن تسند حركتي وتوقعت مني رفضًا لذلك إما بصياح أو بضرب لذراعها لكني لم أفعل. سمحت لها وتحركنا بخطوات كنت أعلم نهايتها وقد أعادت إليّ ذكريات قريبة حاربت لطردها من رأسي، ولكن لم أحاول أن أفعل الآن.

وصلنا إلى غرفتها الآثمة. فابتل وجهي بحبات تعرّق عشيقها السابق وكأن الذكرى لم تجد بصرًا لتضربه، فافترشت جوارحي بما يفعل، لم أعلّق، ولم أتوقف، بل تركت نفسي في استسلام بارد لتحركها، حتى أجلستني على طرف الفراش في بطء. كنت أسمع أنفاسها وهي تتقطع بمسافات زمنية غير متساوية، كمن كانت تحاول أن تبدأ كلامًا وتتراجع عنه في كل مرة. حتى أن جلست على الفراش، بدأت على استحياء.

«أعلم ما تريدين قوله وفعله يا ابنتي.. و.. وسأرفع عنك حرج إتمامه.. ولكن عليكِ أن تستمعي إليّ أولًا»..

لم أجبها ولم أطرف بجفن أو أتحرك بمقدار إصبع، فقط كنت صنمًا فأكملت: لطالما أحببتك.. أحببتك حتى قبل أن أحمل بك.. منذ أن كنتِ

خيالًا برأس المراهقات أمثالي قبل سنوات من زواجي بأبيكِ، منذ الصغر وأنا أحلم بطفل أحتضنه بذراعي.. أضمه إلى صدري وأطعمه.. أسهر إلى جواره حتى يطمئن لعينه إغلاقًا.. ربما وافقت على الزواج بتلك السن الصغيرة فقط من أجل أن يصبح ذلك الحلم حقيقة.. وما أن تحقق حتى وصل إلى الكمال عندما أصاب الجنين بأن تكوني بنتًا.. فتمددت أحلامي بعقد ضفائرك وأنتِ طفلة.. وإسرارك إليّ بما تخفينه عن الجميع وأنتِ مراهقة.. و.. آااهٍ.. وربتة من يدك على كتفي وأنتِ امرأة ترعى أمها العجوز ولا تنساها وقت أن تنسى الجميع.

كانت كل كلمة منها تمسح على عظمة من عظام صدري فتدفعه للنحيب ولكن، متلازمة الصنم الحالية كانت أكبر من أن أحاول الاستجابة ظاهريًا لحديثها، فأكملت جمودي، وواصلت حزنها: وما أن حدث ما حدث حتى تعاظمت أحلامي لحُلم آخر.. ربما طغى عليهم أجمعين.. وهو أن تسامحيني يا ابنتي!

تنهدت لصمتي فتهدج صوتها لبكاء تدريجي: أعلم أنه حلم يستحيل تحقيقه.. أو ربما نلت نصيبي من أحلامي السابقة.. فأنجبتك.. وأطعمتك.. واحتضنتك.. وعقدت ضفائرك، وحقًا لو كنت مكانك لما فعلت، ولكنك كنتِ دومًا أفضل من أمك، أقوى منها بين الأحزان، وأصدق منها حديثًا بالمشاعر.. فلم لا تكونين أكثر صفحًا منها؟ أمّكِ خائنة يا فيروز.. لن أجبرك حتى على طرد تلك الفكرة من رأسك.. أنا خائنة حتى وإن لم أقصد.. تسببت في لعن ابنتي الوحيدة بالعمى حتى وإن فضلت الموت على ذلك.. وصمتك بالعار لعمر كامل حتى وإن علمت أني لن أشاركك ذلك العمر.. أنا خائنة وخاطئة حقًا، ولكن قبل أن أساعدكِ في إغلاق تلك الصفحة من حياتك.. سأستسمحكِ بدفاع قصير عن نفسي..

بدت أنها اعتادت على سكوتي، فاقتربت من جلستي وشردت: أنا ككل النساء يا فيروز.. كنت بنتًا صغيرة بخطوات قصيرة وذراعين مفرودتين للأعلى بابتسامة استجداء تجاه كل من رأيت، وكأني كنت أنشد حضنًا دافئًا من الجميع، كانت أمي تسخر من براءتي وتقول «ستصبح رميّة بلا كرامة.. تلقي

بنفسـها بـين أحضـان الـكل دون شروط».. وحقًـا كنـت. لـم أفهـم يومًـا سر ذلـك الحنـين الغامـض لقلـوب الآخريـن، فقـط اسـتمتعت بـه، وظننتـه فضيلـة نـادرة بهـذا الزمـان.. لا أكـن حقـدًا لأحـد، ولا أبخـل بحـبٍ لمـن يعـرض بـادرة منـه عـليّ.. لــ. لــ. لـن أخجـل منـك وقـد رأيتيـني في أبشـع صـورة قـد تُـرى فيهـا امـرأة، ما أن كـبرتُ يـا فـيروز، وتحولـت مـن طفلـة ذات مشـاعر مجـردة بـلا غايـة ولا سـبب.. إلى امـرأة تعكـرت مشـاعرها بحنـين إلى رجـل يُطفـئ شـهوتها.. ا!.. ا.. لازلـت أخجـل مـن قـولي ذلـك، ولكـن لا مفـر الآن، لـم يعـد الحـب كلمـة وابتسـامة وربمـا حضنًـا دافئًـا، وإنمـا زاد عليـه ضمـة الرجـل، وقُبلاتـه، وتوقـه إلى جسـد امرأتـه.. بحثـت عـن ذلـك في أبيـكِ، ووجدتـه، عشـت معـه سـنوات مـن العشـق أفرخـت مـلاكي الصغـير.. أنـتِ.. فـزاد حـبي لـه بسـببك.. واسـتقرت مشـاعري وشـعرت بـأن الحيـاة لـم تبخـل عـليّ كمـا تفعـل بالآخريـن.

لـم أفهـم كيـف حافظـت عـلى تحجـري طـوال تلـك المـدة، ووددت لـو ربـت عـلى كتفهـا وأنـا أسـمع صوتهـا وهـو يتقطـع مـن بكائهـا الهـادئ، ولكـن كان عقـابي لهـا أسـوأ مـن الكلمـات، فقـط الصمـت والجحـود، حـتى بـدأ صوتهـا بالضعـف في هـزال غامـض.

«مـرت السـنوات.. ولا حظـتِ بنفسـك مـا جـرى لأبيـكِ.. تبـدّل بعـد مـوت أخيك رضيعًـا.. جاهـدت لإخراجـه مـن تلـك الحالـة، حـتى أني أجبرتـه عـلى إنجـاب عمرو.. ووعدتـه بأننـا سـنراقبه يكـبر أمـام أعيننـا كمـا لـم يفعـل مـن مـات، وكأني كنـت أجـبره عـلى أن يكـون كمـا اعتـدت عليـه، حبيبًـا، حنونًـا، لا ينـأى بحضنـه بعيـدًا عـني حـتى وإن كان حزينًـا، ولكنـه أصر عـلى أن يسـتغرق في حسرتـه، صاحـب الخمـر.. وأهمـل فراشـنا.. فأبـرد قلـبي مـن اشـتياقي إليـه، زاد عـلى ذلـك إهمالـه لأعمالـه.. فضـاق عيشـنا، واسـتحال بـرد الفـؤاد ثلجًـا ناعمًـا كزجـاج مطـلي بالسـواد.. يبـدو رقيقًـا مـن ملمسـه.. ولكـن لا يخترقـه شيء.. لا لمسـة ولا ضمـة ولا حـتى كلمـة كل عـدة ليـالٍ حـاول بهـا أبـوك أن يعتـذر عمـا يحـدث..

لـم أضعـف رغـم ذلـك.. وإن اختفـت سـماحتي تدريجيًـا وحـل الغضـب مكانهـا دون إرادة مـني، فكنـت أقسـو عليـكِ وأخيـكِ نهـارًا.. وأبـكي ليـلًا ندمًـا عـلى أفعـالي. كيـف أقسـو عـلى فاكهـة قلـبي وأنـا المعتـادة عـلى الحنـان حـتى مـع المسيء؟

حاولـت حقًـا العـودة إلى سـابق عهـدي، ولكـن فـاض الكيـل وانسـكبت الحيـاة مـن أطرافـه.. ولـم يعـد لي إلا البـكاء، حـتى وإن لـم أجـد حضنًـا أبللـه بدموعـي..

إلى أن جـاء ابـن عمـي لإصـلاح مـا أفسـده أبـوكِ بأعمالـه.. قاومـت حنانـه عـليّ منـذ اليـوم الأول، بـل أشرت عـدة مـرات لأبيـكِ في تبجـح بـأن مشـاعر تنشأ بيـني وبـين الرجـل علّـه يغضـب ويقـرر أن يمنـع زياراتـه، ولكـن.. لـم يفعـل، بـل عمـد إلى عكـس ذلـك.. سـمح لـه بالبقـاء معنـا لأيـام كل أسـبوع.. وكأنـه وجـد ضالتـه فيـه.. وجـد الحضـن الـذي تنشـده زوجتـه ويعجـز عـن تقديمـه.. اشـترى لي رجـلًا يرفـع عنـه حمـل مواسـاتي.. ورضي لى عشـيقًا يهـدئ بالـه مـن ذنـب التقصـير في احتضـانى..

وبالرغـم مـن ذلـك يـا ابنـتي لـم يسـتغل عشـيقي الأمـر.. بـل شـعر بمـا شـعرت بـه بـأن مـا يحـدث هـو بدايـة خطـأ كبـير.. فآثـر الابتعـاد.. ولكنـه كان قـرارًا متأخـرًا، فقـد اعتـدت عـلى كلماتـه وهـي تُهـدئ بـكائي، واعتـاد عـلى احتياجـى إليـه وهـو المنبـوذ دومًـا مـن الجميـع.. أصبـح كل منـا نصفًـا ينتمـي للآخـر..

وفى ذلـك اليـوم المشـؤوم.. سـ.. سـافر أبـوكِ، وقـد أصرّ عـلى بقـاء ابـن عمـي مكانـه.. تعجبـت وتعجبنـا معًـا مـن قـراره.. هـل كان يعـد لنـا الفـراش لخطيئـة لـن يغفرهـا أحـد لنـا؟ أم أراد أن ينتقـم مـن نفسـه وقـد خانـت زوجتـه الـتي يحـب.. علّـه يمـوت متحسـرًا ويتخلـص مـن حياتـه الـتي ارتبكـت في السـنوات الأخـيرة؟ لا تظلمـي أبـاكِ يـا ابنـتي.. كلنـا نفعـل ذلـك.. نتعمـد تشـويه مـا نحـب ومـن نحـب.. فقـط انتقامًـا مـن أنفسـنا.. وكأن شـيطانا يتلبـس أجسـادنا ويوسـوس إلينـا في شـبق أن نقتـل كل عزيـز بقلوبنـا حـتى نضعـف ونستسـلم للمـوت دون مقاومـة تُذكـر.

فطنـت إلى ذلـك.. وطلبـت مـن عشـيقي الرحيـل.. ليـس لأخـلاق لـم أعـد أهتـم بهـا.. وإنمـا إشـفاقًا عـلى أبيـكِ مـن نفسـه. رحـل.. وانتظـرت عودتـك.. ربمـا أشـكو إليـكِ ضعفـى.. فتملأيـن ذلـك الفـراغ المقيـت، ولكـن قسـوتي أبعـدت قلبـك.. وشـاءت الأقـدار أن يرحـل أخـوكِ إلى مخيمـه الصيفـي التافـه، لـن أخفـي الأمـر عليـكِ.. كـ.. كنـت أرمـح بالبيـت جيئـةً وذهابًـا في تـوق إلى عودتـه. ومـن أقصـد بعودتـه.. أبـاكِ».

تغـيرت نـبرة صوتهـا وترنحـت، فعلمـت أنهـا مالـت بجسـدها عـلى الفـراش في

نومـة لـم أفهـم سـببها، خرجـت بمقـدار ضئيـل مـن تجمّـدي وأغلقـت عيـني أمـلًا في ظـلام أحلـك ممـا أطبقـه علـيّ مـرضي القريـب. عـادت إلى حديثهـا، ولكـن بصـوت أضعـف كنـت أسـمعه بالـكاد، وشـابته بحـة متقطعـة وكأنهـا كانـت تكافـح النـوم قبـل إتمـام دفاعهـا.. وسـمعت صـوت حكـة متكـررة عـلى سـطح مـا، ظننتهـا بغضـب أنهـا تلمـس مـلاءة فراشـها القـذرة في حنـين سـافل إلى ليلتهـا الشـهوانية.

«دق البـاب يـا فـيروز.. أبـوكِ لا يـدق البـاب أبـدًا حـتى وإن كان مخمـورًا.. فتحته فوجـدت شريـك الخطيئـة أمامـي دامعًـا.. همـس إليّ: «لـم أسـتطع».. هربـت منـه وعـدت إلى الداخـل ورجوتـه أن يرحـل.. افـترش جلسـتي بـكاءً واعـترف: «أحبـك»، كان نادمًـا عـلى مـا قـال، وأكـد أنـه يعلـم أن مـا يفعلـه خطـأ كبـير.. ولكـن.. كيـف لـه أن يكتـم مشـاعره وهـو يـرى أني كنـت عاجـزة عـن ذلـك؟ عـرض علـيّ أن يتحـدث مـع أبيـكِ فهـو صديقـه مهمـا حـدث.. أراد في جنـون أن يُقنعـه بالطـلاق حـتى يتزوجـني.. أغـرق سـمعي بعباراتـه «لـم يعـد لي غـيرك».. «سـأحارب الجميـع مـن أجلـك».

كيـف لامـرأة شـاخ قلبهـا أن تقـاوم تلـك العبـارات وهـي تعلـم أنهـا لـم تكـن كذبًـا؟ اندفعـت في بـكاء وارتميـت في أحضانـه.. وعندهـا.. جئـت.. لـم أتوقـف عـن بـكائي، أردت لـكِ أن تريـه وهـو يواسـيني في حنـان واضـح.. فربمـا تفعلـين مـا لـم يفعلـه أبـوكِ.. ربمـا تندفعـين تجاهـي وتسـتنكرين مـا رأيـتِ.. ربمـا حـتى إن أطلـتِ النظـر نخجـل وأدفعـه للرحيـل فيوافـق.. ولكـن، عـبرتي أمـام ناظـريّ بنظـرة قصـيرة لـم تحتمـل حـتى ردّهـا، وذهبـتِ إلى غرفتـك وغبـتِ في نـوم عميـق..

زاد حـزني.. وصـار بـكائي نحيبًـا. كيـف؟ كيـف لـم يعـد يهتـم أي منكـم بتلـك المـرأة الضعيفـة؟ لمـاذا تدفعونهـا لتدنـس حبهـا بقلوبكـم فقـط لـكى ترحلـوا عنهـا، مـا الـذي فعلتـه؟ حنـوت عليـكِ، وأحببـت أبـاكِ، وطعنـت قلـبي بخنجـر الصـبر عـلى وليـدي الميـت فقـط مـن أجلكـم. لـم أكـن أريـد حنانًـا، بـل قسـوة تُرجعـني عـن ضعـف نفـسي.. كانـت عبـارة اسـتنكار أو لطمـة عـلى الوجـه أفضـل عنـدي مـن صمتكـم. لـم الصمـت؟ لـم الصمـت قبـل الخطيئـة؟ لـم الصمـت حينهـا؟ ولـم الصمـت الآن يـا فـيروز؟!».

انتبهت لتعليقها على صمتي. علمت أنه يؤلمها. تمنيت لو نطقت بأي كلمة قد تهون عليها وطأة ما تقص وهي تتعرّى أمامي في ضعف. ولكن.. وقد علمت الآن أن صمتي حقًا يؤلمها، آثرت الاستمرار فيه، وكأني أتلذذ بعذابها. ففتحت عيني وعدت إلى جمودي السابق. صرخت داخل رأسي: تألمي يا أمي.. تألمي فربما أصفح عنك إن تقطع قلبك من الألم..

لمست أصابعي في بطء وأحسست برعشة خفيفة رجت الهواء المحيط بكفها وأكملت: ضعفت يا ابنتي.. ومن منا لا يفعل؟ استسلمت له فأحاط جسدي بذراعيه.. تُهت في زمن آخر.. زمن كان فيه الحب محرابًا؛ عزلته النشوة عن كل محيط.. عدت إلى نفسي في تلك اللحظات القصيرة.. رأيت ماما وهي تسخر من مشاعري وتصفني بالـ «رميّة»، لم أغضب.. كنتِ محقة يا أمي.. ما الضير في أن أكون رميّة العشق.. غيري عاش ومات وهو رميّة الغضب.. وغيره رميّة الكراهية.. وغيره رميّة القسوة. ما الضير أن أكون رميّة الأمان؟ ارتميت بمحراب ذراعيه وكأني أصلّي في تضرّع لعبادة نسيت عدد ركعاتها. لا تستنكري التشبيه يا ابنتي.. فلم أعد أهتم بحساب الملكين على ما أقول من كفر.. فأنا في النار لا محالة..

قررت أن أنطق أخيرًا، ولم أفهم حتى الآن لماذا اخترت تلك الكلمة لتكون أول وآخر ما أنطق به:

«لست ابنتك»..

زاد ارتعاش يدها قليلًا. ومر من الثواني ما حسبته عمرًا بدأ وانتهى بلمستها. ثم ربتت على يدي وهي تزفر عدة أنفاس قصيرة سمعتها وكأنها جزء من ابتسامة يأس. ونطقت أخيرًا:

«لا تقلقي.. حرصت ألا تكوني كذلك منذ أن جلسنا معًا»..

لم أفهم عبارتها، وتعاليت عن سؤالها عما تقصد. قررت حينها أن المقابلة التي كانت تتوق إليها قد انتهت، وحاولت أن أسحب أصابعي من أسفل كفها. تعطلت قليلًا وغابت عني مهارة الحركة، أردت أن أسحب يدي بسرعة مناسبة، فلا أعجّل حتى لا تظن بي القسوة رغم ما قالت، ولا أبطئ

فتتوهـم في الصفـح عمـا فعلـت.

وبينمـا تعطلـت أصابعـي بـين هـذا وذاك، غابـت رعشـتها، وأجلسـت كفهـا الناعـم عـلى كامـل يـدي واسـتقرت كذلـك. زفـرت في حنـق مـن إصرارهـا عـلى إضعـافي. ولكنهـا لـم تعقّـب بتعليـق إن كان رفضًـا أو مواسـاة. فقـط ظلـت كذلـك. حبسـت أنفـاسي وأطرقـت سـمعي إليهـا. فعـادت الرعشـة ولكـن إلى أصابعـي أنـا هـذه المـرة.

انقطع صوت أنفاسها.

انعقـد لسـاني وأصابـه مـا أصـاب عيـني مـن شـلل، دفعـت كفهـا بإصبعـي علّهـا تنتفـض لحركـتي ولكنهـا لـم تفعـل. رفعـت يـدي المنتفضـة وتحسسـت جسـدها حـتى وصلـت إلى صدرهـا. فـكان سـاكنًا.

ضرب زلـزال عنيـف أعمـاق جسـدي ولـم يتنفـس خروجًـا. تمنيـت لـو أذرف دمعًـا عـلى مـا فطنـت مـن حقيقـة غيابهـا عـن الحيـاة، ولكـن أبى الدمـع بلعنـة أن يخـرج مـن عيـني الميتتـين. زحفـت بذراعـي حـتى عنقهـا ووصلـت إلى وجههـا، تلمّسـت اسـتدارة شـفتيها وتعالـت أنفـاسي، فقـد كانـت باسـمة. بحثـت عـن يدهـا الأخـرى فتلطـخ بحـثي بنهـر مـن الدمـاء!

كان صـوت الحـكاك هـو صـوت شـق رسـغيها! لـم ترسـل إليّ لتطلـب السـماح والغفـران، بـل جـاءت بي لأشـهد موتهـا، انتظـرت كل ذلـك الوقـت واحتملـت توقهـا للمـوت فقـط حـتى تـبرر فعلتهـا أمامـي. أرادت أن ترحمـني مـن عـبء لقبهـا الـذي التصـق باسـمي «والـدة فـيروز»، وأرادت أن تعـترف أمامـي بدفوعهـا، ومـا كان لهـا أن تحقـق الغرضـين، إلا بالرحيـل.

انتحـرت أمـي مـن أجـلي. مـن أجـل قسـوة قلـبي الـتي لـم تسـمح لهـا بصفـح عمـا فعلـت. قتلـت أمـي بصمـتي وتحجـر مشـاعري. نصّبـت نفـسي إلهًـا لا يغفـر إلا لمـن يشـاء. ومـا شـئت أن أغفـر لهـا. تحجـر الإلـه طـوال جلسـة اعترافهـا. فتحـول إلى وثـن لـم تكـن عبادتـه إلا كفـرًا. عبدتـني أمـي فكفـرت بحياتهـا بـين قدمـي. ومـا أن أرادت التوبـة عـن كفرهـا الأول، حـتى انسـاقت إلى كفرهـا الثـاني وانتحـرت.

لـم أصرخ، وأصر الدمـع عـلى البقـاء مسـجونًا، فأظلم قلـبي وبات نعتـه كعيني، قلـب ضريـر. تحولـت في تلـك اللحظـة مـن فـيروز الـتي كانـت تحـب وتغضـب بـل وتحـزن للدرجـة الـتي تتظاهـر فيهـا بعـدم السـماح، إلى فـيروز الصـيرفي ذات القلـب المظلـم، الـتي لا تشـعر بحـب زوجهـا وإن بـاع عمـره مـن أجلهـا، ولا تعبـأ بمسـتقبلها وإن تظاهـرت بغـير ذلـك.

كان لتلـك الفـيروز أن تكـون نهايتهـا كنهايـة القتلـة. فـيروز الصـيرفي تصلـح حقًـا أن تكـون قاتلـة جلنـار انتحـارًا كمـا قتلـت أمهـا انتحـارًا.. والسـبب الأول في احـتراق فـرج كمـا أحرقـت روحهـا القديمـة. ولـم يبـق إلا عزيـز قاسـم.. تـرى.. كيـف سـتقتلك فـيروز أيهـا العزيـز؟!

انتظـرت ملائكـة العـذاب ولكنهـا كانـت تتباطـأ ابتعـادًا، ربمـا لـم يكـن هنـاك حقًـا مـن ملائكـة عـذاب، يقولـون إن مـن يمـوت يراهـا قبـل أن تفـارق روحـه جسـده البـالي، ولكـن أمـي كانـت باسـمة قبـل الفـراق، هـل كانـت تبتسـم لعذابهـا كنـوع مـن التطهـر؟ أم أنهـم ترفقـوا بهـا حقًـا وأشـفقوا عليهـا في الوقـت الـذي لـم أشـفق أنـا فيـه عـلى بؤسـها؟ أم أنهـم لـم يأتـوا عـلى الإطـلاق؟

ربمـا لـم أمـت حقًـا. فتلـك الآلام المتفرقـة عـلى جسـدي تـصرخ بالحيـاة، ولـم يعـن الظـلام قـط موتًـا، فقـد كنـت مظلمـة لعـشرة أشـهر ومـا مِـت حقًـا إلا عندمـا عـاد إليّ بـصري واشـتقت إلى وجـه أمـي أمـام ناظـريّ.

فتحـت عيـني ببـطء آلـم جفـوني. كنـت أرى حبيبـات سـوداء صغـيرة متجمعـة فـوق السـطح الرخامـي الـذي اتخـذه رأسي وسـادةً بـاردة. دارت مقلتـاي داخـل اسـتدارة عيـني الملتهبـة. كان لا يـزال المـكان مظلمًـا. تسـاءلت: هـل غفـوت لدقائـق فقـط؟ كل تلـك السـاعات مـن ذكريـات قديمـة وهـلاوس قريبـة مضـت في دقائـق؟ أم أني غفلـت في غيبوبـة لأيـام تبـدّل فيهـا النهـار بالليـل عـدة مـرات حـتى اسـتفقت عـلى ليـل آخـر؟

إلا أن بصيـص ضـوء مسـتترًا خـرج مـن ثقـب لا يـكاد يظهـر، أطـاح بأسـئلتي إلى جـواب واضـح: نحـن حقًـا بالنهـار ولكـن.. أيـن النافـذة وضوؤهـا مـن تلـك الظلمـة؟!

اعتدلـت في تعـب تـسرّب تدريجيًـا كعبـاءة أفلتهـا رويـدًا. تأملـت المـكان حـولي فتعجبـت ممـا أرى. كانـت الجـدران محترقـة حالكـة السـواد، لـم يعـد هنـاك مـن قطعـة أثـاث انتصبـت عـلى قائمتهـا. تفـرق الجمـاد بـين تماثيـل مـن رمـاد يوشـك أن يتهـدم إن لمسـته، وبقايـا سـوداء لامعـة كمسـحوق سـاخن مـن القطـران السـائل. امتـلأت الأرضيـة الرخاميـة بحبيبـات الرمـاد فغطتهـا. تسـاقطت دهانـات الجـدران عـن بكـرة أبيهـا ولـم يظهـر منهـا سـوى شـقوق متعرجـة غطتهـا زينـة البنـاء. نظـرت إلى البـاب فلـم أجـده، ورأيـت مكانـه تـلالًا مـن الأحجـار بـدت وكأنهـا تشـهمت مـن جـدار لـم يتحمـل إعصـار الجحيـم فسـدت مدخلـه. وكذلـك النافـذة، غطتهـا تـلالًا أخـرى مـن أحجـار ذات أسـياخ حديديـة سـقطت مـن سـقفها، فلـم يظهـر منهـا إلا ذلـك الثقـب النهـاري.

اعتـاد بـصري عـلى مـا رأيـت، فسـمح تأخـر إدراكي لأذني أن تنصـت وأن تلتقـط بعـض الأصـوات. كانـت صـادرة مـن ذلـك الثقـب. تحركـت إليـه متعرجـة مـن الإرهـاق وأنـا أتعـثر في بقايـا مـا سـقط مـن أحجـار. ألصقـت عيـني بفتحتـه فوجـدت حشـدًا يتقدمهـم عاصـم يتظاهـرون أمـام قـصر أفنـدار.

كان عاصـم يتحـدث في توتـر إلى زهـدي، ولا يلبـث أن يقطـع حديثـه ويصيـح تجـاه القـصر: فـيروز! هـل تسـمعينني؟

لـم أجبـه، فسـمعته يحتـد عـلى زهـدي: تـصرّف.. وإن لـم تفعـل فسـأفعل أنـا.. لـن أتـرك زوجـتي حبيسـة بالداخـل حـتى وإن كانـت ميتـة! فلتتـصرف..

أجابـه زهـدي: يـا سيدي.. إن تحطـم الأحجـار يحـول دون إخراجهـا.. والطريقـة الوحيـدة هـي أن يُهـدم جانـب القـصر الداخـلي.. ولا نسـتطيع فعـل ذلـك.. إنهـا ممتلـكات الدولـة..

صرخ بـه، فانتبـه لـه الحضـور ممـن تبقـى مـن حفلـة البارحـة: فلتحـترق الدولـة بمـن فيهـا! اسـتخرج قـرارًا بهـدم القـصر.. فـيروز! هـل تسـمعينني يـا حبيبـتي؟! افعـل شـيئًا يـا زهـدي!

اعتدلـت دون أن أجيبـه مـرة أخـرى، علمـت أني وإن كنـت لازلـت حيـة سـأموت قريبًـا، فلِـمَ أطعنـه بالأمـل لسـاعات قبـل أن أسرقـه منـه مـرة أخـرى.

اعتدلت من إصغائي وتجسسي، وتأملت قبري الجديد، مسحته ببصري أملًا أن آلفه قبل أن أتركه جسدًا بلا روح بعد ساعات. بدت تشققات الجدران في هيئة جميلة وقد تحررت من شهوة الحياة وزينتها، فظهر كل شيء على حقيقته، لم يعد هناك من جميل وقبيح، فقط كل شيء جميل.. وكان عليّ أن أموت حتى أعلم ذلك.

تحرّكت في خطوات آلمتني بأحجار الأرض المسننة، خلعت حذائي وقد انكسر كعبه وألقيته بعيدًا واستمتعت بعري قدميّ دون أن أهتم باتساخ عقبيّ بما تتلطخ به من رماد وقد تلطخ جسدي بالكامل به. أجلست راحتي على شعاع النور الضيق وتحركت معه أتتبعه إلى النقطة التي سقط عليها فأجلس تحتها مستظلة بآخر نهار ستراه عيني.

جلست مستندة إلى جدار اعتلاه شق من نوع غريب، عدلت جلستي حتى أضبط بؤرة الضوء الضيقة على عيني تمامًا، شعرت بنشوة التعلق بالضوء، بعد أن كنت حبيسة الظلام سابقًا. فربما سأموت كما ماتت أمي وكما ماتت جلنار.. ولكني هذه المرة لن أرى الظلام. فقط سأرى الضوء الصافي.

تأملت تراب القاعة وهو يدور حول شعاع النهار فيضيء بنوره، بدا الأمر كلوحة أخرى من لوحات أفندار لم يرسمها فرج ولم يُقدر لبطلها أن يُقتل على يد فتاة مسكونة بالذكريات القاسية. فقط كانت لوحة جميلة من تراب أذرّه القدر حول عمود من ضوء مبهج.

أسندت رأسي على الجدار خلفي، فضربني حجر مسنون بوخزة ارتد وجهي على إثرها. ابتسمت ساخرة في استسلام للأقدار التي لا تسلط آخر ضوء من نهارها إلا على تلك البقعة من الجدار، حيث شق مسنون يؤلم خلف رأسي إن اشتهيت اعتراض بصيص الحياة الابيض.

اعتدلت وجذبت حجرًا أرضيًا وطرقت به على ذلك السن المدبب، فإن كنت سأموت، فلن أتنازل حتى عن تلك الجلسة الهادئة.

ضربت السن عدة مرات فلم يتحطم. كان الأمر تافهًا، فلتتحركي يا فيروز سنتيمترات قليلة تجنبًا لهذا العناء العبثي، ولكن.. أصابتني هيستيرية الإصرار:

بـل سـتنكسر أيهـا الشـق اللعـين.

استنشـقت هــواءً عريضًــا واســتجمعت قــوتي وانطلــق كفــي محتضنًــا حجــره الغليــظ تجـاه الشـق في عنـف بضربـة لـم تخطئـه. ضربتـه.. فانفلـق السـن إلى نصفـين. ابتسـمت، ولكـن مـا لبثـت أن تجهمـت مـرة أخـرى، وقـد سـمعت صريـرًا لـتراص الأحجـار وهـو يتحـرّك.

آه.. لـن يكـون المـوت هادئـًا. بـل سـيكون قاسـيًا بسـبب تافـه. مـن بـين كل الجـدران اخـترت أوهنهـم لأضربـه حـتى ينهـال عـليّ ويدفـن جسـدي أسـفله.

انهـار جانـب مـن الجـدار، وتسـمّرت في استسـلام لضربتـه، ولكـن كان انهيـاره متعرجًـا بشـق يُرسـم أمـام عيـني في براعـة غـير مفهومـة. يتحـرك في حلزونيـة حـتى أغلـق دائـرة حـول نفسـه. وفى هـدوء وسلاسـة.. سـقطت الدائـرة أمـام قدمـيّ دون أن تمسّـني بسـوء.

هـل مـا رأيـت كان حقًـا؟ أضـاءت بقعـة النهـار بالتحديـد الجـزء الدائـري الـذي انهـار مـن الجـدار. وليتـه توقـف عنـد ذلـك، بـل اخـترق ثقبًـا مسـتطيلًا بـه وكشـف عـن شيء مـا مختـبئ داخلـه.

هــل مــا رأيــت كان حقًــا؟ مــددت إصبعــى داخــل الثقــب فتلمّســت شــيئًا ورقيًـا. سـاعدت الإصبـع الأول بآخـر وأطبقـت بهمـا عـلى طـرف اللفافـة الورقيـة. وجذبتهـا في قـوة. فسـقطت أرضًـا وانفلقـت طياتهـا.

هـل مـا رأيـت كان حقًـا؟ بـرز مـن ذيـل الورقـة المطويـة عِبـارة كُتـب عليهـا «عزيـز قاسـم»!

سـقطت عـلى ركبـتي وعلمـت مكائـد الأقـدار. كانـت تشـير بثقبهـا النهـاري إلى ذلـك المـكان بالتحديـد، وأصابتـني بجنـون غـير مفهـوم لأضرب هـذا الجـدار دون غـيره فقـط حـتى أعـثر عـلى لوحـة قتيـلي القـادم.

صدق فرج عندما سألني: إن كنتِ تؤمنين بالسحر.

فتحـت اللوحـة في استسـلام، فاتسـع ثقـب النهـار بسـقوط بعـض أطرافـه تباعًـا، لـم ألتفـت إليـه، بـل أكملـت عملي وقـد فهمـت مـا تريـده، وكأنهـا تهمس: هـا قـد أفضـت عليـكِ بالضـوء بـين الظـلام حـتى تريـه جيـدًا.. وتقتليـه سريعًـا..

فتحـت اللوحـة ورأيـت هيئـة عزيـز، كان يبـدو مسـنًا قليـلًا بضربـات فرشـاة فـرج البيضـاء عـلى لحيتـه. راقبتـه في جمـود: أنـت عزيـز قاسـم.

دبـت الحيـاة في وجهـه وبـدا عليـه الفـزع فلـم أطـرف لفزعـه، فقـد اعتـدت عـلى صرعـة النـاس لرؤيـتي.

همس في خوف: من أنتِ؟

جـرى صوتـه بجسـدي في دفء شـعرت وكأني كنـت أتـوق إليـه، فتسـاقطت دفاعـات جمـودي، وانهمـرت دموعـي في ضعـف وتوسّـلت:

«أنا فيروز».

اقتربت من وجهه في يأس حتى بللت دموعي رسمته..

«ساعدني يا عزيز»..

-١٢-

أفندار

∞

كانت تؤنسني فقط بنظرتها بتلك الغرفة المقفرة من المستشفى. يكفي أن تنظر إليّ في هدوء وربما استسلام لم أفهم سببه، أو بالأحرى لم أحاول. فقد كان في إشراق وجهها بين تلك الأجهزة الطبية وأنابيبها الباردة سلامًا غير مفهوم، ارتحت له وأحاط جسدي المهشم - من ضربة تلك السيارة المسرعة - بنسيم دافئ يداعب أطرافي في حنان. تعجبت من جلنار، كيف لها أن تفزع برؤية ذلك الوجه الناعم، بتلك النظرة البريئة والتي تشبه في استدارة عينها وانسحابها تحت جفنها المنكسر كنظرة طفل مسكين يتعلق بإصبع من أحاطه أمانًا وحبًا. هل هي كذلك حقا؟ ملاك بوجه خمري يربت على ضربات القلب فيُهدئ تسارعها إلى اطمئنان غير محسوب، أم أنها من نسل إبليسي تتشح بتهافت أجنحة طاووسه الزائف وألوانه الزاهية فقط من أجل استدراج مريدي جمالها حتى لحظة افتراس قلوبهم، فتظهر أنيابها وتنهش قلوبهم المطمئنة وتدفع بهم من أعلى حافة الفزع إلى انتحار إرادي؟!

من أنتِ حقًا يا فيروز؟

من أنت حقًا يا عزيز؟ كيف يكون ذلك الشبح الذي أطاحت كلماته على مفكرة قديمة بأيام حياتي في لحظة وثانيتها، أن يكون بتلك الهيئة المقدسة؟ نعم.. كان يبدو كنبي علم الحقيقة من وحي مجهول، فأسرّها في نفسه، وزهد في الدنيا وما ورائها بابتسامة رثاء على من لا يزالون أسرى ألوانها النابضة بحياة الأموات، ينظر إليهم في حزن على ما لا يعلمون، يتمتم له بدعاء الاستيقاظ من الغفلة بطرفات هادئة من عينه. ونعم لم أنطق بكلمة. فقط راقبت وجهه ونظراته الانسيابية كبحر مالت أمواجه على شاطئ مقفر. شاطئ وجهي الذي تكاد الشمس

أن تنطفـئ عنـه قريبًـا جـدًا.

أريد أن أحدّثه كما فعلت مع جلنار ولكن.. ماذا أقول؟

هـل عـليّ أن أبـدأ أنـا؟ هـل كان هـذا هـو الإجـراء الـذي اتبعتـه مـع جلنـار؟ فقـط تراقبهـا حـتى تطمـئن لهـا ثـم تهمـس بـأي كلمـة لتجيبهـا؟ ولكـن.. مـاذا لـو فعلـت؟ وكانـت تلـك الكلمـة هـي التعويـذة القدريـة الـتي ستمسـخ حالهـا مـن مـلاك باسـم اطمئننـت لـه، إلى وحـش مدمـر المخالـب فزعـت لـه جلنـار فنحـرت عنقهـا؟

لا.. لا أريـد أن أفعـل ذلـك. كيـف أغامـر بـصرف تلـك الـروح المؤنسـة مـن أمـام عيـني وأنـا في أحـوج الحـالات إليهـا؟ كنـت أعلـم منـذ أن أطاحـت بي معـادن السـيارة الغليظـة في الهـواء، أني سـأكون وحيـدًا. وكأن لحظـة اقـتراب المـوت تتسـع فجـأة إلى زمـن بعمـر الدهـر الأزلي، أرى فيهـا وأسـمع، بـل وأفكـر وأظـن. رأيـت حـالي بينمـا كنـت في الهـواء قبـل أن يلامـس جسـدي الأرض، رأيتـني ممـددًا في نصـف جلسـة، ربمـا إن مِـت فتلـك هـي هيئـة الأمـوات قبـل تشريفـة مـلاكيْ السـؤال، وإن كنـت حيًّـا.. فتلـك هـي هيئـة الأحيـاء ممـن يُلقـي بهـم محبوهـم عـلى فـراش بمستشـفى فـارغ مـن الأنفـاس، يسـتمع إلى مواسـاتهم وقـدر مشـاعر الحـب الـتي ضجـت بهـا قلوبهـم، ولكـن لـن يلبثـوا إلا أن يرحلـوا إلى أيامهـم ومـا فيهـا ويتركـوه وحيـدًا. فقـط تنغـرس أنصـال المحاليـل وأنابيـب الأدويـة بلحـم ذراعـه، وتصـم صافـرات أجهـزة القلـب والحيـاة آذانـه. فيزيـد السـكون مـن وحدتـه شـقاءً، ويتباطـأ الوقـت قبـل انصرافـه قرونًـا.

أنـتِ جليسـتي الوحيـدة في عزلـتي القدريـة يـا فـيروز. هـا أنـا ذا عـلى فـراش ممـدد كبهيمـة تنتظـر الذبـح. فـإن أردتِ قتـلي فافعـلي، وإن أردت إبقـائي حيًّـا.. فاسـتمري بتلـك النظـرة ولا تحيـدي عنهـا.

هـل تعـرف الحقيقـة يـا عزيـز؟ كلا بالطبـع.. كيـف لـك أن تعلـم أن قاتلتـك حبيسـة جـدران تفتـك بروحهـا للفنـاء في بـطء قـاسٍ، كمـن تكومـت بأحـد أركان العالـم بعـد عصفـه لجسـدها الصغـير، وتراقـب أقـداره وهـي تقـترب منهـا في بـطء وتوعـد، ربمـا علمـت الأقـدار أن بـطء اقترابهـا يزيـد مـن خـوف فريسـتها وعذابهـا، فـلا تعجـل بطعنهـا، بـل تقتـات عـلى رؤيتهـا فزعـة.

فلتطعـني القلـب وتتحـري العـروق بـل لتكتمـي الأنفـاس بالفعـل، مـا الـذي يؤخــرك؟ افعليهــا لأرتــاح.

ومـا هــي الراحــة حقــا؟ جثــة ممــددة بقــبر ينتفــض عــلى خطــوات ملائكــة الســؤال؟ أم تلــك الحالــة الــتي أنــا عليهــا الآن؟ فقــط أجلــس أمــام ذلــك الرجــل، أحدّثــه بالنظــرات، فيردهــا إليّ اطمئنانًــا. وكأنــه يعلــم مــا يــدور في خلــدي، فــلا يجيــب ولا يعقّــب، فقــط تنســكب روحــه داخــل فجــوات جســدي المهــترئ، وانســكب روحًــا داخــل عينــه اللامعــة.

لا تتحــدث يــا عزيــز إن أردت.. فربمــا إن فعلــت ينفلــق مقبــض الســحر ويحــدث مــا اعتــادت عليــه الأقــدار مــن قســوة، فتنتحــر كمــا فعلــت صاحبتــك.. أو تتــصرف كمــا فعــل كل مــن أحببتهــم يومــا.

كيـف تفعـل يـا رجـل؟ تلـك هـي المـرأة الـتي انتظـرت رؤيتهـا لثلاثـة عقـود. هـا هـي أمامـك، فلتتحـدث، فلتسـألها عـن سر مـا يحـدث، فلتحـل لغـز جلنـار الـذي رفـس بجسـدك إلى نفـق مـن الأحـداث لـم تظـن يومًـا أن تكـون بطلهـا. اللغـز الـذي سـن نصـل ليـلى عـلى رقبتـك، وأضـاع منـك بركـة، ونسـف مـا أملتـه مـن علاقـة بابنـك الوحيـد..

تحدّث يا عزيز..

«لم الصمْت يا عزيز؟ أتخشى أن أقتلك؟».

ها قد تحدثت.. فلتجيبها: و.. وهل عليّ أن أخشى ذلك؟

«لا أعلم .. ربما!»

هــل أفزعتــه بتلــك الكلمــة؟ وإن فــزع.. فلمــاذا؟ إن كان يعــرف الحقيقــة الــتي بحثــت عنهــا طــوال تلــك الأيــام الماضيــة فربمــا لــم يكــن ليســأل ذلــك الســؤال. هــل هــو مثــلي لا يعــرف مــا الــذي يحــدث حقــا؟ ربمــا كنــا شريكــين في رحلــة مجهولــة وظننــا خطــأً أن كلًا منــا ســيجد جــواب ســؤاله بحديــث الآخــر. ولكــن.. يبــدو أن أيًّــا منــا لــن يفعــل.

«حتى وإن كان ما قلت.. فلم أعد أهتم يا فيروز»..

- ألا تخشى من الموت؟

- أتخشين أنتِ قتلي؟

- لست بقاتلة أيها المجهول..

- يبدو أني كنت مخطئًا إذًا.. بل ربما ليست تلك هي البداية التي تليق بلقائنا..

أرحت لوحته على الحائط واستسلمت لإرهاق جسدي: فلنتخير تلك التي تليق إذًا..

أغلقت الممرضة ضوء الغرفة وانصرفت وهي تلوي عنقها تعجبًا من تحدثي مع جزيئات الهواء وخرجت فاعتدلت لونيستي: لم أصدّق عندما رأيتك أنك قد تكونين السبب في انتحار من يراكِ..

ابتسمت في سخرية بائسة: بل صدّق.. فأنت على وشك الموت..

هرب ما تبقى من دمي وشحب وجهي: هل ستفعلينها؟

راقبت خوفه فندمت على قولي رغم صحته: أخبرتك أني لست قاتلة.. ولكن يبدو أنى أصبحت وليدة لملك الموت.. ربما كلفني بمهمة بسيطة لا أفهمها ولا أحتاج لأن أفعل.. فقط انظري إلى الضحية وهي ستموت من تلقاء نفسها..

- فلماذا صرّحتِ باقتراب موتي إذا؟

- أين أنت الآن؟

- ولم السؤال؟

- إجابة سؤالي هي إجابة سؤالك..

- بالمستشفى..

أغمضت عيني في استسلام: لا تقل إنها حادثة سيارة..

تعجبت من علمها بالأمر: كـ. كيف تعرفين ذلك؟

نظرت إليه في شفقة: هذا ما قالوه.. أنك ستموت في حادثة سيارة..

- ولكني لم أمت بعد..

- ربما ستفعل متأثرًا بجراحك..

- لا لن أفعل..

- فلتراجع تاريخ يومك إذًا..

- هل تعرفين مستقبلي؟ ومن الذين قالوا؟

- قالـوا إنـك ستموت في حادثـة سيارة في الثامـن والعشريـن مـن ينايـر عـام ٤٩..

ابتسـمت ممـا قالـت فهـي لـم تكـن تعلـم الحقيقـة، ولكـن مـا لبثـت أن دبـت بجسـدي رعشـة غريبـة، لـم تكـن خوفًـا منهـا، عـلى العكـس، بـل كانـت في حـيرة مـن علمهـا بذلـك التاريـخ المزيـف، فهـذا يعـني أنهـا لـم تكـن روحًـا أسـطورية كمـا تصـوّرت، تجـوب العوالـم وتـضرب ببسـمتها خيـالات البؤسـاء فينحـرون رقابهـم، بـل هـي أبسـط مـن ذلـك بكثـير..

سألتها السؤال الوحيد الذي بدا منطقيًا حينها: من أنتِ حقًّا يا فيروز؟

مـا دفعـه لسـؤال مثـل هـذا بعـد مـا قلتـه لـه. لقـد كشـفت لـه تاريـخ موتـه الـذي يبـدو أنـه اقـترب للغايـة، وبـدلًا مـن أن يفـزع لتلـك الحقيقـة، يسـألني عـن هويـتي الحقيقيـة؟ وأي حقيقـة كان يقصـد؟ وفي أي هويـة كان يظنـني قبـل ذلـك السـؤال؟

أجبته في غير فهم: امرأة كغيري..

يبـدو أنهـا لـم تفهـم مـا قصـدت: حسـنًا.. أخبريـني منـذ البدايـة.. كيـف بـدأ الأمـر بالنسـبة إليـكِ؟

جـاءت أخـيرًا اللحظـة الـتي تمنيـت أن اقتـص فيهـا ممـن تسـبب بشـقائي: بـدأ بحماقـة شـخص مثلـك.. رسـمني بمفكرتـه الباليـة..

- وكيف علمتِ أني رسمتك؟

- لقد رأيتها..

- كيف ذلك وهي لم تفارقني..

- ألا تفهم بعد؟ لقد آلت إليّ بعد موتك..

ضربت عبارتها رأسي: بعد؟!

ضرب سؤاله غفلتي عن إخباره بالحقيقة التي ظننت أنه يعرفها مسبقًا: أجل.. لقد عثرت عليها بعد موتك بسبعين عامًا.. لك أن تتخيل أيها الغريب أن ترى رسمًا لنفسك بمفكرة قديمة مضى عليها ما يقرب من قرن من الزمان.. رسمها أحمق قبل أولد..

لا لا.. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. هل ما فهمته حقيقي؟ هل كانت تلك الفتاة من زمن آخر؟ زمن أعقب زمني بعدما اندثر؟ أكان الشبح الذي طارد جلنار حتى موتها، فقط لفتاة من عدة سنوات مقبلة؟

- هذا مستحيل!

- لم يعد هناك من مستحيل فأنا أحدثك وتحدثني..

- كيف يحدث ذلك إذا؟

- أملت أن أجد إجابة ذلك السؤال عندك..

بدا من إصفرار وجهه أن ذلك السؤال ربما يكون الوحيد الذي لم تخلق له إجابة. عندها هز جسدي ذلك الشعور الذي يصيب القافز من حافة الجسر قبل أن يرتطم جسده بالماء انتحارًا. وكأنه يسأل نفسه.. ماذا فعلت؟ لم انتحرت؟ كان الممكن أن أصلح ما أفسده الزمن بحياتي.. ولكن.. فات الأوان سأموت قريبا..

هكذا شعرت. بذلك الندم على ما فرطت في حياتي بركضي وراء تلك المفكرة، خسرت زوجي وعملي وأحلامي وإيمان وفرغلي وكل شيء. علمت الحقيقة فقط قبل أن يرتطم جسدي بالماء وتمنيت أن أعود لما قبل تلك المفكرة فأصلح الأمور.. ولكن حدثتني نفسي كما حدثت ذلك القافز «فات الأوان أيها الأحمق».. وفى حالتي «أيتها الحمقاء الساذجة».

قالت عبارتها وسكتت في حزن. فألجم الحزن لساني أنا الآخر. كنت أركض طوال تلك السنوات فقط لأعرف حقيقة ما حدث منها، وها هي تطلب تلك الحقيقة مني. بدت مثلي تمامًا، مجرد ضحية لمؤامرة قدرية لا أول لها ولا آخر.

اعتدلت وقد حاولت أن أعود إلى البداية، ليست بداية ما حدث، وإنما

بدايـتي أنـا، كطبيـب محنـك يحـاول أن يحلـل الأمـور في تسلسـل منطقـي..

«فلـنرَ إذًا.. تقولـين إن الأمـر قـد بـدأ بعثـورك عـلى مفكـرتي.. ووجـدتِ بهـا رسـمك.. مـا الـذي حـدث بعدهـا؟».

مللـت حقًـا مـن استجوابه عمـا لا أعلـم فاحتـدت نـبرتي: كمـا قلـت لـك! رأيـت رسـمي.. فتحرّيـت عنـك.. وعلمـت عنـك وعـن جلنـار كل شيء.. فقـط!

- فكيف قابلتِ جلنار إذا؟

- ساقني بحثني اللعين إلى لوحتها.. فما أن رأيتها حتى فزعت.. وانتحرت!

- ولكني لم أرسمك حتى انتحرت جلنار..

- لماذا لا تصدق؟! لقد أخبرتك بكل ما أعرف!

ارتـد رأسي للخلـف وقـد صفعتـه أجنحـة الحقيقـة، فلـو كانـت فـيروز أمامـي لأطبقـت عـلى كتفيهـا في صدمـة: توقفـي! هـل تقولـين انـه لـولا أن رسـمتك في تلـك المفكـرة.. لمـا وصلـتِ إلى جلنـار؟

مالـت رقبـتي رغـم مـا تفـرق عليهـا مـن ألـم وقـد فهمـت مـا رمـى إليـه: وهـل تقـول أنـت انـه لـولا أن رأيـت جلنـار لمـا رسـمتني؟!

نظـرت إليهـا متحجـرًا وغابـت الكلمـات عـن أسـوار لسـاني فمـا سـقطت منهـا واحتبسـت بحلقـي، فواللـه كادت أن تخنقـني.

انتفضـت وجلسـت القرفصـاء أمـام لوحتـه ولـم أعـرف إن شـعر برجفـة ذراعـي عـلى لوحتـه أم لـم يفعـل. تزاحمـت بـرأسي العديـد مـن الكلمـات حـتى ضاقـت بهـا شـفتاي ولـم تسـمح لهـا بالخـروج. فـكان الصمـت سـيدًا أطعنـاه معًـا.

تعالت صافرة جهاز القلب وقد تسارعت دقاته: أهي دائرة مفرغة؟

كسر الصمت أخيرًا فانفجرت أنا الأخرى: يا الله! كيف يحدث ذلك؟!

غـاب صـوت الصافـرة عـن رأسي فاسـتقام ذهـني لصفـاء غـاب عـني لفـترة طويلـة، وعارضتهـا: السـؤال ليـس «كيـف».. وإنمـا «لمـاذا؟».

دمعـت عيـني بعدمـا امتنعـت عـن ذرف الدمـوع بعلمـي عـن اقـتراب مـوتي:

كما أخبرتك.. قدر.. قدر يجبرني على تنفيذ مهمة.. وهي القتل.. قتلت جلنار ولسوف أقتلك بعد قليل..

صرعتها في قوة: توقفي عن ذلك الظن!

تحوّل فجأة إلى أب ذي سلطة على فتاة خائرة القوى فانتفضت له وبررت في ضعف: لقد قالت الأوراق ذلك!

اندفعت رغمًا عني: كذبت الأوراق! لقد زيفت ذلك التاريخ.. أنا حي يا فيروز! وإن مت.. فلن يكون ذلك عام ٤٩.. فأنا في ٧٨ بالفعل!

وكأن الأمور كان ينقصها المزيد من الغرابة. ليس لأنه قال إنه زيّف تاريخ موته، ولكن لحقيقة أنه حي ولم يمت إلى الآن، فأنا لم أقتله كما فعلت مع جلنار.. ألست بقاتلة؟

حاولت أن أطمئنها: لستِ بقاتلة يا فيروز..

هل سمع ما جال بخاطري؟ اعتدلت له: هل تقرأ أفكاري أيضًا؟

الآن رأيتها بحق. ليست كشبح جال بخيال جلنار فكرهته، ولا كوجه ملائكي آنس وحدتي فأحببته، وإنما كانت كطفلة مذعورة، سقطت سهوًا من يد الأقدار فتاهت بين أروقتها واستقرت بخوفها أمام عيني، لا تفهم ما الذي أتى بها إلى هنا، ولم أعد أفهم كيف أعيدها إلى مأمنها.

حاولت ضمّها بكلمات أضاءت عقلي بما غفلت عنه: لم تقتلي جلنار يا فيروز.. جلنار انتحرت..

اهتزت وجنتي لابتسامة امتننت بها لمحاولته التخفيف عني: لقد قلت بنفسك أنها انتحرت عندما رأتني..

قاطعتها بما آمنت به: بل انتحرت لأنها أرادت ذلك.. (تنهدت في شفقة على جلنار).. كل ما حدث لجلنار منذ أن انحنى لها الملك دون غيرها.. حتى وطأتها أدناس الرجال أجمعين دون غيرها أيضًا.. وهي تبحث عن مخرج.. ولم تكوني إلا مجرد مفتاح لباب خافت طويلًا أن تفتحه..

تمنيت أن يكون حديثه صحيحًا: هل هي من أخبرتك بذلك قبل انتحارها؟

تمنيت لو كان ذلك صحيحًا: بل علمته عنها بعدما فعلت.. لم أترك أحدًا خالطها إلا وسألته.. كانت مسكينة..

عدت إلى حنيني إليها الذي لم يشعله إلا دقائق شاركتها فيها الحديث: وما الذي قتلها؟

شعرت أنها كانت جزءًا منا أجمعين: الأمل يا فيروز.. الأمل.. كل منا يشبه جلنار بطريقته.. نُخلق ببراءة لم نظن أنها سترحل عنا.. فنحب من أحبونا.. ولكن سرعان ما يرحلون.. وتتبدل البراءة بالحسرة.. فنقسو على أنفسنا.. ونرتكب من العار ما نعاقب به أرواحنا.. ثم نستفيق.. ونأمل.. نأمل أن نعود إلى ما كنا عليه.. فيكبلنا الحزن مرة أخرى.. فنأمل من جديد.. فتحكم الحسرة قبضتها علينا.. فنأمل من جديد.. ونأمل من جديد.. ونأمل.. حتى يصرخ الأمل بـ «كفى! ما أنا إلا وهم العاجز».. وعندها فقط.. تمتد أيدينا إلى ذلك الباب.. وننتظر مفتاحه..

أفاض حديثه على رأسي كنهر ثقيل غاب عن جداوله فقط ليعيد عليّ أحزاني: ليتني وجدت ذلك المفتاح مثل جلنار.. هـ.. هل فكرت في ذلك قبلًا؟ أن تدير ذلك المفتاح داخل مقبض الباب وتفتحه؟

خرجت الاجابة دون وعي مني: لولاكِ لفعلت منذ عقود!

انتبهت له، فأشاح بنظره خجلًا: أنا؟!

فات أوان الخجل: اا.. أجل.. كان لغز فيروز هو من يبقيني حيًا.. يوم رحلت حب عمري.. وفى أكثر اللحظات ألمًا ومهانة في المعتقل.. حتى يوم أن تحولت إلى عزيز آخر.. شيطان بأجنحة ملائكة، في كل مرة.. كنت أبحث عن ذلك المفتاح.. ولكن.. كلما اقتربت منه.. همست الأقدار إليّ باسمك.. «بل انتظر حتى تقابلها».. ربما أنقذت حياتي عدة مرات يا فيروز رغم ما تظنينه عن نفسك بأنك قاتلة لا محالة..

تمنيت أن تثلج كلماته صدري ولكنها زادته اشتعالا: بل ربما تكون أنت مفتاحي يا عزيز..

سألتها، ليس كطبيب قديم عاد إلى وظيفته كرحالة بين أحزان النفس

ومآسيها، وإنما كعجوز شعر بحنين ما لتلك الطفلة: وكيف بدأت أحزانك يا فيروز؟

«كما ينتهي كل شيء.. بابتسامة»..

أغمض عينه في حزن لم أفهم له سببًا، بل اعتصر جفونه إغلاقا وظل هكذا لثوانٍ، وكأن عبارتي طرقت على رأس وترٍ محموم فشدته وآلمت به قلبه. فأغمضت عيني بدوري وكأني اتحدت معه في تلك الرغبة بتخطي المنظور والغوص بين لطمات الماضي المظلم في سكينة، ولكن لم يدم الأمر طويلًا، فما أن واربت شفتي لإكمال مسلسل أحزاني حتى انتبهت على أمر تعجبت له، فغضبت رغمًا عني..

«لماذا سألتني ذلك السؤال؟ لست في حاجة إلى مواساتك أيها الغريب.. فأحزان فيروز لفيروز حتى تبتلعها مقابر الأقدار».

لم ألتفت لمقاومتها عن البوح بما أسرّت به لنفسها، فقد كانت رغبتها بالانفجار تقفز بين أنفاس عبارتها الغاضبة. إنه الكبر فقط. أعرف ذلك الشعور جيدًا، بل أعرف ما هو أكبر منه.. «شهوة النواح للغرباء رغم أنف النفس وعزّتها».

«أنت خيال يا عزيز.. وربما أكون أنا كذلك بالنسبة إليك.. فلم تحاول استقطاب مشاعري وأنا على حافة الموت؟»..

أصررت في هدوء علمت أنه سيشعلها غضبًا: تحدثي يا طفلتي..

اشتعلت غضبًا من إصراره: ماذا تريد أيها الأحمق؟! ليس لك أن تقتحم ظلمتي.. ولم أطلب منك ولا من غيرك أن ينيرها بكلمة باهتة أو ربتة خائبة على كتف تحمّلت فوق طاقتها.. فلتنصرف عني! أردت مقابلتك فقط لكي أفهم ما الذي يحدث.. ولكنك لا تعلم.. فلم يعد لك من نفعٍ.

فتحت عيني ففلتت دمعة احتبسها جفني قبلًا: لم تكن جلنار هي الوحيدة التي انتحرت يا فيروز.. بل كذلك أمي..

نفثت عبارته تيارًا من الصقيع أذهب إحمرار وجهي ونطقت دون أن أدري: وأنا كذلك..

عدت وقد نظرت لها: كرهت من أحبني.. وأحببت من رحل عني..

ارتعشت أناملي وأنا أتأمله وكأني أرى الماضي بين عينيه: وأنا كذلك..

استسلمت لنظراتها البائسة، فأكملت هي: **لم أعد أعرف من أنا حقًا يا عزيز..**

أومأت لها وقد علمت الحقيقة: وأنا كذلك يا فيروز..

شعرت بالحقيقة ولم أتمكن من النطق بها، وكأن الكلمات لم تُخلق لها، فقط شعرت أني فهمت الأمر كله، ولكن....

ولكن.. لم يقو أي منا على البوح به، بدت الأمور لنا وكأن السبب وراء كل ما حدث أعلن عن نفسه أخيرًا بطريق الخطأ. فقط عبارة قالتها.. عبارة قُلتها.. نحيب آلمها.. لنفس السبب الذي آلمني..

«لماذا أخبرتني عن موت أمك؟ لولا أن أخبرتني.. لما أخبرتك عن أمي.. ولم نكن لنظن كما نظن الآن كمجنونين أن هناك رابطًا بيننا»..

«بل أنتِ من فعل ذلك.. جرت كلماتي على لسانك.. ودق قلبي لذكرى وافقت ذكراكِ.. بدأ الأمر حيث ينتهي كل شيء.. بابتسامة.. عشت قبلك تلك العبارة لسنوات.. قلتها ولم أفهمها حقًا حتى سمعتها منكِ»..

تمنيت أن أستسلم لما شعرت به، ولتلك الفكرة الجنونية، ولكن عاندت نفسي: كلا.. في الأمر صدفة..

مسحت دمعي وابتسمت لها: أتخشين قولها؟

كان على حق: بلى..

نطقت بها بدلًا منها: سأقولها أنا.. كل ذلك كان من أجل أن نلتقي..

لم أتمكن من معارضته، فأجبته في شرود فصل جسدي عن ظلمة القاعة: ولكن لماذا؟ ما الذي تهيئه الأقدار من وراء ذلك اللقاء؟ أنقتل بعضنا؟ أنعود بسحر إلى الماضي فنصلح ما أفسدناه؟ بل كيف يكون ذلك معقولًا؟ لا يا عزيز.. الأمر أبسط من ذلك.. لا يمكن أن نكون شبيهين فقط لأن أمي انتحرت كأمك..

قاطعتها في إصرار هادئ: أمي انتحرت بعدما خانت..

تصلب وجهي وتهاوت وجنتي في بؤس: مـ.. ماذا؟

أكملت لها: انتحرت أمك لخيانة أيضًا أليس كذلك؟

توسّلت إليه في إرهاق: توقف يا عزيز..

لـم يعـد هنـاك مـن مفـر: لـن أفعـل يـا عزيـزتي.. فلقـد أشرقـت الحقيقـة ولا مجـال لمحـق أقمارهـا..

انفجـرت أخـيرًا وصرخـت بسـماء القاعـة المظلمـة وكأن ثـورة عـلى الأقـدار أوشـكت أن تندلـع: أي عبـث هـذا! لمـاذا أنـا بالـذات؟! لمـاذا اخترتـني أيتهـا الأقـدار لأكـون بيدقًـا بتلـك اللعبـة السـاذجة؟!

همسـت لهـا وأنـا أحـدّث نفـسي بمـا كرهـت تصديقـه: ربمـا كنـا روحًـا واحـدة.. انفلقـت في الأزل وآن أوان جمعهـا..

راقبتـه في اشـمئزاز غاضـب: أتسـمع مـا تقـول؟! إنهـا فلسـفة فارغـة.. جنـون! انـت تافـه! تافه!

قبضت على قلبها لتستسلم: لماذا بدأ الأمر وانتهى بابتسامة يا فيروز؟!

اشتعل جسدي غضبًا: توقف!

باغتُّها: لماذا يا فيروز؟!

جرى العرق أنهارًا على جسدي البارد واختنقت شرا: قلت لك توقف!

صحت بها: فلتصرخي بالأمر!! افعليها!

اهتزت رقبتي كالمجذوب الذي يرفض مواجهة عقله: لا.. لا.. لـ.. ا..

أوقظت مرضى المشفى: بل قوليها!

تصاعـدت الأحـزان بركانًـا وقطعـت صـدري حـتى ألهبـت حلقـي، فانفجـرت في بـكاء تناثـرت دموعـه كشـظايا متلاحقـة مـن قلـب حديـدي ذاب بنـار الحنـين أخـيرًا: أمــــي! أمـ..ـــي.. لمـاذا أيها اللعـين؟! لمـاذا؟ أمــــي! لا تتركيني.. لا تـتركي طفلتـك.. فهـي مـن دونـك تـراب.. لا تتركيهـا.. فقـد غابـت روحهـا يـوم أن فعلـتِ! أمـي! أيـن انـتِ؟!

صرخت بأمها حتى تقطعت أوتار حلقها، تعالت أصوات نحيبها حتى غطت على صافرات أجهزة قلبي الباردة، كانت تهتز وتنتفض في بكاء الرضع بعيدًا عن ثدي أحياهم قبل أن يميتهم. مال جسدها في هيستيرية لم أر لها مثيلًا.. وغاب وجهها وراء نوّةٍ من دموع كانت تثقب وجنتها الناعمة فتقبرها..

كان بكائي محررًا لروح حبستها بين أضلعي لسنوات. لم أبكِ على أمي قبلًا حتى وهي تفارق الدنيا بين ذراعيّ، لم أحاول حتى وإن كنت وحيدة. كان قلبي يرتعش دومًا في عنف ليجبرني على نحيبها ولكن، كنت أضرب على رأسه ليتوقف. ظننت أنني نجحت في ذلك. ظننت أني كرهتها وأنني لن أنساق وراء حنيني إليها ببكاء لم تستحقه. ولكن.. كنت مخطئة.. انا أشتاق لأمي حقًا.. يعتصرني الندم على ما فرطت في جنبها. أتوق إلى لمسة أخرى من أناملها على وجهي فتضيئه سلامًا ناعمًا. لم تنتحر أمي في تلك الليلة.. بل انتحرت فيروز.. وها قد بعثها ذلك العزيز من جديد.

تمنيت لو فعلت مثلها وأبكي على أمي للمرة الأولى. ولكن لم أفعل. وهل انهمرت دموعي على أحدٍ من قبل؟ كلا.. كنت جدارًا يريد أن ينقض، فأقامته الأقدار بتأويل استطعت لعقود عليه صبرًا. ماتت أمي قبالة عيني فلم ينقض الجدار، ضاعت بركة ونحرت بضياعها رباط قلبي ولم ينقض الجدار.. ومضيت أسأل.. متى ينقض؟ متى ينهار فوق رأسي فأدفن تحته؟ ولكن أبت الأقدار أن تجيب.

كان شاردًا. وكانت ثورتي تنساب في هدوء حتى سكن جسدي. رفعت عيني له في تعب أرهق جفنيها. تفرقت مشاعري تجاهه بين الشكر على ما فعل والخذلان مما فعلت. فعدت وعاد إلى ما كنا عليه فور لقائنا.. الصمت وتبادل النظرات..

راقبت وجهها وقد ارتسم عليه عمودان من ممرات الدموع شوّها وجنتيها، فانسقت وراء ما قدّر لنا: لم يكن عبثًا يا فيروز.. الآن فهمت حقًا.. كان لابد أن نتقابل حتى نطرد أسحار الأحزان من عقدة قلوبنا.. ونهدأ..

لم أردّ له بادرة راحة كالتي استعمرت روحي فحررته، فتمنيت لو

لمسـت وجنتـه لأهـون عليـه: و.. ولكنـك لـم تهـدأ بعـد..

خـرج الحنـين مـن صدري هـواءً تنهـدت لـه: أحـزاني أكـبر مـن أن تفارقـني بتلـك السرعة..

أملـت لوحتـه أرضًـا فأصبـح وضعهـا أفقيًـا وبـدا نائمًـا في نظـري: فلتفارقهـا أنـت.. تحـدّث يـا عزيـز.. فربمـا كان هـذا هـو مقصـد الأقـدار.. أن تدفعنـا بالبـوح عمّـا خبأنـا لسـنوات..

خـارت قـوتي وزادت مـن نومـتي نومًـا عـلى فـراشي: لـم أخـبر أحـدًا بهـذا مـن قبـل..

أرحـت جسـدي أرضًـا وتمـددت في استسـلام وشـبكت كفـي تحـت رأسي كوسـادة تحمـل نـوم عقـلي عـن غليانـه: لـم تقابـل مثـلي مـن قبـل أيضًـا يـا عزيـز.. أفلـت الثقـل عـن كاهلـك..

أفلـت جسـدي تحـت غطـاء الفـراش المعـدني البـارد وقـد أدفأتـه كلمات فـيروز. فصرنـا في نومـة متجـاورة.. كشريـكيْ فـراش واحـد، يواجـه كل منـا الآخـر في نومتـه، يـكاد وجهانـا أن يتلامسـا، تتـلاقى أعيننـا دون عوائـق. يظلـني الليـل ويعتـم مـا حـولي عـدا وجههـا الراقـد بوسـادتي، ويـضيء وجههـا بصيـص النهـار الـذي غـزا ظلمـة سـجنها بنومـة هادئـة. كنـا حقًـا عـلى فـراش واحـد ممدديـن بـلا حـراك، فقـط أنظـر إليهـا في سـكون.. وفقـط تربـت بنظـرة عينيهـا عـلى أحـزاني في دعـم..

«مـن أيـن أبـدأ؟ منـذ أن كنـت بِـك فُـتِن بفتـاة بسـيطة فـترك بهـاء عيشـته إلى فقـر جنتهـا، أم مـن لحظـة زواجـي بهـا، أم منـذ أن تحولـت إلى الاسطى عزيـز راضي.. أمهـر أسـطوات المحروسـة في نقـش النحـاس؟ نعـم.. أصبحـت كذلـك.. أهدتـني الأقـدار حيـاة جديـدة منـذ أن تزوجـت ببركـة.. فاحترفـت صنعـتي، واعتـدت عـلى جلبـابي القديـم. وتجـدد شـوقي في كل ليلـة لأحضـان زوجـتي وفي كل نهـار إلى عـرق لقمـة العيـش الـتي صرت عبـدًا لشـقائها حبًـا. مضـت أربـع سـنوات عـلى زواجـي مـن بركـة، ذقـت فيهـا حـلاوة العيـش الحقيقيـة، بـين نـوم هـانئ.. ويقظـة ضاحكـة.. ونظـرة ممـن أحـب كانـت تشـعل قلـبي بأمـارات تقديرهـا لوجـودي. أشـعرتني بركـة أني رجـل بحـق.. كانـت تعشـق ذلّهـا تحـت قدمـي.

وعشقت دومًا ضم ذراعيها براحتي وأنا أنهضها من جلستها تحت أرجلي وماءها المالح بعد يوم شاق. أقبّلها وأرفع من مقامها.. فتخجل وتثمّن حبي وتقديري لها. شعرت بين يديها بالخوف لأول مرة. كان الخوف قبلها جُبنًا.. كنت أخشى من سطوة زوجتي ليلى المرأة الارستقراطية.. ونفوذ أبيها الباشا.. وصدام أبي اللعين.. واغترابي عن طبائع المحروسة. أما خوفي مع بركة فكان من نوع آخر.. الخوف من الخسارة، أصبحت أخيرًا أملك ما أخشى ضياعه. فما زادني خوف ليلي إلا احتقارًا لجبني. وما أفاض عليّ خوف بركة.. إلا فخرًا برجولتي.

أعلم يا فيروز أنك ربما لا تعلمين من هي بركة التي أتحدث عنها، ولماذا قابلتها. قابلتها لأعرف منها سر جُلنار الذي ربما قادها إليكِ. حبسته عني طويلًا حفاظًا على عهدها مع حبيبتها فاطمة كما كانت تسمّيها، بعدما وجدت جلنار في البيت الذي تسكنه فتاة بسيطة كبركة السكينة التي كانت تبحث عنها.

فوقعت في حب من كانت جزءًا من رحلتي، وما أخبرتني بالسر إلا عندما تزوجتها. أخبرتني عن جلنار وكيف أنها كانت تعاون بعضًا من ضباط الجيش للانقلاب على الحكم، بعدما أقنعها حبيبها السابق ووالد طفلها الغائب ذلك اليوزباشي بشعاراته الوطنية.

كلف الورداني جلنار بالإيقاع بكامل باشا حموّي وقتها ظنًا منه أنه مجرد منافس وفديّ يطمح للإطاحة بحزبه من الانتخابات البرلمانية القادمة، ولكنه لم يكن يعلم حقيقتها. أوقعت جلنار حقًا بكامل فوقعت في حبه كما ذاب عشقًا في حُسنها. وساقتها ليالي الشهوة بينهما لمعرفة أنه هو الآخر كان متضامنًا مع هؤلاء الضباط، فتوافقت الأغراض ومهّدت الطريق أمامها لعشق محذور.

أسرّ إليها بالسر فأسرّت إليه بسرّها، بل ساعدته في إتمام رحلته. ربما كرهت حياة الأميرات وزيفها واشتاقت لحياة البسطاء وعموم حالتها على الجميع بالعدل. ولهذا أراد كامل قتلي عندما ظن أني عرفت حقيقته فأهدد بجبني مهمته المقدسة. ولهذا يا فيروز زيفت موتي خوفًا منه واختفيت

ببيـت بركـة. وتحولـت إلى الاسـطى عزيـز بـك.

وكانـت بركـة عـلى حـق، فمـا مـرت ثـلاث سـنوات إلا وانقلـب الجيـش عـلى الملـك وطـردوه وتولّـوا حكـم المحروسـة. ولكـن.. لـم يكـن لي أن أتـرك جلنـار عنـد هـذا الحـد.. بـل ظـل مـا حـدث لهـا يطـاردني ويدفـع بحيـاتي إلى طريـق غـير محمـود العواقـب فقـط لـكي أراكِ. أرأيـتِ كيـف أجبرتـني الأقـدار عـلى لقائـك، هـل صدقـتِ الآن؟

انتهـت مهمـة بركـة وعلمـت سر جلنـار منهـا، ولكـني لـم أنتـه مـن حـبي لزوجـتي الجديـدة. فطلبـت منهـا أخـيرًا أن ننجـب.. ولـم لا؟ ظنـت أن زواجـى منهـا لـن يـدوم، فمـن مثلهـا لا يـدوم لهـا الهنـاء عِقـدًا مـن الزمـان حـتى يرحـل عنهـا. ولكـني أصررت. الآن يـا بركـة.. لقـد رضيـت بحيـاتي معـك، لـن أرحـل عنـك حـتى بعـد زوال خطـر الباشـوات وأصبحـت حـرًا. تلـك هـي الحيـاة الـتي تمنيـت قضـاء أيامهـا.

كان حسـين يـا فـيروز. أسـمته عـلى اسـم حبيـبي وصاحـب الغـلاوة الحسـين بـن عـلي. تعلقـت بـه منـذ أن كان بـروزًا ببطنهـا. سـمعت أنفاسـه كلمـا ارتكنـت بـرأسي عـلى جسـدها مـن التعـب وهـي تداعـب خصـلات شـعري في حنـان تحـت ضـوء القمـر. أحببتـه مـن حـبي لأمـه. وشـاركتها كل يـوم مـن أيـام حملهـا دون ملـل. تغـير جمالهـا فلـم أبـالِ. فشـلت في كتمـان آلامهـا فلـم أشـكُ مـن فلتـات غضبهـا. احتضنتهـا كمـا احتضنَـت حسـين طـوال التسـعة أشـهر في سـعادة تعجـب منهـا الجميـع مـن جـيران الحـارة. كنـت أثمّـن كل يـوم تعـود فيـه روحهـا إلى جسـدها بعـد انطلاقـة النـوم حـتى وإن قبحـت في نظـر الـكل. بـل كانـت خلابـة يـا فـيروز. جسـدها الصغـير بـبروز ضخـم، زاد مـن بهائهـا جمـالًا. تهدّجـت خصـلات شـعرها وغـاب عنهـا انسـيابها فعشـقت خشـونته أكـثر فأكـثر. أقسـم لـكِ أني مـن فـرط حـبي لهـا لـم أتقـزز مـن حملهـا لقضـاء حاجتهـا بـين يـدي وقـد خـارت قدماهـا لحمـل بطنهـا فمـا عـادت تتحـرك إلا بـين ذراعـي. أحببتـك يـا بركـة حبًـا فـاق الوصـف. وكانـت تلـك غلطـتي.

جـاء يـوم الميـلاد. وتجمعـت نسـاء الحـارة بالغرفـة بالدعـوات حـول زوجـتي والقابلـة بـين رجليهـا. ربـت رجـال الحـارة عـلى كتفـي وأطعمـوني الشـاي والينسـون

على المقهى رغمًا عني لأهدأ من انفطار قلبي على صراخها. كان يخرج إلينا من فتحات الشيش المحطمة فيزيد من استغفارات الرجال ويضرب عيني بدمع آلمني. تعجبوا جميعًا مني. إنه الاسطى عزيز القوي ذو الهيبة بينهم والجدعنة. كيف يدمع لصراخ امرأته؟ غفرت لهم حيرتهم فهم لا يعلمون. فقد كانت بركة هي الروح التي خلبت جسدي ولم تفارقه أبدًا.

أتعرفين ما معنى العشق يا فيروز؟ كنت أتشدق بتلك الكلمة دون أن أعرف مقصدها الحقيقي. فقط كلمة تعبر عن حب الرجال والنساء، استقاها الجميع من أشعار المعذبين. ولكن في يوم كنت أصوغ تحفة نحاسية أخرى. وأخبرني المعلم وهو يهرش لحيته البيضاء «فلترقق حواف الصحن حتى يتعشّق في غطائه يا أسطى». عندها علمت المعنى وقد شعرت به سابقًا دون حديث. العشق: روحان يلتحم كل منهما بالآخر.. ليس لأولهما غنى عن ثانيهما، ولا لثانيهما مقام ولا حياة إلا برقوده بين لحام أولهما. كنت وبركة روحين تعشّقنا بقلب واحد. فلم تكن دموعي على صراخها مجرد شفقة، وإنما ألم مثلها. فما كانت تشعر به ويضرب جسدها، يعود إليّ ويهشم جسدي. كنا شخصا واحدا يا عزيزتي.

حتى جاء حسين إلى الدنيا، وحملته وحملتني بدموع الفرحة إلى حضنها. وتجهزنا لحفل السبوع بقلب الحارة.. فيسعد الجميع بسعادتنا. ونفتخر بوليدنا كملك علويّ تحتفل المحروسة بتتويجه سيدًا على قلوب أهلها.

وكان ذلك الحفل هو منبع أحزاني يا فيروز.

أذكر كل شيء كالبارحة تمامًا. أشرفت بنفسي وبساعدي أيضًا على تزيين الجدران بأحبال الاضواء الملونة. وأخرجت ما ادخرته من يومية الورشة واشتريت عجلًا لذبحه. وتوسطت قلب الحارة وحولي دوائر الرجال نصيح ونقارع كفوفنا في ابتهاج بليلة العمر. أما هي.. فقد كانت بين النساء ببيت إحدى جاراتنا الواسع وقد ضاقت غرفتنا البسيطة بزحام المهنئات.

الابتسامة يا فيروز. تلك الابتسامة الأخيرة علت وجهينا وكل منا بين أصحابه. تراني من خلف أسياخ نافذة الجارة. تراقبني في وداعة وفرحة هادئة والنساء خلفها يحتفلن بالمولود برقص وغناء. وأراها من خلف أعمدة الرجال

داخـل دائـرة أحاطـوني بهـا.

أعطتهـا الجـارة لفافـة حسـين فاحتضنتهـا ونظـرت إليّ. وأشـار إليّ كـوارشي بذراعـه إلى حلبـة آدميـة مـن الرقـص لأبهـج الجميـع. فذهبـت إليهـا خلـف النافـذة المطلـة عـلى الطريـق..

همسـت إليهـا وأنـا أقبـض عـلى الأسـياخ الفاصلـة بيـني وبينهـا: يريـدون مـني أن أرقـص يـا أم حسـين..

ابتسـمت لي وداعبـت إصبعـي حـول السيخ الحديـدي البـارد بإصبعها فأشـعلته دفئًـا: فلتفعـل يـا سيدي.. إنـه عـلى شرف حسـين..

استفزتني في مزاح: أم اااا.. أم لا يعرف عزيز بِك كيف هو الرقص بالعصى؟

غابـت بسـمتي وتحجـر وجهـي فتعجبـت وقـد ظنـت أنهـا أهانتـني. تركتهـا وتحركـت في تصميـم وإصرار إلى الرجـال بجلبـابي الجديـد وعبـاءتي المسـتوية حـول كتفي وحـتى أعقـاب قدمـي. لـم أنظـر خلفـي، لـم أعـد النظـر اليهـا مـرة أخـرى. بـل تقدمـت بقـوة واخترقـت الحلبـة. أفلـت العبـاءة أرضًـا والتقطـت العـصى الـتي رماهـا إليّ كـوارشي في الهـواء دون حـتى أن أراهـا. كنـت كمعلِّـم متمـرس حقًـا.

تعالـت صيحـات الرجـال مهللـين. وضربـت الهـواء بالعـصى في رقـص عنيـف، أتمايـل مـع المزامـير ودقـات الطبـول في اسـتمتاع. كانـت هـذه هـي اللحظـة الأخـيرة لعزيـز بِـك.. وانسـاب كل مـا مـضى مـن حيـاتي تدريجيًـا تحـت قدمـي كلمـا رفعتهـا وأسـقطتها عـلى رمـال جِنّـة برقـص عـلى إيقاعـات الاحتفـال. غفلـت عـن بركـة في غمـرة النشـوة الـتي أحاطـت بي. ولا أذكـر كـم مـر مـن الوقـت. فقـد كنـت أرقـص وأرقـص.. حـتى انخدلـت ذراع عـازف المزمـار.. وأجـبرني عـلى ختـام مقطوعتـه.

ضجـت جـدران الحـارة بالتصفيـق. فالتفـت إلى أسـياخ النافـذة ومـن كانـت وراءهـا ضاحـكًا لهـا. ولكـن.. لـم أجدهـا! أيـن ذهبـت؟ اهـتز كتفـي لربتـات الرجال مـن حـولي عـلى مـا أبدعـت مـن رقـص وأنـا متجهـم بالنظـر إلى جلسـتها الخاويـة. لـم أفهـم إلى اليـوم سـبب ذلـك الشـعور المؤلـم الـذي رفـس قلـبي قلقًـا عليهـا. فربمـا غابـت إلى جلسـة النسـاء. ولكـن.. لـم أظـن أن ذلـك هـو مـا كان حقًـا.

اتجهت إلى النافذة وصحت بجارتنا: أين بركة! أين زوجتي وولدي؟!

تعجبت المرأة من صياحي وقلقي فضحكت وضحك النساء: اااااه يا بركة ليت رجالنا كرجلك.. يـ...

قاطعتها بقوة انتبه لها تجمع الرجال: انطقي!

بهتت واقتربت مني في طلب الهدوء: على رسلك يا حبيبي.. لا تقلق.. لقد جاء إليها «الواد موزة» وأخبرها أن هناك من يسأل عليها فعادت إلى غرفتكما..

تركتها ورمحت في قوة انتبه لها الرجال الآن بكامل طاقاتهم. فتعجبوا وتبعوني وهم يمطرونني بالأسئلة عن سبب غضبي. تجاهلتهم واتجهت إلى الغرفة. كانت نافذتها مغلقة في وجهي عندما عبرتها من خارج البيت. لماذا أغلقتها بركة؟ اندفعت إلى الداخل.. فوجدت باب الغرفة محطمًا.

تداخلت أصوات الرجال من هول ما رأينا، فانطلقت إلى الداخل بين حطام الأثاث أبحث كالمجنون عن زوجتي وولدي. صاح أحدهم: أين تبحث يا اسطى.. الغرفة.. شبر وربع.. لو كانت موجودة لرأيناها..

كنت أبحث في ذلك «الشبر» عنها كالمجنون رغم منطقية جاري. كنت هلِعًا لا أصدق أنها غير موجودة. فرغت روحي فجأة بغيابها فطار عقلي. أخرجتني يد كوارشي من إغماءتى الغاضبة فصرخت دون مقدمات: يا موزة! اعثروا على الولد!

جاء الطفل بخطوات خائفة يقترب مني، فصرعته: من الذي سأل عليّ.. من الذي رحلت إليه بركة؟

تلعثم الطفل وبكى من الخوف: بـ.. بك كبير.. و..

قبضت على كتفيه فصرخ، فوقف الرجال بيني وبينه فأكملت رغم ذلك: انطق! وماذا؟

خرجت كلماته مبللة بدموعه: بـ.. بك كبير يا أسطى.. ومعه هانم كـ..

ابتعدت عنه منتفضًا قبل أن يُكمل عبارته: لا! أنت تكذب!

سألني كوارشي في حيرة: ماذا يحدث يا عزيز؟ أي بك.. وأي هانم؟

التحم فكّاي في غضب حتى كدت أن أحطم أسناني، وخرج زفير الغضب متعاقبًا من أنفي حتى أحرق شاربي، وهمست في غل: لا! ليس مرة أخرى!

ركضت كالمجنون في طرقات القاهرة. لم أذكر أي مواصلة ركبتها، وكم مضى من الوقت حتى انتصبت أمام تلك البوابة اللعينة. خرج إليّ البواب الذي بدا أنه كان جديدًا على المكان: إلى أين يا بلدينا؟!

ضربته في صدره في غضب وثبات فسقط خوفًا: أين تلك الساقطة!

حاول إجابتي ولكن آلام صدره منعته. فاندفعت إلى الداخل دون تردد. عبرت الحديقة التي لطالما مررت بين جانبيها منكس الرأس من سخرية كامل الحداد كلما عدت من مكتبي. وصلت إلى مقبض باب القصر الذي لطالما تمنيت أن تؤدي استدارته في كفي إلى انفجاره وزواله ومَنْ داخله عن الوجود. فتحته وضربت الباب بقدمي. دخلت فكان البهو فارغًا. اندفعت إلى الداخل أبحث عن تلك اللعينة ولكن.. تسمّرت قدمي على صوت موسيقاها الأوبرالية المفضلة لها وهي تشدو من غرفة النوم بالطابق الثاني.

طويت الدرجات صعودًا، فزدات حدة الموسيقى ارتفاعًا حتى ظننتها ضحكات خبيثة تغتال روحي وتسوقها إلى غضب عارم لن تكون عواقبه محمودة. ولم أهتم.

كسرت الباب بضربة من قبضتي فانفلق نصفين. دخلت فوجدت حبيبتي فانخلع قلبي على ما كانت عليه.

كانت ممددة، مفرودة اليدين والرجلين بقيود غليظة بدعائم الفراش. والدم يقطر من فمها وعينيها. قضبان زرقاء استقرت على رجليها العاريتين من ضربات السوط. ودموع أغرقت وجهها حتى اختلطت بدمائه وغابت عن الوعي.

اندفعت تجاهها وأحللت قيدها وأنا أبحث بعيني الملتهبتين عن تلك المجرمة. احتضنت بركة فلم تستجب لحضني بل استمرت في إغماءتها. حاولت إفاقتها لولا أن صرعني صوت اللعينة من خلف جدار مختبئ بالغرفة

الواسـعة وهـي تدنـدن مـع الموسـيقى.

نظـرت إليهـا. فرأيتهـا تجلـس عـلى مقعدهـا الهـزاز أسـفل النافـذة. تحتضـن ولـدي وتـضرب بثديهـا العـاري فمـه وكأنهـا تجـبره عـلى الرضاعـة. لـم تنظـر إليّ، فاندفعـت إليهـا كصاعقـة لحظيـة متمنيًـا القبـض عـلى عنقهـا كمـا حلمـت دومًـا. ولكنهـا انتفضـت قبـل أن أفعـل ومـدت بولـدي ذراعيهـا خـارج النافـذة وكأنهـا تهـددني بإلقائـه موتًـا.

تسمّرت مـكاني، بينمـا همسـت هـي دون أن تنظـر إليّ، بـل كانـت تراقبـه معلّقًـا في الهـواء: بابـا يريـد أن يقتلـك يـا حاتـم..

نظـرت إليّ في شر: ولكـن لا تحـزن يـا صغـيري.. فهـو معتـاد عـلى ذلـك.. فمـا أحبـه أحـد إلا قتلـه..

لـم أتمكـن مـن كتـم غضـبي كمـا فعلـت مـع قدمـي: اتـركي ولـدي يـا ليـلى وإلا قتلتـك حقًـا!

ضحكـت وعـادت إلى جلسـتها، فتحركـت نصـف خطـوة. فعـادت ووضعتـه بالهـواء فتسمّرت مـرة أخـرى، وعندهـا جلسـت ترضعـه مـن ثديهـا الفـارغ وقـد علمـت أني لـن أحـاول مجـددًا: اهـدأ يـا عمـري.. واتركـني لأطعـم ابـني.. ألـم تسـمع أن اللـبن الأول لـلأم.. السرسـوب أليـس كذلـك؟ هكـذا يسـمّونه.. لـبن السرسـوب هـو أفضـل غـذاءٍ لـه؟

جحظـت عيـني ودُكّـت أسـناني مـن الغضـب وأنـا محبـوس بخطـوتي: لمـاذا! ألـم يكفيـكِ مـا أهدرتـه مـن عمـرٍ إلى جـوارك؟ لقـد ظننـت أنـك نسـيتني.. لقـد ظننـت أني تحـررت منـك أخـيرًا.. لقـد...

قاطعتـني وهـي تـضرب ثديهـا بعنـف عـلى وجـه صغـيري: توقـف توقـف! لـم كل هـذا النـواح يـا عمـري.. أتظـن أني أريـد إيـذاءك.. كلا واللـه.. بـل أريـد مكافأتك.. أنـت زوجـي الحبيـب.. الـذي يحبـني.. يحبـني للغايـة.. يحبـني حـتى الجنـون.. حـتى أنـه لـم يـرد إرهـاقي بحمـل وولادة.. فاسـتأجر لي رحمًـا لينجـب منـه ابـني.. حاتـم.. مـا رأيـك.. يشـبهني.. أليـس كذلـك؟!

صرخت بها: اخرسي! ابني اسمه حسين.. ولستِ أمه.. بركة هي أمه..

أشـارت إليّ بسـبابتها في هـدوء بـارد نافيـة: لا لا.. بركـة مـا كانـت إلا البهيمـة الـتي اسـتضافته بـين نجاسـة أحشـائها لبعـض الوقـت.. (حدثـت الطفـل في مداعبـة جنونيـة) ولكـن لا تخـف يـا صغـيري، الآن سـأنظفك، وأضعـك في فراشـك الخـاص، أجـل.. اشـتريت لـك فراشًـا لـك وحـدك.. فأنـت ابـن أمـيرة.. ملكـة.. ولا يجـوز أن تشـارك أحدهـم الفـراش كذلـك الأحمـق وامرأتـه.. أجـل أجـل.. معـك حـق.. إنـه مـن العيـب أن أصـف بابـا بالأحمـق.. لقـد أحسـن تربيتـك يـا حبيـبي.. و.. و.. ولكـن دعـني أخـبرك سرًا... بابـا أحمـق فعـلا!

طرفـت عـين بركـة في تـردد بطـيء، وكأنهـا بـدأت في الخـروج مـن إغماءتهـا. بينمـا يئسـت ليـلى مـن خـروج اللـبن مـن ثديهـا البـالي، فأرجعتـه مكانـه وزادت مـن قبضتهـا عـلى ابـني وبـدأت في اهتزازهـا الاسـترخائي عـلى مقعدهـا التافـه..

«أنتِ مجنونة! لقد فقدت عقلك!»..

قلتهـا وأنـا غـير مصدق لتلـك الحالـة الـتي وصلـت إليهـا. نعـم كنـت أعلـم أن بعقلهـا خلـلًا وأرجعتـه قبـلًا إلى جنونهـا بحـبّي، ولكـن الأمـر قـد تخطـى حـد العواطـف السـاخنة. كانـت ليـلى حقًـا مخبولـة.

راقبتـني في جمـود وجسـدها يتمايـل للأمـام والخلـف كحـبر يهـودي يـؤدي صـلاة لـم أعـد أؤمـن بهـا، ونطقـت: كان حريًـا بـك أن تقتلـني ولقـد سـمحت لـك بذلـك، بـل رجوتـك أن تفعـل.. ولكـن حـتى وإن وضعـوا السـيف بيـد العبـد فهـو أكـثر ذلًا مـن أن ينظـر بعـين سـيّده ليسـبّه حـتى.. لا ليقتلـه، لـن أخفـي عليـك الأمـر.. تعجبـت حقًـا منـك يومهـا، كنـت أعـرف أنـك تشـتعل بكراهيتـك تجاهـي.. ولكنـك لـم تقتلـني؟! الحـق أني فكـرت في الأمـر طويـلا، ولكـن.. لـم يعـد الأمـر غريبـا.. وقـد تزوجـت مـن تلـك السـاقطة.. واجـه نفسـك يـا عزيـز.. مـا أنـت إلا مجـرد عبـد تـزوج مـن جاريـة.. ولكـن! إن أراد السـيد إنهـاء تلـك اللعبـة.. فلسـوف يفعـل ولـن تجـرؤ عـلى......

قاطعتهـا في عنـف: بـلى يـا ليـلى! كنـت عبـدًا، ولكـن انصـتي جيـدًا.. كنـت! والآن.. لـولا احتمـاؤك السـافل بجسـد ولـدي.. لقتلتـك بطرفـة عـين!

نهضـت وهـي تحملـه فاسـتفاقت بركـة، ومـا أن فعلـت حـتى احمـر وجههـا

خوفًا مما ترى، فواجهتني ليلى: لا! ليس ولدك وحدك.. إنه ابني أنا الأخرى..

صاحت بركة بصوت قطّعه الألم: سدّي فاهِك يا «مرة».. إنه ابني!

انفجرت ليلى في الضحكات حتى اهتز حسين بين يديها: حسنًا حسنًا.. أنا لست شيطانًا كما يدّعي زوجك.. خذيه ولترضعيه.. فأنا أخشى على ابني من الموت مثل أبيه تمامًا..

تعجبت لها، كيف ستسلم الطفل إلى بركة بتلك السهولة دون أن تخشى انقضاضي عليها وقد غابت حمايتها؟ ولكني لم أهتم حينها، بل راقبتها حتى وضعته بيد بركة التي خطفته في لهفة، وانقضضت على عنقها حتى سقطت وسقطت فوقها..

خرج صوتها متقطعًا أسفل قبضتي على عنقها، وكانت تضحك بالرغم من ذلك: اهدأ يا عمري.. اتعتليني أمام امرأتك؟

رفعت رأسها من عنقها وضربتها بالأرض عدة مرات دون أن تتألم بل حافظت على بسمتها: ما الذي حدث لكِ! والله لأقتلنك..

- اااه.. لازلت تعد بما لا تفي..

- فلتدعِ ربك أن يغفر لك..

- لا أحتاج لذلك..

- كافرة!

وما أن هممت بكسر عنقها حتى صرخت بركة صرخة أفزعتني، فاتسعت ابتسامة ليلى لشيء ما خلف ظهري. التفت في بطء.. فوجدت فوهة مظلمة من سلاح ناري تستقر بين عيني..

رفعت يدي في الهواء، فانفلتت ليلى من تحتهما ونهضت تضبط ملابسها بهوس الهوانم وربتت على كتفي ولا زلت بجلستي أرضًا: لست كافرة.. بدليل أن الله أرسل إليّ من يحميني منك.. أم أن مخالطتك للأرذال أنستك أن دعواتنا تستجاب أيضًا؟

عبرتني ليلى إلى بركة مرة أخرى وجلست إلى جوارها في صمت، بينما تقززت

بركـة مـن ملمـس جسـدها وابتعـدت قليـلًا فجذبتهـا إليهـا في عنـف. فنهضـت وواجهـت صاحـب السـلاح: لـم تتعـرف بكلبـك الجديـد يـا ابنـة الباشـوات!

ضربـني الكلـب بسـلاحه عـلى عيـني فطرحـني أرضًـا، بينما زامـت ليلى في اسـتنكار: عيـب يـا عزيـز.. هـل تجـرؤ عـلى مخاطبـة حـضرة الصاغ بتلـك النـبرة؟ ولكـني لـن أخفـي إعجـابي بمـا أصبحـت عليـه.. تقـف في شـموخ أمـام النـار دون خـوف مـن إحراقهـا لروحـك.. وقـد كنـت قبـلًا تفـزع إن خالـط الضـوء ظـلًّا لكلـب.. حـتى أصغـر مـن ذلـك الـذي تتشـدق بـه في تشـبيهاتك.. حقًـا.. خمـس سـنوات ربمـا تصنـع أكـثر مـن ذلـك!

توسلت إليها بركة في خوف غاضب: ماذا تريدين يا ست؟

واجهتهـا: لا لا.. أنـا لا أحتـاج لأن أُسـأل عمـا أريـد حـتى يُنفـذ.. فمـا أشـتهيه يحـدث بالفعـل.. قبـل أن يخطـر حـتى السـؤال عـلى بالـك..

اعتدلت في نومتي وأنا أمسح دماء عيني: لن أعود لكِ مهما فعلتِ..

قطـع الصـاغ عبـارتي في غلظـة: اصمـت يـا ابـن الـكلاب.. لسـت في موضـع يسـمح لـك باتخـاذ أي قـرار..

رمقته في احتقار: إن قبلت أن أشاركك فيها أيها القذر.. فأنا لن أقبل!

هـم الصـاغ يدهسـني بقـدم غليظـة، فأوقفتـه ليـلى: عـلى رسـلك يـا حـضرة الصـاغ.. اهـدأ يـا عزيـز.. فمـن يقـف أمامـك ليـس رجـلًا مسـلحًا فقـط.. ولا حـتى فحـلًا يفلـق الأسرّة برجولتـه فحسـب.. (وضحكـت في سـفالة).. بـل هـو رجـل مـن رجـال الثـورة.. وإهانتـه.. تعتـبر في هـذا الزمـان مـن علامـات الخيانـة للدولـة..

نهضـت في بـطء وقـد فهمـت: اااه.. الآن فهمـت.. بعـتِ نفسـك إليـه لتحافظـي عـلى مقامـك.. أليـس كذلـك؟ لطالمـا كنـتِ رخيصـة!

نظـرت إليّ في حنـق وكأن إهانـتي أصابتهـا هـذه المـرة، فأشـارت إلى الفحـل: مـن فضلـك يـا حبيـبي.. خـذ الهانـم وابنهـا إلى الخـارج.. وترفـق بهمـا.. فأنـا أريـد طليقـي في مسـألة بسـيطة..

تقدم الفحل من بركة التي استنجدت بي: يا إلهي! انجدني يا عزيز! انجدني!

انطلقـت وقبضـت عليـه ولـم أعـد أهتـم بسـلاحه، فغـزا الغرفـة رجـلان آخران،

قبضا على جسدي وألصقاه بحائط في غلظة، فشلّت حركتي تحت أذرعهم الكبيرة، فتدخلت ليلى: لا تقلق يا عزيز.. ما دمت تطيع كعبد مخلص.. فلن يصيبهما أي أذى.. تفضلوا يا رجال جميعكم..

أحكم الرجلان قبضتهما عليّ حتى أنهض الفحل بركة وصحبها إلى الخارج. راقبتني في حزن ودموع وأنا مكبل بالأجساد، نظرت إليها في حنين وقد خشيت أن تكون المرة الأخيرة التي أراها فيها، بينما وبالرغم من آلامها وأحزانها.. أومأت إليّ في بطء وكأنها تواسيني على ما يحدث.

اختفت بركة، وهرع الرجلان إلى الخارج خلفها ووقفا على عتبة الباب المحطم شاهرين أسلحتهما. كاد جلدي أن يذوب من سخونة غضبي، وظلت عيناي جاحظتين من شر العاجز الذي لا يقوى على إفراغ غلّه فيمن يكره. فتحركت ليلى إلى كرسيها الهزاز مرة أخرى وجلست. فراقبتها في صمت ملتهب الأنفاس..

أخرجت سيجارة من نوع غريب وأشعلتها، وأبدلت بينها وبين كأس من الخمر وهي تتحدث في هدوء وكأن عقلها عاد إلى مكانه أخيرًا: أحبتك يا عزيز.. لا شك في ذلك.. وتريد قتلي.. ولن أعارضك في هذا.. فأنا حقًا شيطان جامح.. ولكنك تعلم يا عمري شعور.. شـ.. شعور ذلك الشخص الذي يعرف حقيقته.. يعرف قبحه.. بل يكره نفسه كلما تعثرت نظراته في مرآة.. ولكنه عاجز عن أن يكون شخصًا آخر.. كنت كذلك يا عزيز وها قد تبدلت.. ولكني لازالت على ما أنا عليه.. ولا أمل فى.......

«لا شأن لى بمأساتك.. فلتقتلي نفسك إن أردتِ!»..

ابتسمت في بؤس وعقدت رجليها في أناقة الهوانم: تمنيت ذلك.. ولكن مع الأسف.. أنا أحب نفسي أكثر من اللازم.. ولم أكن مستعدة قط للسماح للموت باصطيادى إلا بيد شخص واحد.. شخص أحببته أكثر من نفسي.. أنت يا عزيز..

«اقصري يا ليلى.. فقط أخبريني بما تريدين لأعود وأسرتي إلى ما كنا عليه.. ولا داعي للحرب»..

استوقفتني بنظراتها وكأنها اتحدت مع ما قلت: اااه.. ها هي.. الحرب.. إنها الحرب حقًا يا عزيز.. الحرب التي كتبت عليّ وأمي منذ زمن.. ولن تنتهي.. إلا كما انتهت بالنسبة لأمي.. بموتي مثلها.. اجلس!

رفضت الجلوس، فتنهدت وأشارت إلى أحد رجليها بالخارج فهمّ بالدخول شاهرًا سلاحه، فضربت الفراش بيدي وجلست عليه في غل، فابتسمت: هكذا إذا يا رجل.. لا يجب أن أشهر السلاح بوجهك كلما أردت منك تنفيذ أتفه الأمور.. عيب!

- ماذا تريدين؟

- أريد ابني يا عزيز..

- لا يستحق ما تقولين أن أجيب عليه.. حتى ولو كان بصفعة أخرى على وجهك!

ابتسمت لي: سأخبرك بما لا تعلم إذًا.. لم تنل شرف رؤية أمي أليس كذلك؟ أمي يا عزيز كانت امرأة بالغة الجمال، ربما أكثر من جلنار عشيقة أبي التي استبدلها بذكرى أمي، أقسم بحبي لك أنها كانت فاتنة حتى يوم موتها.. وفي يوم رآها أحد أقرباء الملك فؤاد.. أمير لم يفرق عنها بهاءً ولا جمالًا.. فأعجبته وأعجبها.. وأدخلها فراشه وطارحته الغرام.. حتى حملت منه، أنت تعلم بالطبع أن أمي لم تكن علوية.. ولكنه وعدها بالزواج وأن يجعل منها ومن وليدها أمراء من النسل الشريف، ولكن.. علمت إحدى عشيقاته بالأمر.. امرأة مثلي أحبته.. ولم يقابل حبها.. مثلك تمامًا.. فما فعلت؟! طلبت منه سهرة أخيرة.. وشاركته الخمر.. فما طلع عليهما الصباح.. حتى مات كلاهما..

«ومالي وما تقصين؟!».

أشارت إليّ بالصمت في جنون المجاذيب: فقط اسمع.. أتعرف ما فعلت تلك المرأة؟ وضعت قبعتها الوردية التي اشتراها لها من باريس بمحلول ملحي.. ثم مزجته بالخمر.. وقررت أن تموت معه بالسم الذي اشتراه لها بنفسه! لا تصدق بالطبع.. ولكنها حقيقة يا عزيز واسأل عنها ما تبقى من القصر حينما تعود إلى الحياة..

قاطعتها في تعجب: أعود من أين؟!

زفـرت في ضيـق: لا تريـد أن تسمع أليس كذلـك؟! إنهـا إهانـة لـو كنـت تعلـم.. فمـا أقصّـه عليـك هـو مـن الأسرار العميقـة لأروقـة قـصر عابديـن.. فانصـت! المهـم.. حاولـت أمـي أن تثبـت نسـب وليدهـا ولكـن.. رفضـت نسـاء القـصر ذلـك.. بـل أجبرنهـا عـلى الـزواج مـن أبي، وأجـبروه أيضًـا عـلى قبـول أن ينسـب الوليـد لاسـمه في مقابـل الباشـوية.. فوافـق اللعـين، وتزوجـت أمـي بـأبي كرهـا.. وأنجبـاني رغمًـا عنهمـا.. وأصبحـت بالـكاد ليـلى هانـم الحـداد.. بعدمـا كان مقـدرًا لي أن أكـون الأمـيرة ليـلى سـليلة محمـد عـلي باشـا..

قـرأت مـا أرادت قولـه: ألهـذا قضيـت حياتـك تسـعين وراء السـلطة؟ أتظنـين أنـك سـتحكمين في يـوم مـن الأيـام؟

انتفـض وجههـا في غضـب: حقـي! أنـا أمـيرة وإن لـم تشـهد الأوراق بذلـك! ويومًـا مـا كنـت سـأكون ملكـة عـلى مـصر.. و...

اشـمئززت منهـا ولـم أخـف بعـض الشـفقة عـلى حالهـا: أنـتِ مريضـة يـا ليـلى! لـن يحـدث مـا يخدعـك عقلـك المخبـول بـه..

تهللـت أسـاريرها فجـأة: بـل أوشـك أن يحـدث.. أرأيـت ذلـك الفـلاح الـذي أهانـك بسـلاحه منـذ قليـل؟ هـو مـن رجـال الدولـة الآن.. انقلبـت الأمـور وأصبـح الفلاحـون يحكمـون.. لا بـأس.. هكـذا هـي الدنيـا.. ولكـن ليـلى الحـداد لـن تيـأس، تعرفـت عليـه وجعلـت منـه عبـدًا لشـهوته تجاهـي.. وسأسـاعده ليتقـرب مـن عبدالنـاصر.. وربمـا يحـل محلـه في يـوم مـن الأيـام.. وعندهـا سـأكون زوجـة ملـك البـلاد.. أو رئيـس البـلاد لا يهـم..

نهضت واتجهت إليها متعجبًا في أسى: أنتِ ساقطته يا ليلى.. لن يتزوجك!

رمقتني في غضب: عُد إلى مكانك!

أكملـت: حـتى وإن فعـل.. فلـن يصبـح ذلـك الأبلـه رئيسًـا عـلى مـصر أبـدًا.. مـن يعبـد امـرأة لا يصلـح لأن يكـون إلهًـا عـلى دولـة.. اسـتفيقي.. فخطتـك الجهنميـة مـا هـي إلا سرد تافـه لفكـرة مجنونـة..

ارتفعـت بقامتهـا أمامـي في شـموخ والتصقـت بعيـني في تحـدٍ: كان حقـي منـذ

سنوات مضت أن أنجب منك طفلًا.. منك أنت وحدك.. فأنت حبيبي حتى وإن كرهتك.. وذلك السرد التافه للفكرة المجنونة أيها الطبيب الماهر.. هو من سيجعل من ابن الساقطة ابني.. و...

أمسكت بمجمع ردائها: كلا لن تفعلي!

وضعت راحتيها على وجنتي: لو كنت تركتني أكمل لما قلت ذلك الكلام.. سلطتي هي من ستجعل من ابن الساقطة ابني.. وهي من ستزيحك من طريقي إلى الأبد.. ليس هذا فقط.. وإنما ستذيقك من العذاب أضعاف ما ذقته في بعادك يا عمري..

- لم أعد أخشاكِ..

- قلتها من قبل فلا تكرر نفسك.. واستمع إلى ذلك مثلي «حاتم عزيز قاسم».. اسم عظيم.. وسيزداد عظمة عندما يسكن اسم ليلى الحداد خانة الأم..

وقبل أن يهتز هوائي لحركة مني، صرخت بصوت مخيف ووجه قبيح أفزعني: بركـــــــــــــــــــــــــــــــــة!

دخل الرجلان وكبلاني بذراعيهما وحفرا بفوهات أسلحتهما جانبي رأسي، ودخل الفحل ببركة وبين يديها ابني. اتجهت ليلى إلى بركة وحاولت خطف الطفل منها، فصرخت: لا.. يارب الغلابة.. انصرنا عليها يارب!

قاومت الرجال وحاولت التدخل، لكنني لم أستطع فما كان مني إلا أن قاومت في عجز، بينما قبض الفحل على كتفي بركة فألجم حركتها وخطفت ليلى ابني وتحركت مبتعدة في بطء: حضرة الصاغ!

أخرج الصاغ سلاحه ووجهه إلى بركة. اشتعل وجهي وانتفضت مفاصل جسدي لمقاومة الرجلين، كنت أهتز كالمحموم في عنف، حتى سقطنا ثلاثتنا، فاعتلاني أحدهما وطعن ركبته فوق صدري، بينما نام الآخر بمرفقيه على جانب رأسي فألصق جانبه الآخر بالأرض. صرخت: لا يا ليلى!! اقتليني أنا!

هبطت على قدميها وأنا عاجز عن الحركة كميت تركه أهله للحساب: بل تنظر يا عمري إليها.. راقب آخر لحظات الحياة وهي تنساب من عينيها..

تمامًا كما فعلت وأنا أراقب رحيلك عني.. فلتتألم كما تألمت!

نظرت إلى بركة وأنا أزوم في صراخ حتى أثقب لعابي وجه ليلى. رأيت بركة وهي تقف بجسمها الضئيل وحدها، رأيت هالة من الضوء تلتف حول جسدها وهي تضم ذراعيها المفرودتين أمام رجليها في انكسار. نظرت إليّ في دموع هادئة وكأنها تقبلت المصير. جحظت عيناي وتكسرت أسناني وأنا أرفس تحت قبضات القدر. ذلك القدر الذي أجبرني على رؤية من أحب ذليل انتظار ملك الموت.

نظرت إليّ في ابتسامة وتوهجت هالة الضوء الأبيض حولها وهمست: خدمة رجليْك كانت بعمري كله يا سيدي.. ادع لي عند الحسين..

انتفخ وجهي حتى غطت وجنته عينيّ، صرخت في هيستيرية وانتفضت في عنف حتى اهتزت أجساد الملاعين فوق ظهري ووجهي. ولكن.. فجأة توقف الزمن.. ولم أعد أرى من ليلى ورجالها إلا أجسادًا تتحرك بنصف سرعتها. وأضاءت الغرفة بوجه بركة وتطايرت خصلات شعرها في بطء كأجنحة هادئة لملاك قرر الرحيل. ابتسمت لي.. فبهت وجهي وجرحت الدموع عيني بمجرى مؤلم. هدأت ثورتي وأبدلتها الحسرة بسكينة جمدتني. انقطعت أنفاسي وقد رأيت ذراع الفحل ترتفع بالسلاح ببطء أمام رأسها.

وهكذا.. لم أر الطلقة ولا النار.. فقط رأس بركة يرتد إلى الخلف، مرت الثواني التي سقطت فيها أمام عيني كسنوات، رأيت سقوطها لحظة بلحظة.. وكأن القدر أراد إطالة الأمر حتى أحصل على نصيبي كاملًا من الحسرة. فمات قلبي معها.

تلك هي أحزاني يا فيروز.. ولولا أن عدت إلى طريقك مرة أخرى.. لفعلت كما فعلت جلنار..

كنت أبكي كالطفلة. أنتحب في حمّى دون تحكم مني. لم أكن أشفق عليه فقط، وإنما على تلك المسكينة التي ماتت فقط لأنها أحبت. لم أعلم ما الرد المناسب على ما قال. فهو لم يدمع لمرة واحدة طوال سرده لقصته. بل كان غائبًا في عالم آخر. كان مسكونًا بذكريات لم أكن

لأتحمل كسرة خبز منها.

حاولت أن أجد الكلمات، لولا أن أكمل في شرود:

«وبعدها.. كتبت ليلى ابني على اسمها واسمي.. واقتادني عشيقها.. إلى المعتقل.. اتهام حقير بأني عدو للثورة.. وهناك قابلت فرج الورداني.. مَن رسم جلنار.. باعه أبوه هو الآخر ليأمن شر التأميم.. فصادقته.. وعلمت منه ما دار بينه وبين جلنار.. وعندها علمت أن مقابلتي به لم تكن صدفة.. وإنما قدر آخر.. يدفعني للعودة إلى طريقك يا فيروز»..

ترددت قبل أن أسأله: وإلى أين آلت تلك المرأة السافلة؟

ابتسمت في شفقة عليها. نعم شفقة، فما كانت إلا مريضة قتلت كل من حولها قبل أن تودي بنفسها إلى الهاوية: ماتت بتليف الكبد من كثرة خمرها.. كانت مسكينة..

آه يا عزيز.. بعدما قصصت ما قصصت، أتساءل كيف ظنت الأقدار أن لقاءك بي قد يشفي ما بصدرك من جرح لا أظن أنه سيندمل أبدًا. تركته في أحزانه وشردت أنا الأخرى في أحزاني.. كنت أشكو مقدرات حياتي وكأنه لم يخلق بالدنيا من هو أشقى مني، ولكن.. كيف ظننت ذلك.. وعزيز وحده رأى ما لم يره جيلي بأكمله.

شعرت طوال حكايته بخيط خفي يمتد بيني وبينه، وكأن رابطًا حقًا كان يربطنا ولم نره من قبل. لطالما أحسست أني غريبة عن العالم الذي جئت إليه. أحببت أمي ولم أسارع لإنقاذها بل راقبت موتها في سكون وكأن قلبي لم يكن ينتمي إلى ما حولها. قاطعت أبي واعتبرته ميتًا لذنب ارتكبته كثيرًا. إنه فقط أحب زوجته رغم خيانتها. اعتبرت استمرار حبه لها بل بكاءه عليها بعد موتها خيانة أخرى بحقي. غلب الغل على عواطفي فعاقبت الجميع وأولهم نفسي على لا شيء. أحبت أمي وأخطأت.. أحب أبي وسامح.. حتى عمرو.. أحب إيمان وهي تكبره بعمر كامل.. أحبها وهي مريضة.. وهي قبيحة صلعاء. وهي أحبته رغم مآسيها. وعاصم.. الذي أحبني حتى الموت.. ولم أنظر إليه بعين الشفقة. الجميع كان يحب..

وأنا فقط من كانت تكره.. ولم أعد أعلم.. من منهم كرهت وعلام كرهتهم.

أهذا هو الأمر إذا؟ أني لا أنتمي لهذا العالم؟ بجلسة عزيز وجدت السكينة التي بحثت عنها طويلًا. هل كان هو دواء الطاعون الذي غزا قلبي وعقلي؟ ربما..

لم أعد ساخطة عليكِ أيتها الأقدار بعد الآن.. فما كانت خطتك إلا لترسلي فيروز إلى سكينتها. كنت أنتظر الموت في استسلام. أما الآن.. فأنا أشفق منه.. لا أريد أن أفارق ذلك الرجل.. ولكن كيف لي أن أطاله وهو في عالم آخر؟

رأيت بعينيها شفقة لطالما تجنبت رؤيتها في أعين الجميع، ولكني هذه المرة لم أفعل، وكأني كنت أحتاج إلى ضمة من عين أرتاح إليها. غمرتني بدموعها فارتحت دون بكاء. تذكرت بركة أمامها فابتسمت رغم المآسي. ولاحت صورة ليلى أمام رأسي في وجودها، فسامحت رغم الألم. كنت أعلم أنها خيال لن يدوم. ولكن.. بدا الأمر وكأن الأقدار كانت تتعمد طوال تلك الفترة أن تسوقني إليها فقط لأرتاح.

لم تكن روحًا أكملتني كبركة. ولا روحًا أقبرتني كليلى. بل كانت روحًا تشبهني، وكأني أنظر إلى صوت عزيز الذي كان يهمس إليّ من بين أمواج ظلام نفسي. ربما هي تلك الحقيقة إذًا. فيروز جزءٌ مني. حتى وإن كانت في عالم آخر.. ربما ضلت عني يوم خلقت. ولكن ها هي الأقدار.. تصنع المكائد وتسوق بالطرق تحت أقدامنا حتى يعود كل شيء إلى ما كان يجب أن يكون عليه.

ربما ستسكن الآن يا عزيز وقد وجدت ما كان جزءًا منك وانفلت. ولكن.. كيف أصل إليك أيتها الروح الضائعة في ذلك الافق الخيالى؟ كيف؟

هل يعلم حنيني إليه؟ وهل سيراه على حقيقته؟ أم سيظنه حبًا تافهًا بين رجل وامرأة؟ أريد أن أبقى معه إلى الابد ولكن.. ليس كحبيبة ولا شريكة فراش. بل فقط إلى جواره. هل أخبره بذلك؟

«فيروز.. لن أقاوم البوح لك بما في نفسي أكثر من ذلك»..

«بل اصمت يا عزيز.. فما في نفسك.. في نفسي»..

«ليس الأمر كما تفهمين».

«لا أحبك يا عزيز.. وأنت كذلك لا تحبني.. فقط كل منـ...».

«فقط كل منا يحتاج إلى الآخر».

«صدقت.. ربما لم يكن الأمر جنونًا بعد كل ذلك.. ولكن كيف سنفعل الآن؟»..

لم يُجب. بل استمر في تحديقه الباسم إليّ. فابتسمت له رغمًا عني وعدت عليه الأمر: كيف سنفعل يا عزيز؟

غريب. لم يجب مرة أخرى، بل ظلت ابتسامته كما هي، فعدت إلى بعض من فيروز القديمة وتمكن الحنق مني: توقف عن تلك الابتسامة وأجبني..

ما الذي يحدث! لم يتعمد إغضابي بتلك الطريقة؟! عزيز!

لا.. لم يكن يحدق بي، بل عاد رسمًا أصم مرة أخرى: عزيز! عزيز!

قبضت على اللوحة في غلٍ فتوقف قلبي عن نبضاته بمجرد أن فعلت..

فما أن لمستها.. حتى انهالت رمادًا مفتتًا بين يدى!

تحجرت عيني وماتت وجنتي. دبلت جفوني وضمرت شفتاي. خرجت الكلمات من بينهما همسًا ثقيلًا وهي تحمل روحى معها إلى الرحيل.. تردد صوتي أصداءً داخل جدران نفسي الخاوية...

«عـ..عـــ.. عزيز..».

-١٣-

فيـــــروز الصيرفي

٢٠١٧

«ثلاث طرقات أخيرة»..

وكأنها استئذان ساخر من أقدار قاسية، تداعب بها أبواب الروح قبل أن تقبض ثناياها إلى غير رجعة. وثلاث طرقات أخيرة، كانت هي كل ما تطلبه الأمر لإسقاط ذلك الجدار الحجري الذي كان يفصل بيني وبين نهار جديد، لم آمل في بعثه، وعجزت عن رده.

كان الجدار يهتز وتترنح أحشاؤه بطرقات الرجال الأشداء الذين استأجرهم منقذي. كانت رقعة وجهه تتسع ظهورًا شيئًا فشيئًا كلما سقطت كومة من الأحجار المتراصة بيني وبينه. نظرت إليه فلم ير إلا عينًا كانت نصف مغلقة، لم أتجنب رؤياه هذه المرة، بل استغرقت في نومتي أرضًا أمامه دون حراك. كنت مستسلمة دون شروط. فلم أصد مشاعره كما اعتدت من قسوة، ولم أبادل عينيه اللهفة أيضًا. فقط كنت ممددة كجثة غابت عنها أمارات الحياة.

انهال الجدار واستحال جبالًا من التراب، اندفع عاصم كحجر آخر قذفت به أحزانه إلى الداخل، وتجاوز أجساد الرجال في عنف حتى أوشك أن يُسقط بعضهم أرضًا. راقبته من نومتي دون أن يهتز لي طرف وهو يسقط من اللهفة ويزحف بيدٍ ورجلٍ حتى يصل إلى جسدي الممدد. لم يهتم لاتساخ الأرضية وبما ستشين به سترته الرسمية من أتربة ورماد محترق، بل سقط على ركبتيه أمام عيني، وأحاط بكفيه رأسي ورفعه إليه وهو يلهث من الجزع والإرهاق..

«فـ.. فيروز! افيقي يا حبيبتي.. أأنتِ بخير؟ حبيبتي!»..

كنت أسمعه وأراه، ولكن بدوت بجسدي المتراخي بين ذراعيه، وجفنيّ المتهجدين حول استدارة مقلتيّ الخائرتين، كمن فارقت روحها مسام

الجسد منذ عصور. وكيف لها ألا تفعل؟ فقد غاب عزيز ولم يعد له من رجوع. استحالت اللوحة رمادًا كالذي أحاط بجثة فرج بعد رحيله. أفسد القدر جسره الوحيد الذي بناه بنفسه، بين عزيز العزيز وفيروز الضائعة.

بعد طول انتظار، بعد عقود من انفلاق جفنيّ على نور الدنيا ونارها، وقد كنت منذ حينها تائهة بعالم بائس لم أشعر قط أني ولدت من رحمه الشرعي، بعد سنوات من التخبط والترنح بين حبٍ لضعف وكراهيةٍ لانتقام، أخيرًا التقيت بانتمائي الوحيد إلى ذلك الكون العبثي، وما أن اعترف كل منا للآخر بأننا قوسان بدائرة واحدة، حتى انهارت تلك الدائرة واُبتلِعَت أطرافها داخل نقطة سوداء. فأصبحت بالكاد قوسًا تائهًا، ضِلعًا أعوج بفراغ غير مأهول بالآمال.

صرخ عاصم بالمساعدة وهو يرج رأسي في عنف محاولًا إفاقتي، فاندفعت المساعدة من فتحة الجدار وأفرخت جيشًا من رجال الإسعاف وطاولتهم البيضاء المحمولة استعدادًا لإلقاء جسدي عليها. رفض عاصم أذرعهم الممتدة إلى متعرجات جسمي، وحملني بنفسه إلى محفّتي، واستمر في مضاجعة كفيه لوجنتي، تارةً في إفاقة، وتارةً في حنين إلى دفء الحياة بهما.

عبرنا أنياب قصر أفندار من بين فكيه المنفلقين، وخرجنا إلى الطريق المكتظ ببعض من حضور الحفل وغيرهم من فضولي المارة، حتى وصلنا إلى سيارة الإسعاف. ظن الجميع أن جثة تلك الفتاة لن تنتفض لحياة إلا بعد ساعات بالمستشفى، لكن، وبمجرد أن أراح رجال الإسعاف المحفّة بأعتاب فجوة السيارة الخلفية، حتى اعتدلت من نومتي في إرهاق، فمالت المحفّة بين أيديهم وكدنا أن نسقط جميعًا.

ارتميت على كتف عاصم فأسندني بصدره وضمني كطفل اشتاق للبن أمه وصاح: فيروز! كيف تشعرين؟ حسنًا.. اهدأي يا حبيبتي.. تمددي ولسوف...

قاطعته وهو يحاول إجبار قامتي على الاستلقاء مرة أخرى، وهمست بأذنه في ألم أصاب قلبي قبل عظامي: بل غرفتي يا عاصم.. أعود إلى البيت أرجوك..

بـدا أن أحـد رجـال الإسـعاف قـد طالـت أذنـه عبـارتي، فاعـترض عـلى اقتراحـي وحـدّث عاصـم بصيغـة آمـرة عـلى اسـتحياء بـأني أحتـاج إلى الذهـاب الآن إلى المستشـفى. هـمّ أن يوافقـه، فدفنـت وجهـي بصـدر عاصـم وأغلقـت عيـني عـن ضـوء النهـار في سـترته، ورفعـت كفّـي بالرغـم مـن التعـب إلى وجهـه وقـد تعلقـت بـه. فسـمعت دقـات قلبـه تتسـارع، وشـعرت باسـتدارة رأسـه وكأنـه ينظـر إليّ. وسـاد الصمـت للحظـات أصبحـت دقـات قلبـه خلالهـا كطرقـات القـدر الثـلاث لـولا أنهـا كانـت متلاحقـة في سرعـة أكـبر، فعلمـت أنـه يتخـذ قـرارًا، أيطيـع رغبـتي رغـم عبثهـا، أم يرضـخ لأمـر المُسـعف رغـم توقـه لإرضـائي؟!

«من فضلك يا حبيبي»..

قلتهـا لأزاحـم بهـا منطـق المُسـعف داخـل رأسـه، فتميـل كفّـة عقلـه إلى كلمـاتي، كمـا اعتـاد أن يميـل قلبـه تجـاه مـن لـم تنطـق بكلمـة «حبيـبي» مـن قبـل. أحسسـت بـه وأشـفقت عليـه، وقـد شـعر للمـرة الأولى باستسـلامي إليـه دون غـيره، وربمـا أشـعلته لمسـة أصابعـي لقسـمات وجهـه، ليـس في شـهوة، وإنمـا في حنـين إلى التجـائي إليـه، فتنفّـس شـهيق القـرار وقـد أصبـت قلبـه بمـا تمـنى دومًـا. ونطـق في حـزم..

«بل تعود معي كما أرادت!»..

مـرت ثلاثـة أيـام لازمـت فيهـا فـراشي البـارد دون حـراك. لـم أنطـق بكلمـة واحــدة منــذ أن تعانقــت منحنيــات جســدي وخيــوط ملاءتــه رغــم محــاولات عاصـم المسـتميتة في إخـراج حـرف وإن كان سـاكنًا مـن بـين شـفتيّ الميتتـين.

أخـبرني بعـد يـأس بأنـه تعـارك في عملـه مـن أجـلي وقـد طلـب إجـازة غـير قابلـة للنقـاش لخدمـة قدمـيّ. لـم أراجعـه في قـراره، وإن علمـت حجـم الخطـر الـذي سـيحيط بمسـتقبله إن أصر عـلى ذلـك، ولـم أومـئ لـه حـتى بإيمـاءة امتنـان، بـل ظللـت كمـا كنـت، في صمـت ونصـف رقـود، كجلسـة الأمـوات في قبـور الـبرزخ، أنظـر للفـراغ دون طـرف، وأسـتمع لكلماتـه دون رد.

اعتـاد عاصـم خـلال تلـك الأيـام الثلاثـة عـلى صـدى صوتـه وحيـدًا بأرجـاء غرفتنـا دون أن أجيبـه ولـو بنظـرة، فاتخـذ مـن جلسـتي وطنًـا لـه، يفيـض عـليّ

بكلمـات العشـق والحنـين إلى فـيروز السـابقة، حـتى وإن كانـت تلـك السـابقة، سـليطة اللسـان متبلـدة المشـاعر، ولكـن كان ذلـك أهـون عليـه مـن رؤيتـه لي جسـدًا بـلا روح.

تحـوّل المسـكين إلى خـادمٍ بـلا أجـر مُنتظـر سـوى وعـود سـيده، ولـم تكـن وعـوده إلا نظـرة هادئـة يـضيء لهـا وجهـه. فاسـتأجر طباخًـا احـترف طبـخ أشـهى مـا تمنيـت مـن مأكـولات، وأصر عـلى أن يُطعمـني بنفسـه. فيربـت بإصبعيـه عـلى شـفتيّ ويـوارب إغلاقهمـا بانفـراج هـيّن رويـدًا بحنـان، ويُسـقط الحسـاء الـدافئ ببـئر جوفيـة بعـد أن ينفـث هـواءً بـاردًا بسـطح الملعقـة ليُهـدئ مـن غليـان مائهـا. بـل يجفـف رقبـتي وعظـام صـدري ممـا سـقط عليهـا في أدب، دون أن يسـمح لظفـرٍ أن يمتـد إلى نهـديّ. فـكان فقـط كمـن يحنـو عـلى طفـل أيتمتـه الأقـدار ولـم يرجـو منـه كلمـة شـكر أو ثنـاء.

مـرت الأيـام الثلاثـة، واعتـدت كمـا اعتـاد عـلى جلسـاته الهادئـة جـواري وهـو يقـصّ عـليّ مختلجـات نفسـه كمـا لـم يفعـل مـن قبـل، فتـارة يصـف مقـدار عشـقه واسـتعماره لقلبـه فيدمـع، وتـارة يقـص عـليّ بعضًـا مـن ذكريـات طفولتـه فيضحـك، وتـارةً يُمطـرني بالأسـئلة عمـا حـدث حقًـا بـين جـدران أفنـدار حـتى أصـير إلى تلـك الحالـة فييـأس مـن إسراري للحقيقـة ويشرد، وتـارةً يـصرخ بشـوقه إلى عـودتي فيريـح رأسـه عـلى فخـذيّ بعـد بـكاء أرهقـه.

اسـتمعت لـه لأول مـرة طـوال سـنوات زواجنـا، وكأنـه كان يتـوق إلى جلسـات بيننـا يُفيـض فيهـا كل منـا إلى الآخـر بمـا يجـول في نفسـه، فيبتسـم لـه الآخـر متنهـدًا بابتسـامة، بـل يربـت عـلى كتفـه في حـب وكأن العالـم قـد تطايـرت أطرافه ومـا بقيَ منـه سـوانا. ولكـن.. لـم أسـمح لـه ولـو لمرة واحـدة أن يفعـل، فصـارت بضـع دقائـق بيننـا حلمًـا أسـجنه وراء قضبـان صـدره، ولـم يهمـس قـط بآمـال إخراجـه.

حينهـا شـعرت وكأنـه يصـارع نفسـه بـين ثنـاءٍ عـلى أقـدار أتاحـت لـه تحقيـق حُلمـه مـع زوجتـه فأجلسـتها رغمًـا عنهـا تتلقـى كلماتـه دون اسـتنكار لهـا، ولعـنٍ لمجريـات الدنيـا ومـا آلـت إليـه، وقـد أعتمـت شـمس حبيبتـه عـن الوجـود فأحالتهـا تمثـالًا حجريًـا لا ينطـق لشـوق مسـتعر، ولا ينـدى جبـين جليسـه لثـورة

غضب..

استمعت إليه أخيرًا، بل شعرت للمرة الأولى بمقدار حبه، ولكن.. كان عليّ أن أصبح جثة هامدة لأدرك ذلك..

وقرب نهاية اليوم الثالث، كان عاصم قد استطال دهور غيبوبتي، فاضطر إلى أحد كبار الأطباء النفسيين، وأدخله عليّ في حزن أدبل وجهه، وقد نحف جسده في أيام قليلة من فرط حسرته على ما آلت إليه حالتي، وما أن كشف الطبيب على زوجة المفجوع الراحلة، حتى أخبر المسكين أنها تعاني من صدمة نفسية لكبت عاطفي جسيم، فتحجر وجه عاصم وكأنه علم السبب الحقيقي وراء تلك الصدمة.

انتصف الليل، وغاب القمر كما اعتاد أن يفعل بليالي أحزاني. كنت نائمة على جنب بتلك النظرة الفارغة إلى العدم. شعرت بأقدام عاصم وهي تقترب من خلف نومتي، جلس في بطء ولم يتوقع أن أستدير له إلا إذا أجبر جسدي الميت على ذلك بدفعة هادئة منه، ولكنه لم يفعل، وكأنه آثر ألا يواجهني وهو يلقي إليّ بكلماته هذه المرة.

زفر هواءً متقطعًا أحرق الغرفة من حولنا وقال: أ.. أعلم.. أني.. أني أخطأت حينما ظننت أنه يمكنني إجبارك على عشقي.. فلا يُجبر الخالي على عشقٍ حتى وإن اجتمعت عليه قلوب الخلق أجمعين.. ولكن.. ولكني.. ولكني أحببتك يا فيروز.. منذ أن رأيتُك، ربما لا تذكرين ذلك اليوم.. كـ.. كنتِ.. اااااه.. يدق قلبي كلما تذكرت.. كـــ. كنتِ تقفين في غضب وجرأة بمنتصف طريق الوزارة.. تعثر كعب حذائك الرفيع بفراغات غطاء المجاري.. (ضحك عاليًا).. عبث.. والله انه لعبث.. كـ. كنتِ مسجونة بثقب صغير.. تهتزين بمحاولات تحرير حذائك من ذلك الثقب.. ولم تفلحي.. فصرخت بوجه أمن الوزارة بسخطك على سياستها.. سياسة يا فيروز؟ غطاء بلاعة أصبح من السياسة؟ صِحتِ بهم.. كيف لكم أن تُهملوا صيانة شيء كهذا؟ تجمع المارة حولك وقد ظنوا أنها مظاهرة لأمر لم يعلموه.. ولم يهتموا، كـ. كنت حينها بين زملائى نراقب تلك المجنونة التي تتظاهر لثقب بغطاء أرضي تافه.. ولكن أيا منهم لم ير ما رأيت.. كنتِ أكثر من رأيت فتنة.. فتاة شقراء رفيعة الجسد للغاية حتى

يظـن الجاهـل أنهـا طفلـة بصـوت امـرأة رغـم طـول قامتهـا.. كنـتِ ترتديـن رداءً واسـعًا قصـيرًا.. تتمايـل أطرافـه في نعومـة مـع نسـيم الهـواء بسـحر خلـب لـبّي.. كنـتِ كعصفـور تمـرّد عـلى سكون الجِنـانِ.. واسـتقر بنعومتـه بـين أجسـاد غليظـة متعرقـة تزاحمـت فقـط لـكى تـراكِ، حـاول رجـال الامـن القبـض عليـكِ وقـد أثـرتِ جلبـة عظيمـة.. فمـن منعهـم؟! ألا تذكريـن؟ كنـت دومًـا بجانبـك، لـم أصدق نفـسي وأنـا أمـد يـدي إلى ذراعـك البضـة رغـم نحافتـك، أجذبـك منهـا لتهدئتـك بالداخـل.. أذكـر أني ارتعشـت لأول مـرة تلـك الرعشـة الـتي يتشـدق بهـا شـعراء الأغـانى، كنـت أشـعر لسـنوات قبـل لقائـك بتلـك الحالـة الغريبـة الـتي تغـزو سرائـر العاشـقين كلمـا رأى أي منهـم حبيبـه للمـرة الأولى، ولكـني لـم أدركهـا.. كنـت أعلـم أنهـا بمـكان مـا.. حـتى أني أوشـكت أن أراهـا وهـي تطـوف بينهـم بألـوان زاهيـة كأحزمـة قـوس قزحـي.. ولكـني لـم أدركهـا.. وعندهـا فقـط.. بمجـرد أن لمسـت أصابعـي ذراعـك.. شـعرت بتلـك الموجـة الناعمـة وهـي تعـبر حـواف جسـدي إلى الداخـل حـتى اسـتقرت بـين جدرانـه.. كان شـعورًا غريبًـا.. ربمـا كان دفئًـا بعـد بـرد الشـتاء.. أو صقيعًـا بعـد حـر القيـظ.. لـم أفهـم تحديـدًا.. ولكنـه كان شـعورًا غمـرني فأدمنتـه حـتى الليلـة.. وبالرغـم مـن ذلـك يـا حبيبـتي.. لـم يهـتز قلـبي بعـد.. ولكنـه سـقط بمجـرد أن فعلـتِ مـا لـم أتوقعـه. نظـرتِ إليّ في عـزة وغضـب وتلاقـت عينانـا.. وأقسـم لـك أني عشـقت هذيـن الحاجبـين المتعانقـين مـن عبوسـك، وحـررتِ قدمـك الأولى مـن الحـذاء المحبـوس.. وخلعـتِ الفـردة الأخـرى وأجلسـتها تحـت إبطـك.. ونهرتـني بالابتعـاد عـن طريقـك حـتى تمـرّي إلى الداخـل.. فعلـت وأنـا أكاد أمـوت مـن ضحـكات الحنـين إلى جنونـك.. وتبعتـك وانـتِ تتحركـين عاريـة القدمـين.. ومـن يومهـا.. لـم تجـرؤ فـيروز عـلى مفارقـة قلـبي.. ولـو لغضـب تجاههـا..

أحببتــك يــا فــيروز.. وتمنيــت أن تحبيــني.. أحببتــك حــتى وانــا أعلــم أنــك لا تفعلـين.. أحببتـك حـتى بعدمـا علمـت حقيقـة مشـاعرك تجاهـي، كانـت الكراهيـة ولـم تكـن يومًـا حبـا.. أحببتـك حـتى عندمـا كنـتِ تتعمديـن جـرح مشـاعري.. أحببتـك وأنـا أخطـط للانتقـام منـكِ.. وأحببتـك وأنـا أتراجـع عـن ذلـك المخطـط.. حـتى عندمـا قسـوت عليـكِ بذلـك الحفـل.. تمنيـت فقـط أن أرى الخـوف بعينيك..

مجرد انكسار مؤقت.. والذي يشبه بالعينين المنكسرين.. ضعف المحبين.. تخيّلي! كنت أحتال على وجهك في يأس مثير للشفقة.. حتى يبدو فقط وكأنه وجه ينظر إليّ في حب وليس خوفًا.. أترين إلام أوصلني جفاؤك؟ و... و.. ولكن.. ولكني أدركت اليوم ما أوصلك إليه عنادي.. ربما كان حبّي صادقًا.. ولكن لم يكن كافيًا.. فأجبرتك على ما لا تتحملين.. فأقبرتك.. نعم يا فيروز.. أعلم أني السبب الوحيد فيما أصابك.. ذلك الكبت العاطفي احتل قلبك بسببي.. و.. و.. ولكن.. لا تقلقي.. فربما أكون وحشًا أخرق.. ولكني.. (سمعت تهدج أنفاسه لبكاء مكتوم).. ولكني لازالت وحشًا أحب.. لازلت وحشًا بقلبٍ أكثر ضعفًا من وريقة شجر خريفية أهشمها بمخالبي..

سكت لثوان امتدت إلى دقيقة، ثم انفجر في بكاء أفزعني: سأرحل عنك يا فيروز للأبد! لن أردّك إلى عصمتي.. فربما إن فعلت.. تعودين إلى ما كنتِ عليه.. و.. والله.. هناؤك بدوني.. لهو أكرم عندي من شقائك وأنا إلى جوارك.. سأرحل يا فيروز وأميت قلبي ليحيا قلبك.. وربما لن تري وجهي مرة أخرى.. ولكن لا تحرميني من النظر إليك ولو من وراء جدار لا تدركينه.. فإن كنت لا تحبينني فلا بأس.. فقط دعيني أحبك!

رجّت كلماته قلبي، ولم يهتز جسدي لرعشة واحدة منها، لم أشفق عليه كعادتي، ولكن أشفقت على نفسي. فأين سأجد من يحبني لتلك الدرجة؟ الحقيقة كانت جلية ولم يعد هناك من مهرب لتجاهلها. صرفت عني كل من أحبّني حتى مات قلبي. كنت مخطئًا يا عاصم، لست من أماتني، ولكن فيروز المسكينة هي من فعلت.

هدأ بكاؤه تدريجيًا حتى سمعته وهو يتنفس في أنفاس هادئة وقد استسلم لحتمية الفراق، خصوصًا بعدما أعلن عنه والتزم به بوعدٍ لا نكوث له، فنهض في بطء، وسمعت صوت صرير الباب وهو يغطي على آهات رحيله الأبدي، فنطقت رغمًا عني ولم أجرؤ أن أنظر إليه وأنا أفعل:

«تمنيت أن أحبّك يا عاصم»..

احتبست أنفاسه لثوان فساد الصمت، أحسست وكأنه تفرّق بين سعادة من شفائي وقد عاد لساني إلى مهارة النطق مرة أخرى، وبين حزنه على ما

أفصحت عنه تلك المهارة لتوها. وبالرغم من ذلك، لم يعد مرة أخرى ليضمني بذراعيه في فرح، ولم يعاتبني على ما قلت في ألم.. فقط رحل بجملة أخيرة:

«وأنا أيضًا».

وهكذا اختفى عاصم من حياتي إلى غير عودة، وكذلك اختفى معه جزء آخر من فيروز التي اعتدت عليها. تساءلت وأنا في عزلتي الفراشية «من هي فيروز حقًّا.. وكيف أصبحت؟». كنت كشيطان رفض السجود لضعف قلبه، فانتصب شامخًا أمامه، يلعن بسخطٍ الأقدار التي تحاول إجباره على الانبطاح أسفل مشاعره. فلطالما وسوست لنفسي بوعود الخلود إن استمر إصراري على ذلك العهد بالجحود. جحود الصمت أمام أحزان أمي حتى قتلت نفسها، وجحود الخصام عن محبة أبي حتى شابت ربائعه، وجحود الاعتزال عن مشاعر عاصم حتى ضاقت دنياه وانقبضت.

جاء اليوم الرابع محملًا بغياب عاصم، فتركت عزلتي وصرت أتجول في طرقات القاهرة في غير هدى، كقط استأنس بصاحب مؤقت رحل عنه فجأة وصار يجول في أماكن لقائهم القريب بحثًا عن رائحته. كنت كذلك مع عزيز، فبدت تلك الساعات التي تحادثنا فيها كسنوات احتضن فيها كل منا الآخر، حتى لم يعد الرحيل عنها احتمالًا يمكن احتماله. اختزل عزيز كل معزة كانت في قلبي في كلماته فصار شوقي إليه أمرًا حتميًا للنجاة ليوم آخر. وأثار ذلك الشوق مشاعر أخرى كنت أُخفي ثناياها أسفل خطوات حذائي الفاخر، مشاعر الشوق لأبي رغم محاولات الجحود، ومشاعر العفو عن إيمان رغم ما كذبت من غضب.

كانت كلمات عزيز تدفع قدمي بين طرقات القاهرة، ونظراته كانت تصم أذني عن ضجيج روّادها، فاختفى زحام السيارات المعتاد بميادين وسط البلد، وتباطأت حركة زائريها من أحباء تلاقوا، وآخرين اختاروا مروري إلى جانبهم ليتعهدوا بالفراق، وغيرهم من أصدقاء صار كل منهم مؤنسًا للآخر، يواسي أحزاني، ويربت بإصبع التفاؤل على أحلامه. حتى وصلت إلى أسفل تمثال طلعت حرب. وقفت تحته كما اعتدت أن أجلس بعد منتصف

الليـل بمجـرد أن تتحطـم قدمـي مـن سـير لا هـدف لـه. وقفـت اليـوم وصرت قِبلـة لتداخـل سـيارات ذلـك الميـدان الدائـري، تنطلـق السـيارات حـولي مـن كل مـكان وإلى كل مـكان، وربمـا ترتفـع أبـواق بعضهـم اسـتنكارًا لاعـتراضي سـيرهم بتلـك النظـرة البلهـاء الصامتـة، فتنجـذب أعـين زوار الميـدان مـن عـلى الارصفـة إلى تلـك الشـابة الغريبـة الـتي تنظـر إلى تمثـال حجـري لا حيـاة فيـه، ولـم يعلمـوا سـبب انجذابهـا إليـه بعـد.

كنـت حجـرًا مثلـه.. أقلعـت عـن عـادة الانجـذاب إلى الأحيـاء.. فتكومـت إلى كل صنـم لا حيـاة فيـه مثـلي.

مـرت الدقائـق وربمـا السـاعات، حـتى غطـت سـحابة مألوفـة ضـوء الشـمس في اللحظـة الـتي أوقفـت فيهـا إحـدى السـيدات سـيارة أجـرة وخاطبتهـا بصـوت مرتفـع خطفـت حلمـة أذني بخطّـاف مؤلـم: مـسرح معاشـات يـا أسـطى؟

كانـت امـرأة طعنـت العقـد السـابع أو الثامـن ببقايـا عمرهـا، ترتـدي بلـوزة فاتحـة وجونلـة شـبه قصـيرة، ولـم تمنعهـا تلـك العقـود الطاعنـة مـن تصفيـف شـعرها الابيـض بكوافـير فاخـر ربمـا اعتـادت عليـه في شـبابها، فعلمـت مـن سـؤالها وهيئتهـا أنهـا مـن هـؤلاء النسـاء، مسـنّات الطبقـة الراقيـة الـتي اعتزلـت الوحـدة وصـارت تـتردد عـلى كل مـكان يُذكّرهـا بأيـام خصـلات رأسـها السـوداء.

لـم يكـن الأمـر صدفـة، فتلـك السـحابة صـارت دليـلًا تـذره الأقـدار فتاتًـا أمـام عيـني كلمـا أرادت مـني اتبـاع إنجيلهـا الجديـد، وتلـك الوجهـة الـتي قصدتهـا السـيدة المتصابيـة كانـت ربمـا إصحاحـه الجديـد.

تحركـت بـلا تـردد أو وعـي بمجـرد أن أشـار لهـا السـائق بالرفض، فذلـك المسرح مختـبئ داخـل عـدة طرقـات قديمـة ملتويـة بالجـزء المنـسي مـن حي وسـط البلد، فاغتصبـت بأصابعـي بـاب المقعـد المجـاور للسـائق ونطقـت بعبـارة واحـدة وأنـا أشـير إلى السـيدة: كل مـا أملـك هـو ثلاثمائـة جنيـه.. فلتأخذهـا وتذهـب..

تعجّـب الرجـل مـن عبـارتي فآثـر الصمـت بسـكوت الرضـا، بينمـا قفـزت السـبعينية في رشـاقة وسـعادة إلى المقعـد الخلفـي وهـي تربـت عـلى كتفـي في اقتضـاب: مـيرسي..

تحرّكت سيارة الأجرة في بطء السلحفاة بين الإشارات المرورية المزدحمة، فهبطت على رأسي أسئلة العجوز الرضيعة بشغف مرضى الوحدة الذين يتشبثون بأي فرصة للتحدث مع الغرباء، فسألتني إن كنت معتادة على الذهاب إلى ذلك المسرح، فلم أجبها. لم تهتم.. بل أكملت أسئلتها وجاورتها بعبارات إجابها بقرار شابة مثلي بارتياد مكان غاب عنه زوّاره، وبدا عليها أنها ارتاحت لعدم ردّي عليها، فلم تتمن المسكينة بعد وحدتها القريبة سوى أذن تستمع لمخزون حديثها المكتوم لسنوات دون أن تطلب ردًّا، وكنت لها خير معين في ذلك.

دلفنا إلى أولى الطرقات الضيقة، واهتز جسم السيارة للعديد من مطبات الأرض الطبيعية، فانتفضت أجسادنا تتراقص وكأننا أطفال بأتوبيس رحلة مدرسية، لم تكن متعتها قط في وجهة الذهاب، وإنما في اجتماعنا داخل أتوبيس واحد نتراقص ونغني في ألفة، غير أن غنائي والعجوز والسائق كان صمتًا، وسعادتنا كانت انفصال نظرات كل منا عن الآخر. كل منا يشرد بحياته قبل أن نجتمع بتلك الغرفة المعدنية.

عبرنا المنحنيات، وطفنا حول كعبة المباني القديمة، نتجول من رأس حارة إلى ذيل عطفة، حتى وصلنا أخيرًا إلى الباب الخشبي القديم. ربتت العجوز على كتف السائق في شغف الرضّع بأن يتوقف، فتوقف ولكن لم تنته انتفاضاتها بل استمر تراقصها حماسًا لاقتراب لقائها بما تحب. أعطيت السائق كل ما أملك، وظننت أنه سيقبض عليه فريسة تغنيه عن استكمال العمل لبقية النهار، ولكن سكت للحظات وهو يقلب عينه بيني وبين أوراق البنكنوت المهترئة، ثم ابتسمت عينه وجذب ورقة مائة واحدة وهو يتحدث في خجل:

«بل ذلك أكثر بكثير من حقي.. ولولا الحاجة لـ...».

قاطعته وقد تركت المبلغ بأكمله على المقعد وانصرفت دون رد. فخرج ملهوفًا خلفي في محاولة لإرجاعي عما فعلت، إلا أن استمرار سيري أعاق سيره فتوقف وناداني: حسنًا.. «مسامحة» يا ست؟

همست لنفسي وقد أصابت كلمته موضعًا آخر في نفسي: أتمنى أن أفعل..

اقتحمت الباب الخشبي، ومررت بالحوش الواسع للمبنى القديم. تجاهلت كومة القمامة التي استقرت أحشاءها بأركان المكان حتى غزت رائحتها أنفي دون هدنة، وصعدت السُلّم الخشبي المستند في عجز على جدار اسودت واجهته من شحوم تعرّق زوّاره، ووصلت إلى الباب الآخر، وما أن دخلته حتى رأيت العجوز من أعلى وهي تركض تجاه مقعدها قبل أن ينفلق الستار لعرض اعتدت على مشاهدته حتى حفظت أخطاءه.

جلست على مقعدي الذي كاد أن تُنقش حوافه باسمى، وانتظرت العرض المعتاد. ففتحت الستارة في ارتباك وظهر عجائز المعاش بملابس شخصياتهم الأنيقة، والتي لا تتناسب مع رداءة أدائهم. وكالعادة بدأوا في نسيان كلمات العرض فيضحكون، ويضحك الحضور القليل، ويتعثرون في خطواتهم العشوائية فيزدادون سحرًا آخر إلى جمال عرضهم البسيط.

اعتدت على ارتياد ذلك العرض منذ سنوات، واعتدت على الرحيل منه بمجرد ظهور ذلك المسن خلف الستارة المغلقة، وهو يستند عليها بضربات بروز متكرر على سطحها حتى يصل إلى منتصف المسرح. كنت أعرف هويته في كل مرة، وكنت أهرع للخروج قبل أن يظهر.. في كل مرة أيضًا.

ولكن تلك السحابة أمرتني اليوم بألا أفعل. فانتظرت انتهاء العرض، وأُغلقت الستارة، وعاد المسن إلى حركة جسده خلفها وضرباته على بطنها فبرزت كالعادة، فتسارعت أنفاسي وقد تصلّبت بمقعدي قبل أن يظهر أمام عيني.

ارتعشت الستارة لثقب ببطنها انفتح وظهر هو من خلفها. كان بعض الحضور يستعد للرحيل غير أن البعض الآخر لم يفعل وكأنهم كانوا ينتظرون ظهوره، فتعجبت.

كان كما عهدته، لولا أن طال الشيب رأسه فأشعلها بالكامل بياضًا، وتعرجت خطواته لعجز باغته قبل موعده، ربما حزنًا على فراق من يحب. خلع نظارته الصغيرة التي تكاد تتسع لثلث مقلتيه، ووقف مناجيًا الفراغ وفغر فاه لخطبة خلعت قلبي.

خـرج صوتـه ممتـدًا بعذوبـة وهـو يغـني كلمـات تشـاركناها سـويًا منـذ سـنوات. اعتـدل مـن تبقـى مـن الحضـور في اسـتمتاع، وأجلـس بعضهـم كفـه أسـفل ذقنـه وكأنـه يسـتعد للرحيـل إلى عالـم آخـر مـن الحنـين إلى شـباب لـن يعـود.

بـدأ الأغنيـة مـن منتصفهـا كمـا لـم يفعـل أحـد مـن قبـل وكأنـه كان يقصـد إمطـاري بكلماتهـا..

«دي نظرة شوق وحنية...».

كان يشـدو بهـا بصـوت جميـل اقشـعر بـدني لـه، ومـا أن تنتهـي حـتى يعيدهـا، ثـم يعيدهـا، ومـرة أخـرى يعيدهـا دون أن يصـل إلى جوابهـا.. ظـن الحضـور أنـه يحـاكي سـلطنة السـت في تكـرار العبـارات أمـلًا في إمتـاع مسـتمعيها أو حـتى اسـتعراض قدرتهـا الفـذة في القفـز بنفـس العبـارة بـين عـدد مـن الاحاسـيس المختلفـة. إلا أنـني كنـت أعلـم سـبب تكرارهـا الحقيقـي والـذي لـم يعلمـه الجميـع.

كان يخـشى مـن ضعفـه إن نطـق بالجـواب، فيتهـدّم جسـده بـكاءً. وعندهـا ارتفعـت بقامـتي في بـطء مـن آخـر مقعـد بالقاعـة. كانـت ذراعـي تحملـني بالـكاد وقـد اقتربـت مـن مجـال رؤيتـه. كان الحنـين يعتـصر أربطـة قلـبي، والحـزن يعصـف بأعقـاب قدمـي فيهزّهـا هـزًا.

لمـح بـروز قامـتي الـتي تنضـج تدريجيًـا في ارتفـاع، فتلعثـم في كلماتـه وارتعشـت يـده رعشـة رأيتهـا من تلـك المسـافة لِعظِـم انتفاضهـا، وأمسـك بنظارتـه المتدلية عـلى صـدره بحبلهـا القديـم. ورفعهـا إلى عينـه في ارتبـاك كعضـو عامـل في رابطـة باركينسـون وأجلسـها عـلى أنفـه. وعندهـا وضحـت الرؤيـة. فلمعـت عينـه بدمـع عـبر مقلتيـه دون اسـتئذان أو ترفّـق بحالـه ونطـق في ضعـف بالجـواب أخـيرًا..

«ودى دمعة بداريها»..

فصفّـق الحضـور المسـن بأكـثر مـا اسـتطاعت مفاصلهـم الكهلـة، وكأن روح السـت بُعثِـت إليهـم مـن جديـد، غـير أنـه لـم يلتفـت لضجيـج تحيّاتهـم، بـل راقبـني مشـدوهًا وأنهـار الدمـع تندفـع فتنحـت وجهـه وتثـير بركـة ناعمـة مـن قطراتهـا أسـفل قدمـه. لـم يطـرف ولـم يغلـق فـاه، ولـم ترحـم الرعشـة جسـده

الضعيـف فتتوقـف، بـل ظـل ينتفـض دون وعـي منـه، يميـل بجسـده ميـلًا غـير ملحـوظ للأمـام وكأنـه يشـتهي عناقًـا أفـرغ غيابـه حفـرة منهـارة الحـواف داخـل جسـده.

فتحرّكـت في بـطء وعـبرت بسـير جانـبيّ المقاعـد المجـاورة وعيـني معلّقـة بعينـه. خرجـت مـن الصـف واتجهـت بخطـوات شـابهت في تعرجهـا ارتعاشـة وقفتـه إلى السـلم نـزولًا. وفي كل مـرة كنـت أقـترب منـه وتعظـم صـورتي حجمًـا أمـام ناظريـه، كانـت عضـلات جفنيـه تـزداد اتسـاعًا حـتى أوشـك فكّهـا العلـوي أن يطـرق جبهتـه.

خطـوات بسـيطة أوصلتـني إليـه. وخطـوات قليلـة كانـت تفصـل بيـني وبينـه. وقفنـا متواجهـين في صمـت، أخاطبـه بدمـع النـدم، ويجيبـني بانتفاضـة الشـوق الصامـت. ومـرت لحظـات طـوال مـرت كشـهور تسـع اسـتغرقتها برحـم أمـي حـتى الفـراق، واسـتغرقها بعزلتـه لعـودتي إلى أحضانـه رحمًـا غـير أنثـوي.

وفي لحظـة، انقطـع التجمـد، وهـرع بقذيفـة مـن شـوق تجاهـي فسـقط جسـده الضعيـف مـن فـرط الاندفـاع، واسـتقر منبطحًـا أمـام قدمـي، فتعلّـق برجـلي في هيسـتيرية باكيـة. لـم أتحمـل ذلّـه، فارتميـت عليـه في فـزع! وأحطـت ظهـره المقـوّس بذراعـي وصـدري واستسـلمت لبـكاءٍ أنهـض الجميـع مـن مقاعدهـم.

كان البـكاء هـو اللغـة الأم لألسـنتنا. ومـرور أصابعنـا بهيسـترية عـلى تعرجـات جسـدينا كان محفـزًا أكـثر للنحيـب. فأصابعـه لا تصـدّق أنهـا تضـم جسـد ابنتـه. وأصابعـي لا تصـدق ضمّهـا لشـعر رأسـه، وعندهـا نطقـت..

«أبي».

لـم يجيبـني، بـل أغمـض عينـه بأحضـاني واسـتقر جسـده مـن البـكاء، وكأنـه اسـتراح أخـيرًا إلى اكتمـال نقصـه. فتجمـع حولنـا ممثلـو العـرض المسـنون وهـم يسـتندون عـلى عصاهـم الخشـبية، يراقبـون مشـهدًا لـم يتسـن لهـم أن يجسـدوه قبـلًا.

أنهـض بعـض الممثلـين جسـد أبي فاستسـلمت لهـم ونهضـت معـه، وجسـدانا متلاحمـان في فوبيـا الفـراق ولـو حـتى لثـوان، وتحركنـا معهـم كشـخص واحـد

إلى خلـف الستار. كان يتحـرك معهـم مندفعًـا دون مقاومـة إلى الممـر الضيـق بالكواليـس، حـتى وصلنـا إلى غرفـة الألـوان.

كانـت غرفـة ضيقـة مكتظـة بملابـس معلقـة باصطفـاف عـلى جانبيها، تتوسـطها ماكينـة خياطـة قديمـة بمقعـد حديـدي، فعلمـت أنهـا غرفـة ملابـس المسرح، وعلمـت مـن إجـلاس الممثلـين لأبي عـلى ذلـك المقعـد أن ذلـك كان عملـه طـوال السنوات السـابقة. خيّـاط بمسرح معاشـات.

نظـر إليّ أحـد الشـيوخ وهـو يراقـب تعلّـق أبي الصامـت والنائـم بحضـني، فأومـأت لـه في بـطء ودموعـي تشـوه وجنـتي وهمسـت لـه «أنـا ابنتـه»، فتهللـت أسـاريره بينمـا ضربـت إحـدى السـيدات فمهـا في فجعـة ونظـرت إليـه ثـم ابتسـمت وقـد فاضـت عينهـا بدمعـة شـفقة، وكأنهـا كانـت عـلى علـم بأحزانـه، ولـم تصـدّق هـي الأخـرى أن اللحظـة الـتي انتظرهـا لسـنوات قـد جـاءت.

فتحـرّك الشـيخ وفـرد ذراعيـه في الهـواء أمـام زملائـه تجـاه الخـروج، ففعلـوا وأغلقـوا البـاب في هـدوء، فصرنـا وحيديـن برحـمِ تـلالٍ مـن الألـوان الزاهيـة.

تسـيّد الصمـت جلسـتنا فلـم نسـمع سـوى أصـوات لحنـين بأنفـاس هادئـة، وهمـس أبي دون أن يخـرج مـن أحضـاني: كنـت أغـني كل ليلـة مـن أجلـك..

همسـت لـه: كنـت أتمـنى أن أراك.. لـم أتـرك عرضًـا واحـدًا لتلـك الفرقـة التافهـة إلا وحضرتـه مـن أجـل رؤيتـك.. ولكـن.. في كل مـرة.. كان يغلبـني الحـزن فأهـرع قبـل إشراقـك..

مسح دمعه: هُنت عليكِ؟

غـاب الـرد عـن لساني فأكمـل: بـل هُنـتِ عـليّ يـا ابنـتي.. يـوم غلّبـت حـبّي لهـا عـلى ااا..

قاطعته بكلمة خرجت بالكاد: لا ذنب في حب يا أبي..

اعتدل وقد بلّت دموعه لحيته البيضاء، ونظر إليّ في ضعف: أغفرتِ لها؟

تاهـت عيـني في أرجـاء الغرفـة الزاهيـة: لا.. بــ.. اا.. لــ.. لـم أكـن غاضبـة عليهـا قـط.. بـل كنـت أنـت مهبـط لعنـاتي.. كنـت كل شيء لي يـا أبي.. كنـت الأرض ومـا عليهـا إلهًـا.. ومـا تمنيـت أن يكـون أسـفلها بالقـبر عندمـا أمـوت مؤنسًـا بنعيـم لا

نهاية لـه، أحببتـك حـتى الجنـون.. فظننـت أنـك ملـكي.. ظننـت أنـك فـيروز.. وأن مـن يطعنـك بخيانـة.. ربمـا يتعمـد إزهـاق روحـي.. كنـت غاضبـة منـك انـت يـا أبي..

ابتسم في هدوء: بل كنتِ غاضبة من أجلي..

- بـل كان غضـبي لسـبب آخـر علمتـه مؤخـرًا.. وهـو أني لـم أفهـم حقًـا.. كيـف؟ كيـف تخونـك زوجتـك.. وتنحـر قلبـك بـدم بـارد.. وتسـامحها.. كنـت كالطفـل الـذي يثـور مـن أحاديـث الناضجـين الـتي لا يفهمهـا ويـصرخ.. مـاذا تقصـدون بذلـك؟ مـا الـذي ترونـه جميعًـا ولا أراه.. كيـف تسـامح؟

- قـادك السـؤال الخطـأ إلى الكراهيـة يـا ابنـتي.. فلـم يكـن يومًـا «كيـف تخونـك زوجتـك؟» بـل كان «كيـف تخونـك حبيبتـك؟».

- إن كانت تحبك ما خانتك و...

- يكفـي أني أحببتهـا.. ولا خيانـة خُلقـت مـن إنـس.. أو دبّـرت مـن شـيطان.. قـد تُذهِـب ذلـك الحـب..

راقبته وكأني أراه لأول مرة: كيف ذلك؟

تنهـد في حنـين وشرد بعينـه بعيـدًا: إن قلـبي لينفطـر عليـكِ يـا ابنـتي.. فمـا جـواب سـؤالك إلا مأسـاة لـم أتمناهـا لـك يومـا، لا يعـني الأمـر غـير أنـك لـم تقابـلي في حياتـك مـن تحبـين.. لـم يخفـق قلبـك لمـن هـو أعـز عليـكِ من نفسـك، نعـم يـا ابنـتي.. لـو وجـدتِ ذلـك الحبيـب لـرأى ذلـك الطفـل الغاضـب مـا يـراه الآخـرون واحتجـب عـن عينيـه، فالحـب دونًـا عـن كل الـرؤى لا يـرى بالعـين.. بـل بالقلـب. لـم تكـن أمـك زوجـة اعتـدت عـلى بقائهـا بحكـم العـشرة.. كمـا يصـف الخرفـون حبهـم لزوجاتهـم خطـأً، بـل كانـت روحًـا خلقـت مـن أجـلي وخلقـت مـن أجلهـا.. أتعلمـين تلـك النفخـة الـتي يبثهـا اللـه مـن روحـه في جسـد خلقـه مـن بـني آدم؟ كنـت أنـا وهـي نفخـة واحـدة انقسـمت عـلى جسـدينا.. عـاش كل منـا بنصفـه وحيـدًا متشـوقًا إلى نصفـه الآخـر.. ومـا أن التقينـا، ومـا أن التحـم جسـدانا حـتى التـأم الجُـرح.. وصـار النصفـان روحًـا واحـدة.. وصـل كل منـا إلى الكمـال.. كمـال الـروح والجسـد فتعلّقـت بهـا دون غيرهـا.. وأملـت أن تتعلـق بي

دون غيري، ولكن.. تلك هي الدنيا يا حبيبتي.. دار شقاء ناقصة لا هناء لكمال فيها.. تهت في سُكر الدنيا.. ونسيت خمر حبيبتي.. فأفرغت قلبها.. وما كانت خيانتها إلا نزيفًا لجرح تسببت فيه بحمقي، لقد خنت روحها يا فيروز.. قبل أن تخنّي بجسدها..

تهاوت مقاومتي لكلماته، بل شعرت بالصغر أمام ذلك الفيض من المشاعر، وحزنت على ما قال فلقد كان محقًّا، فلم أقابل بعد كمالة روحي، فصرت ناقصة الأطراف، ظننت حكاك شوقها إلى النصف الآخر ليربت عليه نارًا لم تخمدها إلا كراهيتي لمن حولي. ولكن ذلك الشعور الذي حدّثني به أبي لم يكن جديدًا، بل أصاب ما شعرت به مع عزيز. شعرت في تلك الساعات التي خالطت وجوده فيها بأنه يكمل شيئًا ناقصًا بفيروز، هل أحببت عزيز؟ هل يصح الأمر حقا؟ هل استقر حبّه بقلبي فقط خلال تلك الساعات القليلة؟ كيف؟ وهل هذا هو الحب حقًّا؟ ما هو الحب أيتها الأقدار؟ أطلعينا على أسرارك.. فربما حرّفت أبيات الشعراء مسامعنا عن مقصده، واختزلته في شوق تافه وولع ناري، وشهوة لجسد سيبلى بعد سنوات، وكان معناه شيئًا آخر، لم نعلمه، فما أن جاءنا.. أنكرنا دينه، وسعينا بجهل وراء ما ألفينا عليه آباءنا.

التفت إليه بحيرتي بما أشعر تجاه عزيز: وربما نجد ذلك التوأم الروحي.. ولكن.. هل يعني ذلك أنه هو الحبيب؟

ربت على كتفي: لا يُسأل الحبيب عما يشعر.. فقط ينساق يا ابنتي.. بل ينجرف من أعلى ذلك التل ويتهاوى باستسلام.. فيهوى حبيبه.. ولا يرجو إنقاذًا، هكذا كان الأمر مع أمك.. هويتها.. فــ...

قاطعته: فسامحتها..

أومأ في نفي هادئ ناسب كبر سنه وربما عمق حنينه: كلا.. بل رأيت قبحها جمالا..

تمنيت أن أصدّقه: حتى الخيانة؟! لا معنى لما تقول غير أنك مريض يا أبي.. تبالغ في مسامحتك حتى أحببت خيانتها؟!

أغلـق عينـه في ألـم: اتهـام قـاسٍ يـا ابنـتي.. لسـت ملعونـا ولا ديوثًـا لأقبـل بذلـك كمـا ظننـتِ طـوال تلـك السـنوات، ولكـن.. بـل أقسـم لـكِ أني تألمـت حقًـا.. يبـدو أنـك لا تفهمـين حـتى الآن.. طعنتـني خيانتهـا يـا فـيروز بخنجـر تَلِـم.. حـتى أزهقـت روحـي.. ولكـن.. و.. ولكـن.. (تنهـد في يـأس) لا أعـرف كيـف أصـف لـك الأمـر، مهمـا كان جرمهـا.. مهمـا كان مـا فعلتـه مشـينًا.. عجـزت عـن كراهيتهـا.. فقـط أحببتهـا.. فـلا أمـل لخيانـة أن تحـول بجدارهـا الأسـود المقـزز بيـني وبينهـا..

هـدأ قلـبي واسـتجاب لمـا يقـول، تخليـت عـن عنـادي الـذي رافقـني كجـني مـسّ جوارحـي طـوال حيـاتي. وكيـف أتعجـب ممـا قـال أبي وقـد خالطـت عاصـم لسـنوات كان يتألـم فيهـا لعشـق غـير مـشروط كمـا فعـل ذلـك العجـوز البائـس، وكنـت أخـون حبـه لأيـام في السـاعة الواحـدة حـتى وإن لـم تكـن خيانـة بفـراش، بـل كانـت أكـثر قسـوة، ومـع ذلـك كان يبـكي لفـراقي.

تسـاءلت حـتى أدمـى السـؤال بحوافـره صـدري «تـرى يـا فـيروز.. مـتى سـتعانين تلـك المعانـاة الشريفـة؟!».

كنـت قـد شردت للحظـات، فانتبـه أبي وابتسـم: كنـت أشـتاق إلى طيـف لخيالـك يـا ابنـتي.. وهـا قـد عـدتِ إليّ بشـحم ولحـم.. واللـه.. لقـد بعثـت مـن جديـد بعـد مـوت..

نظـرت لـه في تعـب أفتـك بجسـدي حـتى أوشـك أن يـذرف لي الدمـع: بـل لا تتوسـم فيّ الخـير يـا أبي.. فأنـا لـم أعـد أعلـم إلام صرت حقًـا.. لـم أعـد أعلـم إن سـامحتك.. أم استسـلمت لشـوق إليـك؟ هـل كنـت امـرأة بالغـة القـوة في السـابق لأكبـح حنيـني إليـك؟ أم شـيطانًا تلـذذ في عذابـك؟ هـل عـدت إليـك حقًـا الآن؟ أم أنهـا مجـرد نوبـة مؤقتـة مـن الضعـف سـأندم عليهـا لاحقًـا.. وأول مـا سـيطال قسـوة ندمـي.. سـيكون أنـت! أنـا تائهـة يـا أبي.. تائهـة حقًـا.. وأخـشى أن أجـرح قلبـك مـرة أخـرى دون أن أشـعر.. بـل أخـشى عـلى نفـسي مـن نفـسي.. مـن أنـا حقًـا يـا أبي؟ مـن أنـا؟!

أراح كفيـه عـلى وجنـتيّ وابتسـم في حنـان: أنـتِ مجـرد نصـف روح يـا حبيبـتي.. لـم يجـد بعـد نصفـه الآخـر.. ابحـثي عنـه.. فربمـا.......

قاطعته بصمت وقد ملت برقبتي بين كفيه، وناشدت نومًا غائبًا بين أحضانه وتلك الفكرة تعصف برأسي حتى أطاحت بما تبقى به من إدراك.. «توأم روحي الذي ساقته الأقدار إليّ بأكثر الطرق غرابة ربما يكون ميتًا الآن يا أبي»..

لا أذكر كيف رحلت عن المسرح، ولا كيف فعلت ذلك. فقط فتحت عيني فوجدتني وقد عدت إلى سيري البطيء في طرقات القاهرة على غير هدى. عمّاذا أبحث؟ وإلى أين ستقودني قدماي؟ وهل سامحت أبي حقًا؟ هل طويت صفحته الأخيرة؟ وإن فعلت.. هل طويتها على بداية حكاية جديدة بيني وبينه؟ أم أغلقت صفحاتي بالكامل إلى الأبد.. ووصلت إلى ذلك الغلاف الجلدي من قصتي البائسة؟

هل أنتظر الموت؟ أم أهرب من الحياة؟ أم ينشد شيطاني العذاب بينهما؟

تعثر تيار أفكاري بصوت محمولي فتوقف. رأيت اسم عمرو على الشاشة. زفرت في تعب. لم أكن مستعدة لصفحة أخرى لأطويها. بل توقفي أيتها الأقدار عن ذلك.. فلا معنى لما تفعلين سوى إعلامي بأن نهايتي قد اقتربت، وعليّ أن أصفّي حساباتي مع الجميع قبل رحيلي القريب.

كيف لي أن أقاوم رغبتها؟ فأجبت على عمرو دون اهتمام وقد تقطع صوتي من الإرهاق: ماذا تريد أنت أيضًا يا عمرو؟

قفز إلى أذني في لهفة: فيروز! أين أنتِ؟ بحثت وإيمان عنك منذ الصباح في كل مكان ولا رد لك على محمولك..

تنهدت وقد تعرجت في خطوتي كمخمور سقاه الدهر ما لا يتحمل من خمره: ماذا تريد؟ فقط عبارة سماح؟ حسنًا.. سامحتكما.. أهذا ما يريده الجميع مني؟ أن أتحول إلى ملاكٍ يربت على ذنوب أنفسكم بسماح غير مشروط؟ حسنًا.. ها قد سامحت.. اتركوني وشأني.. أرجوكم! أرجوكم!

قاطعني في قوة: بل استمعي إليّ بعيدًا عن تلك الهراءات.. فرغلي مات يا فيروز!

ضرب الخبر رأسي وهبط بجسده الثقيل على رأسي، فتهدجت جبهتي حتى

أغلقت عينيّ: ماذا؟

أكمل في لهفة: وصدر أمر من النيابة بالقبض عليكِ.. عليكِ أن تختبئي.. سوف توفر إيمان مكانًا لـ...

أغلق إصبعى الخط في وجهه دون إرادة مني. شعرت بثقل جسدي وهو يتهاوى أرضًا فسقط في صدمة. قتلتك يا فرغلي؟ قتلتك؟ زاد حمل رأسي فانعقد حاجباي في تعجب مما يحدث. أهذا هو الأمر إذًا؟ خُلقت لأقتل؟ ومن؟ كل من أحببت؟ لماذا؟ لماذا؟ فليجبني أحد!

فُجِعت أمي لغضبي منها فماتت. وأنا أذوق ضعف ما ذاقت أطنانًا. لماذا يتأخر الموت؟ أيظن أنه راحة لا أستحقها؟ فرغلي؟ أنا قتلت فرغلي؟

تجمع المارة حول سقوطي وأنا أنظر للفراغ في بلاهة، ورجلاي معوجّتان كل منهما في اتجاه عكس ركبتها، وكأني سقطت من السماء فدقت ضربة الأرض عظامي وأتلفتها. مالت عليّ امرأة وسألتني «أأنتِ بخير؟». اقترب مني شاب ملائكي «انهضي معي!». لم أجب أيًّا منهما ولم أرد نظرات القلق إلى غيرهما من المحيطين باطمئنان. بل غبت في عالم آخر. وتوافدت الذكريات تطحن رأسي إلى مسحوقٍ أحال غباره بين عيني وبين وقفتهم.

نهضت دون مقدمات، وترنحت في سير بطيء رفضت إسناد المارة له. مشيت ومشيت والذكريات تصفع وجهي. «ضحكاتي وفرغلي، وكوبه الصغير الذي كنا نتشاركه. ضربتي له ودماؤه على يديّ. ضمّة أمي وضجيج ضحكاتها، وضمة القبر وصمت رحيلها. حب عاصم وبكاؤه، عجزي عن حبّه وأنين ضميري في الليل. ربتة على كتفي من كف إيمان. وصورة ضاحكة شاركني فيها عمرو. حتى أبي وغيابه، وحضنه وعودته».

توقف سيل الذكريات وقتما توقفت قدماي أمام تلك الفجوة من الحائط. ساقتني خطواتي إلى أفندار. كيف وصلت إليه؟ لا أعلم، ولم أعد أهتم. فقط كان يقف أمامي وكأنه يشير إليّ بذكرى أخرى. ذكرى ربما خُلقت لترحم أغصان قلبي من عصف الألم البغيض. إنها ذكرى عزيز.

أكان يقصد أفندار شيئًا بتلك النظرة التي ارتسمت على جدرانه؟ أيطلب

مـني الانتحـار كمـا فعلـت جلنـار؟ أم يعـيّرني بغيـاب عزيـز ويـصرخ في وجهـي بأنـه إن مـات فـلا حيـاة لي بعـده؟ أكان يقصـد ذلـك؟

أجـل. أوحـى لي أفنـدار، فمـا يطـاق رد وحيـه. رأيـت نفـسي أنبـش قـبر عزيـز وأسـتلقي إلى جـواره. سـيلتئم جـرح روحينـا يـا عزيـز. سـأموت إلى جـوارك لأغلـق تلـك الدائـرة المفرغـة.

أكان جنونـًا؟ ربمـا، ولكـن.. ألـم يكـن كل مـا مـررت بـه جنونـًا عانيـت فقـط لأني لـم أستسـلم لـه؟ حسـنًا.. قـد انتهـت المعانـاة. سأستسـلم يـا أفنـدار لجنونـك!

عـادت بعـض الحيويـة إلى جسـدي، فذهبـت إلى آخـر مـا أراد مـني عمـرو أن أذهـب إليـه. وزارة الداخليـة.

اخترقـت البوابـة فأوقفـني رجـل الأمـن ولـم يظـن أني مطلوبـة للسـجن، أو بالأحـرى لـم يتوقـع أن تذهـب إحـدى المتهمـات إلى عقـر داره دون خـوف، فهمسـت لـه: أريـد مقابلـة سـيادة اللـواء حاتـم عزيـز..

سألني: هل ينتظرك لميعاد؟

أجبته دون تردد: لميعاد أخلفته منذ سنوات..

تعجـب الرجـل مـن عبـارتي، واتصـل بمكتـب حاتـم ليتأكـد. صمـت قليـلًا ثـم أومـأ للسـماعة في طاعـة: حسـنًا.. تفضـلي معاليـكِ!

علمـت أن حاتـم أخـبره بحقيقـتي السـابقة بـأني زوجـة عاصـم بـك، وربمـا لعنـني في سرّه وهـو يقـول: مـا الـذي أعـاد تلـك السـاقطة إلى مكتبـه مـرة أخـرى بعـد كل مـا دار بيننـا المـرة السـابقة؟

طرقـت البـاب ودخلـت. فنهـض في احترامـه المصطنـع وابتسـامته الزائفـة. وقبـل أن يتحـرّك مـن خلـف مكتبـه، واجهتـه في بلاهـة وعـدم اهتمـام:

«أخرج سلاحك يا سيادة اللواء!».

عقـد حاجبيـه في تعجـب، وراقـب هيئـتي الرثـة ونظـراتي الضيقـة مـن ثقـل جبهـتي عـلى حاجـبيّ: مـاذا؟!

تقدمـت منـه وجلسـت في تعـب واستسـلام: أنـا عـلى وشـك تهديـدك بمـا

خشيته المرة السابقة.. فأخرج سلاحك ولن أهتم..

تحجر وجهه وارتعش بين ابتسامة جهل عما إذا كنت محقة أم لا وبين تجهم من خوف إن كنت أقصد ما أقول حقًا.

همّ بمداهنتي وطرد الفكرة من رأسي، فقاطعته: لا يعلم أحد أنك ابن الساقطة بركة.. أليس كذلك؟

انفجر وجهه بالدم واندفع نحوي وجذب مجمع ملابسي في قوة وأنهضني أمام عينه. كنت كدمية بين يديه لا حياة فيها. فلم أقاوم ولم أطرف لفزع، فصرخ بوجهي: ماذا تقولين أيتها الساقطة؟

أجبته وأنا بين يديه في زهد: لابد أن يكون أبوك قد أخبرك بالحقيقة كما أخبرني.. ولهذا اتهمته بالخرف وأخرجته من حياتك.. نعم يا سيادة اللواء.. أعلم أنه كان حيًا لوقت قريب.. وأن موته السابق لم يكن إلا تزوير في أوراق رسمية..

قذفني على المقعد في غضب: عشر ثوانٍ وتختفين من أمام ناظريّ، وإلا أقسم لك أنك لن تخرجي حية!

لم أعتدل من سقوطي على المقعد بتكوّمي عليه، وكذبت عليه: أملك الدليل الذي يثبت أنك لم تكن ابنًا لليلى الحداد.. وإنما ابن ساقطة امتهنت الدعارة ببيوت الفحش..

صدّقني، فلم لا يفعل وقد كنت صادقة في كل شيء حتى الآن عدا ذلك الدليل، فتحرك في ثورة كليث محبوس داخل قضبان مشتعلة. كان يتوق لدق عنقي ولا يستطيع، فأكملت: سيلطخك عار إلى الأبد.. ولكن.. لن يحدث ذلك إن أطعتني!

هجم عليّ وحاصر جلستي بجسده واشتعل بوجهي: أتبتزينني أيتها العاهرة؟! لا والله.. بل تُقتلين ولا أهتم لزوجك!

غالبت إغماءة التعب ونطقت في بطء: بل أرحل عن طريقك للأبد.. فقط إن أخبرتني بمكان قبر أبيك..

اعتدل في تعجب: ماذا؟

أومأت له في موافقة: أجل.. هذا هو الثمن.. فقط أريد مكان قبره..

زفـر هـواءً قصـيرًا لضحكـة سـاخرة في غـير تصديـق رغـم اسـتمرار عبـوس وجهـه: أنـتِ مجنونـة!

نهضـت بصعوبـة واسـتندت عـلى المكتـب حـتى كـدت أسـقط: بالفعـل أنـا كذلـك! فقـط أرح تلـك المجنونـة.. وأقسـم لـك.. أنـك لـن تراهـا بعـد الآن.. فقـط أريـد رؤيتـه حـتى ولـو كان تحـت الأرض!

تجهـم وقـد هـدأت ثورتـه. راقبـني في ريبـة. «هـل تقصـد حقًـا تلـك المخبولـة مـا تقـول؟! ألهـذه الدرجـة سـيطرت تلـك الأسـطورة عـلى رأسـها؟».

خرجـت أفـكاره نطقًـا: ألا زلـتِ تظنـين حقًـا أنـك فـيروز الـتي ادعـى رؤيتهـا؟! لـم أظـن أنـكِ مسـكينة إلى تلـك الدرجـة..

أغلقت عيني في تعب: بل أنا كذلك.. أرجوك.. أنا أحتاج إليه..

اتجـه إلى مقعـده في بـطء شـاردًا، جلـس وظهـر عـلى وجهـه أنـه أدرك شـيئًا كان غائبًـا عنـه لسـنوات: لـم يكـن خرفًـا إذًا..

اقتربت منه: ماذا تقصد؟

نظـر إليّ متعجبًـا ممـا يقـول وكأنـه كان يسـترجع ذكريـات قديمـة: لـم يكـن عـلى لسـانه سـوى اسـم فـيروز.. حـتى بعدمـا أصابـه الـ ألزهايمـر.. نسـيني.. ونـسي كل شيء.. عـدا.. عـدا... ااا.. فـيروز.. أخـبرني أنهـا سـتأتي للبحـث عنـه في يـوم مـا.. لا! هـذا جنـون..

علمـت أن الأمـر حقًـا قـد اكتمـل، فهـا هـو يـوصي قبـل وفاتـه بـأن أعـود إليـه، ربمـا فهـم مـا فهمتـه رغـم جنونـه وعـدم منطقيتـه. «لـن يكتمـل الأمـر إلا باجتماعنـا حـتى وإن كنـا جثتـين مهترئتـين»..

انفجـرت الرغبـة بقلـبي فانتفـض جسـدي وارتميـت عـلى المكتـب وضربتـه في قـوة صرعـت حاتـم..

«أين قبره؟!».

رفع رأسه إليّ في تعجب: ومن قال إنه مات؟!

***

تحرّكت معه داخل تلك القاعة الواسعة. كانت خاوية من الحياة رغم امتلائها بالعديد من أراذل الكهولة. فمنهم من كان يسير كالأطفال بمشّاءة، وآخر يجلس وحيدًا بأحد الأركان يرفض دواء ممرضة كانت تنهره في غلظة. وآخرون يجتمعون حول طاولة يلعب اثنان منهم الطاولة ومن حولهم يصيحون في حماس. وأخرى تجلس على مقعد متحرك تغزل بنطالًا صغيرًا من خيوط صوفية في شرود ويأس.

وبعيدًا، أسفل النافذة، كانت الأريكة. كان هناك ذلك الكهل الذي يجلس وحيدًا بأحد ركنيها وقد أعطى ظهره للجميع مواجهًا الحائط. رأيته من خلف فدق قلبي. كانت قامته منحنية في استسلام، وعنقه متدليًا على كتفه. ارتعشت عيني وتعالت أنفاسي فلم أعد أسيطر عليها. مال عليّ حاتم هامسًا: لا أعلم أين وضعوه.. سأبحث عنه..

أوقفته بيدٍ وأنا أحدق بذلك الركن البعيد: بل هذا هو!

نظر إلى الجالس، وتأمل ظهره: من؟ هذا؟! الرجل لم يستدر حتى لتعلمي إن كان هـ...

قاطعته وقد أشرق وجهي بابتسامة أدفأتني: بل هو..

تركت يده وتقدمت في خطوات بطيئة تجاه ذلك الركن الذي تباعد عن خطواتي بُعد أول الكون وآخره. سمعت كلمات الطبيب اللهثة وهو يحدّث حاتم ورائي..

«سيادة اللواء.. حمدًا لله أنك جئت.. اتصلت بك كثيرًا.. أبوك لن ينجو لأيام أخرى.. لقد تعطلت كامل أجهزته.. فلتودّعه وداعًا أخيرًا»..

لم أهتم بما قال الطبيب، فقط التفتُّ في حالة من الانبهار البلهاء وخاطبته أخيرًا: اتركني معه لساعة واحدة.. ثم اقبض عليّ!

تعجب وتقدم مني: أقبض عليكِ.. لمَ؟!

ابتسمت له في دموع وأنا أشتاق للركض إلى أبيه: فلتسأل زملاءك!

وتركته غريق الحيرة. وتقدمت بخطوات خفيفة تجاه حبيبي. كنت أشعر وكأن الأرض اختفت من تحت قدمي. كنت أُحمل في الهواء إليه. عبرت جلسات

المسنين فتحولت رقابهم إلى خطواتي متعجبين. تسرّبت المشاعر الغليظة من جسدي رويدًا.. فسقطت الكراهية.. وخطوت على الحقد.. وأزحت الخوف بباطن قدمي. وصلت إليه والمشاعر النقية تتدفق داخل شراييني في هدوء وانسياب. كان الدم باردًا لطيفًا كالحليب الأبيض. ونسمات الهواء تقبّل وجهي وذراعي كلما اخترقتها. كنت روحًا تحررت من جسد متعرق، ورفرفت فوق سماء عزيز.

استدرت ووقفت أمامه. كان عجوزًا أطمس العجز ملامحه فلم يُبق منها سوى تجاعيد ناعمة، وعين مغلقة وشفتين معوجتين. كان مستسلمًا، وقد غطى جسده بملاءة بيضاء كوجهه.

توقف الزمن، واختفى كل من في الغرفة فصارت خاوية بيضاء الجدران. مددت يدي في هدوء ودمعي ينهمر، وربت على طاقية رأسه الصغيرة وقد لمع بياض شعره ذهبًا تحت ما تبقى من ضوء الشمس خلف تلك السحابة التي اتبعتني.

فتح عينه في بطء. واهتزت أهدابه البيضاء في تعب. فهبطت على قدميّ أمام جلسته باسمة.

تحجر وجهه بغير تصديق وبسط حاجبيه ولمعت عينه بدمع خالط دمعي: فـ.. فيروز!

ابتسمت له: عـ.. عزيز.

أغلق عينه فسقطت دموعه وتنفس في ارتياح بدا وكأنه تأخر كثيرًا..

اقتربت منه في بطء، وصعدت إلى الأريكة. خلعت حذائي وتركته فاصطدم بالأرض دون صوت. وجلست إلى جوار حبيبي في هدوء.

سحبت طرف ملاءته وتغطيت بها. أملت رأسي على كتفه. فأمال رأسه فوق رأسي.

تغطينا معًا بغطاء واحد وقد التحمت روحانا. وصرنا كما قبل الأزل.

نفخة إلهية بروح تعلقت بالهواء قبل أن تنقسم..

شكر وتقدير

إلى الأخ والصديق الكاتب/ مصطفى زايد، على دعمه الفني والإنساني طوال رحلة كتابة هذا العمل.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing